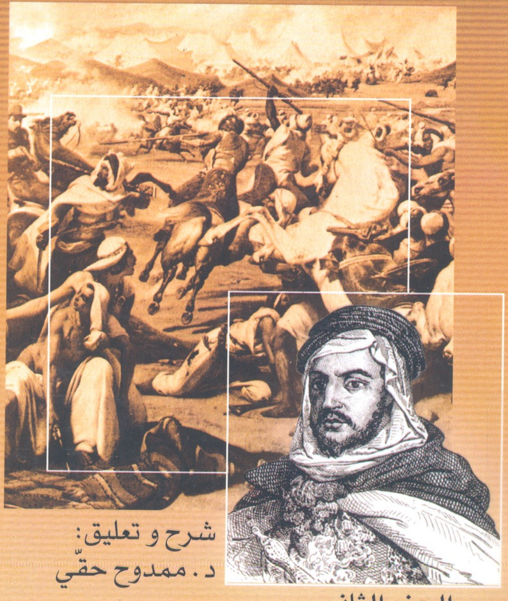
محمد بن عبد القادر الجزائري

تحفة الزائر

في تاريخ الجزائر و الأمير عبد القادر



شرح و تعليق:
د. ممدوح حقّي

الجزء الثاني





محمد بن عبد القادر الجزائري



في تاريخ الجزائر و الأمير عبد القادر

شرح و تعليق:

د. ممدوح حقّي

الجزء الثاني





تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر- الجزء الثاني.

بمساهمة مؤسسة الأمير عبد القادر

لصالح "تظاهرة الجزائر عاصمة الثقافة العربية 2007".

الإيداع القانوني:215-2007

ردمك: 4-08-834-9947-978

ذكر ركوب الأمير البحر

ووصوله إلى طولون وما اتفق له مع دولة فرنسا

إنه في ثالث يوم وصوله إلى "جامع الغزوات". سار بأهله ومن بمعيته إلى المرسى، والناس -على اليمين والشمال- يبكون وينتحبون. ولم يزالوا على ذلك إلى أن ركب البارجة الحربية المعدّة لركوبه، واسمها "احمودة"، وتوجه نحو فرنسا ولسان الحال ينشد قول ابن أبي لبابة، شاعر ابن عبّاد :

تبكي السماء بمزن رائحٍ غادي ... على البهاليل من أبناء عباد
عل الجبال التي هدّت قواعدها ... وكانت الأرض منهم ذات أوتاد
عرّيسة دخلتها النائبات على ... أساود لهم فيها وآساد
وكعبة كانت الآمال تخدمها ... فاليوم لا عاكف فيها ولا باد
يا صيف أقفر بيتُ المكرمات فخذ ... في ضم شملك وأجمع فضله الزاد
ويا مؤمّل واديهم ليسكنه ... خفّ القطين وجفّ الزرع بالوادي
وأنت يا فارس الخيل التي جعلت ... تختال في عدد منها وأعداد
ألق السلاح وخلِّ المشرفي فقد ... أصبحت في لهوات الضيغم العادي
لما دنا الوقت لم تخلف له عدة ... وكلّ شيء بميقات وميعاد
إن يغلبوا فبنو العباس قد غلبوا ... وقد خلت قبل حمص أرض بغداد
نسبت إلا غداة النهر كونهم ... في المنشآت كأمواتٍ بالحاد

والناس؛ قد ملؤوا العبرين واعتبروا مــن لؤلــؤ طافيــات فــوق أزبــاد
حان الوداع فضجّت كـل صـارخة وصــارخ مــن مفــدّات ومــن فــاد
سارت سـفائنهم والنـوح يـصحبها كأنهــا إبــلٌ يحــدو بهــا الحــادي
كم سال في الماء من دمع وكم حملـت تلك القاطع من قطعات أكبـــاد

ثم إن المسلمين صاروا آسفين، تتصعّد زفراتهم وتنسكب عبراتهم لا سيما شيعته وأهل محبته. كيف لا وقد طار من بينهم من كانوا يستمطرون خيره ويقيهم اعتداد العدو وشرّه، ويحيطهم من كل مكروه وينيل كلّ واحد منهم ما يؤمله ويرجوه.

كأن لم يكن بـين الحجـون إلى الـصفا أنــيس ولم يــسمر بمكــة ســامر
بلى نحن كنّا أهلها فأبــادنـــا صروف الليالي والجدود العواثـر

وقد تذكرت هنا ما قاله خاتمة أدباء الأندلس، صالح بن شريف

لكـــل شـــيء إذا مــا تمّ نقــصان فــلا يغـرّ بطيـب العـيش إنــسان
هــي الأمــور كمــا شــهدتها دولٌ ولا يــدوم علــى حــال لهــا شــان
أيـن الملـوك ذو التيجـان مـن يمـن وأيــن، مــنهم، أكاليــلٌ وتيجــان
وأيــن مــا شــاده شــدّاد مــن إرم وأيـن مـا ساسـه في الفـرس ساسـان
وأيـن مـا حـازه قـارون مـن ذهـب وأيــــن عـــادٌ وشـــدّاد وقحطــــان
أتـى علـى الكـلّ أمـرٌ لا مـردّ لـه حتـى قـضوا كـأن القـوم مـا كـانوا
وصار ما كان مـن ملـك ومـن ملـكٍ كما حكى عن خيـال الطيـف وسـنان
دار الزمـــان علـــى دارا وقاتلـــه وأمّ كـــسرى فمـــا آواه إيـــوان
كأنما الصحب لم يسهل له سبب يومــا ولا ملــك الــدنيا ســليمان
فجـــائع الـــدهر أنـــواعٌ منوعـــة وللزمــــان مــــسرّات وأحــــزان
وللمـــصائب ســـلوان يهوّنهـــا ومــا لمــا حــلّ بالإســلام ســلوان
دها الجزيرة خطبٌ لا عزاء لـــــه هوى له أحد وانهدّ ثـــــهلان

ولما شاع تسليم الأمير عند أهل الجزائر، عصم الخطب عليهم واشتغلت المنادب في المدن والقرى والبوادي، وكثر النواح من النساء في ولاية وهران. فأخبر الحاكم، وطُلب منه منعُ ذلك؛ فأجاب الجنرال : دعهم يبكون، فإن هذا عزّنا وعزّهم قد ذهب فإنني حضرت من فرنسا ضابطا صغيراً. فترقيت إلى هذه الرتبة بواسطة حروب الأمير. ومثلي كثيرا ولولاه لما تحصلت على هذه الرتب والنياشين.

وفي الرابع والعشرين من محرم سنة 1264 وأول يناير (كانون الثاني) سنة 1848 أرست البارجة في مرسى طولون. وكان ابن الملك عيّن مع الأمير الكرونيل "لورو" وموسيو "روسو" ترجمانا. وأخبره أن البارجة تمرّ على هذا المرسى. فبينما الأمير ينتظر إقلاعها ومسيرها إلى الشرق، إذ دخل عليه حاكم طولون وأخبره أنه مأمور بنزوله في برج "لاملاك" إلى أن يأتي الأمر من باريس فحينئذ، أحس الأمير بالخديعة و لم يسعه إلا النزول، ثم جاءه الحاكم ولاطفه وآنسه وأخبره أن الإقامة هنا لأجل المخابرة مع الدولة العثمانية وصاحب مصر في شأنك. وبينما هو ينتظر إنجاز الوعد إذ جاءه الكرونيل "دوماس" معيّنا من قبل الملك للإقامة عنده. ولأول وصوله إليه، أظهر له ما جاء لأجله وأخبره :

– أن كافة فرنسا عارضت في إتمام ما وقع التعهد به من بعثكم إلى الشرق. فلذلك، يعتذر لكم الملك في عدم الوفاء. والذي يحسن عنده أن تسكن بلاد فرنسا وتعطى أماكن مناسبة لمقامك العالي ويرخص لأهل محبّتك من أهل الجزائر، في الحضور عندك والسكنى معك.

– فأجابه الأمير : إني لا أقبل هذا ولو فرشت لي سهول فرنسا ومسالكها بالديباج. وها أنا بين أيديكم، فافعلوا ما بدا لكم. ولا يمكن أن أترك طلب الوفاء بالعهد مادمت حيا. ومن عجيب ما يُسمع أني كنت أرى نفسي ضيفكم؛ فجعلتموني أسيركم وأخذتم تعدّدون عليّ أمورا قمت بواجبها ذبّاً عن ديني وحماية لبلادي، ولا زال التفاخر بها وبأمثالها قديما وحديثا. فإن القيام بها دليل على كمال الرجولية، والعدول عنها برهان على ضعف الإنسانية. وعلى كل حال فالعار والعيب عليكم، لا عليّ. ولو لم ألق بنفسي إليكم، ما وصلتم إلى التحكم في أمري والتخير في شأني والأمر لله.

ثم عرض عليه التوجه إلى باريس، كما قصدها إبراهيم باشا، خديوي مصر، فقال:

– إبراهيم باشا يرى في باريس وغيرها من أمصار فرنسا متنزها له، يمرح فيه كيف شاء. وأما أنا، فلا أرى فرنسا الآن إلا سجنا لي ولمن معي. فلا فرق عندي بين طولون وباريس.

ثم كتب إلى ابن الملك، الدوك دومال ، يخبره بما ارتكبته دولتهم من عدم الاعتناء بإيفاء العهد وإنجاز الوعد، وأنّ من أكبر العار عليها غدرها بمن سلّم نفسه إليها، وعلى أن هذا مخالف للمروءة، مجانب للدين، لم يسمع بمثله في أساطير الأولين والآخرين. ولو كنّا نعلم أن الحال يؤول إلى ما آل إليه، لم نترك القتال حتى تنقضي منّا الآجال.

فأجابه ابن الملك بما نصه:

إلى حضرة الأمير عبد القادر بن محي الدين أرشده الله آمين

السلام عليك ورحمة الله وبركاته.

"أما بعد، فقد وصلني كتابك وقرأته وفهمت فحواه ومسّني اهتمام لاهتمامك. ومن حقّك أن توسع بالك ولا يضيق خاطرك عن شيء لا يدوم ولو فرض أنه لم يعجبك. ألم تعلم أن الفرنسيس جنس قويٌّ وسلطانه صاحب حسنة وعدل مقيم فلا تندم على رأيك، حيث سلّمت نفسك لديه وفوّضت أمرك إليه. وقد شهدت فضله وإحسانه عليك. فلا بد أن تكون مطمئن القلب، سليِّ البال كما تسلّي أصحابك وكل من معك. وما يكون إلا الخير والسعادة إن شاء الله. وها إني بعثت لك كتابين وردا عليَّ من أخيك. ودمت بخير والسلام.

حرّر في يوم السبت أواسط صفر الخير سنة أربع وستين ومائتين وألف (1264)".

قال بعض مؤرخي الفرنسيس : إن الأمير، لما تعين الكرونيل "دوماس" لمرافقة، أنس به لأنه كان أيام معاهدة "تافنا" بين الأمير وفرنسا وكيلا عنده في عاصمته "معسكر". وكان الأمير يحسن السلوك مع رفقائه ويسليهم ويتلطف معهم في سائر الأمور ويخالطهم بنفسه ويؤثرهم عليها بكل ما كان يخص به من لذائذ الأطعمة ونفائس الألبسة. فقيل له في ذلك فقال : الحال التي نحن فيها، تقضي عليّ بذلك. وعلى هذا كان أسلافي مع من يساكنهم ويصاحبهم. فلا يقول أحدهم حصاني

وبرنسي ومالي، بل يقول حصاننا وبرنسنا، ومالنا. ولا أريد أن أخالف أسلافي في شيء.

وقد دخل عليه الكرونيل "دوماس" في يوم شديد البرد، فلم يجد عنده نارًا. فسأله عن ذلك. فأجابه : إنّ ما كان عندنا من الحطب قد نفذ من أمس. ولا أريد أن أضيق على رفقائي بأخذ ما عندهم منه.

- قال الكرونيل : الذي أراه أنّك لا تشبه رؤساء أهل ملتك الذين اجتهدوا في هدم أحوال الأمم.

(لطيفة) - دخل عليه الكرونيل وهو يضحك، وقال له :

- إن أحد القسيسين السذج في "ماكون" طلب مني أن يقابلك لكي يعرض عليك الديانة المسيحية. وقد تعهد لي بفرح شديد على إقناعك. وفي أقرب وقت، يدعك تعتنق المذهب الكاثوليكي.

- فقال الأمير : يقتضي أن يكون هذا الرجل من أصحاب الخير لأن له مقاصد صالحة. فقل له: إنه يأتي وأنا أرشده إلى الدين القويم ويعدّ لي ظفرا أن أقنع رئيس ديانة مسيحية، أن يتدين بديني.

قال بعض المؤرخين : وبالحقيقة لم يكن الكاهن المذكور أكثر خلوصا في إيمانه، من الأمير عبد القادر في إيمانه. فالذي يكون نظير الأمير، متعمقا في الديانة، لا يكون منهجه في حياته السياسية إلا نفس منهجه الديني. وكان يفتكر، دائما، في استمالة العرب إلى المبادئ الإسلامية واستدعائهم إلى فضائل أهل القرون الأولى للهجرة، وإيقاظهم من الغفلة. ولولا محاربة دولة فرنسا، لتمم مقاصده. (انتهى).

ثم أتى لزيارته وتفقّد أحواله "الكرونيل بوفورت" نيابة عن الدوك "دومال" حاكم الجزائر وأخبره أن الملك عزم على الوفاء بالشروط تماماً.

وبعد أيام، بلغه أن قضيته رفعت إلى مجلس الأمة للبحث فيها. فحصل، بين رجاله، اختلاف كبير. وقال البعض إن الأمير قد خرج عن الطرق المرعيّة بين المتحاربين بقتله الأسرى صبراً. فلا عهد له عندنا يجب علينا الوفاء به. فأعرض أهل المجلس عنه.

وفي أول ربيع الأول سنة أربع وستين ومائتين وألف (1264)، وستة أيام من فبراير (شباط) سنة ثمان وأربعين وثمانمائة وألف (1848)، تكلّم وزير الخارجية في مجلس الأمة، فقال :

– لو فرضنا بأننا لا نتمكن من إرسال الأمير إلى عكّا لكون الدولة العثمانية لا تعترف باستيلائنا على بلاد الجزائر، فإننا نتمكن من إرساله إلى الإسكندرية.

– فأجابه كبير الوزراء : إن المخابرة جارية بيننا وبين محمد علي باشا صاحب مصر. وقد طلبنا منه الكفالات اللازمة لذلك.

فلما اتصلت الأخبار بالأمير، سكن روعه وهدأ فكره ثم جاء الجواب من محمد علي باشا بعدم قبوله إقامة الأمير في القطر المصري.

وقال ابن عمنا، العلامة السيد الطيب بن المختار مادحا الأمير ومتحسراً :

بكم السماحة والمروءة ألبست ثوب إليها يا بضعة المختار
وتشرفت وتنورت وتزخرفت أحوالكم يا نخبة الأخيار
وترونقت وتزينت بمحاسن وتملّكت وتزوّدت بفخار
وتطهّرت وتطيّبت بل أشرقتً وتلألأت كتلألؤ الأقمار

وإذا فقدتم من لنا من بعدكم — ومن الخليفة بعدكم في الدار
جاوزتم في المجد حدّ نوي النهى — وسموتم في رفعة المقدار
ونحوتم آثار قوم قبلكم — بتهجّد وتلاوة الأذكار
وملكتم فزهدتم وقدرتم — فعفوتم ياقاهري الكفّار
عوفيتم وشفيتم وقدرتم — وسلمتم دوما من الأضرار
وحرستم ومنعتم وكنفتم — بمقدس متكبر جبار
كم بالزمان أصبتم وأذيتم — فصبرتم لتلاعب الأقدار
ولطالما غلبتم وظفرتم — ونصرتم بتناصر الأنصار
ولطالما أعطيتم ومنعتم — وبذلتم بقرارة الأكدار
جاهدتم في الله حق جهاده — حتى الأمان أضا كشمس نهار
دار السلامة والمبرة والبقاء — لكم وللأعداء دار بوار
مذ غبتم أحبابنا ونأيتم — يا جيرتي والدمع كالأنهار
وا حسرتي وكآبتي وصبابتي — وشكايتي للمالك القهّار
وتأسفي وتكففي وتعففي — وتلطفي صبرا عل التعمار
جودوا بوصلكم الجميل فإن لي — فيه الحياة مدى الزمان الجاري

ذكر قيام الجمهور في فرنسا على الملكيّين وما لحق الأمير من سوء المعاملة

وبعد برهة يسيرة، قام حزب الجمهور طالبا إدالة الملكية بالجمهورية. واضطرمت نار الفتنة لذلك في سائر بلاد فرنسا. ولما رأى الملك تفاقُم الأمر، خرج من باريس مختفيا ولحق بلوندره، عاصمة الإنكليز. وانتصر حزب الجمهور ونشرت رايتها في سائر مدن فرنسا وأمصارها.

وحدث للأمير من سوء معاملة الحكومة وما أثار حزنه، وهيّج كربه لأنهم نظروا في أمر الأمير، فخافوا أن ينصب لهم حزب الملكية مكيدة به فيحملونه إلى الجزائر، وبذلك يمسون في ارتباك عظيم من أمرهم. فبينما الأمير ورفقاؤه ينتظرون ما يراد بهم، إذ جاء الموكلون بهم وحملوهم من البرج إلى قلعة طولون، والجنود محيطة بهم، وأظهروا لهم غاية الوحشية وسوء المعملة، و الأمير مظهر للتجلد إلى رفقائه، آمر لهم به، ثم دخل عليه الكرونيل "دوماس" وأخذ يسليه ويخفف عنه. فقال له :

- نحن لا نحتاج إلى هذا. وانظر إلى سلطانكم، فإنه كان ذا قوة وسطوة. كم أمر ونهى، وعزل وولى، وأقام وأقعد، وعاقد وعاهد، وها هو الآن قد انحطّ، وعن عرشه سقط، ونحن، ما بذلنا أنفسنا وأموالنا طلبا للدنيا وحرصاً عليها، وإنما كان ذلك امتثالا لأمر الله تعالى لنا بالجهاد لحماية الدين والوطن.

وبعد أيام، أرسلت الحكومة الجديدة الكرونيل "أوليفيان" ليستطلع أحوال الأمير؛ فهشّ له وبشّ وأظهر له السرور بقدومه عليه.

وقبل رجوعه إلى باريس، دخل عليه وأطال ا لجلوس معه وأظهر له أن الحكومة لا تأبى أن تطلق سراحه إلى الأماكن التي طلبها، غير أنها تخشى من نقض عهده ورجوعه إلى الجزائر.

فأجابه الأمير : ليس في وسعي أن أعطي ميثاقا للحكومة أقوى من الميثاق الذي أعطيته للجنرال "لامورسيير"، وأكدّته للدوك "دومال"

ابن الملك والملك أيضا. ولو لم أرد التسليم والنزول عن الإمارة، ما كنت اليوم هنا عندكم في حالة أسير مقهور".

- فقال أوليفيان : كلامك أيها الأمير مقبول. ولا ضرر عليك إذا أنت حلفت للحكومة بالقرآن على أنك لا ترجع إلى الجزائر ولا تتداخل في مصالح فرنسا، بوجه من الوجوه، بنفسك ولا بواسطة.

- فأجابه الأمير إلى ذلك، وقال : إن دعتني الحكومة إليه، لا أتوقف في إجرائه.

- فقال له : أكتب ،إذا، مكتوبا للحكومة يشعر بهذا. فكتب معناه :

"الحمد لله الواحد الأبد الذي لا يزول ملكه مدى الأبد.

إلى أركان المشيخة المستولين على زمام ملك فرنسا.

أما بعد، فقد حضر عندي رسولكم "الكرونيل أوليفيان" وأخبرني بأن الفرنسيس اتفقت كلمتهم على إبطال الملك الاستبدادي وإدالته بحكومة جمهورية شورية. فسرّني هذا الخبر لما أعلمه من أن المراد بهذا الأمر نزع الظلم ومنع التسلط. وبناء على ذلك أرجو أن تكشفوا عني ما أنا فيه من البلاء. فإنكم بنيتم أمركم على دعائم العدل والإنصاف، والوفاء بالعهد، والصدق والوعد. وإن نقمتم على ما جرى بيني وبينكم من الحروب التي اتصلت عدة سنين، فما أظن أن أحدا ممن على وجه الأرض من البشر ينكره عليّ أو يذمني به لأنني رجل أوجب عليّ ديني أن أدافع عنه، وعن أرض أهله المتمسكين بعروته الوثقى؛ فقمت بذلك وبذلت وسعي فيه ما استطعت. ولما ظهر لي انتهاء أجل

قيامي بهذه العبادة التي حزت بها ،ولله الحمد، شرف الدنيا والآخرة، وتلاشت الهمم وتقاعدت العزائم ونفذ ما كان عندي من المواد والأسباب التي كان القيام بها، سلّمت وقلت إن الأرض لله، يورثها من يشاء من عباده. فهو أقامني حيث شاء وأقعدني حيث شاء. ثم إني طلبت من رئيس جيوشكم التي كانت تترصدني وتتوقع وقوعي، النائب عنكم في الجهة الغربية، الجنرال "لامورسيير"، عهدا وميثاقا على أني إن سلمت أمري الذي كنت قائما به، فإنه، بالنيابة عنكم، يحملني أنا ومن معي إلى الإسكندرية أو إلى وعكا، فأجاب إلى ذلك وقبله وأعطاني العهد والميثاق على ذلك وحرره وأمضاه بخطه وختمه، كما أني أعطيته عهدا وميثاقا على ألاّ أرجع إلى الجزائر ولا أتعرض للفرنسيس في شيء، بوجه من الوجوه. وبعد الوثوق منه ومني، جئت بأهلي وأولادي ومن اتبعني من خاصتي إلى مرسى "الغزوات" واجتمعت بالجنرال "لامورسير" وحاكم الجزائر، الدوك "دومال" ابن الملك، والجنرال "كافينياك"، ثم حملونا في الباخرة الحربية من مرسى "الغزوات" على أن يمروا بطولون لحمل لوازم الباخرة، ثم يجددون السير بنا إلى المشرق. فلما وصلنا إلى طولون، أنزلونا إلى البلد وتصرفوا فينا بما شاءوا. وكيف شاءوا. وها نحن على ذلك، ننتظر الفرج من الله تعالى، فلعلّه يجريه فتحوزون به الفخر العظيم، والذكر الجميل، في العالم بأسره، إذ الوفاء بالعهود وإنجاز الوعود من خصال أهل الكمال ونعوت ذوي الفضل والأفضال. وإن أمرتم بأني أقسم لكم

بالقرآن العظيم أني لا أنقض لكم عهدا ولا أخلف وعدا ولا أتعرض لكم في شيء، فلا يثقل عليّ ذلك بل أقسم لكم بما تريدون.

كتب هذا عبد القادر بن محي الدين في أول ربيع الأول سنة أربع وستين ومائتين وألف (1264) وستة من شهر فبراير (شباط) سنة ثمان وأربعين وثمانمائة وألف (1848)".

فأخذ "أوليفيان" هذا المكتوب ورجع إلى باريس. وبقي الأمير ينتظر الجواب بما يسرّه. فإذا بخطابه أحدث في الجمهورية نفاراً. وكان جوابهم أن الجمهورية لا ترى نفسها مرتبطة بعهد مع الأمير عبد القادر، بل ترى أنه أخذ أسيراً، تتركه كما تركته الحكومة السالفة.

فاشتد كرب الأمير لذلك، فأخذ الكرونيل "دوماس" يلاطفه في الكلام ويؤنس وحشته فأجابه الأمير :

– إذا طال الأمر على هذا الحال، يموت أكثرنا حزنا، بلا ريب، وأكون أنا السبب الوحيد في ذلك، إذ لم يستحسن المجيء إلى الفرنسيس غيري. والذي غرّني وأوقعني في يدهم دعواهم أنهم قوم لا ينقضون العهد ولا يخلفون الوعد؛ فإذا بهم لا عهد لهم ولا ميثاق، بل عهدهم مكيدة وخديعة. ولو علمت أن في فرنسا محكمة شرعية أو سياسية تسمع دعوى المظلوم وتنصفه من خصمه، ولو كان ملكاً ذا سلطة، لرفعت إليها قضيتي، فعساها أن تأخذ بيدي وتقوم بناصري.

فلم يكن من الكرونيل إلا إظهار الأسف والتوجع. والأمر لله.

ذكر أخبار إخوة الأمير وحملهم إلى "طولون"

وقد كان إخوة الأمير معه في الدائرة. ولما أقبلت الجيوش المراكشية زاحفة إليه استولى عليهم الخوف. فاستأمن منهم السيد مصطفى والسيد حسين إلى الجنرال "لاموريسيير" فأمنها وكتب لهما في ذلك ووعدهما أن يحملهما إلى المشرق؛ فارتحلا من الدائرة ليلا ولحقا بأرض الفرنسيس. وبعد اجتماعهما بالجنرال، نقلهما إلى "تسّالمت" قرب وهران. وأما أخوهم الأكبر، السيد محمد السعيد، فإنه لم يفارق الأمير إلا في ليلة "عجرود" وكان معه ابنتا الأمير وهما زوجتان لولديه. فحالت شدّة الهول تلك الليلة دون اجتماعهم. وبقي السيد محمد السعيد في قرية ابن "ميرة" من قرى "مسيردة" ثم نقل إلى "تلمسان" وألحق بأخويه في "تسالمت" ثم أمر الحاكم العام أن يجمعهم بأخيهم. وفي الحال يحملون إلى الجزائر، ومنها إلى طولون. ولما اتصل خبرهم بالأمير، ازداد كربه وغمه. وبعد وصولهم، وصل بعض أعيان فرنسا إلى طولون واجتمع بالأمير، وكان الكرونيل "دوماس" حاضراً، فتكلم الأمير معهما في شأن إخوته وقال :

إن حضور إخوتي إلى هنا ليكونوا أسرى معي، قد زادني غما لأنهم لم يحاربوا معي جيوش فرنسا ولا شاركوني في الوقلئع. فلا يستوجبون الأسر. فإن وجدتم سبيلا للكلام في شأنهم مع الحكومة، فافعلوا، فلعل أن تترك سبيلهم وتحملهم إلى الإسكندرية.

فوعدوه بذلك. ثم جاء الأمر بعزل من في معية الأمير عنه سوى إخوته وخليفته السيد مصطفى بن أحمد التهامي والسيد قدور بن علاّل وبعض الأتباع، وحملهم إلى "سنت ماكريت" وهو موضع إقامة الأسرى. فجاء الموكّلون بتنفيذ هذا الأمر بشرذمة من العسكر إلى القلعة، وعزلوا نحو المائة والخمسين نفسا ثم ساقوهم إلى الباخرة المعدّة لحملهم. فعظم الكرب لهذا الأمر الفظيع الذي لا داعي له إلا أوهام واهية.

قال بعض مؤرخيهم : والباعث على ذلك أن وزراء الحكومة، لما اتفقت كلمتهم على نقل الأمير من قلعة طولون إلى "بو"، وهي مدينة شهيرة وفي وسطها سراية[1] عظيمة لأحد ملوكهم، في تخوم فرنسا مما يلي بلاد إسبانيا وقع في قلوبهم أنه ربما يخرج من السرايا بالقوة، لكثرة رجاله ويلحق ببلاد إسبانيا؛ فقصدوا بما فعلوه ضعف قوّته وقلة عدده.

ذكر نقل الأمير إلى "پو" ثم إلى "أمبواز"

ثم نقلوه، بمن بقي معه، إلى سراية "بو" فوصل بها في السابع عشر منن جمادى الأولى والواحد والعشرين من أبريل، وأبدل الكرونيل "دوماس" بالقبطان "بواسوني". ولم تمض ستة أشهر من وصوله إلى سراية "بو" حتى بلغهم أن رجالا من الإنكليز ينتظرون سنوح الفرصة للتمكن من الفرار به إلى بلادهم، وأنهم في أكثر الأوقات يقابلونه من جهة المنافذ على بعد، ويشير إليهم؛ فاضطرب رأيهم؛ واتفق أن الأمير

1. –سراية– صرح : بناء عظيم.

قعد ليلةً في أحد المنافذ، يقرأ القرآن؛ فرآه الطوف. ولما أصبح، جعلوا عسًّا مستمرًا تحت المنفذ، وزادوا في عدد الحرس. وبعد هذا، لم يهدأ روعهم إلى أن قرّ قرارهم على نقله إلى سراية "أمبواز" التابعة لمقاطعة "أورليان". فحملوه، بمن معه، إلى بوردو، وهي من أعظم مدنهم الواسعة، على شاطئ البحر المحيط. وقبل وصوله إليها، استقبله أسقفها "دوبيش" المشهور، بغاية الاحترام والإكرام لأنه كان من المحامين عن الأمير ولم ينس الإكرام الذي أكرمه به الخليفة السيد محمد علاّل حينما زاره بولايته، وقد أشرنا إلى ذلك سابقا.

ولما سافرتُ إلى باريس سنة ثلاث وثمانين 1283، ومنها إلى "بوردو" ونزلتُ بفندقها الكبير المشهور، وأحضر لي خادمه صباحا فنجانا من الشاي والحليب،على حسب العادة، رأيت كتابة على الفنجان والصحن ترجمها لي القبطان الذي عينته الحكومة ترجمانا معي، وهي : إن الأمير عبد القادر نزل بهذا الفندق سنة أربع وستين ومائتين وألف 1264 وشرب القهوة في هذا الفنجان.

ثم إن رئيس الفندق طلب مني أن أكتب تحت الكتابة أن محمدا، ولده الأكبر، نزل في هذا الفندق سنة ثلاث وثمانين ومائتين وألف 1283، وشرب القهوة في هذا الفنجان. فشكرت له ما أبدوه من الاهتمام بأحوال الأمير، وتدوينها حتى على الفنجانين.

ثم سافروا منها إلى "نانت"، ثم إلى "تور" ومنها إلى "أمبواز". ولّما دخل السِّراية، قال له الضُّباط : الآن قد استرحتُ وأمّنتُ عليك لأنه لا تخلو

عائلة من فرنسا إلا ولها ثأر عليك. ولذلك كلّما وصلنا لبلد، تحيط بك العساكر، خشية من بعض من لهم ثأر عليك أن يقتلوك.

وأمبواز مدينة، في وسطها سراية لملوكهم الأقدمين، حصينة ذاهبة في الجو، مشرفةٌ على بسائط وبطاح. يشق البلد نهر عظيم، واسع الأطراف، تسير فيه المراكب الشراعية. فأقام فيها أربع سنين، لا يروّع وإن لم يكن آمنا، ولم يتحدّد له كرب وإن كان في باطنه كامنً. ولسان حاله يقول :

الدهر خلخلني مثل النساء وكم　　　شنّفت –من قبل ذا– آذان أكفائي

قال شرشل في تاريخه عند ذكره هذا الخبر ما معناه :

إن الأمير عبد القادر، ما زال ذا همة عالية. لم تؤثر فيه شدّة المشاق التي أحاطت به من كل ناحية ولو ألّمت بغيره؛ لأذلّته إذلالا، وأعدمته الصبر والتجلد تفصيلا وإجمالا. ثم قال : وكان الناس يتقاطرون إليه من جميع أنحاء فرنسا، وغيرها، لمشاهدة حاله في أسره. فكانوا يعجبون من سمو همته وبعده عن إظهار الضجر، وتسليمه لتصاريف القضاء والقدر. ولا شك أن من كان مثله في القوة الفاضلة لا يبالي بالشدائد النازلة. وقد قيل له في ذلك، فقال :

تعوّدت مس الضرّ حتى ألفته　　　وأسلمني طولُ البلاء إلى الصبر

وكان كثيرون من أصحاب المناصب، وذوي السياسة، وقواد الحرب يسابق بعضهم بعضاً لإظهار الاحترام والإعظام لذلك الأمير الهمام. وكان يصرف ساعات كثيرة في مقابلة أولئك القاصدين.

والذي كان يدهشهم على الأكثر تظاهره بالبشر والأفراح، مع ما أحاط به من المحن والأتراح. وكان السنيور "دوبيش"، أسقف الجزائر، كتب إلى الكرونيل "دوماس"، بعد أن ترقى إلى الجنرالية، يهنيه ويخبره بعزمه على زيارة الأمير. فكتب إليه الجنرال المذكور يقول :

إنك -أيها الأسقف المحترم- ذاهب لترى الأمير الأسير وحقّا إن سفرك هذا لا يذهب عبثا. ولا يخفى أنك قد عرفت الأمير عبد القادر، حينما كان السعد خديمه، والعز رفيقه. وكانت بلاد الجزائر كلها تعترف بسيادته وسطوته. وستجده الآن من حيث عزّة النفس، وقوة الجأش، أعظم، وأكثر مما كان، في زمانه إقباله، وستجده أيضا ليّنا، ودودا، بشوشا في وجه من يزوره، حازما، صابرا لا يظهر الضجر، عاذرا لأعدائه، متغافلا عن إساءتهم، لا ينطق في جهتهم بسوء وبالجملة ستزداد علماً ومعرفة به، فوق ما امتازت به حياتك.

وكان هذا الأسقف، أيام الحرب، يكاتب الأمير، ويظهر التودد إليه. وكان الأمير كثيرا ما يستشيره في أمور سياسية، فيجيبه بما يطابق الواقع من غير حيف ولا مكر. وقد كتب إليه الأمير من "پو" ما نصه :

"من عبد القادر بن محي الدين إلى محبّة الأسقف دوبيش.

منذ ثلاث سنين، كنت أحارب الفرنساوية وليس لي أمل أن أرى نهاية حميدةً لي في هذه الحرب التي ابتدأت من سبتمبر (أيلول) سنة ثلاث وثلاثين (1833)، مع أني كنت معتقدا أني لم أقم بالواجب الديني وحفظ بلادي وأخشى أن أتلقّى شبه الملامة من قومي الذين وثقوا بي وحلفوا أن لا يتركوني. وفي هذه المدّة، عرضت الفرنساوية عليّ

مقدمات كثيرة، وهي ترك السلاح مقابل شروط. وزيادة على ذلك ، كان قد عرض عليّ المارشال "بيجو" بالواسطة مليونا لأترك السلاح، فلم أقبل ذلك منه محافظة على عهدي وديني. وقبل ذلك كتب لي خليفتي السيد أحمد بن سالم عند سفره إلى بلاد الشرق على باخرة إفرنسية، بعد تسليمه الإجباري، وأكدّ لي أنه كُتِبَ له، من قبل الحاكم العام الذي كنت عارفا باستقامته وشجاعته بأني إذا قطعت الأمل واتبعته في عمله لا أعامل بأقل رعاية منه. وإجابة لطلبه، نقل على بواخركم إلى بلاد بعيدة تقرّبها الوحدة الدينية إلينا. وقد بلّغوه أني إذا كرهت السفر على باخرة مسيحية، يستأجرون لي باخرة إسلامية ونفقتها على اسم فرانسة. على أنه كان لي ثقة، بعدالة الفرنسويين وأنها تفي بما وعدتني به، مقابل تركي السلاح وما ينشأ عنه من السلام العام. وليس لي أمل إذا أصررت على الحرب بالظفر لعملي بنتيجته. لكن حلفت أن أدافع عن ديني. وأحافظ على بلادي، إلى حدٍّ تضعف دونه قوتي. وأظن أني لم أعمل القدر الكافي. ومع ذلك، كان مركزي بالدائرة، أواخر سنة 1847 خطرا وخيما. فتحرّك علي حاكم مراكش، وأظهر ما عنده من الخنق، وأظنه يتعقبني ويحاربني. فصرت أتحسّب من قبائل الريف المتوحشين أكثر من الفرنسويين الذين قوّتهم كانت تزداد، يوما فيوما مع ازدياد خوفي وقلقي. ومع هذا كله، لم يخطر بفكري أن أعقد الصلح مع الفرنسويين. لكنّي، لما رأيت أهلي في معسكر الدائرة، على خطرٍ عظيم من الجنرال "أوست"، قرّرت ما يلزم أن أعمل محافظة عليهم من التعب على أني كنت قادرا على التخلص، رغما بهمة من كان حولي من

الفرسان الصناديد الأشداء على الأعداء، الأمناء على الوفاء، وأن أضايق الفرنسويين، مدّة طويلة، آويا إلى قبائل الصحراء الذين لا يبخلون عليّ بقليل من الشعير والحليب. وكان في استطاعتي أن أنهزم على حصاني إلى المدن المقدّسة. لكني تركت ذلك، حبّا لراحة أهلي، والجرحى، وضعفاء أصحابي. وكتبت إلى الجنرال "لامورسيير" بأن الحكومة الفرنساوية ، إذا كانت باقية على نواياها لي، مما طالما حدثوني به وأنها تأذن لي، إذا تركت السلاح، بالذهاب إلى المشرق الذي هو مطمح أنظاري، تركت لها سلاحي. فأرسل لي "لامورسيير" سيفه وخاتمه عهدا على إنجاز جميع ما طلبته بأسرع وقت. فطلبت منه تأمينا بالكتابة وإلا فلا، فكان الجواب منه كالأول. فعرّفته ثالثة : إذا لم أكن على ثقة من عهده، فإني أسلّم أمري إلى الله ولا يتم بيننا عقد اتفاق. فبعث لي بالتأمين الخطي، ممضيا باسمه الفرنساوي، مختوما بخاتمه بالعربي؛ فاطمأن -لذلك- قلبي حيث أنه وكيل الحكومة الفرسناوية وأن كلامها أكيد، يعمل به ولو كان صادرا، من أقل رجل من رجالها. وحينئذ، وصلت إلى معسكره. وبالوقت ذاته، حضر الدوك "دومال" إلى "جامع الغزوات" فاستقبلني بكل لياقة وقال لي : إن ما فعله قائمقامي وتعهّد لك به، فإني أجريه عند اللزوم. وإذا رغبت، فإني أعاهدك بكلامي الملوكي أن كل ما صار الاتفاق عليه، يتم. فقدمت له -حينئذ- آخر ما ركبت من الخيل، أيام حروبي. فسألني :

- إلى أين قرّرت الذهاب ومن سيكون معك؟

- فأجبته : إلى القسطنطينيّة، أو عكا، أو الإسكندرية. والذي يصحبني أهلي، والبعض من ضباطي. وكان عدّة من أراد أن يرافقني؛ نحو المائة. ولم يكن في وسعي أن أردّ أملهم في الذهاب معي.

- فأجاب ابن الملك بأنه لا يوافقني على الذهاب إلى القسطنطينية. ولكن عند وصولنا إلى المرسى الكبيرة، يرسلني إلى الإسكندرية، إجابة إلى طلبي، ووفاء بوعده. فقط، إن السفينة التي أركبُ فيها ستقف قليلا أمام "طولون". فقبلت منه ذلك. ولما أدرك له معنى إلا أن السفر يقتضي ذلك. ولما وصلنا إلى طولون، أخرجونا من السفينة، وأودعونا في السجن، وا أسفاه! كنت أظن أن نذهب إلى محل الرّاحة والسعادة لا إلى الحبس والشقاوة، حيث أني استحصلت على العهد الوثيق، والوعد الأكيد، من ابن الملك، الدوك "دومال" والجنرال "لامورسيير". وكان الغالب على ظني أن دولة فرنسا لا تخلف وعدها، ولا تنقض عهدها لزعمهما أنها من أعظم الدول المحافظة على العدل والاستقامة، بل كنت أقول في نفسي : إذا أسرني الفرنساويون في الحرب، لا أنالُ منهم إلاّ كلّ رعاية لأنهم ذوو شهامة، يعرفون قدر الغالب والمغلوب. فكيف إذا سلّمت نفسي إليهم، عن طيب خاطري؟ وكيف يكون، إذا كان التسليم على عهد، ووعد أكيد؟ ونظرا لما أتأكده من كمال حبّك وعقلك، أخبرتك بالواقع، لتفرّق ين الأخلاق العربية والأفعال الفرنساوية وتحكم بما تراه".

ولمّا زار أسقف مدينة "تور" في فصل الشتاء، قال :

– أيُّها الأمير! أخشى عليك من شدّة برد إقليمنا.

– فأجابه : نعم. إن إقليمكم باردٌ لكنّ حرارة عنايتكم دفعت البرد عنّا!

وزاره بعض القواد الفرنساوين الذين أفنوا شبابهم في حروبه وعرّفه بنفسه؛ فبشَّ في وجهه ولا طفه قائلا :

– قد سررت أيها الكرونيل بزيارتك، وزيارة رفقائك. وتذكرت الحروب التي جرت بيننا في بلادي، ولن تضع أوزارها إلا بما قضى الله بهذا الانقلاب العجيب. ولا شك أن أكثر أصحاب الوظائف الحربية يعترفون بشدّة مقاومتي لهم ويشكرون فعلي حيث كنت سببا لارتقائهم إلى الرتب السامية، وحصولهم على النياشين العالية. ويغلب على ظني أنهم لا ينسون أيامي معهم.

ولما تقلّد الجنرال "لامورسيير" وزارة الحرب، واتصل خبره بالأمير وهو في "بو" سُرَّ بذلك ظنا منه أنه يوفي بعهده. فكتب إليه يهنيه ويذكّره بالميثاق، والقيام بواجب الوفاء. ومن جملة ما كتبه :

"إن كثيراً ممن لا إلمام لهم بما وقع بيني وبينك، يعتقدون أنك غلبتني في الحرب، وأجبرتني على التسليم وإلقاء السلاح. فينبغي لك أن توضح لهم القضية، وتوقفهم على ما جهلوه من أمرنا ... وبذلك؛ تجد منهم من يسعفك ويأخذ بيدك، في الوفاء بعهدك الذي هو في الحقيقة عهد دولة فرنسا، بل الشعب كلّه، لكونك كنت –وقتئذ– رئيس جيوشهم، ونائب ملكم، في كل ما تجريه. وبالجملة، فإن وفيتم فإنكم

تنالون فخرا كبيرا بين الأمم والدول. وإن نقضتم وأخلفتم، فلا شكّ أنكم ترتكبون في ذلك أمرا شنيعا يسقط به قدركم. ويقبح بارتكابه ذكركم في العالم كلّه.

حرر في سابع شعبان سنة خمس وستين ومائتين (1265)، والسابع والعشرين من يونينه (حزيران) سنة تسع وأربعين وثمانمائة (1849).

فحرك هذا المكتوب من "دي لامورسيرر" سواكف الإحن. فأمر بنقل الأمير من "بو" إلى "أمبواز". فسار الحرس به وبمن كان معه إلى مدينة "بوردو" ومنها حمل في البحر الأوقيانوس إلى مدينة "نانت". وفي أثناء الطريق، أظلّهم العيد. فأخبر الأمير بذلك قبطان المركب في مذاكرة كانت بينهما. فلما كان صباح العيد، أمر القبطان بزينة المركب وإطلاق المدافع تطييبا لخاطر الأمير.

وبعد وصوله إلى أمبواز، جاء أمر وزير الحرب، "دي لامورسيير" للموكلين بهم أن لا يكون للأمير، ولا لأحد من رفاقه، علاقة مع أحد من الخارج، لا لسانية، ولا قلمية، وأن لا يجتمع الأمير بأحد من الزوّار. وإن طلب أحدهم مواجهته، فلا تأذنوا له بدون رخصة من وزارة الحرب.

فانظر إلى هذه الأفعال، والأقوال المنافية للشرف والإنسانية. وكان هذا الجنرال قد وقع عليه اللوم والتبكيت، في مجلس النواب، في قبوله تسليم الأمير، وخطّؤوه على ختم الشروط، متعللين بإمكان جعله أسير حرب. فقال الجنرال :

إن هذا اللوم الشديد قد وقع عليّ بجنحي للسلم في موضع يجب فيه الحرب، بزعمكم وأنا أتحقق أني لو ركبت الخطر بالزحف على عبد القادر ما رجعت إلا بخيمته وسجّادته، وإنه ليذهب إلى الصحراء، بحيث لا يمكنني أن أصل إليه. وهذا آكد عندي من أن يقع في يدي لأن عبد القادر ذو قوة وصلابة في دينه، مشتهر بالصدق والأمانة في وطنه، شديد التمسّك بمبادئه. وهذا الأمر الأوحد، والسبب الأعظم، الداعي لاجتماع القلوب عليه. وإن مبدأه الفريد هو الذي شهره في جميع الجهات. ولا شك أن الظفر الذي حصل للرجل الذي حاربناه في وقائعه هو ثمرة ما قرّرناه. ومن كان هذا شأنه وسيره، فلا بد وأن يحدث خطرا عظيما، إن ترك في بلاده. وأظن أني ما سلكت إلا جادّة الصواب. ومع هذا، فأرجعوه إلى محله مع القوة التي كانت معه فقط. وأمسكوه عنوة، وأنا والحاكم العام ما قبلنا تسليمه على شروطه إلا أننا اخترنا راحة فرنسا، وعساكرها التي أضنكها التعب وكثرة المصارف من غير طائل تحصل عليه، من جهة الأمير، والقبض عليه.

فسكتوا وانفض المجلس. فأقام الأمير بأمبواز، وهو متمسك بعرى الصبر، متجلّد لنوائب الدهر، قائم بواجب العبادة. وكان مطران أمبواز عند الاجتماع للوعظ في الكنيسة، يقول لهم :

– ألا تنظرون إلى الأمير عبد القادر وجماعته في بلدتكم، متمسكين بدينهم مواظبين على صلواتهم؟ ألا تسمعون نداء "قره محمد" في كل أوقات صلواتهم، ليلا ونهاراً؟.(لأن لسرية؛ كانت عالية على البلد، "وقره محمد" جهور الصوت. فكان أذانه يسمع من بعيد).

وداوم الأمير، في تلك المدّة، على تدريس العلم، وإفادة الطلبة من جماعته. فقرأ "الصغرى" للسنوسي في علم الكلام، ورسالة الإمام محمّد ابن أبي زيد القيرواني في الفقه، على مذهب الإمام ملك ... وغيرهما من المصنّفات المفيدة. ثم سلك أخوه الكبير، السيد محمد سعيد، وأخوه السيد مصطفى، وخليفته السيد مصطفى بن التهامي، جادّته، وأفادوا الطلبة واجتمعوا لقراءة "البخاري" على نية تفريج كربهم، وكتاب "الشفاء" للإمام عياض، على تلك النية. واستمروا على التدريس إلى أن انتهى أجل الأكدار والأتراح وجاء البشير بطلق السراح، على ما نذكره في محلّه، إن شاء الله تعالى.

ثم إن بعض أمراء الفرنساوية تذاكروا في الحضر والبدو. فبعضهم فضّل الحاضرة، وبعضهم فضّل البادية، ثم اتفقوا على أن يحكّموا الأمير فيما بينهم لأنه ممن سكن الحضر والبدو. فحكم لمفضّل البادية وأجابه بقوله :

يا عاذراً لأمري قد هام في الحضر ... وعاذلا لمحب البدو والقفر
لا تذممن بيوتا خفّ محملها ... وتمدحن بيوت الطين والحجر
لو كنت تعلم ما في البدو تعذرني ... لكن جهلت وكم في الجهل من ضرر
أو كنت أصبحت في الصحراء مرتقيا ... بساط رملٍ به الحصباء كالدّرر
أو جُلت في روضة قد راق منظرها ... بكل لون جميل شيّق عطر
تستنشقن نسيماطاب مُنتشقا ... يزيد في الروح لم يمرر على قذر
أو كنت في صبح ليلٍ هاج هاتنُهُ ... علوت في مرقب أو جلت بالنظر
رأيت في كل وجه من بسائطها ... سربا من الوحش يرعى أطيب الشجر
فيا لها وقفة لم تبق من حزن ... في قلب مضنى ولا ضنكا لذي ضجر

نبـاكر الـصيد أحيانـا فنبغتـه   فالـصيد منـا مـدى الأوقـات في نعـر
فكـم ظلمنـا ظليمـا مـع نعامتـه   وإن يكن طائرا في الجو كالـصقر
يـوم الرحيـل إذا شُـدّت هوادجُنـا   شـقائق عمّهـا مـزن مـن المطـر
فيها العذاري وفيها قـد جعلنـا كـوى   مرقّعـات بأحـداق مـن الحـور
تمشي الحداة لها من خلفهـا زجـلٌ   أشهى من النـاي والـسنطير والـوتر
ونحن فوق جيـاد الخيـل نركـضُها   شـليلُها زينـة الأكفـال والحـضر
نطارد الوحش والغزلان نلحقهـا   على البعاد وما تنجو من الـضمر
نروح للحي لـيلا بعـد مـا نزلـوا   منازلا ما بهـا لطـخ مـن الوضـر
ترابها المسك بل أنقـى وجـاد بهـا   صوب الغمـائم بالآصـال والبكـر
نلقى الخيام وقـد صُـنفّت بهـا فغـدت   مثل السماء زهـت بـالأنجم الزُّهـر
قال الأولى قـد مـضو قـولا يـصدّقه   نقلٌ وعقلٌ ومـا للحـق مـن غـير
"الحـسن يظهـر في بيـتين رونقـه   بيتٌ من الشّعر أو بيت من الـشَّعر
أنعامنا إن أتت عنـد العشي تخـل   أصواتها كـدوي الرعـد بالـسحر
سفائن البرّ بـل أنجـى لراكبهـا   سفائن البحر كم فيها مـن الخطـر
لنا المهاري ومـا للـريم سرعتها   بها وبالخيـل نلنـا كـل مفتخـر
فخيلنـا دائمـا للحـرب مـسرجة   من اسـتغاث بنـا بشّره بـالظفر
نحن الملوك فلا تعدل بنـا أحـداً   وأي عـيش لمـن قـد بـات في فخـر
لا نحمل الضّيم ممن جار نتركـه   "وأرضه وجميـع العـز في الـسفر
فإن أساء علينـا الجـار عـشرته   نـبين عنـه بـلا ضـر ولا ضـرر
نبيت نـارُ القـرى تبـدو لطارقنـا   فيها المداواة من جوع ومن خـصر
عــدوّنا مــا لــه ملجـأ ولا وَزَرٌ   وعندنا عاديـات الـسبق والظفـر
شرابها مـن حليـبٍ مـا يخالطـه   ماءٌ وليس حليـب النـوق كـالبقر
أمــوالُ أعــدائنا في كــل آونــة   نقضي بقسمتها بالعـدل والقـدر

ما في البداوة من عيبٍ تذمّ به إلا المروءة والإحسان بالبدر
وصحّة الجسم فيها غير خافية والعيب والدّاء مقصورٌ على الحضر
من لم يمت عندنا بالطّعن عاش مدىً فنحن أطول خلقِ الله في العمر

ثم إن الحكومة الجمهورية أرسلت إلى حاكم الجزائر ينظرون من يصلح لمؤانسة الأمير ومجالسته من علماء تلك البلاد. فوقع اختيارهم على العلاّمة الشيخ محمّد الشاذلي القسنطيني. فحمل إلى أمبواز. فلمّا وصلها، أكرم الأمير وفادته وأجزل حرمته نظرا لعلمه. فأنتج حسن السلوك بينهما مودّة استحكمت نواحيها، وشدّت أواخيها. واستمر الأمر بينهما على ذلك إلى أن نعق في افقهما غراب البين وعاد ما كان عليه؛ أثراً بعد عين. وقد وقفت لسيدي الوالد رحمه الله على رسالة، أثبت فيها أحاديث ائتلافها، وما جرى بينهما من النظم، أيام اجتماعهما. قال قدّس الله روحه :

"الحمد لله حمداً يوافي نعمه ويكافئ مزيده. اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله، وارض اللهم عن الصحابة أجمعين وعن الأئمة الراشدين.

أما بعد؛ فهذا تقييد يشتمل على بعض ما كتبناه وكتبه إلينا أخونا في الله، العالم المتفنن السيد محمد الشاذلي القسنطيني، أيام صحبته لنا في فرنسا، وروده علينا للتأنس. فكان لنا خير أنيس، وأحسن جليس، نفّس من همومنا بلطائفه وطرائفه ما لا تنفسه الصبا. وأحلى من أحزاننا ما لا تجليه الصهبا.

فكنت به أجو همومي وأجتلي زماني طلقَ الوجه ملتمع الضيا
أرى قربه قربي ومغناه غنيتي ورؤيته ريّا ومحياه لي حيا

ولّما نعق غراب البين وصار الاجتماع أثراً بعد عين، أنشدت قول بعضهم:

وجدت مصيبات الزمان جميعها   سوى فرقة الأحباب هيّنة الخطب

وقوله الآخر :

وقفنا ساعة ثم افترقنا   وما يغني المشوق وقوف ساعة
كأن الشمل لم يكُ ذا اجتماع   إذا ما فرّق البين الجماعة

نسأل الله أن يجمعنا في الجنة، جمعا لا نخاف بعده بالفراق محنة، وأن يجعلنا من المتحابين فيه، الذين يظلهم في ظلّه يوم لا ظلّ إلا ظلّه، وأن يستعمل قلوبنا وجوارحنا فيما يحبّه ويرضاه، ويلطف بنا فيما قدّره وأمضاه، وأن يختم لنا بالسعادة التي ختم بها لأوليائه ويجعل خير أيامنا وأسعدها يوم لقائه، وأن يفك الأسرى، ويعقّب الشدّة يسراً، متوسلا في حصول ذلك كلّه بخير خلقه، سيدنا محمد، وآله وصحبه والتابعين له من أمته، الفائزين بقربه. آمين. فمن ذلك، ما كتبته إليه حين الملاقاة، لأول وصوله إلينا. نزل الحبيب، ومقدّمة التناجي والتقريب.

أهلا وسهلا بالحبيب القادم   هذا النهار لديّ خير مواسم
جاء السرور مصاحبا لقدومه   والنزاح ما قد كان قبل ملازمي
أفديك بالنفس النفيسة زائراً   من غير ما منّ ولست بنادم
طالت مسائلتي الركاب تشوقا   لجمال رؤية وجهك المتعاظم
لا غرو إن أحببتكم من قبل ما   شاهدتكم أنتم جمال العالم
كانت على سمعي تغار نواظري   حتى رأيتك وأنت أنت مكالمي
عندي الأيادي البيض حيث أريتني   ما كان قبلا في يقين العالم
ولآن صرت من اليقين بحقه   وبعينه إن السرور منادمي

أسميٌّ قطب العارفين لك العلا متبوئا منه أجلّ معالم
أنت الذي في الفضل أصبح مفردا لعلاه ما من مدّع ومزاحم
لازلت ميمون النقيبة طالعا بالسعد ذا الفضل وخدن مكارم

فلما أطلعته على هذه الأبيات، وجدته قد كتب قوله :

سلام عليكم. طال شوقي إليكم وقلبي سواكم في البرية ما أحب
سلام يفوق المسك نشر عبير يعمكم والآل يا سادة العرب
أتيتكم عبدا لقصد زيارة لعلي أؤدّي ما عليّ لقد وجب
فمنّوا على العبد الذليل بدعوة ينال بها حسن الختام مع الأرب
وما كان مرادي أن ألاقيكم على بساط عزيز الملك والحروب في نشب
وما كان في ظني أرى سيدي كما رأيت ألا لله ما تصنع النوب
فصبرا لحكم الله راج ثوابه فإن ثواب الله يأتي على التعب

وكتب الأخ المذكور يدعوني للمسامرة :

أيا سيدا فاق الكرام بمجده وخلق كريم لم يزل طيب النشر
تراه يريح الهمّ حسن حديثه ويبرئ مكلوم الفؤاد من الضر
ألا سمرٌ منكم بذا الليل عندنا فألفاظكم أشهى إليّ من القطر
وإن كان عذرا للتخلّف منكم فحسبي من أوصافكم طيّب الذكر
عليك سلام الله ما قلب عاشقٍ لوصل حبيب راح يهوى مدى الدّهر

فأجبته بقولي :

نعم ولكم فضلٌ بأشرف دعوة غدوت يا صاح منشرح الصدر
وقد قيل لا يأبى الكرامة غير من له عرق لؤم لم يزل في الخنا يسري
لمجلسكم أعلى الكرامة عندنا ولفظكم اشهى إلينا من الدّر
ورؤيتكم أجلى لهمي وإنني غنيت بها عن طلعة الشمس والبدر
عليك تحيّات القبول تكرّما أيا واحدا عندي يعدّ بذا العصر

ومن ذلك ما كتبته إليه لمّا مرض. وعدته صباحا و لم أره مساء :

خليلي قل لي كيف أمسيت إنني تحمّلتُ حزنا منك يعيا له رضوى
لقد مرضت أرواحنا وجسومنا لشكواكم ياليت لا كانت الشكوى
فلا تبغ إتلافي فما لي طاقة على الصبر ياروحي ولستُ لها أقوى
وإني لأرجو الله ينعم بالشفا عليك لنحضى بالسرور كما نهوى

فأجابني بقوله :

بخير لقد أمسيت والقلب شيّق للقياكم شوق المحبّ لمن يهوى
أحنّ لرؤياكم وضرّى ما نعي وذكراكم أنساني الضرّ والبلوى
لئن كان جسمي في الفراش فهمّتي بساحتكم يامن هو الغاية القصوى
سألت إلهي أنْ يخفّف ضرّنا ويجمعنا فيكم ويكشف ذا الشّكوى

ومن ذلك ما بعثت به إليه صباحا سائلا عن حاله في ليلته :

يا قرّة العين قل لي كيف بتّ فقد والله بتُّ وقلبي في لظى الحزن
ممّا عراكم عسى فيه أقسامكم أو حمله كلّه لو كان يمكنني
حتى يتم لنا من وصلكم غرضٌ قد كنت آمله من سالف الزّمن

فأجابني بقوله :

يا قرّة العين عني إن سألت جوى قد بتُّ في ألم من شدّة الوهن
أكابد الضُّرّ والأجفان ساهرةٌ هيهات ما ذاق طرفي لذّة الوسن
والآن لم أك مثل الليل يا سندي الحمد لله ربي واهب المنن
جزاكم الله عنا كل مكرمة من فضله ووقاكم سائر المحن

ومن ذلك؛ ما كتبه لإخواني يعاتبهم في تأخرهم عن عيادته :

مرضت غريبا بين قوم أعزّةٍ فكلهم عن زروتي متمنع
كأنهم في غنيةٍ عن ثوابها أو الطرق لم يعرف لها الدهر مهيع

إذا كنت مصحوب السّلامة أقبلوا وإن كنت في سقمٍ فربعك بلقع
فهذي خصال البعض عند مريضهم فمن لي عند القوم بالعود يشفع
ولولا اصطباري واحترامي إليهم لكنت لهم أفعى بشعري ألسع
ولولا احترامي للأمير وآله لكان كلامي للجبال يزعزع

فأجبته عنهم :

فدنياك لا تعجل بلومك واصطبر وحقك إن العتب للقلب أوجع
لعلّ لنا عذرا يدافع عتبنا وصدرك في تلك المعاذير أوسع
وإن متن الأعذار ما ليس ذكره يليق ومنه مُهجتي تتقطع
ولست غريبا بين قوم أحبه مكانك فيهم من بني الدّهر أرفع
فكم من حزين من بلائك والهٌ يبيت على فرش الضنى يتوجع
وجمعي بكم يبقون جمع سلامة بدار بها نما للتفرق منزع
وجئت "بلولا" فاعلا لجوابها على أنها في النحو قد قيل تُمنع
وإن كنت لسّاعاً فكن خير حية وكن نحلة ترياقها السّمّ يدفع

فأجاب معتذرا :

سلام يفوق المسك والندَّ عرفه يعم حمى قوم كرام المحافل
كرام إذا ما العبد بينهم جنى حبوه بعفو.شامل ومآمل
بقدر عظيم الذنب يعظم عفوهم فأكرم بهم قوما كرام الشمائل
على قدر نقصي عاملوني بضلكم أيا كاملين الوصف لست بكامل
ندمت على ما كان مني ونادم عقيب وقوع الفعل ليس بفاعل
على أن عقل المرء يذهب للقضا فذو العقل ذو علم وليس بجاهل

فكتبت إليه مجيبا عن اعتذاره :

خليلي لا تندم على العتب للحب   فإن خفيف العتبِ أنفع بالطب
فما ذلك مكروه ولا بمحرّم   بشرع الهوى بل ذاك فرض على الصبّ
سبيل الهوى هجرٌ ووصلٌ وفرقة   وجمعٌ وخلفٌ في الزيارة والعتب
وهذي دواع للعتاب كثيرة   لذا كان طول العتب ألزم لحب
وقد قيل يبقى الودُّ ما العتب قد بقي   فلله ما أحلى مقال ذوي اللُّب
"إذا لم يكن في الحبِّ سخطٌ ولا رضى   فأين حلاوات الرسائل والكتب"
وأطيب أيّام الهوى يومك الذي   تروّع بالتعنيف فيه وبالسّبّ

ومن ذلك ما كتبته إليه، أيام شكواه وقد خرج للتنزّه، و لم أشعر به :

يا ملولا لا يملّ   كيف كان اليوم حالك
يا كثير البعد عنّا   كان كالغدر ارتحالك
كنتَ مِن ذا في أمان   فبدا اليوم محالك

فأجابني بقوله :

لا أمِلّ الحب إن كان يملّ   لست أنساه بعيداً أو قريب
ليس يرضى الحبُّ بالغدر ولم   يهو قلبي غيركم قطّ حبيب
حالكم والحال مني واحدُ   وعليكم سادتي مني رقيب

وقد كنّا عوّدناه طعاما فحصل ما أوجب قطعة عنه؛ فكتب لي في ذلك مداعبا :

فرضتم عليكم للمتيم سنة   تؤدونها بعد الفراغ من الفجر
طلبتم بها خيرا ولازمت فعلها   وأحسنتم والحسن من شيم الحرّ
وبعدُ فترتم والفتور مخالف   طباعَ كريم خصّه الله بالأجر
رزقتم مناكم لِمَ ترمون قطعة   ونظمي له لا شك أحسن في الشعر

فأجبته بقولي :

سلام عليكم دائم متتابع … له نفحة من دونها المسك والعطر
وبعد لعذر قد قطعنا عوائدا … تعودّتها يا أيها الماجد الحرّ
وإلا فإثبات الرغائب شرعنا … نرى تركها دنبا له يطلب الغفر
ولو أنني قاسمتكم كل ما لنا … كما قاله الأنصار والفاضل الحبر
لما جئتُ في معشار عشر حقوقكم … ولا كان ذا شيء يؤدي به شكر

ومن ذلك ما كتبته إليه، استدعاءً للأكل عندما يئسنا منه الصحة فإنه، لما مرض، ترك الأكل الذي نعدّه لأنفسنا وكنت أرى أكله، فيما نصنع له من الطعام، كرامة وإيناسا

أما آن للخلّ المريض بأن يبرا … فإن صحيح الجسم منه شكا الضرا
توالت عليه جوعةٌ بعد جوعةٍ … أخوكم لها قد صار كالقلم المبرا
به وكل الجوع المضعف للقوى … فلله ما أنكاه فينا وما جرى
إذا نمت أمسى لي ضجيعا ملازما … وإن قمت أضحى كالغريم بنا مغرى
وقد عشت أياما بظلٍّ جنابكم … فلله عيش ما ألذ وما أمرا
إلى أن هدانا الدهر يوما بجدّه … بعادات بين ما أحدّ وما أفرا
ففرّقنا جمعا كذّر صفوفنا … وجوّعنا جوعا فقدنا له صبرا
فإن شئت فلتبرا لعلك مدركي … وإلا فإن الجوع قد هيأ القبرا
بهذا أشار الناصحون لعلّكم … ترقّون أو أتاني لنا منكم البشرى

فأجابني بقوله :

خليلي لا تجزع من الجوع إنه … إلى كل معتّل هو الغاية الكبرى
لأنك مصدوعٌ وإن بتّ آكلا … يثير صداعا ذلك الأكل والصفرا
وعبدك إن يشفيه مولاه في غد … سيأكل أكل الفيل فهنأ بها بشرى
ليقضي قد فات إن كان واجبا … وفي الشرع تقضي كل فاتنة قسرا

ومن ذلك ما كتبه إليّ :

أيا أهل فن الطب بالله خبّروا أيوجد للصبّ النحيل دواء
نهكت سقاما لم أجد لي شافيا وقلبي من غي الخليل هواء
كلفت بها وهي الفريدة التي تجمَّع فيها الحسن وهي ضياء
ولا عيب فيها غير فرط دلالها وفي القلب منها للتباعد داءُ
أريد وصالا وهي تقصد ضدّه أيمكن للضدّين ثم لقاء
وأسأل مِن ربي اللقاء فإنه قديرٌ ولي في ذي الجلال رجاءُ

فأجبته :

سألت رجال الطب أخبر كلهم وهم أهل تجريب وأهل ذكاءِ
بأن سقيم الحب هيهات ما له دواءٌ إذا ما الحبُّ أصبح ناءِ
عسى ولعل الله أن يبرد الأسى فإن رجاءَ الوصل بعضُ دواء
ولو لم يكن للعاشقين تقرّب لوقت وصال ما بقوا لمساء
وإن دام هجر الحب أو ازداد بينه فيذلك داءٌ لم يزل بشفاء
وفيمن مضوا في شرعة الحب والهوى له أسوة فليصبرن لبلاء

كتب هذا خادم المجاهدين، عبد القادر بن محي الدين، كان الله له ولأحبته في الدنيا ويوم الدين معتذرا لمحبه، ومتنصلا من ذنبه، عمدا كان أو غلطا، آتيا أو فرطا. هذا وإني أعترف بأني ما أعطيت لأخي المذكور حقه، ولا وفيت له مستحقه إذ ليس عندي لأخوتي من الحقوق مع الأخ المذكور إلا ما للإناث مع الذكور؛ فإنه لازمني أيام نفور الحميم والقريب، وآنسني حين لا أنيس لي من الجنس أو غريب، وتجشّم شقةً دونها أكبر مشقة في مكان لا يقتحمه الأسد الهصور، بل تنقطع

دونه أجنحة النسور. وكنّا، قبل وروده علينا، نناغي الحائم ونسامر الفرقدين والحمائم، وإن كانت الحمائم، إذا صدحت، لا تفهمنا وتجيبنا بالشجى فتدنفنا كما قيل :

رُبَّ ورقاءً هتوفٍ في الضحى ذات شجو صدحت في فنن
ذكرت إلفا وعهدا في الحمى فبكت حزنا فهاجت حزني
فبكائي ربما أرّقها وبكاها ربما أرّقني
ولقد تشكو فما أفهمها ولقد أشكو فما تفهمني
غير أني بالجوى أعرفها وهي أيضا بالجوى تعرفني

ويرحم الله أبا فراس الحمداني، أحد الأدباء الشجعان وكان أسره الروم مرّتين، حيث قال :

أقول وقد ناحت بقربي حمامة أيا جارتا هل تشعرين بحالي
معاذ الهوى ما ذقت طارقة النوى ولا خطرت منك الهموم ببال
أيا جارتا ما أنصف الدهر بيننا تعالي أقاسمك الهموم تعالي
تعالي تريْ روحا لديّ ضعيفةً تردد في جسمٍ يعذّب بال
أيضحك مأسور وتبكي طليقة؟ ويسكن محزون ويندب سالي!
لقد كنت أولى منك بالدمع مقلةً ولكن دمعي في الحوادث غال

قال المحقق التفتزاني : كان بنو حمدان ملوكاً. وجوههم للصباحة، وألسنتهم للفصاحة، وأيديهم للساحة، وأبو فراس واحدهم بلاغة وبراعةً وفروسية وشجاعة حتى قال الصاحب بن عباد : بدأ الشعر بملك وخُتم بملك، يعني امرأ القيس وأبا فراس، وقد أدركته حرفة الأدب وأصابته عين الكمال فأسرته الروم، في بعض وقائعها، فازدادت

روميته رقة ولطافة. فمنها ما قال وقد سمع حمامة قريبة منه تنوح، وهي على شجرة عالية: (أقول وقد ناحت)، الأبيات. وهو القائل أيضا :

أسرت وما قومي بعزل لدى الوغى ولا فرسي مهرٌ ولا ربّه غمر
ولكن إذا حُمّ القضاء على أمري فليس له برّ يقيه ولا بحر

(انتهى)

وقد رأيت، للسيد محمد الشاذلي المذكور، بعض أبيات فمنها ما عزّى به الأمير، في موت إحدى سراريه وولدها. وهو قوله :

خليلي إن تجزع فحقّ لك الجزع بسرد مصيبات لها صدرنا انصدع
حليلتكم ماتت كذا النجل بعدها وسجن بأرض الكفر كلّ لكم قرع
مصائب جلّت بعضها يذهب النهى ويفقد معه الصبر كيف بها جمع
ولكن قضاء الله يلزمه الرضى وحليلته صبر يدوم بلا جزع
وإن جلّ خطب المرء فالله مفزع فما خاب ذو خطب إلى ربّه فزع
أعزّيكم والصبر فيكم جبلّةٌ رزقتم عظيم الأجر والفوز بالورع

وقال مداعبا للأمير، حيث لم يحضر للعشاء معه لأمر أوجب التخلّف عنه:

تعشيتم من غير رعيٍ لحاجتي وما ذاك إلا حيث لم تك لي عِرس
ولو حضرت عرسي لما بتّ طاويا وتصنع لي والله ما تشتهي
سألت إلهي أن يساوي بيننا ويجمعنا حيث المسرة والأنس

وقال وقد أكثر يوما من أكل صفار البيض مع الأمير؛ فأثّر فيه يقظة ومنامة:

أيا معشر العُزّاب أصغوا لناصح شفوق عليكم للأمور مجرب
وإياكم أكل الصفار فإنه يهيج طبعا للنفوس معذّب

يحـــرّك عضـــوا لا يطاق دفاع إذا لم يكن صبرٌ وذاك مجـــرّب

والشيخ الشاذلي المتقدم ذكره هو العالم الفاضل، الشيخ محمد ابن محمد بن إبراهيم بن أحمد، الصوي النسب. كان أجداده يسكنون طولقه، من أعمال الزاب، في ولاية قسنطينة. فارتحل جدّه إلى قسنطينة وسكنها. ولد سنة اثنين وعشرين ومائتين وألف (1222) واشتغل في تحصيل العلوم على مشايخ، أفاضل أجلاّء، وتوفي رحمه الله في سنة أربع وتسعين ومائتين وألف (1294)، ودفن في تربة أسلافه.

وفي التاسع والعشرين من صفر سنة خمس وستين ومائتين وألف 1265، والعشرين ديسمبر (كانون الأول) سنة ثمان وأربعين وثمانمائة وألف 1884، انعقد مجلس خصوصي للنظر في أمر الأمير. وكان رئيس هذا المجلس البرنس لويس نابليون الثالث رئيس الجمهورية، والمارشال بيجو، وشانكرني من أعضاء المجلس. فتكلّموا في قضية الأمير واختلفت الآراء وأظهر البرنس نابليون ميله إلى صحة العهد ووجوب الوفاء به. فأيّده المارشال بيجو في جماعة من الأعيان، وخالفه الباقون —وكانوا أكثر عدداً-. فلم يسع الرئيس إلا السكوت. ثم استحسن بعضهم أن تكتب الحكومة إلى الأمير في تغيير شروطه التي اشترطها على الجنرال "لامورسيير"، وقبلها ثم أيّدها حاكم الجزائر، الدوك دومال ووافق عليها والده. فاستحسنوا ذلك وأمروا المارشال بيجو بأن يتولّى هذا الأمر. فكتب ما ملخصه :

"إلى الأمير عبد القادر.

كان مرادي التوجه إلى حضرتك لأفاوضك في أمرك الذي أنت فيه ولكن منعني اضطراب الأحوال. وحيث أن الكتاب قد يقوم مقام كاتبه فيما يرومه، فإني أقول إنك قد قاسيت أهوالا عظيمة، وبسببك احتملت بلاد الجزائر مصائب جمّة، ولحق فرنسا منها أوفر نصيب. ومن حين ألقيت بنفسك وبمن معك إلى العساكر الفرنساوية، وصرتم في قبضتها، حدث في فرنسا اضطراب لم ينقل في التاريخ مثله. فلا شك أن بلادك وبلادنا استحقتا هذا القصاص لأمر ما. فإن الله حكم عدل. ولا أحدٌ يدرك ما يريد. فالملك الذي سقط في الأيام الماضية كان وعدني وعدا وثيقا بإطلاق سراحك وإرسالك إلى مكة. ثم جاءت الحكومة التي قامت عليه وخلفته؛ فنظرت في أمرك وجنحت إلى ما جنح إليه الملك ولكن أجبرها الصوت العمومي على ترك ذلك والآن، أخبرك إخبار صاحب حقيقي لك : إنه ربما تمضي سنون عديدة ولا يتيسر لك التوجه إلى المواضع التي طلبتها. وإن سلّيت نفسك بالأماني الباطلة، فإن ذاتك تصير في أشد الكدر. وبناءً على ذلك أشير عليك أن تكون على حسب الحال لتي أبرزتها حوادث الدهر على وفق الإرادة الإلهية وذلك بأن توطن نفسك على جعل فرنسا وطنا لك. فتطلب من الحكومة أن تعطيك أملاكا جديدة في أرضها، ينتج لك منها ما تعيش به، كواحد من كبرائها، مع مداومتك على آداء وظائفك الدينية كما تريد، وبلوغ مرادك من تربية أولادك حيث أني أعلم أن أمر المعاش لا يهمك وإنما يهمك مستقبل أولادك، مع حقوق الجماعة، الذين هم في معيّتك. فإنك تراهم يموتون كمدًا مع أنهم لو كانوا في أرض تخصهم، لكانت أيامهم تمضي بكل سرور لأن حراثة الأرض ألذ

شيء عندهم، ويمكنهم أن يتنزهوا، ويتسلوا بالصيد، متى شاءوا. فيكون لهم، من رؤية أشغالهم كل يوم، فرح جديد. والحق –تعالى– لم يخلق شيئا أعظم تسلية للأنفس من منظر الأشجار والنباتات الغريبة الكون، الحسنة اللون.

فهذا ما أشير به بحسب حقوق الإنسانية وبالخصوص عليك لما ألمّ بك من المصائب، مع اتصافك بالصفات الحسنة التي وهبها الله لك. راجيا قبول تحياتي المقدّمة مع الإكرام والاحترام".

في الخامس من ربيع الأول، سنة خمس وستين ومائتين وألف (1265)، والثامن والعشرين من كانون الثاني سنة تسع وأربعين وثمانمائة وألف (1849).

فأجابه الأمير بقوله :

"لو جمعتْ فرنسا سائر أموالها ثم خيرتني بين أخذها وأكون عبدا وبين أن أكون حرا، فقيرا، معدما، لاخترت أن أكون حرا فقيرا. فلا تراجعوني بمثل ذلك الخطاب، فإنه ليس عندي بعد هذا الخطاب جوابٌ. والى الله ترجع الأمور وبيده كشف هذا الديجور".

"قال" بعض مؤرخيهم : ومن عجيب أمر هذا الأمير العظيم أن هذا الخطاب المرعب، المؤذن لسماعه باليأس مما ينتظره من الفرج، لم يؤثّر فيه ولم يصرفه عمّا هو عليه، يعني من الاشتغال بالعلم، ومطالعته فنونه، وإفادة طالبيه، والإدمان على أداء الصلوات المفروضة في أوقاتها، والعكوف على تأليف الرسائل وتوضيح المسائل ... "

ومما ألّفه في مدّة إقامته بأمبواز، رسالة سماها "المقراض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام من أهل الباطل والإلحاد" ولما كانت هذه الرسالة

عظيمة الفائدة، رغبت أن أثبت ما ذكره ، قدّس الله سرّه، من سبب وضعها، ومجمل أبوابها. وأذكر من الباب الثالث جملة كافية لاشتمالها على المقصود منها، ليكون المطالع على يقين في الدين.

قال رضي الله عنه بعد الخطبة :

أمّا بعد؛ فإني، في أيام إقامتنا في أمبواز، عند الدولة الفرنساوية الفخيمة، تكلّم أحد رؤساء الدين المسيحي في الإسلام وقال :

إن الغدر وعدم الوفاء فيه غير قبيح ولا منهي عنه. فسمعه بعض من له محبّة ورغبة في إظهار الحقّ؛ فجاء إليّ وألح في الطلب على أن أضع في هذا الأمر رسالة تتضمن بيان ما في شرع الإسلام مما يكذّب قوله وينبذ سخفه. فاعتذرت إليه بالحال التي نحن فيها. ثم أعاد الطلب وشدّد فيه وذلك حين أفضت رئاسة الجمهورية إلى فرع شجرة عظماء ملوكهم : البرنس لويس نابليون بونابرت. فأجبته معترفا بأني لا أصلح أن أكون تلميذا لعلماء الإسلام، فضلا أن أكون من جملتهم.

ولما كان المقصود من هذه الرسالة بيان حكم شرع الإسلام في الغدر والوفاء، وذلك مستلزم لذكر كلام المشرّع، وكلام الله -تعالى- المترل عليه، وكلام للتابعين له حقيقةً، لزمني ضرورةً، تقديم كلام في إثبات الألوهية ثم في إثبات النبوة والرسالة، لأن هذه الأمور مرتّب بعضها على بعض. فهي كالأساس لما نذكره.

وقد رتبت هذه الرسالة على : مقدّمة، وثلاثة أبواب.

المقدمة : في كلام العقل، وما يتعلق به.

الباب الأول : في إثبات الألوهية. وفيه ثلاثة فصول. الأول : في النظر في خلق الأرض، وما يتولد منها. والثاني : في النظر في خلق السموات، وما فيها من بديع الحكم. الثالث : في النظر في خلق الإنسان الذي هو المقصود بالإيجاد. وكل شيء خلق لأجله.

الباب الثاني : في إثبات النبوة مع الرسالة. وفيه فصلان. الأول : في إثبات الرسالة على الإطلاق والعموم. والثاني : في إثبات رسالة مشرع دين الإسلام على الخصوص.

الباب الثالث : في موضوع الرسالة، وهو بيان ما ورد في الشرع من وجوب الوفاء والأمر به، وترك الغدر والنهي عنه، وما يتعلق بذلك كالصدق والكذب.

وترتيب هذه الرسالة وضعاً هو بحسب الترتيب عقلا لأن إثبات الألوهية مرتب على وجود العقل، وإثبات النبوة والرسالة مرتب على إثبات الألوهية، وبيان ما يحمد وما يذم من الأقوال والأفعال والصفات مرتب على إثبات النبوة والرسالة. وسمّيتها "المقراض الحادّ لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام من أهل الباطل والإلحاد".

ثم أخذ في تقرير مسائل المقدمة والأبواب والفصول، وأتى في ذلك بفوائد لم يسبق إليها، وفوائد لم يتقدّمه أحد إلى الغوص عليها وبسط الكلام في الباب الثالث. وقال فيه رضي الله عنه.

اعلم أن شريعة محمد عليه الصلاة والسلام مشتملة على محاسن الأخلاق ومحامد الآداب وكل ما يكون به الوفاق والائتلاف والاتفاق والخلوص بين العباد، وتصلح به المعيشة الدنيوية، وتعمر به البلاد، سواء في ذلك أهلها أو غيرهم. فدين الإسلام يحتوي على كل شيء مستحسن، لم ينكر منه عدو، ذو عقل سليم، شيئا، بل كلّ جاحدٍ له وكافر به إذا سمع ما يدعو إليه، صوّبه واستحسنه، دون طلب برهانٍ عليه، لوضوحه. فهو دين جامع، لكل ما تفرّق في الأديان والشرائع السالفة كما قال المسيح عليه السلام: ما جئت لأبطل التوراة ولكن جئت لأكمله. فكذلك محمد عليه لسلام ما جاء ليبطل التوراة والإنجيل ولكن جاء ليكملهما. فالتوراة جاء بالقصاص : "النفس بالنفس" والإنجيل جاء بالعفو : "إذا لطمك أخوك على خدّك الأيسر، ضع له خدّك الأيمن" والقرآن جاء بالقصاص في قوله : ﴿**كتب عليكم القصاص، في القتلى** ...﴾[1] (الآية). وبالعفو في قوله : ﴿**فمن عفا وأصلح فأجره على الله**﴾[2] إلى غير ذلك مما يطول تتبعه. وإلى هذا، أشار (ﷺ) بقوله : " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" تعريفا بأن الأنبياء قبله بعثوا بمكارم الأخلاق، وبقيت عليهم بقيّة؛ فبعث بما كان معهم وبتمامها. (قال الحكيم الترميذي) ... فما من خلق حسن، ولا صفة حسنة، سواءٌ يدرك العقل حسنها، أو لا، مما يحصل به طيب الحياة

1. سورة البقرة، الآية 178.

2. سورة الشورى، الآية 40.

الدنيا إلا جاء الشرع بحمدها والأمر بها، والوعد عليها بالجنة. وما من صفة ذميمة أو خصلة لئيمة مما يحصل به التنافر بين العباد إلا جاء الشرع بذمها والنهي عنها والتوعد عليها بالنار. وبيان ذلك في مثل الصدق والوفاء، والإحسان والإيثار، والاقتصاد في الأمور، والاشتغال بعيب النفس عن عيوب الناس، والإنصاف من نفسك، وإنفاق المال لصيانة العرض، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإصلاح ذات البين، وإماطة الأذى عن الناس، والاستشارة، والأدب، والاحترام، والإجلال لأفاضل الناس، وإدخال السرور على الناس والإرشاد لهم بالتعليم والتربية، وإفشاء السلام، وإكرام الجار، وإجابة السائل، والإعطاء قبل السؤال، واستكثار قليل الخير من الغير، واحتقاره من نفسك، وبذل الجاه، وبذل البشاشة، والبشر في وجوه الناس، والتواضع، والتعاون على الخير، والتأني، والتوادُّ، وتنزيل الناس منازلهم، والصبر، والتغافل عن زلل الناس، وتحمُّل الأذى، وترك الأذى، وترك الكبر، وتجنب العجب، وترك معاداة الرجال والجدال والتكلّف، وتجنب مواضع التهم، وتجنب الظلم ... إلى غير ذلك كالثبات في الأمور، وجلب المصالح للعباد، ودفع المفاسد عنهم، والحلم، والحياء وحفظ الأمانة والعهد، وحماية العرض، والصمت عما لا يعني، والتعقّل في المقال، والتأمل فيه، وحسن الظن، وطيب المعاشرة، وطلب المعيشة ورحمة الضعفاء والصغار، والرضا بالدون من المجالس، والرقة ، وخدمة الضيف والأصحاب والفقراء، والرفق في المعيشة، والرأفة، والزهد في الدنيا، والسخاء، والسماحة، والصفح عن

المذنب، والصدقة، وصلة الرحم، وطهارة الباطن، والعفّة، والعدل، والعفو، وعلوّ الهمة، والقيام بحق الحقّ تعالى والخلق، وقبول الحقّ، وقضاء حوائج الناس، وكظم الغيظ والمداراة، والمخاطبة بلين الكلام، والمعاشرة بالمعروف، ومعرفة الحق لأهله ولمن عرفه لك، والمكافأة، وهضم النفس، وترك الحقد والحسد وحبّ المال، وتجنّب الغلّ والكذب والغدر والغش والإيذاء، وتجنّب الظلم والجفاء والجور والطيش، وترك العجلة والبغي، وتجنب الحدّة وجحد الحق وإنكاره، وترك إثارة الفتن، وتجنب ضيق الصدر، وترك سوء الظن، وتجنب قلّة الرحمة وقلّة الحياء، وتجنب الحرص والحمق، وترك حب الرئاسة، وتجنب كفران لنعمة، وترك طلب العلو على الناس، وترك الطمع، وتجنب الجهل، وترك المكر والخيانة والمخادعة وغير ذلك. فإن الأخلاق المحمودة والمذمومة غير محصورة فيما ذكرناه.

واعلم أن التحلي بالصفات المحمودة والتخلي عن الصفات المذمومة، هو المسمى بحسن الخلق. وهو الذي عناه رسول الله (ﷺ) بقوله : "البر حسن الخلق". رواه البخاري، ومعناه الفعل المرضي الذي هو جامع لخيري الدنيا والآخرة.

ثم أخذ في تعريف الخلق وتقسيمه. وذكره أن مهمّات محاسن الأخلاق أربعة؛ وهي : "الحكمة والشجاعة، والعفّة والعدل". وبين فروعها وثمراتها، وقال -بعد أن نهى الكلام فيها وفيما يتعلق بها- : ولم يبلغ كمال الاعتدال في هذه الأخلاق المحمودة إلا الأنبياء والرُسل

-عليهم الصلاة والسلام- وأكملهم مشرّع دين الإسلام وهو نبينا. ولهذا قال : "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق". وقد شهد له القرآن بذلك. قال الله -تعالى- مخاطبا له : ﴿**وإنك لعلى خلق عظيم**﴾[1]. والناس متفاوتون في القرب والبعد منه. فكل من قرب منه في هذه الأخلاق الحميدة، فهو قريب من الله بقدر قربه من رسول الله (ﷺ) وهو المسلم حقيقة. وكل من فقدت منه هذه الصفات، فهو بعيد من رسول الله (ﷺ) وليس بمسلم حقيقة. فكيف يظن ظانٌّ، أو يتوهم متوهم، فيمن خلقه الله، مطبوعا على كل خُلق تستحسنه العقول السليمة أن يكون فيما شرعه نقصٌ تنكره العقول الكاملة، ولا تسلم به الآراء الفاضلة. فهو رحمة أرسلها الله للعباد. ولذا قال -عليه الصلاة والسلام- :"إنما أنا رحمة مهداة إلى الخلق". وقال -تعالى- يخاطبه : ﴿**وما أرسالناك إلا رحمة للعالمين**﴾[2]. فهو رحمة لمن دخل في دينه ولمن لم يدخل فيه.

فإن قلت : هذا ينافي ما في شرع الإسلام من الجهاد والقتال، فإنه ليس بحسن في وصفه، ولا رحمة ظاهرة فيه لأنه تعذيب عباد الله وتخريب بلاده، وليس بذلك بحسن؛ قلنا إنما صار حسننا بواسطة دفع الضرر عن الإسلام، وقطع أذاية المحاربين لأن الله تعالى قضى بإرادته وبما سبق في علمه أن تكون أمة الإسلام أكثر الأمم المخالفة لها حتى تكون نسبة كل أمة إليها نسبة إلى الجزء إلى الكل والعقل الحاكم، من غير تردد، بأن رعاية الأكثر مقدمة على رعاية الأقل، وبأن حرمة الواحد ليست كحرمة الجماعة. فالنفوس الهالكة

---

1. سورة القلم، الآية 4.

2. سورة الأنبياء ، الآية 107.

بالقتال، لقلّتها، ساقطة من الاعتبار. فكأنها بالنسبة إلى النفوس الناجية شرٌّ قليل واقع، بجنب خير كثير. ولا يليق بالصانع الحكيم ترك خير كثير لشرّ قليل ...

واستمر رضي الله عنه ينسج على هذا المنوال إلى أن قال :

فماذا يقول القائل في شرع الإسلام الذي أحكامه كلها جارية على ما يستحسن كل عاقل، ويستصوبه كل فاضل كامل، ويتعالى ويتنزّه مشرّعه الذي جمع الله فيه صفات الكمال، أن يكون في شرعه نقص كالغدر والكذب، والخيانة والخديعة. هذا من المحال. قال الله تعالى : ﴿**يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود**﴾[1]. والعقود؛ هي العهود الموثقة. فهذا؛ أمر منه –تعالى– لعباده، بالوفاء فيما يعقدون. وقال –تعالى– : ﴿**ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البرّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون**﴾[2].

قال البيضاوي : البرّ كل فعل مرض. والآية ترى جامعة للكمالات الإنسانية بأسرها، دالة عليها تصريحا أو ضمنا. فإنها

1. سورة المائدة، الآية 1.

2. سورة البقرة، الآية 177.

بكثرتها وتشعبها منحصرة في ثلاثة أشياء : صحة الاعتقاد، وحسن المعاشرة، وتهذيب النفس.ولذلك وصف المستجمع لها بالصدق نظرا إلى إيمانه، واعتقاده وبالتقوى اعتبارا لمعاشرته للخلق، ومعاملته مع الحق تعالى وإليه أشار عليه الصلاة والسلام"بقوله : من عمل بهذه الآية، فقد استكمل الإيمان".

وقال تعالى : ﴿**إن شرّ الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون**﴾[1]. أي لا يخافون سيئة الغدر ولا يبالون بما فيه من العار والنار. وقال تعالى : ﴿**وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلّكم تذكرون**﴾[2]. وقال تعالى : ﴿**خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين**﴾[3] أي : لا تكافئ السفهاء بمثل قولهم. وقال تعالى : ﴿**وإما تخافنَّ من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين**﴾[4]. أمر الله نبيه إذا عاهد قوما من العدو وظهرت منهم علامة نقض العهد أن يطرح لهم العهد ويخبرهم إخبارا بينا واضحا أنه نقض العهد الذي بينه وبينهم. ولا يعاجلهم بالحرب، وهم على توهم بقاء العهد حتى يعلمهم، ويأخذوا حذرهم ويستعدّوا. ومن لم يفعل هذا يكون خائنا في العهد. والله لا يحب الخائنين في العهود. وقال تعالى : ﴿**براءة من الله ورسوله،**

1. سورة الأنفال، الآية 55-56.
2. سورة الأنعام، الآية 152.
3. سورة الأعراف، الآية 199.
4. سورة الأنفال، الآية 58.

إلى الذين عاهدتم من المشركين فسيحوا في الأرض أربعة أشهر﴾[1]. كان عليه السلام قد عاهد الكفّار والمشركين إلى آجال معدودة. فمنهم من وفّى فأمره الله أن يتم من نقض أو قارب النقض؛ فجعل له أربعة أشهر يسير فيها آمنا حيث شاء، وبعدها لا يكون له عهد. وقال تعالى : **﴿إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقضوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين﴾**[2]. فقوله : **﴿إن الله يحب المتقين﴾**[3] تعليل وتنبيه على أن إتمام العهد من باب التقوى. وقال تعالى : **﴿إنما يتذكر أولوا الألباب الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق﴾**[4]. وقال : **﴿أوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا﴾**[5] وقال : **﴿وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا﴾**[6]...

ولم يزل على هذا الأسلوب يسرد الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية وأقوال الفقهاء، وحكم الحكماء. يؤسس المباني ويوضح المعاني إلى أن ختم الرسالة بما جلبت عليه الأمة العربية من مكارم الأخلاق وذكر ما لها في مدح الوفاء والصدق، وذم الغدر والكذب.

---

1. سورة التوبة، الآية 1.
2. سورة التوبة، الآية 4.
3. سورة التوبة، الآية 4.
4. سورة الرعد، الآية 19- 20.
5. سورة النحل ، الآية 91.
6. سورة الإسراء ، الآية 34.

ثم قال : وباقي الأمم وإن كانت تفي بالعهد وتستقبح الغدر والكذب، فالأمة العربية أكثر .وأشد من جميع الأمم، في ذلك. فإنهم، في جاهليتهم، كانت لهم نفوس ذكية وأخلاق مرضية، وأفعال كريمة وهمم عظيمة، وعقول راجحة، وآراء ناجحة، وشرف صميم، وأنفة من كل خلق ذميم. طُبِعوا على خصال الفضل والمروءة قبل أن تكون بينهم النبوة. قال مؤلف "الدّر والعقيان"، الإمام الحافظ التونسي : روي عن شبيب بن أبي شيبة، قال : كنا في مجلس اجتمع فيه كثير من الأشراف، فورد علينا ابن المقفع وكان من أشراف الفرس وحكمائها وعلمائها وعقلائها، فقال لنا :

– من أفضل الأمم؟ فنظر بعضنا إلى بعض وقلنا لعلّه يميل إلى أصله.

– فقلنا فارس.

– فقال : ليسوا هناك. ملكوا كثيرا من الأرض وحووا عظيما من الملك ولبثوا في ذلك دهرا؛ فما استنبطوا بعقولهم شيئا.

فقلنا : الروم.

فقال : أصحاب صنعة.

فقلنا : الصين.

فقال : أصحاب طُرفة.

فقلنا : الهند.

فقال : أصحاب فلسفة.

فقلنا : السودان.

فقال : شر خلق الله.

فقلنا : الخزر.

فقال : نَعَم سائمة.

فقلنا : فمن.

فقال : العرب. فضحكنا.

فقال : ما أردت موافقتكم ولكن إذا فاتني حظي من النسب فلا يفوتني حظي من المعرفة والأدب.

وذكر المؤرخون الأقدمون أن "يزدجرد" بن سابور ذي الأكتاف لما ولد له ابنه "بهرام جور" أخبره منجموه عن مولده وسعادته وجدّه ومصير الملك إليه بعد شدّة ومحنة، وأنه ينشأ بين أمة نائية، ذات همم عالية، وحلوم زاكية، ونفوس أبية ... ففكر يزدجرد في خصائص الأمم ومزاياها؛ فرأى أن العرب أولى الأمم بتلك الأخلاق التي وصفها له المنجمون. ووقع اختياره عليهم. فكتب إلى النعمان الأكبر، بن امرئ القيس. فاستحضره مع جماعة وافرة من رؤساء العرب وسادتها. فواصلهم، وبرّهم وسلّم إليهم ابنه "بهرام جور" وأمرهم بكفالته؛ فاسترضعوا له نسوة إلى أن كبر. وكان من أمره ما يطول ذكره. (نقله مظفر الأندلسي، في كتابه "السلوانات") وإذا كان طبعهم ما ذكره في زمن الجاهلية؛ فكيف بعدما هذّب طبعهم الوحي، والآيات القرآنية؟ ولذا تراهم في الجاهلية والإسلام أكثر مدحهم بالصدق والوفاء، وأشدّ ذمهم بالغدر والكذب. ولهم أسجاع وأشعار تخرج عن حدّ الإحصاء. فمنها :

أنه قيل لبعضهم : ما قيمة الصدق؟ قال: طول العمر في الدنيا.

– قيل له : فما قيمة الكذب؟ قال : موت عاجل.

–وقيل لبعضهم : ما أفضل المروءة؟

– قال : رغبة الرجل في الوفاء بوعده وعهده.

– وقال بعضهم : من وفا بالعهد فاز بالحمد. ومن عرف بالصدق قُبل كذبه. ومن عرف بالكذب لم يقبل صدقة.

– وقال بعضهم : أربعة من علامات اللؤم : استعمال الغدر، وإفشاء السر، وإساءة الجوار، وتجنب الأخيار.

– وقال بعضهم : من النفاق غش الصديق، ونقض العهود والمواثيق.

– وقال بعضهم : وعلامة الإيمان حسن الخلق وحفظ العهود والمواثيق. وعلامة النفاق نقض العهد وإخلاف الوعد.

– وقال بعضهم : لا سيف مثل الحق. ولا عون مثل الصدق.

– وقال بعضهم : فعل المرء يعرب عن أصله. وقوله يعرب عن عقله.

– وقال بعضهم : صونوا المواعيد من الإخلاف، والأيمان من حنث الأوغاد والأجلاف.

– وقال معاوية ،يوما، لخالد السدوسي : إنك تحبّ علي بن أبي طالب حبا مفرطا.

– فقال : أحبه، والله، لحلمه إذا غضب، وعدله إذا حكم، ووفائه إذا وعد.

- وقال بعضهم لولده : يا ولدي، لا خير في قول إلا بفعل، ولا في مال إلا بجود، ولا في صدقة إلا بوفاء، ولا في حياة إلا بصحة وأمن.

- وقال بعضهم : من كذب ذهب جماله. ومن ساء خلقه كثر همه.

- وقال بعضهم : أعظم الناس قدرا رجل واحد وهو من لا يبالي في يد من كانت. وأجود الناس رجل واحد وهو من جاد عن قلّة.وأسوأ الناس حالا رجل واحد وهو الذي يثق بأحد لسوء ظنّه ولا يثق به أحد، لسوء فعله.

- وقال بعضهم : لازم الصدق جدّاً وهزلاً، ولا ترض العبيد بإسخاط المولى.

- وقال بعضهم : رجاحة العقل أوقع في النفوس، ومخالفة الفعل للقول تنكّس الرؤوس.

- وقال بعضهم : شر الناس من لا يعتقد أداء الأمانة، ولا يتجنب الغدر والخيانة.

- وقال بعضهم : سعادة الإنسان في سلامة الصدر وصدق اللسان.

- وقال بعضهم : الفاضل يعجّل بالوعد قولا، ويعقبه بالإنجاز فعلا.

ثم قال ،بعد أن أكثر من النقل في هذا المعنى : وللعرب في المدح بالوفاء، والذم بالغدر أشعار كثيرة، منها قول امرئ القيس في المدح :

وتعرف فيه من أبيه شمائلا ومن خاله ومن يزيد ومن حجر
سماحة ذا وبر ذا ووفاء ذا ونائل ذاك ذا صحا وذا سكر

وقول ابن الزبعري يمدح قوما :

الخـالطين فقيرهـم بغنـيهم   حتى يكـون فقيرهـم كالكـافي
والقائليـن بكـل وعد صادق   والظاعنين لرحـلة الإيـلاف

وقول الحسن السبط (رضي الله عنه) :

ولا أقول نعم يوما فأتبعها   خلفا ولو ذهبت بالمال والوالد

وقول الآخر :

علـت مكانتـه فقـرّ مكانـه   فتأكـد التنزيـه والتفـضيل
يكفيكم ما قد بدا من صدقـه   والصدق بالعز المكين كفيـل

وقول ابن الخطيب

وأحكمت عقد السلم لم تألُ بعده   وفاءً فصحّ العقد واستوثق الربط
تقرُّ لك الأملاك بالشيم العلا   إذا بذل المعروف أو نصب القسط

وقول أبي القاسم

ولا أنسى العهود ولو جفاني   عليها أقاربي طرّاً وناسي
ولا أدري لنفسي من كمـال   سوى أني لعهدك غير ناسي

وقول الآخر :

إنّ الوفـاء علـى الكريم فريـضة   واللؤم مقرون بـذي الإخـلاف
وترى الكريم لمن يعاشر منصفـا   وترى اللئيم مجانب الإنصـاف

وقول الآخر :

قـومٌ إذا عقـدوا عقـدا لجـارهم   شدّوا العناج وشـدّوا فوقـه الكربـا
أولئك الأنف والأذناب غيرهم   ومن يساوي بأنف الناقة الذنبـا

وقول الآخر :

اعلـم بـأن صـداقة الأبـرار أن تجعـل الإعـلان كالإسـرار
إن اللسان هو الضمير فوعده ووعيده ديـن على الأحـرار

وقول الآخر :

إذا قلت في شيء "نعم" فأتمّه فإنّ "نعم" دينٌ على الحرّ واجب
وإلا فقل "لا" تسترح وترح بهـا لئلا يقول الناس أنك كـاذب

وقول الآخر :

أناشـدكم والحـرّ أوفـى بعهـده ولن يعدم الإحسان والخير جازيـا
خيالا على بعد المزار يلمّ بـي فيذكرني من لم أكن عنه ساليا

وقول ابن الحباب :

فضلك مشهور ووعـدك ثابت وذكرك منثـور وفعلـك مرتـضى
فكيف يحل المبطلون بإفكهم معاقد صدق أحكمتها يدُ القضـا

وقول الآخر :

لا تقـولن إذا مـا لم تـرد أن تتم الوعـد في شـيء "نعـم"
فإذا قلت "نعم" فاصبر لهـا بوفـاء العهـد إن الخلف ذمّ

وقول حسّان بن ثابت :

هجوتَ محمدا فأجبت عنـه وعنـد الله في ذاك الجـزاء
هجـوت مبـاركا برّاً تقيـا رسول الله شيمتـه الوفـاء

وقول لبيد :

وما حملت من ناقة فوق رحلها أبـرّ، وأوفى ذمة من محمّـد

هذا آخر الرسالة. ولولا خوف الإطالة، والخروج عمّا اقتضته اسبة لما نقلناه منها، لأثبتناها كلّها.

طالت المدّة وازداد الأمر شدّة. قال، مستغيثا بحضرة المصطفى (ﷺ) :

ماذا على سادتنا أهل الوفا   لو أرسلوا طيف الزيارة في خفا
يترصد الرقباء حتى يغفلوا   ويكون مانع وصلنا ليلا غفا
فإذا تمكنت الزيارة خفية   يأتي مواعد وصلنا متلطفا
ويكون قبل حلوله أفرشته   خدي وطاءً للنعال وللحفا
ويكون بيت نزوله قلبي الذي   وحياتهم من حب غيرهم عفا
ضيف له نزلٌ لدي كرامةً   كبد شواها البعد في جمر الجفا
يا سعد إن كنت البشير بوصله   فلقد أتيت على المسرّة والوفا
لو أن نفسي لي إليك بذلتها   وأراه بذل مقصّر ما أنصفا
وتكون يا سعد المساعد للذي   من هجر من يهواه صار على شفا
لم يبق يوم البين والهجر الذي   خلقا لتعذيب الأحبّة مسعفا
إلا صبابته وجسما قد غدا   ملقىً كشنٍّ بالفلا لن يخصفا
زفرات قلبي جمر نارٍ أجّجت   منها دموع العين فاضت ذرّفا
هل من منام للدّيغ بمرّة   فضلا عن المرّات أو هل من غفا
بمحاجرٍ مِن حاجر أقذاء قد   طرقت ضيوف الطيف جاءت طوّفا
مهما تألّق برق سلع والحمى   كادت تفيض النفس منه تأسفا
وأراه سيفا صارما وسط الحشا   فعل الأفاعي أو شهابا ما انطفا
يحكي زفيري رعده ورياحه   وبوبله حاكى دموعي الوكّفا
وإذا جرى ذكرُ العقيق وأهله   أجرى العقيق تأسفا وتلهفا

يا أهل طيبة مـا لكـم لم ترحمـوا صــبًا إذا لنـــوالكم متكففـــا
لا تجمعوا بـين الـصدود وبعـدكم حسبي الـصدود عقوبـة فلقـد كفـى
لم أدر شيئا قبـل معرفـة الهـوى حـبي لكـم مـا كـان قـط تكلّفـا
مـا بـالهم يـا صـاح لم يتـذكّروا صـبًا كئيبـا في المحبـة مـدنفا
مــا قيــل ذاك أسـيرنا وقتيلنــا بـين العـوادي والأعـادي مثقفـا
قلبي الأسير لـديكم والجـسم في أســر العــداة معــذِّبا ومكتفــا
حاشــاكم لجميــل ظــني فــيكم أن تــشمتوا في العــدو المرجفــا
ولطالمــا لام العـــذول بحـــبكم وأطـال عــتبي ناصـحا ومعنّفـا
ولكم جنى كيمـا يـصرّف وجهـتي عن وجـه ودكـم ولم يـك مـصرفا
ويــودّ لــو أنــي سـلوت هــواكم فيكـون لـي خــلاً وفيـا منـصفا
قلـب الـشجى كمـا علمـتم إنــه لا ينــثني عــن حــبكم متخوفـا
يبغــي الوصـال ولـو تمـزّق تالفـا ويلـذ بالتعـذيب إن يـك متلفـا
يسري ولو أن الظـلام عـــداته ويسيــر لو كان النهار المرهفـــا

ولما انتخب لويس نابليون لرئاسة الجمهورية وثبتت قدمه فيها، وجه عنايته إلى الأمير بالتوسعة عليه والخروج للتتره خارج البلدة. فكان الأمير يخرج كل يوم خميس في العربية، محفوفة بالعساكر الخيّالة، وبقية جماعته يخرجون مشاة، مع العساكر المشاة إلى الأماكن البهجة، اللطيفة المنظر. وعين لأمواتهم مدفنا في طرف البستان داخل السراية. ودفن فيه نحو العشرين نفسا بين ذكور وإناث، فيهم للأمير ابنان، وبنت، وأم ولدٍ مولّدة وأخرى سودانية. وجعلوا عل تلك المقبرة حاجزا من حديد. وقد زرتها سنة ثلاث وثمانين ومائتين وألف (1283) و لم تزل محفوظة إلى الآن.

ذكر أخبار البرانس لويس نابليون وما أجراه من تسريح الأمير واستيلائه على عرش المملكة وتسميته إمبراطور فرنسا

ولما تمكّن البرانس، لويس نابليون، من زمام الأحكام، وأحسّ من نفسه القوّة والترقي إلى الملك، أنف من المساهمة وأخذ يجدع أنوف الأحزاب وأهل العصبيات وباشر الأمور بنفسه. فاستمال قلوب العامّة والعسكر واستجلبهم إليه بلين الجانب وحسن السياسة. وكان من جملة ما دبره في قضية الأمير ثم أبرزه للعيان، تفريق جماعته ليسهل عليه الوصول إلى وفاء العهد الذي جعله الملك فيليب ورؤساء الجمهورية في زوايا الإهمال. فكتب إليه :

"إن الإنسان، إذا وقع في وحل، يتعين عليه في خلاصة منه أن يرفع رجلا بعد أخرى. وقد أردنا أن نطلق سراح من لهم أقارب في وطن الجزائر من جماعتك الذين هم معك في أمبواز. فإن رجوعهم إلى وطنهم أولى لهم وأربح لك من القيام بشؤونهم".

فأجابه الأمير إلى ذلك. ولما جاء الأمر بسفرهم، أخبرهم الأمير بذلك فصعب عليهم فراقه. وبعد سفرهم بمدّة، أتى أمر في سفر إخوة الأمير وأتباعهم. فأخذوا إلى مدينة الجزائر ومنها إلى عنابة، في تخوم بلاد الجزائر، من جهة تونس. ولما سافر إخوة الأمير من فرنسا، و بقي فيها، قال :

ألا إن قلبي يوم بنتم وسرتم غدا حائما خلف الظغون يسير
يقاسي مرار الموت من ألم الجوى فما لي إلا أنّة وزفير
رحلتم ولو تدروا رحمتم فبينكم لخطبي يوم للبلاء عسير

وكنت ليوم البين أعددت عدة وفي الظن ما أعددته لكبير
فخان الذي أعددته لفراقكم وولت جيوش الصبر وهي غرور
فلو أنكم يوم الفراق أعرتم قلوبكم لي إنني لصبور

وبعد أيام، كتب البرنس يعتذر إلى الأمير عن فصل إخوته عنه. وقال :

"إنما فعلت ذلك لأختبر أحوال الأمة الفرنساوية من جهتكم، فإن سكتوا و لم يتعرّضوا؛ بعد أيّام قليلة أطلق سراحكم للمشرق وإلا فأقول : إن غريمكم، والمقصود بالحكم، هو نفس الأمير، ولا زال محبوسا. ولما تبين لنا الآن رضاء الأمة بما فعلناه، فأبشر عن قريب يحصل لك الفرج".

وكانت المراسلات سريّة، بين البرانس والأمير، بواسطة القبطان "بواسني" الموكل بأمور الأمير.

ذكر زيارة البرانس نابليون الثالث للأمير عبد القادر في قصر "أمبواز"

ولما سنحت الفرصة للبرانس في إنجاز وعده، اعتزم على الخروج من باريس يتفقّد أحوال الولايات. فلما مرّ بمدينة "تور"، بعث إلى القبطان "بواسني" يخبره بمروره على "أمبواز"، ويأمره أن يتلقاه في موقف السكة الحديدية التي تقلّه ويهيؤا له عجلات يتوجه فيها إلى القصر ليجتمع بالأمير. فلما كان اليوم المعيّن، يوم الثلاثاء ثالث المحرم سنة تسع وستين ومائتين (1269) والسادس عشر من (أكتوبر) تشرين الأول سنة اثنين وخمسين وثمانمائة وألف (1852)، خرج البرانس من "تور"، وفي معيته

المارشال "سنتارنو" وزير الحرب، والجنرال "روغو" والكرونيل "فلوري". ولما وصل لمحطة السكة الحديدية، نزل وسلّم على الجمهور الذي ينتظره، ومكث قليلا ثم ركب متوجها إلى القصر. ولما قرب منه، نزل الأمير عند باب القصر.فلمّا رآه البرانس، نزل عن العجلة، فتلقاه الأمير وسلّم عليه ثم مشى البرانس، ويده في يد الأمير، إلى أن دخلا القصر. ولما استقر بهما المجلس، في المحل المعد للاستقبال، أقبل البرانس على الأمير وسأله عن حاله، وضيق صدره، وحبسه بهذا المحل أربع سنوات ثم قال :

"إنكم قد جلبتم دقّة نظري، واستلزمتم محبتي بما اشتهرتم به من الخصال الحميدة والبسالة والشجاعة، وجميع ما أبرزتموه من أنواع المدافعة عن وطنكم. ولا أنظر إليكم بنظر الأسير بل بضيف محترم".

فأجابه الأمير : "إنني كنت أسمع بمحاسن أخلاقكم، وعلو جنابكم المعلومين عند الجميع. فتعشّقتكم غيابا وتولّد في قلبي لكم محبة عظيمة. وبهذا اليوم قد ازداد حبي وتعظيمي لما أظهرتموه من اللطف والإحسان. وإنني، مدّة إقامتي بهذا القصر، قد رأيت من أهالي فرنسا الحرمة التي لا أنساها أبدا. وكنت أعامل بمعاملة ضيفٍ لا بمعاملة أسير".

فقال البرانس : "إنه كان في خلدي، من مدّة، أنني لو أجد سبيلا إلى خلاصك من يد من لم يكترثوا بوفاء العهد لك ما تأخرت عن ذلك. ثم إن البارئ تعالى وجّه قلوب الشعب الفرنساوي إليّ، فاختاروني رئيسا لحكومتهم. ولأول قبضي على زمام الأحكام، صمّمت على إظهار ما

كان في الخيال إلى العيان، والآن صار وقته". ثم أخرج ورقة من جيبه وناولها للأمير وقال : "هذه ورقة تسريحك، تعلن بوفاء عهد فرنسا لك". فأخذها الأمير مستبشرا بما سمعه منه، ودعا له وأثنى عليه.

ونص ما في الورقة :

"عبد القادر، إنني أتيت لأعلن لك بحريتك. وإنّك ستُحمل بمن معك إلى عاصمة سلطان تركيا. وذلك بعد الفراغ من الترتيبات المقتضية لسفرك. وستعيّن لك الحكومة الفرنساوية مرتبا يليق بمقامك. واعلم أن سجنك قد كدّرني، كدرا حقيقيا، مدّة طويلة. وكنت أحسب أن الحكومة السابقة قد قصّرت جدا حيث أهالم تتمم ارتباطاها معك. وعندي أن عدم الثقة بأمة عظيمة من جهة نقض عهدها، يحط قدرها وشأنها. وأخبرك بما اعتقده فيك، وهو أنك لا تحرّك ساكنا في الجزائر لعلمي أن ديانتك توجب عليك الخضوع والتسليم لأحكام القضاء والقدر. فإن استيلاء فرنسا على الجزائر ما وقع إلا بإرادة الله تعالى. واعلم أن دولة فرنسا بل الأمة كلها لا تتخلى عن ذلك الاستيلاء، وآخرها يموت قبل أن يسلم فيه. وإذا كنت عدوا لفرنسا، فلا يمنعني ذلك من أن أشكر أخلاقك الحميدة، وشجاعتك، وصبرك على الشدائد. ولذلك، أفتخر بإطلاقك، واثقا ثقة تامة بقولك .

حرر في السادس عشر من (أكتوبر) تشرين الأول سنة اثنين وخمسين وثمانمائة وألف 1852".

ثم قال البرانس للأمير : إنني بعد عشرة أيام، أراك في باريس لتحضر الاحتفال المقرّر إجراؤه. ووجودكم بذلك الاحتفال يكون باعثا للافتخار".

ثم هُيِّئت سفرة الغداء، وكان الأكل جزائريا. وبعد الفراغ من الغداء، قام البرنس إلى المتتره المطل على البلد ونواحيها. وعند خروجه منه، قدّم له الأمير والدته، فقبّل البرانس يدها وسألها الدعاء. ثم قدّم له أولاده وخليفته والأتباع ... فحيوه تحية إعظام وإجلال، وأظهروا له السرور والحبور بما أنعم على سيدهم وعليهم؛ فقابلهم بالقبول والبشاشة، واستمر ماشيا، والأمير معه حتى وصلا إلى الموضع الذي استقبله فيه عند باب القصر.

قال بعض المؤرخين : ولهذا القصر آثار تاريخية. وهو أنه كان مقرا لكثيرين من ملوك فرنسا. وأول من اتخذه مقرا "لويس" الحادي عشر الذي أصدر منه أمر "سن مشيل"، و"شارل" الثامن؛ ولد وتوفي فيه وزاد له "لويس نابليون" الثالث شرفا عظيما حيث أعطى الحرية فيه للأمير عبد القادر.

ذكر توجه الأمير إلى باريس ولطائف أخباره وما هبت به نسيم رحلته المعطرة بنفحات آثاره

ولمّا مضت تسعة أيام من الموعد، جاء الأمر بتوجه الأمير إلى باريس. وشاع الخبر في فرنسا؛ فهرع الناس إلى باريس، من كل فج ليحضروا احتفال دخول الأمير إليها. وفي اليوم الحادي عشر الذي جُعل موعدا للسفر وهو الرابع عشر من محرم سنة تسع وستين ومائتين

وألف 1269، والسابع والعشرين من أكتوبر (تشرين الأول) سنة اثنين وخمسين وثمانمائة وألف 1852، توجّه الأمير وبمعيّته قره محمد والسيد علال والقبطان بواسني، الموكل بأموره من أمبواز. وتبعد نحو أربع ساعات عن باريس، بالسّكة الحديدية. وكان يوم وصوله يوما مشهودا بالاحتفال الذي أجرته دولة فرنسا لدخوله إلى عاصمتها.

قال بعض المؤرخين : وصار للأمير احتفال عظيم يستحقه مقامه السامي. واستقبلته الوزراء ورجال الحكومة. وغصّت أزقة باريس على اتساعها بجماهير الناس. ولما شاهدوه، استولى عليهم الطّرب.

قال مسيو "شارل إينار" الفرنساوي، في بعض كتاباته على تصرُّفات الجنرال "لاموريسيير" مع الأمير، وتقلّبات الأحوال كيف جعلت الجنرال المذكور يمشي في طرقات باريس بدون أن يلتفت إليه أحد، وأن المغلوب (يعني الأمير) يدخلها دخول الانتصار والأهالي جميعها تزدحم لمشاهدته. واتفق أن صاحب ملعب باريس الكبير كان عازما على تشخيص يجريه تلك الليلة، يحضره البرنس، وسائر الوزراء، ورجال الدولة. فبعث وزير الحرب نائبه الكرونيل "هنري" إلى الأمير يخبره بذلك. فاعتذر بالتعب من حركات سكة الحديد. ولما أخبره بحضور البرانس إلى الملعب، أجابه إلى ذلكوسار به الكرونيل إلى المحل المعد له، فتدافع الناس إلى رؤيته واشتدّ ازدحامهم حتى سدّوا عليه الطريق.

قال بعضهم ولما دخل الأمير إلى الملعب، وجّه كلٌّ من كان حاضرا فيه نظره إليه. ولمّا بلغه حضور البرانس إلى غرفته في الملعب،

بعث إليه يستأذنه في الاجتماع به، فأذن له ولما خرج متوجها إليه قام ذلك الجمع الوافر، رافعين البرنيطات، تحية له. وتلقاه البرانس، عند باب الغرفة ثم أجلسه إلى جانبه وأخذ يسأله عن أحوال عائلته عموما وعن والدته خصوصا. فكان الأمير يجيبه عن ذلك مع كمال التشكر. وقال له : إن الوالدة كانت في خامس عشر أكتوبر تمشي متكئة على العصا. وفي السادس عشر منه صارت تمشي مستقلّة، من غير عصا. وأشار بذلك إلى ما كانت عليه، قبل البشارة بإطلاق سراحهم من الضعف والوهن، وما حصل لها من النشاط والقوة بعدها.

ولّما انتهت الفرجة، أقبل البرنس على الأمير وودعه وأخبره أنّه سيتوجّه في غد تلك الليلة إلى الصيد. وبعد يومين يرجع ويجتمع به في قصر "سانكلو". وفي غياب البرنس، جال الأمير، في أنحاء باريس وساحاتها، وردّ زيارات الوزراء، ورجال الدّولة. وفي اليوم الثالث رجع البرنس ودعا الأمير إلى القصر.

قال بالمار في تاريخه، وكانت الدّولة عينته لصحبة الأمير مدّة إقامته في باريس : بينما كنت جالسا في محل الاستقبال إذ خرج الأمير من حجرته وفي يده ورقة وقال :

"بلغني أن جرائد فرنسا ذكرت أن البرنس، لّما حضر إلى أمبواز، اشترط علي شروطا وعلّق تسريحي على قبولها وأنه استحلفني على الوفاء بها، وأني قد قبلت تلك الشروط، وحلفت له على الوجه الذي أمر به، مع أن هذا لم يقع، بيني وبين جلالته، أصلا غير أني لّما كنت في

"أمبواز"، قبل سفري هذا، عزمت على أن أجدّد عهدي للبرنس إلى أن رجع إلى محلّ ضيافته".

ثم إن البرنس أدب له مأدبة حافلة في قصر "فرسالية" حضرها سائر الوزراء، فمن دونهم من أعيان الدولة.

قال بالمار في تاريخه : ومنذ دخل الأمير إلى باريس، صار ينتقل بين مأدبة يدعى إليها، ومنازه تعرض عليه فيجيب لها،وصناعة غريبة، يطّلع عليها. وكان يخاطب الناس على حسب أحوالهم ومشاربهم، فقوّاد العسكر يذاكرهم في أمور الحرب وما يتعلق بها من الوقائع المشهورة، والعلماء يباحثهم في المسائل العلمية، والوزراء ومن شاكلهم، في الأمور السياسية. وهكذا ... حتى بهر العقول، وملأت محبته وهيبته الصدور. وكان من الزائرين من يقصده لأداء التشكر على جميل صنعه معه في أيام ملكه، لاسيما الذين كانوا أسارى عنده، وأباح لهم إحسانه. وقد طلب بعضهم أن يكون في عداد خدمه وأتباعه، أينما كان، نظرا لما شاهده من كماله، وناله من أفضاله. والحاصل إن ما رآه أهل باريس، من محاسن الأمير، ومكارمه، وما رآه هو منهم، من حسن المعاملة، والمجاملة، لا يصفه لسان ولا يأتي عليه قلم. ومرّ يوما، في بعض أسواق باريس، والناس مصطفون عن اليمين والشمال، يحيونه بتحيات التبجيل والتعظيم، فقال له بعض الأعيان :

هؤلاء الفرنسيس الذين كانوا بالأمس من أشد الأعداء لك، تراهم اليوم يجلون مقامك، ويتمنون طول حياتك، ويتأسفون على ما تحملته من الصبر

في بلادهم، على الظلم الذي نالك من حكومتهم السابقة. فانشرح لذلك صدر الأمير وحمد الله تعالى وشكر صنيع البرنس نابليون.

وفي أثناء إقامته، توجه إلى رئيس أساقفه باريس، وشكر له قيام الراهبات بخدمته وخدمة من معه في أمبواز، أربع سنين. فارتاح الرئيس لحديث الأمير، وقال :

– إن هذا، نراه من الواجبات الدينية، والوظائف الإنسانية. ثم توجّه إلى قبر نابليون الأول. وعند الانصراف قال :

إن هذا الرئيس، وإن كان شخصه قد زال، فإن ذكره لايزال ينتقل جيلا بعد جيل. ثم توجّه إلى المارستان. وعند دخوله إليه، رآه رجل مسن من المرضى. فتكلّف القيام له. فلما رآه الأمير على تلك الحال، تقدّم إليه شفقة عليه. فأخذ الرجل يده، وصافحه، ثم شكره، ودعا له. وكان هذا الرجل من الجند الذين حاربوا الأمير ووقعوا في أسره، وغذّوا بإحسانه وبرّه. ثم توجّه إلى معمل المدافع وأنواع السلاح. ومن الغد، توجّه إلى المطبعة الكبرى. وكان البرنس بعث الصك الذي دفعه الأمير إلى رئيسها ليطبعه. فلما جاء الأمير، أراد الرئيس أن يظهر مهارته في شيء يعدّ غريبا بين يدي الأمير فرسم الصك في مطبعة خط اليد؛ فانطبع وارتسم على هيئته الأصلية. وكتب على قطعة حرير أبيض ما صورته : "الحمد لله وحده، الشريف المعظم والأمير المفخم، الحاج عبد القادر، أطال الله أيامه وسرّ حياته، شرف بزيارته المباركة دار الطباعة الأميرية الفرنساوية، في سنة 1852 المطابقة 1269"

فتعجب الأمير لذلك. ثم اطلع على جميع أعمال المطبعة وأشغالها. وعند الانصراف منها، سأله بعض الأعيان عما رآه. فقال بالأمس رأيت صناعة المدافع التي تهدم بها الحصون والقلاع. وفي هذا اليوم، رأيت الحروف التي تغلب بها أسرة الملوك وتخرّب دولهم وهم لا يشعرون. وبعد انتهاء المدة المعينة لإقامته في باريس استأذن في الرجوع إلى أمبواز ليتهيأ للسفر إلى "بروسة". فأذن له البرنس ثم دعاه إلى الحضور عنده. وعند الدخول عليه، تلقاه ببشاشة وطلاقه وجه وأحسن السؤال عن أحواله في باريس وعمّا رآه فيها من احتفال أهلها به وإكرامها إيّاه. ثم قال له :

"إن دولة فرنسا ستعين لك مرتبا من الدراهم شهريا، يكفي لنفقاتك ويغنيك عن التناول من خزينة غيرها. وقد كنت أمرت أن يهيأ لك سيفٌ يليق بمقامك. والآن تبين أنه لا يتم العمل فيه قبل سفرك إلى تركيا. بناء عليه، سيصلك في بروسة، على يد السفير، في الأستانة. واعلم أنني أقدّم لك هذا السيف، وأنا على يقين، بأنك لا تجرده على فرنسا".

فأجابه الأمير : "إنني الآن ممن يستعمل القلم، لا ممن يستعمل السيف".

فتبسّم البرنس وقال : "حيث أنك سلمت سيفك إلى قائد جيش فرنسا أحببت أن تخرج من بلادها بسيف عوضا عن سيفك"

قال بالمار : وهذه الهدية كانت عنوانا على ما في صدر البرنس من المودّة للأمير. فلذلك تلقاه الأمير بالقبول، ونصف هذا السيف قديم.

وقد رسم عليه : "من الإمبراطور نابليون الثالث إلى الأمير عبد القادر بن محي الدين، في شهر ديسمبر اثنين وخمسين وثمانمائة وألف 1852" ثم إن الأمير ودّع البرنس وسافر إلى "أمبواز". وفي أثناء إقامته في باريس كان الأديب الشاعر، أحمد أفندي فارس الشدياق، مقيما فيها. فامتدح الأمير بقوله :

ما دام شخصك غائبا عن ناظري ... ليس السرور بخاطر في خاطري
يا من على قرب المزار وبعده ... حبي له والشوق ملء ضمائري
إن كنت لي يوما فديتك وافيا ... ما ضرّني إن كان غيرك غادري
فإذا رضيت فكل سخط هين ... وإذا وصلت فلم أبال بهاجري
وإذا بقربك كنت يوما نافعي ... لم أخش شيئا بعد ذلك دائري
يا فاتني بدلاله وثماله ... وكماله، وجماله، ذا الزاهر
عقلي سلبت ومهجتي فارددهما ... لا أجيد مدح شمائل لك باهر
وليعلم العذّال أني صادق ... في وصف حسن علاك وصفة شاعر
يا محرقي شوقا بفاتر جفنه ... رأيت قبلي محرقا بالفاتر
يا بدر تمّ راع قلبي حبّه ... يا شمس حسن قد تملّك سائري
يا ظبي أنس شاق عيني شكله ... لكن له طبع الغزال النافر
هلاّ رثيت لحالتي ورفقت بي ... ووعدتني عدّة ولفظ الظاهر
كلم الحشا مني وعيدك قسوةً ... قبل الفراق بأن تكون معاشري
لو كنت تدري ما لقيت من النوى ... لرحمتني ووددت أنك زائري
مذ غبت عنك ارتدّ عن طرفي الكرا ... من بعد ما هدأ ارتداد الكافر
واهتاج وجدي واستثيرت لوعتي ... وبدا بحبك ما تكنّ سرائري
إني وحق هواك غاية مطلبي ... وسنا محياك الصبيح الناظر

من يوم لحت لناظري ما راقني شيء ولم يملأ جمالا ناظري
ما كان حسن سواك يوما شائقي كلاّ ولا لحظٌ لغيرك ساحري
أهوى لأجلك من حكاك بشكله لا شكله إذا ذاك دون النادر
كيف اصطباري اليوم والأجل انقضى وأبيتَ إرضائي بطيفٍ زائر
وبمهجتي أني أراه ساعة قبل الممات معانقي ومسامري
هبه أتى فلقد يراني ساهرا والطيف ليس براقد مع ساهر
أنسيت عهدي حيث ملت مع الهوى ولقد عهدتك ما ذكرتك ذاكري
أمّا أنا فكلما علمت على النوى والقرب صبٌّ فيك غير مغايري
شيئان لست أطيق صبرا عنهما ذكرى لقاك ومدح عبد القادر
هو ذلك الشهم الذي شهدت له كل البرية بالفعال الفاخر
ومناقب محمودة وشمائل مرضيةومحامد ومآثر
هو ذلك المولى الممدّح سعيه عند الإله وعند كل مفاخر
هو ذلك الفرد الذي أفعاله أمدوحة البادي وفخر الحاضر
وهو المهيب لدى الملوك نزاهة والنازح الصبّ الكريم الطاهر
من معشر العرب العريق نجادهم أهل المكارم كابرا عن كابر
العاملين بمحكم التنزيل والتحريم والتحليل حزب الحاشر
الناحرين إذ غشوا وإذا دعوا يا للبراز فنحرهم للناحر
المؤثرين على خصاصتهم وقد نظروا إلى الدنيا كشيء غابر
ولربّ قوم يحبسون خلاقهم فيها وغابر لهواها كالغابر
ولديهم ردّ التحية منّةٌ كبرى بها إحياء عظم ناخر
يحيي الليالي بالدعاء تهجّدا فيميت في الأعداء أي جماهر
ويروع أفئدة الرجال لقاؤه حتى يخوروا عن نداء الناصر
في قلب كل محنك من رعبه ما عنه يحجم كلّ ليث زائر

وبكل حرف من بليغ كلامه ... حرف يفلّهم كحرف الباتر
الفضل شيمته وسيمته التقى ... لله واستباح أجر الصابر
يولي الندا قبل السؤال وبشره ... للزائرين منوّه ببشائر
يغنيهم عن أن يمنّوا عنده ... بضرورة وافتهم وأواصر
جهد الزمان غلاوة فكبا ولم ... يبرح وفيه لديه سورة آجر
ولقد يكون النسر يوما واقعا ... ويعود بعدُ إلى مطير الطائر
فالله ينصر من يغار لدينه ... والله يخذل كل عاتٍ فاجر
والله عزّ يداول الأيام ما ... بين العباد لسابق ولقاصر
سكن الأمير وطار في الدنيا اسمه ... وروى المعالي عنه كلّ معاصر
فالعجم بين موقر ومبجل ... والعرب بين مفاخر وكاثر
يا ناصر الدين العزيز وحزبه ... يا خير صبّار وأعظم شاكر
يا خير ناه عن تعاطي منكر ... وبخطبة المعروف أفضل آمر
لا تخش من باس فربّك قاهر ... بدعائك الميمون جيش الجائر
لك حيث كنت عناية صمدية ... ترعى حماك ونصر رب قادر
كن كيف شئت فإن أجرك ثابت ... في اللوح وهو أجلّ دخر الذخر
فإذا مدنت فأنت أعظم حاذر ... وإذا ظعنت فأنت أكرم ساهر

وبعد؛ فالمرجو من كرم سيدي المكرم، الأمير المعظم، أن يسمح لي بالمثول بين يديه، ساعة من الزمان قبل سفره بالسلامة من هذا المكان. فإن كثير الشوق إلى تقبيل راحته، والى التبرك بيمين حضرته ولولا خوفي من الملام، لوافيت بهذه الأبيات وقدّمتها بيدي لذلك المقام. لكن خشيت من إساءة الأدب والجرأة على القدوم قبل الطلب. وإني لأمركم المعالي منتظرٌ وداع لجنابكم بالعزّ المستمر.

في أواخر نوفمبر تشرين الثاني سنة تسع وستين ومائتين وألف 1269".

فقابله الأمير بغاية من الإكرام والاحترام وسرّ بقصيدته وزيارته، وأجزل جائزته. وكنت دائما أسمع من الأمير، حينما ترد عليه القصائد من الشعراء يتمثل بقول القائل :

إذا جهلت مكان الشعراء فأي مفخرة أبقيت للعرب

بعد وصول الأمير إلى أمبواز، أخذ يتهيأ للسفر، وفي تلك الأيام انعقد مجلس النواب، الأمة الفرنساوية، للمذاكرة في إدالة جمهورية بالإمبراطورية. وبعد الاتفاق على ذلك، صدرت الأوامر إلى إيالات فرنسا بالانتخاب. ولما بلغ الأمر إلى الأمبواز، بعث حاكمها إلى الأمير، يقول :

حيث أنك أقمت في هذه البلدة أربع سنين، فلك حقّ الاشتراك مع أهلها في الانتخاب.

فأجابه الأمير إلى ذلك، وكتب، هو ومن معه، انتخابهم للبرنس نابليون.وجعلت أوراقهم في درج مخصوص. وبعثها الحاكم مع أوراق أهل البلد. ولما تم الانتخاب، حكم المجلس للويس نابليون الثالث بالإمبراطورية، ونفذّ الأمر بذلك. وأصبح إمبراطور فرنسا، وانتشر الخبر.

وفي العشرين من صفر والثاني من ديسمبر(كانون الأول)، توجّه الأمير إلى باريس ليؤدي مراسيم التهاني. فأكرم الإمبراطور وقادته وأعظم تهنئته وخصه بمجلس، حضره الوزراء ورجال الدولة في قصر (التويلري) ولأول دخوله عليه تلقاه، وصافحه، وقال له :

-" أرأيت أيها الأمير كيف كان صوتك ميمونا علي "

- "فأجابه الأمير : إن صوتي قد أعرب عما في ضميري من إرادة الخير لك. وإني أحمد الله تعالى الذي عجّل لك بالجزاء عني بما تريد قبل خروجي من فرنسا.

فسرّ الإمبراطور وتهلّل وجهه لهذا الجواب. وبعد أن تحدث مليا في أمر السفر وما يتعلق به، ودّع كل منهما الآخر. وانقلب الأمير راجعا إلى أمبواز. وبعد أيام، كتب إلى "دوران دوليس"، وزير الخارجية. فأجابه بما نصه :

"الأمير الأمجد قد اتصل بيدي كتابكم الكريم، وأعلم : أنني لو بذلت جميع ما في وسعي في حصول مطالبك، لا أرى أني وفيت لمقامكم العظيم حقّه، وعلى كل حال، فإني الآن أخبركم أن الأشياء التي أشرتم بها قد أجاب لها الإمبراطور وأمر بتنفيذها. فأعددنا لك سائر ما يلزم لسفرك من أمبواز إلى مارسيليا ومنها إلى بروسة. والقومنداان "بواسني" ومن معه في خدمتكم من طبيب وترجمان، وغيرهم، قد أجاز وزير الحرب أن يكونوا بمعيتكم ويستمروا في خدمتكم إلى بروسة. وأقاربكم الذين حضروا من طنجة إلى مارسيليا ليتوجهوا معكم، وهم السيد مصطفى أبو طالب، والسيد الطيب بن المختار، ومن معهم؛ قد بعثت إلى حاكم مرسيليا أن يقوم بشؤونهم إلى أن يجتمعوا بكم. وما أشرتم به من إسعاف أم بولاد، فإنه حاز القبول وأمر الإمبراطور أن يرتب لها، في كل سنة، ستمائة فرنك. والمكاتيب التي بعثتها إلى خادمكم، الحاج الحبيب بن المهر، المقيم الآن في تونس، قد

وجهناها إليه، وأوعزت إلى قنصل فرنسا هناك أن يسعفه بما يحتاج إليه ويحمله إلى محل إقامتكم مجانا من غير نوال وما ذكرتموه عن «الفيسيان ميلي» الذي خدمكم في هذه المدّة، من كونه نصح في الخدمة وصدق فيها، قد بلغته إلى وزير الحرب واكتسب الفسيان بذلك رضاه. ولا بدّ أن يعامله بما تحبون له. واعلم بأن السفير في اسلامبول قد أخبرنا أن حضرة السلطان أمر لكم بمنزل يليق بكم في بروسة. فسترون هناك ما يسركم ويسرّ من معكم وبالجملة فإن مطالبكم كلّها حازت القبول. وكنت أتمنى أن أراكم عند السفر. وأُجري الوداع مشافهة. ولكن كثرة أشغالي حالت دون ذلك. وحيث توفرت عندي أسباب المودة لكم، وجب علي أن أخبركم بأني أحبكم وأن مودتي لكم تستمر دائما على ماهي عليه الآن. فلا تبرحون من بالي وستسير روحي معكم، برا وبحرا.

حرر في باريس في الثامن من صفر سنة وستين ومائتين وألف (1269)".

وفي أول ربيع الأول، سافر الأمير بأهله ومن معه من أمبواز إلى الأستانة. وما من بلد يمرّ عليها إلاّ تلقاه أهلها بالمبرّة والإجلال. ولما قارب مدينة ليون الشهيرة، تلقاه الجنرال "مونتوبان بالكاو" –وكان حاضرا يوم تسليم الأمير، برتبة ضابط؛ فأبدى للقائه الاحتفال الكامل. واصطفت الجنود خارج البلدة. وفي اليوم الثاني، جمع الجنرال العساكر وكانت نحو العشرين ألف، ما بين خيالة ومشاة، في سهل خارج البلد. وخرج هو والأمير. وكنت بمعيته مع بعض جماعته.

وعند وصول الأمير والجنرال إلى مصاف العسكر، سلّمت عليه ثم باشرت في عمل إيقاع حربي بإطلاق البواريد والمدافع. وكانت تكر على بعضها وتفرّ، وتقبل وتدبر. واستقام ذلك من بعد الزوال إلى قرب الغروب. ثم دخلوا البلد. وكانت مزينة بالمصابيح والأعلام، بزينة كاملة. وذلك اليوم مع ليلته كان من المواسم المعدودة. وفي اليوم الثالث، توجّه منها في إعزاز وإعظام إلى أن دخل مرسيلية وقد أمعن أهلها في حسن استقباله. فأقام فيها إلى أن تهيأ لركوب البحر. وسافر في الباخرة الحربية التي أعدّتها الدولة الفرنساوية لسفره. وجعلت مسيرها لإرادته. ولما وصل إلى جزيرة صقيلية، نزل بسيسيليه فتلقاه حاكمها وأجلّ مقامه، وخرج معه، في جماعته، إلى المدينة. وجال في أرجائها ثم سار على عربة الخيل، وكنت فيمن كان بمعيته، إلى جبل النار وهو أحد البراكين المشهورة. وكان سيرنا ثلاثة أيام، تارة على العربات وتارة على الخيل إلى أن وصلناه ثم صعدنا إلى أعلاه، فرأينا النار ترمي بصخور موقدة، أمثال البخت، إلى أسفل، ثم تصير ماء جاريا يلتهب نارا. وهذا من أعجب ما يرى، ويسمع من آثار القدرة الباهرة؛ ثم جعلنا ننظر إلى نواحي الجزيرة، وسهولها الممتدّة المغطاة بشجر الليمون بأنواعه، ومحارثها الواسعة، وجبالها الشامخة المغطّاة بشجر الزيتون، ومناظرها الزاهية الباذخة؛ فتذكّرنا من سكنها وعمرها من المسلين كأنهم ما برزوا في رباها ولا تحلوا بسناها. وهذه الجزيرة واسعة، كثيرة المدن والقرى والحصون. وأول من غزاها من المسلمين معاوية بن خديج، والي إفريقية ، في خلافة

معاوية بن أبي سفيان؛ ولم يفتحها. ثم تتابع الغزو إليها في أيام بني الأغلب، من أول إمارهم إلى آخرها، واستولوا على أكثرها. ولم يزل الفتح فيها، والغزو إليها إلى أن انقضت مدّة بني الأغلب سنة مائتين وست وتسعين (296) كما تقدّم ثم تجدد الغزو إليها والفتح في أيام الفاطمين إلى أن فتحها عاملهم، أحمد بن الحسين سنة ثلاثين وخمسين وثلاثمائة (353) واستمرّت في أيدي المسلمين إلى أن استردها الإفرنج واستولوا عليها. وذلك أنه لما ضعف أمر الخلافة، وركد ريحها، نفرقت كلمة أمراء الجزيرة واستقلّ كل واحد منهم في إمارته، فوجد الإفرنج سبيلا للإجلاب عليها. وأخذوا ينتزعون تلك الإمارات من يد المتغلبين عليها ، واحدة بعد أخرى إلى أن بقي بأيدي المسلمين منها مدينة "قصر يانه" ومدينة "جرجت" وهما من الأمصار العظيمة. فنازلهما الإفرنج سنة أربع وثمانمائة وأربع مائة (494). واتصل تضييقهم على من بهما من المسلمين شهورا عديدة. فلما اشتدّ عليهم المر، ولم يجدوا من ينجدهم من مسلمي وراء البحر، أذعنوا للتسليم. فأخذهما الإفرنج منهم وصارت الجزيرة كلها بأيديهم. ووقع بأهلها مثل ما وقع بأهل الأندلس. وهي الآن من مملكة إيتاليا. ولله الأمر من قبل ومن بعد.

وقد وصفها وقتئذ العلاّمة، سيدي الطيب بن المختار. وذكر ما لحق بها وبمن سكنها من المسلمين من أنواع النوائب وصنوف المصائب، ثم تخلّص إلى مدح الأمير فقال :

هــذي صــقيلية لاحــت معالمهــا　　تجرّ تيهـا فـضول الـريط مـن أمـم
دار أقــرّ لهـــا بالفـضل ذو نظــر　　والفضل مـا شـهدت فيـه ذوو الهمـم
كانت منار هدى كانـت محـط ردى　　كانت سماء شموس الفضل والكـرم
هـــذي منـــازلهم تبكـــي مآثرهـــا　　بكـاء طـرفٍ قـريحٍ بـات لم يـنم
هذي المساجد قـد دكّـت قواعـدها　　هـذي المـآذن بالنـاقوس في سـقم
هذي المحاريب قد عاد الصليب بهـا　　هـذي منابرهـا قفـرا مـن الحكـم
هذي الكراسي علـى علـم ومعرفـة　　دموعهـــا بـــين منهـــل ومنـــسجم
إذا رأت مسلما قـد زارهـا فرحـت　　واستبشرت ثم باست موضع القدم
فهـــا هـــي النـــاس الأولى عرفـت　　والـود يمتـاز بالـسيما مـن الـسلم
فانظر لأرجائها تلق العجـاب بهـا　　قـد أعلنـت بـسرور غـير مكتـتم
وازدان موقعهـــا وافــترّ مبـــسمها　　والزهر منهـا غـدا زاه علـى الإكـم
وكيف لا وحسام الدين حـلّ بهـا　　فخر الأكابر مـن عـرب ومـن عجـم
صـــدر الأفاضــل في دنيـــا وآخـــرة　　كهـف الأئمـة في حـرب وفي سـلم
عبـد القـادر مـا أسـنى سـناه ومـا　　أعلى علاه حـوى العليـا مـن الهمـم
رقـى مراقـي لم تـصعد مـصاعدها　　أسد الحـروب وإن نـاموا فلـم ينـم
أصـــل المـــروءة مبـــداها ومنـــشؤها　　فـرع النبـوة لم يخـضع ولم يـضم
عـــزّ الإمـــارة مولاهـــا وورنقهـــا　　بحر السماحة كم أسدى من الـنعم
لم تخف شمس الضحى في الجو طالعة　　أو تجهل النـار إن لاحـت علـى علـم
فاهنـأ بفـضل عظـيم غـير منقطـع　　ودم بلطـف خفـي غـير مـزدحم
أولائـك ربـك عـزا غـير منقطـع　　وعـزّ غـيرك لم يثبـت ولم يـدم
ذكرتنـــا يوســـفا إذ بـــان أمـــركم　　لا غـرو بالفضل منـه غـير منعـدم
كأنمـا قطـر بـاريس حللـت بـه　　مصرٌ وقد حلّهـا الـصديق في حـرم
فجرّ ذيـل فخـار قـد سمـوت بـه　　وقـرّ عينـا وثـق بـالله واعتـصم

ثــم احمدنــه علــى الآلاء معترفــا   بمــا أنالــك مــن عــز ومــن عظــم
بــشرى لنــا يــا أهــل الــود إن لنــا   بيتا من النمجد مطوياً علــى كــرم
هذي السعادة قد لاحت بدايتها   فالله يختمها في حسن مختتــــــم

ذكر وصول الأمير إلى القسطنطينية

وبعد أن أخذ الأمير راحته في مرسى تلك الجزيرة سار عنها واتصل سيره إلى الأستانة العليّة. فدخلها يوم الجمعة، الثامن والعشرين من ربيع الأول سنة تسع وستين ومائتين وألف 1269 وثامن يناير (كانون الثاني)، سنة ثلاث وخمسين وثمانمائة وألف 1853، واحتل بعاصمة الدولة العلية العثمانية ودار الخلافة الإسلامية.

كعبةٌ أُسست على الفضل   لكن كل حين لها يحج الوفود

حيث المنازل في مطالع السرور بادية، والمتنزهات بإشراق سعودها متلالية. ولأول وصولنا، نزل الأمير إلى البر. واستمر سائرا إلى ضريح أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري، رضي الله عنه ، عند سور القسطنطينية. وقد كان قبره مخفيا إلى أن أظهره الله على يد ساكن الجنان، السلطان الغازي، محمد خان، الفاتح للقسطنطينية، مظهر إشارة ما رواه الإمام أحمد في مسنده والحاكم في صحيحه، عن بشر الغنوي : أن النبي (ﷺ) قال : "لتفتحن القسطنطينية ولنعم الأمير أميرها. ولنعم الجيش ذلك الجيش". وهذه الإشارة من معجزاته (ﷺ) وعلم من أعلام نبوته ومنقبه عظيمة لذلك السلطان الأعظم – قدّس الله روحه، ونوّر مرقده وضريحه، كما أظهر قبر الشيخ الأكبر

والكبريت الأحمر، محي الدين بن العربي على يد السلطان الغازي، سليم ياووزخان، في دمشق الشام. وأشهر فيها قبر صلاح الدين بن أيوب القرشي على يد مولانا، السلطان الغازي، عبد الحميد خان الثاني. أيّد الله ملكه وأبّده.

وبعد فراغ الأمير من زيارة أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه، توجّه إلى جامع أيا صوفيا. وفي اليوم الثاني، زار الصدر الأعظم، المرحوم مصطفى رشيد باشا. فآنسه وعرض عليه الترول للبلد بجميع العائلة؛ فاعتذر إليه بمرض والدته وبعض عائلته. ثم توجّه لزيارة المرحوم، شيخ الإسلام، العالم العلاّمة، عارف حكمت بك، وسائر الوكلاء والشريف عبد المطلب. ثم توجّه إلى سفارة فرنسا، فاجتمع بالماركيز "دولافاليت" سفيرها. وفي اليوم الثالث، دعي إلى "المابين"؛ فتشرّف بمشاهدة حضرة السلطان الغازي، عبد المجيد خان. فرحّب به وأحسن السؤال عن أحواله وشكره على ما كابده في الدفاع عن الدين والوطن. وحمده على صبره على ما قاساه أيام إقامته عند الفرنسيس. ومدح الإمبراطور نابليون الثالث على وفائه بالعهد والقيام بشأنه. وكنت يومئذ في معية الوالد. فرأيت من تنازل حضرة السلطان، وتعطّفه، ولين جانبه ولطفه ما يشهد له باستكماله ما كمل من الخصال الحميدة ... ثم تنازل إلى السؤال عني فقال له :

– "هذا ولدي الأكبر" وعرّفه برفيقه في الجهاد، وفي فرنسا ... ألا وهو حضرة السيد، قدور بن علاّل، وبخادمه قره محمد.

وعند الإنصراف، ذكر أمر السكنى في "بروسة". فقال له :

– أختار؛ ما يختاره لنا مولانا أمير المؤمنين.

– فأجابه : بأنك مختار في السكنى في أي بلد شئت من ممالكي العثمانية.

فشكر الأمير فضله وحسن توجيهاته. وخرجنا من تلك الحضرة السنية في ارتياح وانشراح، تخفق على رؤوسنا؛ ألوية وتضيء علينا من سماء المكارم السلطانية كواكب المجد. ثم إن الأمير قدّم لأعتابه السنية، قوله :

الحمـــد لله تعظيمـــا وإجـــلالا	ما أقبل اليسر بعد العسر إقبالا
وما أتت نفحات الخير ناسخة	مـن المكـارم أنواعـا وأشـكالا
وأشـكر الله إذ لم ينـصرم أجلـي	حتى وصلت بأهل الدين إيصالا
وامتد عمري إلى أن نلت من سندي	خليفـة الله أفيـاء وأضـلالا
فـالله أكـرمني حقـا وأسـعدني	وحـطّ عـني أوزاراً وأثقـالا
قد طال ما طمحت نفسي وما ظفرت	لكـن للوصـول أوقاتـا وآجـالا
أسكن فؤادي وقرّ الآن في جسدي	فقد وصلت بحزب الله أحبالا
هـذا المرام الذي قد كنت تأمله	فطب مآلا بلقياه وطب حالا
وعش هنيئا فأنت اليوم آمن من	حمـام مكّـة إحرامـا وإحـلالا
فأنت تحت لواء المجد مغتبط	في حضرة جمعت قطبا وأبدالا
وته دلالا وهزّ العطف من طرب	وغنّ وارقص وجرّ الذيل مختالا
أمنت مـن كـل مكـروه ومظلمـة	فبح بما شئت تفصيلا وإجمالا
هذا مقام التهاني قد حللت به	فارتع ولا تخش بعد اليوم أنكالا
أبشر بقرب أمير المؤمنين ومن	قد أكمل الله فيه الدين إكمالا
عبد المجيد حوى مجدا وعزّ عُلىً	وجلّ قدرا كما قد عمّ أنوالا

كهـف الخلافـة كافيهـا وكافلـها ... مـن لا عهـدنا لـه في القـرن أمثـالا
يا رب فاشدد على الأعداء وطأتـه ... واحـم حمـاه وزده منـك إجـلالا
وأظهـرن حزبـه في كـل متّجـهٍ ... وسـدّدن منـه أقـوالا وأفعـالا
وابسط يديه على الغبراء قاطبة ... وذللن كلّ مـن في الأرض إذلالا

يشير إلى أهل الجزائر

فالمسلمون بـأرض العـرب شاخـصة ... أبـصارهم نحـوه يرجـون إقبـالا
كـم ساهر يرتجـي نومـا بـسطوته ... وحـائر يرتجـي للحـزن تـسهالا
فرع الخلائف وابن الأكرمين ومـن ... شادوا عرى الـدين أركانـا وأطـلالا
كـم أزمـة فرّجـوا كـم غمّـة كـشفوا ... كم فكّكوا عـن رقـاب الخلـق أغـلالا
هـم رحمـة لـبني الإيمـان قاطبـة ... هـم الوقايـة أسـواء وأهـوالا
أنصار دين النبي ن بعد غيبتـه ... في نصره بذلوا نفسـا وأمـوالا

يشير إلى فتح القسطنطينية

قـد خـصّهم ربهـم في خـير منقبـة ... مـا خـصّ صحبا بهـا قـبلا ولا آلا
كم حاول الصحب والآل الكـرام لهـا ... والله يختص مـن قـد شـاء إفـضالا
ما زال في كـل عـصر مـنهم خلـف ... يحمـي الـشريعة مقـوالا ومفعـالا
حتى أتى دهرنا في خـير منتخـب ... مـن آل عثمـان أملاكـا وأقيـالا
قد كنت مضمر خفض ثم أكسبني ... رفعـا وقـد عمّـني جـودا وأفـضالا
وبالإضـافة بعـد القطـع عـرّفني ... وحـطّ عـني تـصغيرا وإعـلالا
هـذا وحـق عـلاه كـم أزاح وكـم ... أزال عـني بمحـض الفـضل أثقـالا
لا زال تخدمـه نفـسي وأمدحـه ... مـستغرق الـدهر أبكـارا وآصـالا
أهدي مديحي وحمدي مـا حييت لـه ... أفـادني نعمـا جلّـت إقبـالا
جزاه عني إله العرش أفضل مـا ... جزى به محسنا يوما ومفـضالا

خادم الغزاة والمجاهدين، عبد القادر بن محي الدين.

في غرة ربيع الآخر سنة 1269.

ثم احتفل الصدر الأعظم وشيخ الإسلام وسفير فرنسا لضيافة الأمير ... فأبدوا، وأعادوا، واستقصوا، وأجادوا. وكان شيخ الإسلام، عارف حكمت بك رحمه الله، له علينا فضل عظيم، لأنّه، لما طلب نابليون الثالث من المغفور له، السلطان الغازي، عبد المجيد خان، كفالة عن الأمير، جعل مجلسا خاصا للمذاكرة في أمر الكفالة. فقال شيخ الإسلام :

"إذا لم تكن لمولانا السلطان حسنة مع كثرة حسناته إلا هذه، لكفى بأن يكفل هذا الرجل المجاهد وينقذه من الأسر" فحينئذ، أجاب المغفور له بالكفالة. ولعمري إن الله عزّ وجل قد حقّق ما أجراه على لسان المرحوم، عارف حكمت بك، من قوله في مدح نفسه، مفتخرا :

ألم تعلم بأن سماء فكري تلوح بأفقه شمس المعارف
تفرّس والدي في المزايا ويوم وُلدت لقبني بعارف

وكتب ناظر التياترو، ميخائيل أفندي نعوم، يدعو الأمير إليه بقوله:

كريم السجايا محتد المجد من سما نرى الرتب العليا بفضل جهاد
خفيرا لجاه العرب خوف ادثاره بسطوة ماضٍ صيقل وجلاد
سلمت مدى الأيام مستوفر الثنا وفي نعمة تبقى بغير نفاد
فإنا من القوم الألى ساقهم إلى لقائك داعي حمية وبلاد
إجابة سؤل أن تزور مشرّفا لنزهة طرف وانشراح فؤاد

وكان الناس يزدحمون على مشاهدة الأمير أثناء إقامته ورؤيته في الطرقات التي يمر بها، ورحاب منازل الوزراء والعظماء التي يقصدها.

ذكر وصول الأمير إلى بروسة

وبعد أن أقام عشرة أيام، يزور ويزار؛ ودّع الصدر الأعظم، فمن دونه من الوزراء والمأمورين. ثم ودّع سفير فرنسا وتوجّه إلى بروسة؛ فدخلها يوم الاثنين السابع من ربيع الثاني وتلقانا، خارج البلد، خليل باشا، صهر السلطان، مع سائر الوجوه والأعيان، بغاية التبجيل والاحترام حتى نسينا بما شاهدناه منهم، ما كان سبق لنا، في فرنسا والأستانة، من الاعتبار. وكان نزولنا في الدار التي أعدّت لنا بالأمر السلطاني بالمحلة المعروفة بمحلة المحكمة. فألقينا، بتلك المدينة، عصا التسيار، وتبوأنا منها خير دار، وحمدنا الله تعالى على هذه النعمة التي لا يحيط بوصفها فكر ولا نستطيع أن نقابلها ما حيينا بشكر ... اللهم لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك.

ولما نظر الأمير إلى موقع المدينة وأحوازها، قال : لقد صدق الذي أخبرنا أنها تشبه مدينة تلمسان. ثم أخذ يشير إلى وجه الشبه بين المواضع والجهات وأنشد :

أما الخيام فإنها كخيامهم وأرى نساء الحي غير نسائها

ولما استقر بنا الحال، أخذنا نتجول في أنحائها ونتنزّه في أرجائها. فحصل لنا بذلك سرور وارتياح. وناهيك ببلدة ازدهرت بمبان

عالية ومنتزهات، ومعاهد عامرة بالأنس واللذات. لا نرى للأكدار أسبابا ولا للسرور حجابا وحجابا. ولأول وصول الأمير إلى بروسة، عرض عليه واليها، بإذن السلطنة العظمى، تعيين مرتب شهري يقوم بشؤونه. فسر الأمير بذلك ودعا للدولة العلية وشكرها على اهتمامها بأمره، الشكر الجزيل. ثم قال له :

"إن الإمبراطور نابليون عيّن لي من النقود ما يكفي من النفقة. أما مولانا، السلطان المعظّم، فقد تفضّل علينا بما هو أعظم من الدنيا بما فيها وهو تنازل عظمته وإنعامه عليّ بالكفالة عند الدولة الفرنسوية. وهذه الكفالة هي السبب الأقوى في حياتنا الجديدة. ولولاها ما خرجنا من قبضة الأسر. وهذا الإنعام لا يوازيه شيء ولا يقابله شكر. فنحن عبيد إحسان الذات السلطانية، خلّد الله سطوتها وأيد كلمتها. وعلى كل حال، فنحن مفتقرون إلى مكارم مولانا ومراحمه ما دمنا. وإن حصل احتياج لذلك أرفعه إلى الأعتاب".

فوقع هذا الجواب عند الوالي موقع الاستحسان ورفعه إلى الأعتاب العالية.

وكان رضي الله عنه يصلي الصلوات الخمس، في الجامع القريب من الدار، المعروف بجامع العرب ويقرأ فيه الدروس. فقرأنا عليه ألفية ابن مالك بشرح المكودي، و"السنوسية" بشرح المصنف و"الإيساغوجي" للفناري. ويقرأ لنا في الدار "الإبريز، في مناقب سيدي عبد العزيز الدباغ". وفي تلك الأيام شهرت الحرب المعروفة بحرب القرم، بين

الدولة العلّية والدولة الروسية. فقال مستغيثا ومادحا مولانا السلطان، عبد المجيد خان :

يا ربّ يا ربّ يا ربّ الأنام ومن إليه مفزعنا سرا وإعلانا
يا ذا الجلال وذا الإكرام ما لكنا يا حيّ يا موليا فضلا وإحسانا
يا ربّ أيّد بروح القدس ملجأنا عبد المجيد ولا تبقيه حيرانا
ابن الخلائف وابن الأكرمين ومن توارثوا الملك سلطانا فسلطانا
أحيا الجهاد لنا من بعد ما درست وضاعف المال أنواعا وألوانا
فانصره نصرا عزيزا لا نظير له حتى يزيد العدى همّا وأحزانا
واحفظ علاه وأرسل يا كريم له من الملائك حفّاظا وأعوانا
وانصر به الشرع وارفع يا رؤوف به عن دينك الحق لا تعدمه برهانا
واجمع إلهي قلوب المسلمين على وداده واعله واعظم له شانا
به الصواب أصب واجعل له فرجا بطانة الخير أقطابا وأركانا
واهدم وزلزل وفرّق جمع شانئه واجعل فؤادهم بالرعب ملآنا
وانصر وأيّد وثبت جيش نصرته أنصار دينك حقا آل عثمانا
الباذلون بيوم الحرب أنفسهم لله كم بذلوا نفسا وأبدانا
والضاربون ببيض الهند مرهفة تخالها في ظلام الحرب نيرانا
والطاعنون بسمر الخطّ عالية إذا العدو رآها شرّعت بانا
والمصطلون بنار الحرب شاعلة مطلوبهم منك يا ذا الفضل رضوانا
والراكبون عتاق الخيل ضامرة تخالها في مجال الحرب عقبانا
جيش إذا صاح صيّاح الحروب لهم طاروا الى الموت فرسانا ورجلانا
هم الرجال ثباتا يوم حربهم فصابر من عداهم صبره خانا
هم الليوث ليوث الغاب غاضبة والليث لا يلتقي إن كان غضبانا

هم الألى دأبهم شقّ الصفوف لدى	حملاتهم صار جيش الكفر دهشانا
الدافعون عن الإسلام كلَّ أذىً	بأنفس قد غلت قدرا وأثمانا
كم غمّة كشفوا كم كربة رفعوا	وكم أزاحوا عن الإسلام عدوانا
يا رب زدهم بتأييد إذا زحفوا	واقطع بسيفهم ظلما وكفرانا
ألق السكينة ربي في قلوبهم	وزدهم يا إله العرش إيمانا
وجّهت وجهي أنلني ما دعوت به	بأهل بدر حماة الدين أركانا
من الإله لهم قال افعلوا وذروا	ما شئتم لكم أوجبتُ غفرانا
أعني الذي صح الحفاظ ذكرهم	باسمهم تاركا من خلفهم بانا
بقبطهم أحمد المختار من مضر	وسيد الخلق أملاكا وإنسانا
كذا خليفته الصديق ملجأنا	وأعظم الناس إيمانا وإيقانا
وبالمكنّى أبي حفص الذي انفتحت	به المغالق حتى صعبها هانا
وبالخليفة ذي النورين ثالثهم	أعني بذلك عثمان بن عفانا
وبالإمام أخي المختار ذاك علي	مَن في الوغي بالعدا تلقاه فرحانا
وبابن عثمان عبد الله سيدنا	وابن البكير إياس ساد إعلانا
وحاطب وبلال ثم حمزة ذا	عمّ النبي كريم ساد قحطانا
بسعدهم وأبي طلحة وسهلهم	كذا سعيد ظهير ساد عدنانا
بصنوه وعبيد الله ثم ثمن أبى	حذيفة وحبيب زاد رضوانا
بابن الربيع إلهي وابن رافعهم	رفاعة ثم زيد سيّدا كانا
وبالزبير أبي زيد كذاك أبو	لبابة الخير من قد عزّ أخدانا
وبابن عوف وعمرو وعقبة وكذا	عبيدة من لدين الله قد صانا
وعامر وخنيس ثم عاصمهم	ثم ابن صامتهم من زان اذعانا
عويمر ثم عتبان وحقّ لهم	سيادة ومعاذ طاب أردانا
ومعوذ وأخيه ثم مسطحهم	كذاك مالكهم مقدام ما شانا

قدامــة وهــلال لا نظــير لهــم — مــرارة وأبــيّ فــضلهم بانــا
إنــي توسّــلت يــا رب الأنــام بهــم — أرجــوك فـضلا وإحـسانا وغفرانـا
ثم الصلاة على المختــار سيــدنا — ما صارت الشيب يوم الحرب شبّانــا

خادم الغزاة والمجاهدين، عبد القادر بن محي الدين.

في غره ذي الحجة سنة 1269.

ولما شاع في الآفاق خبر خروج الأمير من فرنسا ووصوله إلى بروسة، أخذ المهاجرون من أهل الجزائر يقصدونه من مواضع إقامتهم في تونس ومصر، والحجاز، والشام ... ويتسابقون إلى أعتابه راغبين في السكنى برحابه. فقابلهم بالقبول والإكرام. كما أن علماء الأنحاء صاروا يتواردون على حضرته ويشدّون الرحال على زيارته. ومن جملة من قصد زيارته، العلاّمة الشيخ، يوسف بدر الدين المغربي، نزيل دمشق. فأكرم الأمير نزله وبالغ في احترامه لعلمه ورفعة مقامه. وبعد أن أقام أيّاما، توجّه إلى الأستانة وكتب إلى الأمير ما نصه :

المقام العالي بالله، ذي المجاهدة والتمكين، مولانا السيد عبد القادر بن محي الدين، كان الله له خير معين. آمين

نحمده سبحانه وتعالى وهو أهل الحمد ونشكره راضين بقضاه، فله الأمر من قبل ومن بعد. ونصلي على النور الساطع بالآيات الباهرات القائل : "إنما الأعمال بالنيات"، وعلى آله الكرام وصحابته السادة الأعلام ما اشتاق خلّ لخلّه وأهدي سلام من :

يهدي السلام محب لم يزل أبدا — يثني عليك ثناء ليس ينحصر
ويسأل الله أن يبقيك تكرمة — للناس حتى بك المكسور ينجبر
ما أشرقت في المعالي شمس ذاتك يا — بحر الندا وبدا من لفظك الدور

بسم الله الرحمن الرحيم، تيمنا بذكره القديم. ينهي السلام محب، متمسكا من الولاء بوثيق العرى، متمسكا بعطر الثناء الذي لا يزال الكون منه معنبرا، متشوقا للقاء الذي بالمهج يسام، وبالنفوس يشترى، متشوّقا إلى ما يرد من الأنباء التي تسرّ خبرا وتحمد أثرا ويسأل الله أن يخلّد حضرة وكفت بوابل جودها وكفّ المهم بنتائج سعودها مع إهداء دعاء ذكرت لطيب المسرّات نفحاته، وزهت في رياض البشر لمحاته، وأسنى تحيات يشرق على الأكوان سناء نورها ويتعطّر الملوان من شذا نورها، طيبها مكتسب من طيب المهدي إليه ولطفها مستفاد من لطفه كالبحر يمطره السحاب وما له من فضل عليه. وأذكر أثنيةً تملي عنّا رسائل الأشواق وتنبئكم عمّا قاسيناه من تباريح الفراق

فكل جسمي عيون نقت لوعتها — تجري بماء كماء المزن منهمر
لا أستريح نهاري مذ نأيت ولا — آنست طيب الكرى من لوعة السهر

فهي تظهر الوجد الكامن في الضمير ولا ينبئك مثل خبير تتشرف بمجلس سيدي ومولاي، شقيق روحي، وآسى بلطف طبه جروحي، أنيس وحدتي وسبب رفعتي، الناصر الدين الله، البائع نفسه، للإعلاء كلمة الله.

كأنه في لظى الهيجاء حيدرة — له مواقف حاكت يوم صفّين

وعلامة إخلاصه ما بهر العقول من كيفية خلاصه. فالله يثيبه على نيته ويحفظه في ذاته، وذريته، بحرمة سيد بريّته، السيد الهمام بهجة العلماء الأعلام، مظهر آثار علوم الحقيقة المنورة ومحيي آثار رسوم الشريعة المطهّرة، مؤيد دلائل السنة بأدلته القاطعة، وموضح سبل الهداية بأنوار علومه الساطعة، كشّاف أسرار المعارف الربانية وكنز دقائق اللطائف الصمدانية، من تفيّأت الفصاحة والبلاغة ظل أقلامه ووقفت جيوش المشكلات خاضعة تحت أعلامه، الفرد، الرحلة، الأجلّ ومن عليه في هذا العصر المعوّل.

دمت لولاك في الزمان لقلنا لبس الدهر من ذويه السوادا

مركز إحاطة العلوم ونقطة دائرة المنطوق والمفهوم، المتقدم بالفضائل على الناس تقدّم النص على القياس:

أعزّ بني الدنيا وأشرف من سما إلى رتبة العليا بدون تردّد

ولا بدع إن تاهت به الأيام وباهت بمدحه الأقلام. فهو الصدر الذي ينشرح بمحاضرته كل صدر، والبحر الذي إذا أملى فرائد فوائده فحدّث عن البحر وبدر الكمالات التي ظهرت. فلا تخفى إلا على أكمه لا يعرف البدر، سلطان العارفين، برهان الواصلين، صفوة المقربين، وارث مقام الأنبياء والمرسلين، الجامع لجميع المحاسن والأوصاف، الذي أحاطت به الكمالات. فهي لغيره لا تضاف، السيد الإمام، والسند المقدام، صاحب العز والتمكين المشار إليه علاه. متّع الله بوجوده الأنام، ونفع به الخاص والعام، ولا زالت، منح فوائده الجمّة نورا لأبصار العارفين وملح فوائده كافية، بل شافية لغلل الخائفين بمحمّد وآله، ومن نسج على منواله.

ما غرّدت ساجعات الورق صادحة فأظهرت من شجون القلب ما كمنا

وبعد حصول ما حصل من التقصير وإبداء عذر التأخير، فإن هبّت نسمات اللطف والقبول من تلقائكم بالسؤال عن الأحوال كما هو المأمول، فإن المحب المخلص والدّاعي المتخصص مقيم على قدم العبودية وحفظ العهود في البكرة والعشية.

أعدّ من صلواتي حسب عهدكم إن الصلاة كتاب كان موقوتا

وأمّا الأشواق، فإنها لا تحصى ولا يبلغ مداها الاستقصاء ولا تفي بها لأرقام ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام، ولو أخذ الدّاعي يصف شوقه لحضرتكم الشريفة وذاتكم اللطيفة، لم يجد لذلك سبيلا، ووقف دون إدراك غايته جملة وتفصيلا. وماذا يصف من شوقه إليكم، شوق الصّادي إلى الزُّلال والمهجور إلى الوصال.

وما فؤادي مشتاقا بمفرده بل كل عضو إلى رؤياك مشتاق

ولو بعثت أشواقي لركبت إليكم أعناق الرّياح، ولطرقت بابكم الذي هو سوق الفلاح. لكن الأمور بأوقاتها مرهونة وهي مكنونة في غيبها حتى يظهرها المولى مصونة، وأيضا فالعوائق جمّة والحوادث لا تراقب في سيرها إلا ولا ذمّةً. ونبتهل للكريم الخلاق بحرمة من ركب البراق واخترق السبع الطباق أن يطوي شقة الفراق ويسهل أسباب التلاق، فيكون الخطاب من الشفاه إلى الأسماع، بدلا من التراسل بالرقاع. إنه بعباده خبير بصير وهو على جمعهم، ذا يشاء، قدير. والله يعلم أن بعد الدّار عن القلوب لا يحول، وصدق محبة الفقير لا تزول.

إن قلتُ غبت فقلبي لا يصدقني إذ أنت فيه مكان السرِّ لم تغب
أو قلت ما غبت قال الطرف ذا كذبٌ فقد تحيرت بين الصدق والكذب

وكتبت هذا الكتاب ليتشرّف بلثم أنامل الجناب، متمثلا بقول القائل من الأماثل :

كتبت كتابي يلثم اليد خدمة لعلّ كتابي أن يقوم مقامي
ويسجد بالباب الكريم تحية ويقرأ مني ألف ألف سلام

والمرجو من المولى الهمام ، لا زال في حرمة الملك السلام، أن لا ينساني من دعائه الغيبي وخبره السّار الشافي للبّي لطفا بهذا الدّاعي بجميل المساعي. فإن الخبر بعض اللقاء، وقد يحصل للضمآن، من كفوف القراطيس الاستقاء.

بالله لا تقطعوا عنّا رسائلكم فإن فيها شفاء السمع والبصر
وآنسوا بها إن عزّ قربكم فالأنس بالسمع مثل الأنس بالنظر

ولئن كان في الطلب إساءة الأدب، فمكاتبة العبد إلى سيّده مطلوبة وفي الشرع والعرف مرغوبة. والسلام التام على كافة الأشبال الكرام، أقرّ الله بهم العين على الدوام.

سروري إذا منّ الزمان بعودة لبروسة التي خصّت بأسنى المشاهد
أمتع طرفي في محاسن روضها ومسك ختامي نظرة في المجاهد

هذا وإن سألتم عن كافة الأحوال، فدم على أرغد عيش، وأنعم بال. كافة أحبابكم لرؤياكم متشوّقون ولروائح أخباركم متشوفون، بلغهم تغيير هيئة اللباس، وحصل لهم بذلك غاية الاستئناس، وسرّ بقدومكم كافة أهل الإسلام من أهل الحجاز ومصر والعراق والشام. فاشكر الله على ما أولاك،

لاسيما نعمة الأنفكاك. وبلّغوا سلامنا للسيدة الوالدة، حفظها الله من كل واردة كائدة. وقد بلغني أن أنه ازداد عندكم مولود. فإن شاء الله هو مبارك مسعود. ولو عرفت مسمّاه لهنأناكم وأرّخناه. وقد كتبت شرح حال قدومكم الذي سارت به الركبان لكافة أحبائك المقيمين في الشام على العهود في جواب الكتاب الوارد لبروسة من الشريف، ابن المشرفي المعهود. ودوموا سيدي في أمان الله، وحسن رعايته.

وكاتبه مرة أخرى. وأودع كتابه قوله :

الله أكبر هذا العتب يبريني	من سيد بنواه كاد يبريني
ومن عنائي به ناديت يا أسفي	فالشوق ينحلني والوصل يبريني
شوقي له جلّ ما باللفظ أحصره	ولو جمعت ألوفا من دواويني
جاد الزمان بوصل ثم عالجنا	جرى على أصله في الغدر بالبين
حديثه وحديث عنه يطربني	بذاك أنسي وذا عنه يسليني
وكلما رمت أن ألقاه مجتهدا	تترى موانع خير عنه تلويني
صبرا على حكم مولى لا شريك له	ما شاء كان وما لا ليس يثنيني
لكنني أتسلى بالرجا فعسى	يقضي بوصل به نفسي تهنئني
وها أنا صابر بين القضاء فلا	أدري أألقاه بدأً أو يلاقيني
أنا المعني فلا أرتاح من ولهي	به نهارا ولا زار الكرى عيني
إن قلتُ غبت فقلبي لا يصدّقني	إذ أنت تأوى به والكاف والنون
أو قلتُ ما غبت قال الطرف نا كذب	فقد تحيّرت من حكم بضدّين
نعم بدت في خيال الفكر صورته	وإن يكن شخصه ناءٍ عن العين
فوجهه قبلتي والقلب مسكنه	والورد ذاكره بل صلى له ديني
روحي فداه وضف ما قد حوته يدي	والله بالفضل عن هذا سيجزيني

إن المـــــودة في الأرواح منــــــشؤها   فـالروح واحــدة حلّـت بجــسمين
ودّي لــه خــالص والله أعلـم بــي   فليــسألن قلبــه عنـــه ويفتـــيني
أحبّـــــه وأرى فرضـــا محبّتـــــه   هذا اعتقادي فمـن ذا عنـه يثنـيني
وبغض أعدائه فرض بمـا اجترحـوا   فـالله يكفيــه مــن كــلّ ويكفــيني
والله لـــن يــصلوا أدنـــى مراتبـــه   وهـل يـضاهي الحـصا مـسكا بـدارين
يـــا ســيّدًا خـــصّه المــولى بمنقبــة   سماؤهـا ذروة العليـا علـى الــدين
والكــلّ في غفلـة عنهـا وقـد ذهلـوا   إذ كلّهم أعرضوا عن وحي جـبرين
فأسقط الإثم عنهم حيث حـثّ علـى   فـرض الجهــاد بتــدبير وتخمــين
فـــالله يجزيـــه في أحيائـــه علنـــا   فرضـا أكيـدا بـأجر غـير ممنـون
فقــــام لله في إعـــــلاء كلمتــــــه   لا للمباهــاة بـل في نـصرة الــدين
فكـم وكـم جنـدل الأعـدا بـسطوته   يـذيقهم كـأس المـوت في الحــين
كأنــه في لظــى الهيجــاء حيــدرة   لـه مواقـف تحكـي حـرب صـفين
سل إن جهلـت وإن ينكـره ذو حـسد   مكـابرا فهـو مـن جنـد الـشياطين
فالشمس لا يبصر المكفوف بهجتهـا   قطعـا وينظرهـا ذو العـين بـالعين
فقل له قـف فـإن الحـشر موعـدنا   سـيظهر الله مـا يخفـى بـلا ديـن
هـذا هـو الفخـر لا شـايٌ ولا وتـرٌ   وقطع شرع وجمع بـين الأخـتين[1]
دليل إخلاصه ما في الخلاص بـدا   بحكمـة الله مـن بـين إلى بـين
عدوّه السيف أهــداه له علنـــــا   مع كونه جاهدا في بذل مضنـــون

. أشار بقوله : "هذا هو الفخر" إلى آخر البيت. إلى المولى عبد الرحمن سلطان مراكش حيث إنه اشتهر بحب الشاي وآلات
ب واتهم بأنه جمع بين أختين من المولدات!! وبقوله : "عدوه السيف : أهداه لنا علنا" إلى السيف الذي أهداه له نابليون
ث، إمبراطور فرنسا ... وبقوله : وسيدي عارف الدنيا؛ حضرة عارف حكمت بك، شيخ الإسلام، قدس الله روحه.

فاشكر إلهك إذ أسداك ما انبهرت — منه العقول بسرّ الكاف والنون
وقرّ عينا وطب نفسا فسوف ترى — ما يصنع الله بالبهم الملاعين
وأشهد الله أني عبد رؤيتكم — أسقى عداك كؤوس الموت والبين
إني لأرجوه في إنجاز مسألتي — ونيّة الخير عند الله تنجيني
مع أن لي فكرة جاد الإله بها — مع قوّة العجز للخيرات تهديني
وطال ما كنت في فاس أروم لقىً — لكن قضاء إلهي عنه يثنيني
إن قدّر الله ذا مني فسوف ترى — ما الله يرضى له في نصرة الدين
إن الشهادة عندي والإله لهي — أحلى من العيش في الدنيا على ديني
فلست أحسن من صحب بها ظفروا — في جنّة الخلد بالولدان والعين
والله أسأل مع حسن الختام بها — دفنا بطيبة فضلا بعد تكفيني
وسيدي عارف الدنيا يبشركم — براحة في الدنا والفوز في الدين
وكلّ ما تشتهي يأتي إليك فلا — تهتم إلا بذكر أو بتبيين
والحبر نوري أفندي قال أبلغه — عني السلام فأنت الآن تكفيني
فإنني في اشتغال زائد وعنا — عسى بحرمته المولى يهنيني
وشوق زائد يدعو لحضرتكم — بما يسرّك من خيرٍ بدارين
والسيد العَلَمُ القدسي يبلغكم — تحية منه لا تحصى بتبيين
وكل من فيك قد صحّت محبته — فبالسلام عليك الآن يوصيني
واقرأ سلامي على الأشبال قاطبة — الله يحفظكم للنفع في الدّين
محمد صاحب السّاطور وهو قرى — من كان جاري ونفح الطيب يهديني
وكم بحلوى صنيع الغرب أتحفني — إن اشتهيتُ فأكل الحلو يرضيني
فنعم ذا الجار يُرعى الحق فيه ولا — كأهل شام أضاعوه مجانين
فالله بالبذل يجزيه الرضاء وإن — بالعود فورا وبالنّوعين يجزيني
سلّم على المصطفى نجل التهامي كذا — نجل المبارك قدّور ضيا عيني

وكلّ من في الورى حقّقت نسبته   إليك بالحب من عال ومن دون
وأسال الله قبل الموت يجمعنا   عل لطائف ترضيه وترضيني
وعن قليل فذا الخروبي قال يجي   نسعى به صحبةً يا قرّة العين
فالله يحجبنا من كلّ صارفة   عن اللقاء بسرّ الكاف والنون

ولما كان الأمير في باريس، رأى الإمبراطور نابليون يمدح الخيل العربية، ويقدّمها على غيرها. وحين استقرّ في بروسة، بعث إلى سوريا رجلا من أتباعه، من أهل الخبرة بمحاسن الخيل، يبتاع له من الخيل العربية ما يقع عليه اختياره. فاشترى له ثلاثة أفراس، من أحسن ما شوهد، منها أحدها كميت أغرّ محجّل، والثاني أشقر أغرّ محجّل، والثالث أحمر، ثم بعثها إلى الإمبراطور، سنة سبعين ومائتين وألف 1270، لنظر القائد بوكليخة، أحد أتباعه المقرّ بين. فسرّ بها الإمبراطور ووقعت لديه موقع القبول.

ذكر ما أجراه الأمير في ختان أولاده
وذكر حادثة الزلال وما آل إليه الأمير بعد

كان الأمير كثيرا ما يجامل أهل بروسة بحسن مجالسته، ويعاملهم بلطف مؤانسته، ويفيض عليهم سجال إحسانه وامتنانه. وفي أيام إقامته بينهم أجرى ختان أولاده، واحتفل له أياما، والتمس من أعيان البلد أن يقيدوا له أولاد الفقراء المحتاجين للختان فقيدوا نحو الخمسمائة. فأمر بختانهم جميعا على نفقته.

قال شرشلُ في تاريخه : وعندما كان ختان أولاد الأمير، تعجّب أهل بورسة لأن من عادة أعيانهم أنهم يحتفلون للختان، وسائر الأفراح بضرب الموسيقى والطبول والزمور، والأمير؛ احتفل بكثرة الصدقات والمبرّات. فترى جماهير الفقراء والمحتاجين حول داره، يتناولون أنواع الأطعمة، والألبسة، والدراهم. وكانوا ،على كثرتهم، يرفعون أصواتهم بالدّعاء له، وهو يقول أربعوا على أنفسكم واشكروا الله تعالى (انتهى باختصار).

وبينما الأمير وأهل البلد في أرغد عيش وراحة مدّة، إذ نزلت بهم طامة الزلزال واستولى الهدم والحريق على البيوت والمساجد والتكايا والأسواق. فخرج الأمير بأهله، ومن معه من المهاجرين إلى مزرعة "جلتلك"، قرب البلد وكان اشتراها للزراعة وهي محتوية على أشجار متنوعة وأكثرها شجر التوت. وكان يشتغل فيه دود القز. وابتنى فيها قصرا عظيما أحضر له مهندسا من الأستانة؛ فعمّره على هيئة قصورها. وجلب لها أشجار الفواكه المتنوعة. ولما تفاقم الأمر، وتتابعت الهزّات مع تتابع الساعات، ليلا ونهارا، وخرج الأهالي إلى البساتين والحدائق، ومنهم من أبعد المفر، خيّم الأمير بتلك المزرعة. وكان خليل باشا، والي بروسة توجه إلى الأستانة وخلفه عليها عالي باشا الشهير. فكتب إليه الأمير متشوقا، لما كان بينهما، من شدّة المواصلة.

ألا فاقر الخليل خليل باشا ... سلاما طيبا عبقا نفيسا
له قل يا شقيق الروح مني ... علام هجرت بلدتنا بروسا
بكم كانت تفاخر كل مصر ... وتطلع من شمائلكم شموسا
فعادت بعدكم شمطا عجوزا ... وكانت تجتلى بكم عروسا

وعهدي سوحها بالوفد ملأى فأضحت بعدكم خلوا دروسا
وكنت لنا بها غيثا هتونا وكهفا مانعا ضرا وبوسا
وكان لنا الزمان بكم ضحوكا فصاروا لنا بفقدكم عبوسا
بمن اعتاض عنك فدتك نفسي وكنت بقربكم فرحا أنيسا

ثم بلغ الأمير أن علماء باريس تذاكروا في علماء الإسلام المشاهير وانتهى بهم الحديث إلى ذكر الأمير ومؤلفاته التي اتصلت بأيديهم ومواعظه التي كان يلقيها على من يجتمع به منهم وأجوبته على أسئلتهم التي كانوا يبعثونها إليه. فوقع اتفاقهم على أن يثبّتوا اسمه في ديوان العلماء، من كل أمة وملة، من أهل القرون الماضية. فأثبتوه وكتبوا إليه يخبرونه بذلك. فكتب إليهم رسالة، ضمّنها علوما جمّة، ذكر في خطبتها ما نصه :

"الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم النبيين ورضي الله تعالى عن العلماء العاملين.

أما بعد؛ فإني بلغني أن علماء باريس كتبوا اسمي في ديوان العلماء ونظموني في سلك العظماء. فحمدت الله على ستره عليّ حتى نظر عباده بالكمال إليّ. وقد أشار عليّ بعض المحبين منهم أن أكتب إليهم بعض الرسائل؛ فكتبت هذه العجالة وسميتها : "ذكرى العاقل وتنبيه الغافل" ورتبتها على مقدمة، وثلاث أبواب، في كل باب فصل، وتنبيه، وخاتمة.

أما المقدمة، ففي الحث على النظر وترك التقليد وذمّه

وأمّا الباب الأول، ففي فضل العلم والعلماء. وفيه فصل في تعريف العقل الذي به إدراك العلوم وتكملة في القوى الأربع التي إذا اعتدلت في الإنسان، كان إنسانا كاملا ... وتنبيه، في فضل إدراك العقل على إدراك الحواس وفضل مدركاته على مدركاتها ... وخاتمة في اقسام العلم إلى محمود ومذموم.

وأمّا الباب الثاني، ففي فضل العلم الشرعي. وفيه فصل في إثبات النبوة التي هي منبع العلوم الشرعية. وفيه تنبيه في معرفة النبي وما يتعلق بالنبوة. وخاتمة في المكذبين للأنبياء.

وأما الباب الثالث، ففي فضل الكتابة وبيان عدد كتابات الأمم. وفيه فصل في الكلام على كتابة الأمم، وواضعيها، وما ينجرّ عن ذلك ... وتنبيه في بيان حروف الكتابة العربية، وخاتمة؛ في احتياج الناس إلى التصنيف وما يتعلق به.

ثم شرع في تفصيل ذلك على الترتيب بما يحتار عند سماعه كل عالم تحرير لبيب.

وقد مرّ أنه لما انتشر خبر خروج الأمير من فرنسا وإقامته في بروسة، قصدته المهاجرون من مواضع إقامتهم. فمنهم من كان يزوره ويرجع، ومنهم من ينتقل إليه بأهله ليقيم عنده. وكان يتلقى الجميع بالبشاشة ويكرم نزلهم. فمن أتى بنية الإقامة، عيّن له ما يتعيش به، على حسب عائلته. ومن أتى بنية الزيارة فقط، أعطاه ما يبلّغه محل إقامته. ومن جملة من قصده بنية الإقامة القائد الحاج عبد القادر

بوكليخة الذي أرسل معه الخيل، إلى الإمبراطور نابليون. ولم يزل عند الأمير قائما بسائر شؤونه في بروسة إلى أن توفي بها سنة إحدى وسبعين ومائتين وألف (1271). ومنهم العلاّمة السيد الحاج محمد الخروبي القلعي، وكان كاتبا للأمير في ابتداء إمارته ثم جعله خليفة في إيالة "صطيف"، ووقع في أسر الفرنسيس ثم أطلقوا سراحه ولحق بالمشرق؛ فحجّ واستوطن دمشق ثم انتقل إلى بروسة. ولم يزل مع الأمير فيها وفي دمشق إلى أن توفي سنة تسع وسبعين ومائتين وألف (1279)، والأمير، إذ ذاك، في الحجاز. ومنهم العامل الفاضل السيد قدور بن الرويلة وكان ممن أسر في الحروب الأخيرة وأطلق الفرنسيس سراحه إلى المشرق. ولما بلغه وصول الأمير إلى بروسة جاء إليه وأقام عنده في إعزاز وإكرام إلى أن توفي، في بيروت، يوم وصوله مع الأمير إليها، قاصدا دمشق، ودفن في مقبرة السنطية، في ربيع الثاني، سنة اثنين وسبعين ومائتين وألف (1272). ثم إن الأمير، لما رأى رفاقه قد اشمأزت نفوسهم من الإقامة في بروسة، لتوالي الزلازل فيها، طمحت نفسه إلى سكنى غيرها ووقع اختياره على دمشق. وفي أول ذي الحجة سنة إحدى وسبعين ومائتين وألف (1271)، سافر إلى الأستانة ثم إلى باريس. وفي الثامن عشر منه،وصل إلى مرسيلية، على حين ابتداء الوباء بالفتك في أهلها. فأصيب به إصابة خفيفة. وكتب اليّ منها يخبرني بوصوله وبما عرض له، وذيّله بقوله :

أحباب قلبي كم بيني وبينكم ... من أبحر وصفها قد صين عن حدّ
تحار فيها القطا والعيّ يدركها ... حتى الجهات بها تخفى عن القصد
ما كنت أدري بأن الدهر يبعدكم ... عني ويتركني من بعدكم وحدي

قد خانني الصبر ما أجدى بمنفعة سوى المدامع قد سالت على خدي
والطيف مثل لي أوصافكم فبدا بشرى ومذ قمت غير الحزن ما عندي
هل الغزال الذي أهواه يسعفني بالوصل يوما كما قد كان في العهد
هل النفور الذي أهواه يسعدني بالقرب من بعد ما أبدى من الصدّ
يا ذا النفور الذي في القلب مرتعه ارتع به لا ترع فالصبّ في بعد
إني وإن كنت مني نافرا فلقد أرضى بطيف خيال منك لا يجدي

ثم توجّه من مرسيلية إلى باريس؛ فتلقاه الإمبراطور ورجال دولته بالإجلال والإكرام. ووقع مجيئه إلى باريس بعد أن وصل إلى بلاد الإسلام موقعا حسنا عند كافة شعب فرنسا. ولأول وصول، جاء خبر فتح "سواستبول" وانتصار جنود الدول المتحابّة الثلاث على الروس. فعظم السرور ثم انقلب راجعا إلى الأستانة ورفع أمر انتقاله، من بروسة إلى دمشق، إلى الباب العالي؛ فوافق وصدرت أوامر الدولة العليّة إلى محمود نديم باشا والي دمشق أن يستعد لملاقاته وإعداد محلّ لائق لسكناه. وكتب أيام إقامته في الأستانة إلى ابنة عمّه، والدتي، قوله :

أقول لمحبوب تخلّف من بعدي عليلا بأوجاع الفراق وبالبعد
أما أنت حقا لو رأيت صبابتي لهان عليك الأمرُ من شدّة الوجد
وقلت أرى المسكين عذّبه النوى وأنحله حقاً إلى منتهى القصد
وساءك ما قد نلت من شدّة الجوى وقلت فما للشوق أرماك بالجد
فإني وحق الله دائم لوعة ونار الجوى بين الجوانح في وقد
غريق أسير السقم مكلوم الحشا حريق بنار الهجر والوجد والصدّ
غريق حريقٍ هل سمعتم بمثل ذا ففي القلب نار والمياه على الخدّ
حنيني أنيني زفرتي ومضرّتي دموعي خضوعي قد أبانوا لما عندي

ومن عجبٍ صبري لكل كريهة وحملي لأثقال تجلّ عن العدّ
ولست أهاب البيض. كلا ولا القنا بيوم تصير الهام للبيض كالغمد
ولا هالني زحف الصفوف وصوتها بيوم يشيب الطفل فيه مع المرد
وأرجاؤه أضحت ظلاما وبرقه سيوفٌ وأصوات المدافع كالرعد
وقد هالني بل قد أفاض مدامعي وأضنى فؤادي بل تعدّى عن الحد
فراق الذي أهواه كهلا ويافعا وقلبي خلّيٌ من سعاد ومن هند
فحلّت محلا لم يكن حلّ قبلها وهيهات أن يحلل به الغير، أو يجدي
وقد عرّفتني الشوق من قبل والهوى كذا والبكا ياصاح بالقصر والمدّ
وقد كلّفتني الليل أرعى نجومه إذا نامه المرتاع بالبعد والصدّ
فلو حملت رضوى من الشوق بعض ما حملت لذاب الصخر من شدّة الوجد
ألا هل لهذا البين من آخر فقد تطاول حتى خلت هذا إلى اللحد
ألا هل يجود الدهر بعد فراقنا فيجمعنا والدهر يجري إلى الضد
وأشكوك ما قد نلت من ألم وما تحمّله ضعفي وعالجه جهدي
لكي تعلمي أمّ البنين بأنه فراقك نارٌ واقترابك من خلد

ذكر انتقال الأمير إلى دمشق وما صادفه من الاحتفال فيها وفي طريقه إليها

وبعد أن أتم الأمير مآربه في الأستانة، أتى إلى بروسة. وفي خامس ربيع الآخر سنة اثنين وسبعين ومائتين وألف (1272)، خرج بمن معه، وكانوا مائتي نفس، فركب بهم باخرة فرنساوية إلى بيروت. فهرعت أهاليها لاستقباله واحتفل واليها، وامق باشا، به احتفالا عظيما. وطار خبره في أنحاء سورية؛ فاجتمع الأمراء آل أرسلان، حكّام الدروز

ومشايخ من تلك الطائفة لملاقاته في جبل لبنان. ولما بلغهم خبر خروجه من بيروت، رتبوا جموعهم على الطريق التي يمر فيها. ولما قرب منهم أقبلوا عليه يهرولون وأكبُّوا على يديه. ثم أخذت تلك الجموع في إطلاق البنادق وساروا عن يمينه وشماله، وبين يديه، يرتجزون وينشدون المدائح على حسب عاداتهم. وكان الكولونيل شرشل الانكليزي أعدّ للأمير ضيافة حافلة في تلك الليلة. فنـــزل عليه ضيفاً كريماً وبات عنده في محلةّ في الجبل . وطلب منه أمراء الدروز أن يقيم عندهم أياماً. فاعتذر إليهم وشكر صنيعهم. وعند الوادع، قام الأمير أمين أرسلان،حاكم الدروز وقال :

"أيّها الأمير الجليل إن حسن صيتك جمّل الوجود وهتف به الوالد والمولود. وكانت نفوسنا ترتاح عند سماع أخبارك، وذكر وقائعك وحروبك. والآن ،لله الحمد قد ابتهجت نفوسنا برؤيتك وعظم سرورنا بمشاهدتك".

فأجابه الأمير بما ملأ صدور جمعهم جبرة وقلوبهم مسرّة. ثم ودّعهم وودّع الكلونيل وشكر صنيعه وسار في طريقه إلى دمشق. ووصل الخبر إلى واليها، محمود نديم باشا؛ فخرج هو وعزت باشا رئيس العسكرية وغيرهما من ذوي المناصب، والمأمورين، وأشراف البلد، وعلمائها، وأعيانها إلى قرية دمّر. وهناك، استقبله الجميع بالإجلال والاحترام. واتصلت الجموع، من أهل البلد و قراها، من ذلك الموضع إلى الصالحيّة. وسار الأمير في ذلك الموكب العظيم، بين تلك الجموع التي يقف الناظر دونها إلى أن نزل عند ضريح العارف بالله تعالى

الشيخ الأكبر و الكبريت الأحمر، سيدي محيي الدين بن العربي رضي الله عنه. وبعد أن زاره، وتبرّك به؛ توجّه إلى المحلّ المعدّ لنزوله، بدار عزت باشا، الرئيس. وأصل هذه الدار لبيت القاضي محيي الدين بن الزكي. ولمّا قدم الشيخ الأكبر من بلاد الروم إلى الشام، نزل على بني الزكي وتزوّج منهم وساكنهم في هذا البيت وتوفيّ فيه سنة ثمان وثلاثين وستمائة (638)، ودفن في مقبرهم في سفح قاسيون. وبالجملة، فقد دخل الأمير إلى دمشق في يوم أخذ زينته من حسنه. و لم يبق أحدٌ إلا والمهابة ملء عينه. وقد ذكر بعضهم أنه لم يدخل دمشق أمير عربي، منذ مائتين من السنين مثل ذلك الدخول. وكانت الدولة العلية أصدرت أمرها إلى والي الشام أن يتخير للأمير دارا لإقامته، لائقة بمقامه. فلما وصل الأمير، أخذ الوالي ينظر في الدور الشهيرة حتى وقع اختياره واختيار الأمير معا على داري القباقبي، محل إقامة الحكومة، وهما داران متلاصقتان بينهما باب من داخلهما. وبعد انتقال الحكومة منها، وإتمام لوازمها، سكنها الأمير بعائلته. وكانت ضيافة الأمير وعائلته في ولايتي بيروت ودمشق جارية من الولايتين، بأمر الدولة العلية. ثم كتب إلى الصدر الأعظم، مصطفى رشيد باشا، يخبره بوصوله ويشكر فضل الدولة على ما حصل له من الإكرام والاحترام. فأجابه بما نصه :

"بعد حمد الله، والصلاة على نبيه، وعلى آله وأصحابه، والسلام على السيادة السنية حضرة الأمير المجاهد، عبد القادر، فقد أخذنا بأيدي الإعزاز والتكريم كتابكم الكريم بوصولكم إلى دمشق الشام، بخير وسلامة وتوفيق. وحُزنا منه على الفرح التام، حيث اشتمل على أعزّ

مقاصدنا من بقاء محبّتكم وتوجهاتكم الخيرية. جزاكم الله عنا خيرا فاخرا. والسلام عليكم من مخلصكم أولا وآخراً.

في اثني عشر شوال سنة اثنين وسبعين ومائتين وألف (1272).

ولما فرغ الأمير من لوازم السكنى، ألقى في دمشق عصا الترحال واتخذها دار إقامة في الحال والاستقبال، وحمد الله تعالى الذي أنعم عليه وجعل مآل أمره إلى دمشق الفيحاء. فإنها بلدة خيّم فيها الإسلام من أوّل وهلة، واستوعب من مواردها العذبة علّه ونهله ولما رأى أهل دمشق ما عليه الأمير من العلم ومكارم الأخلاق والكرم والفضل والإحسان ومعالي الهمم، سارعوا إليه. فكان يبشرهم بنجاح مقاصدهم، بإشارته قبل صريح عبارته واستخلص الأشراف وأهل العلم لولائه، وربطهم بإحسانه وتوالي نعمائه. فما توالت لهم في التردد عليه قدمٌ ولا تعطّل لهم في مدحه والثناء الجميل عليه قلمٌ.

ذكر توجه الأمير إلى زيارة بيت المقدس

وبعد أن رتّب شؤونه وأتمّها، تحرّكت نفسه إلى زيارة بيت المقدس فخرج إليها سنة ثلاث وسبعين ومائتين وألف (1273). وكنت بمعيّته. وجعل طريقه على صفد، بلدة نبي الله، سيدنا يعقوب عليه السلام. فزار آثاره فيها ووقف على جبّ سيدنا يوسف عليه السلام ومرّ على الحطين، حيث كانت الوقعة الكبرى، بين صلاح الدين والصليبيين. ثم توجّه إلى يافا، إجابة لطلب مفتيها، العالم، العامل، التقي، الكامل، السيد حسن

الدجاني الحسيني. فتلقاه أعيان البلدة خارجها ونزل في داره. فحلّ لديه حلول صديق غائب ووقع عنده وقوع مطر صائب. فأفاض الأمير عليه وعلى أقاربه سواكب إنعامه وأراهم عجائب أفضاله وإكرامه وممن لازمه، إذ رأى انعطافه عليه. ومدح فأجاد. وبلغ من الإجادة ما أمّل وأراد العلامة، السيد حسن أفندي أخو المفتي المذكور، فقال :

عهدنا بغرب مطلع البدر مشرقا — وإنا نراه الآن قد لاح مشرقا
وللغرب أصل الفضل إذ هو مطلع — وإن يك بدر التم في الشرق أشرقا
رعى الله بدرا قد سرى مدّى السرى — إلى الحرم القدسي وهام تشوقا
فللّه من يوم به وصل الهنا — وجاد بشير الأنس بالوصل واللقا
وأشرقت الدنيا بطلعته التي — بدت شمس حسن نورها قد تألقا
بروحي أفدي من علقت بحبه — وأضحى لديه اللبّ بالرهن موثقا
سما في سما العليا كمالا وبهجة — ولطفا وظرفا فوق عرش البها ارتقى
لطاعته تعزى المحامد مثل ما — لحضرة محي الدين حمدي تحقق
ومرآه عيد للتهاني بمقدم — لمولاي عبد القادر السامي مرتقا
إمام محاريب الأفاضل جامع — لكل كمال في الأنام تفرّقا
همام بيوم الحرب أثنت حرابه — عليه وفي المحراب أضحى موفّقا
طويل نجاد وافر الفضل كامل — بسيط الندا قد فاق فهْماً ومنطقا
وما هو إلا سيد وابن سيد — له المحتد العالي من الدرّ منتقى
مليك إذا ما أمّ ساحة جوده — أسير العنا في الحال منّ واعتقا
حوى البأس والمعروف والمجد والذكا — وحاز المعالي والمكارم والتقى
ولا عيب فيه غير أن عطاءه — أبان لعجز الشكر لّما تدفقا
سل الصارم الهندي عنه فإنه — يحدّث عن فضل به الضدّ صدقا

وليس لماضي عزمه من مضارع لعليائه الأمر انتهى وتعلّقا
زهت جلّقٌ مذمارها منزلا له فردٌ بروج البدر في العدّ حلقا
وأضحت دمشق مذ أناخ بسرحها كجنة خلد نشرها قد تعبّقا
وكم قد سمعنا، عن مآثر فضله فهمنا على حب السماع تعشقا
فكان عيانا فوق ما وصفوا لنا وشاهدت فردًا بالكمال تخلّقا
وحاشاه أن أحصي بمدحي نعوته وهل يحصَى ودق في البرية أغدقا
وما الشعر من أدبي ولا أنا أهله وإن أك أحيانا به متعلقا
ولكن أياديه التي عمّ فضلها وحبي لآل المصطفى العروة الوثقى
دعاني إلى هذا القريض وإنني مقرّ بتقصير به أطلب العتقا
أمولاي محي الدين والسيد الذي على فضله الإجماع قام وأطبقا
هنيئا هنيئا بالقدوم الذي به لقد أقبل الإقبال واستدبر الشقا
ووافى الوفا يافا بكم وتشرفت وفاقت على الأمصار فخرا ورونقا
فبشراك يا بدر العلا بزيارة بها فتح تقريب لما كان مغلقا
ولازلت في أوج السيادة راقيا ودام لك الإسعاد والعز والبقا
وهاك عروسا في مديحك قد حلا بحلي ثناكم جيدها وتمنطقا
على خجل وافت تؤم رحابكم فمن عليها بالقبول تصدّقا
وصلي وسلم يا إلهي تكرما على المصطفى خير الخليفة مطلقا
وآل كرام ثم أصحاب هديه مدى الدهر ما غصن المسرّة أورقا
وما "حسن" نجل الدجاني قد شدا وقال يهني من كنجم السهى رقا
وأضحى ليمنٍ بالقدوم مؤرخاً إلى المسجد الأقصى سرى يطلب التقى

وصادف الأمير في يافا قيام أهلها ومَن يليهم بمولد نبيّ الله، روبيل عليه السلام عند مشهده الكريم، على مسافة من البلد. فأقام عند المفتي ثلاثة أيام. ثم خرجا معاً في ذلك الجمع الغفير إلى حضور المولد برسم الزيارة والتبرك وأقاما يومين، ثم ودّع المفتي هناك وتوجّه إلى زيارة سيِّدنا إبراهيم الخليل عليه السلام وفي معيَّته السيد حسن الدجاني. فتشرّف بمقام ذلك النبي الجليل. وأقام في أعتابه ثلاثة أيام. ثم توجه إلى المقدس الشريف، لزيارة المسجد الأقصى الذي تنجلي بمشاهدته سائر الهموم وتزول بها عن القلب الغموم وينشرح فيه الصدر وتصفو به مرآة الفكر.

ولما قرب من تلك البلدة المعظمة، خرج أعيانها لاستقباله. ونزل في دار ناظر أوقاف سيدي أبي مدين الغوث قدّس الله سرّه؛ وأقام هناك أياما يتعاطى كؤوس العبادة رائقةً. وتوالت على أهل ذلك البلد الشريف هباته ومبرَّاته، وزار المقامة، وبيت لحمٍ، وقبر سيدنا موسى عليه السلام ثم توجّه إلى بحيرة لوط لزيارة مسجد اليقين، ومنها إلى نابلس. واستوعب من بلاد فلسطين كافة الأماكن المباركة، والمعالم المقدسة. ثم توجه إلى الغور؛ فزار قبر سيدنا معاذ بن جبل، وقبر سيدنا أبي عبيدة بن الجرَّاح، ومَن معهما مِن الصحابة الكِرام رضي الله عنهم. ومِن هناك رجع إلى دمشق على طريق حوران، فزار قبر الإمام النووي وحمدَ الله تعالى على هذه النِّعم المتوالية عليه، وشكره شكر من عرف المنّة، فعظمتْ لديه. وكان قبل سفرهِ إلى بيت المقدس، حضر إلى أعتابه الأديب المسيحيُّ سليمان أفندي الصولة وقدّم إلى حضرته ما نصه :

"الحمد لله، الذي جعل مكارم الشِّيم داعية الفصاحة في العُرب والعجم، حمداً يستحقّهُ بعلوِّ شأنه، وسبوغ إحسانه.

وبعدُ؛ فلما أجمع البشرُ، من البدو والحضَر على مدح آية الحرْب والمحراب، والقلم، والقرضاب، السيد الشريف، المستغني لشهرته عن التعريف، الأشهر من عَلَمٍ تسربل بالنار، والأوضح من الشمس في رابعة النهار، صاحب الوقائع المشهورة والمآثر المخبورة والمزايا الهاشمية والمكارم الحاتمية ... مولانا وسيدنا الأمير عبد القادر، ذو السيف الباتر، والفضل الباهر، والحلم السافر، والحزم الوافر، ربّ المفاخر والوقار، والسَّماح المدرار، المغربي النجار، والمشرقي الأنوار، القاطن الآن بالكنانة، قمرٌ حفّه الجمال، وزانه. أحببتُ أنْ أتشرف بمدحه الساميَ، كما تشرَّف كعبٌ بمدح جده التهامي. فنظمت ما هو بالنسبة لمقامه الرفيع، لا يعدّ إلا منْ سقَط المتاع، ولكن بمدحه البديع أصبح يهدر على عواتق السماع. ولعمري لا يفتخرُ السيف بقرابه، والمرء بجلبابه؛ إنما يفخرُ القشرُ بلبابه، والدّن بشرابه، ولله درّ القائل :

ماذا يضرُّ السيف كون قرابه رثّاً أو البازي حقارة عشه

وهذا ما جادت به القريحةُ الجامدة وتألقت به الفكرة الخامدة قبل تحريك ركابه المنيف لزيارة الحرَم الأقصى الشريف. وتالله لقد قصّرتُ بمدح الهمام الفاضل. وأين الثريا من يد المتناول. فأرجو المعذرة من ذوي البصائر والحمد لله في الأول والآخر :

شُقت دجى فرعها عن فرقها السحري ... فسبّحت أيكة الوادي على الشجر
وأقبلـــت تتجلـــى في غلائهـــا ... كالغصن لو يتحلّى الغصن بالدُّرر
يزفهــا بلبــل الخلخــال مبتهجــا ... زفَّ المبــشر بالإقبــال والظفــر
تقول قـد رتقت بالوصـل ما فتقت ... أيـدي الزمـان وشـقت شـقة الكـدر
فقمـت ألـثم موطاهـا ولـو سمحـت ... بلـثم أخمـصها قبّلـت بالبـصر
أقول والـشمس شمـس الـراح باسمـةً ... بالكاس إن التي امتـدت يـد القمـر
وقلت للرّاح لما افترَّ مبسمهـــا ... هـذا هـو الحبـبُ الـدري فـاتّزري
روحـي الفـداءُ لهـا أنثـى مكرمـة ... نـصال ناظرهـا أمـضى مِـن الـذكر
تقِـلُّ بـدراً علـى غـصنٍ يقلّمهـا ... بحـرٌ مِـن النـور في زقٍّ مـن الحـبر
رودٌ علقـت بهـا درم مرفقهـا ... يكـاد أوسطُها يخفـىً عـن النظـر
كـأن مـا بـين عينيهـا وأخمـصها ... مدُّ الصراط فلـم نـأمن مِـن الخطـر
بيـضاءُ صـبحُ محياهـا يـشوّقنا ... للإصـطباح بـراحِ المبـسمِ العطـر
مـا أطلعـت مثلـها الجـوزاءُ نـيرةً ... ولا حوى مثلها الإكليـل مِـن بـشر
تظلِّـل الـورد في نـسرين وجنتهـا ... بآسـة الـلازوردِ الرّطـب في الـشعر
ترنـو بعـين مهـاة كحلـها حـور ... وأعين العِينِ لا تخلـو مـن الحـور
تزهـو بجيـد تـروق العـين طلعتـه ... كأنـه جيـد خـشفٍ خـائف ذعـر
يخشى الكمـي بعيـدا قـوس حاجبهـا ... فـرا لخيفتـه قـوسٌ بـلا وتـر
ويتقـي جفنهـا المكـسور وأحرابـا ... لا يحمل الشهم سيفا غـير منكسر
علقتها هونـة الأخـلاق طـوع يـدي ... طـوع العنـاق وطـوع اللـهو والـسمر
فمـا ظفـرت بتكـدير لرقتهـا ... لكـن ظفـرت بـصفو غـير منكـدر
تركـت بالـصرف عـني الهـم منـصرفا ... فأقبل الإنس يـسعى سـعي معتـذر
وبـت مـا بـين خلخـال وأسـورة ... أحاول الوصل بين الخـوف والحـذر
أقـول هـل رحمـة تقـضي بتكملـة ... لأنـس مفتقـر للوصـل منتظـر

لولا غرامك ما أحيا الدجى طمعا بـزورة منـك يؤتاهـا علـى قـدر
ولا تنـاوم للأطيـاف يخـدعها برقـدة الـزور لمـا خـط في الـسحر
فوسـدتني وثـيرا مـن ترائبهـا هو اللجين إذا كـان اللجـين طـري
وكـان مـا كـان مما لـست أذكـره فظن خـيرا ولا تـسأل عـن الخـبر
حتى إذا انقبض الديجور وانبسط الـ ـشحرور وانتفض العصفور في الشجر
وبـادر الـصبح معجـالا بجيعلـة تنبـه النـرجس المكحـول للـسفر
مـدت صـحيفة كـافور تـودعني بهـا فخـر عقيـق الـدمع كـالأكرٍ
فقلـت للعـين لمـا آن مرتحلـي بانت سعاد ولاح الفجـر فـانفجري
فـصيّر القـادر الأجفـان في لحـج حكت ندى عبده السمح لأبـي مـضر
الثابـت العـزم والأبطـال في قلـق والبيض تقـذف للجيـشين بالـشرر
الملـهب الأملـد الخطّـار مـن مهـج حـرّاءَ مملـوءة بالحقـد والأشـر
المنهـل الـسيف يـوم الكـر نهلتـه من قمة الـرأس أو مـن قلـة البـصر
التـارك البطـلَ القمقـامَ منعقـراً بعـثير كـأديم الليـل معتكـر
أفديـة مـن أسـد للحـق منتـصر فخـرٌ لمفتخـر غـوث لمـصطبر
سيف يذب عـن الـدين الحنفـي ولم يخش الملام فما في الدين مـن خفـر
يغشى الـوغي باسمـاً والخيـل عابسةٌ بـصارم كقـضاء الله منحـدر
هتـك الـسوابغ مـن عاداتـه خـدم مِـن نمـل جـوهره الآسـاد في حـذر
وذابـل ركّـب المـوت الـزؤام بـه سـنّ المنـون فلـم يـترك ولم يـذر
يفـتضِّ بالفتـك أبكـار القلـوب علـى كبـد الـسوابغ فـضًّا غـير مـستتر
وصـافن مـن جيـاد الخيـل مبتـذرٍ يقول للبرق سر مهلا على أثـري
كأنـه تخـت ملـك فوقـه ملـكٌ لا يأخـذ الـنفس إلا أخـذ مقتـدر
يرمـي العـداة بمـا تـدري حـوافره من الثرى فترى نـبلا مـن الحجـر
هنـاك لا الخـودة البيـضاء تمنعـه عـن المـرام ولا حمّالـة الـدثر

تـراه وهـو فريـد مِـن مهابتـه بجحفل من ليوث الغـاب منتـشر
لا يتقـي لهـب البـارود منحـدرا يفـري أديـم الـدجى في مهمـة قفـر
ولا يهـاب بريـق البـيض يتبعهـا رعـد العـدا ودم الأبطـال كـالمطر
أليـةٍ بالهجـان الـشدقمية إذ تفري السباسب نحو الـركن والحجـر
والـصافنات عليهـا القـوم يعتنقـوا نقع الـدجى لا أولى طـيش ولا خـوَرَ
ما أولد المجد مـن بكـر العـلا أسـداً سـوّاه للـدين مـن بـدوٍ ومـن حـضر
سيف سنين بـه سـن القـديم لـن يرجو الجهاد حديثا طيـب الخـبر
قد صيّر الغـرب شـرقا مـشرقا أبـداً بنـور شمـس افتخـار غـير منـدثر
لاقى الخطوب بـصدر العـزم فانفرجـت وقيّـد الحـزم بـالتقوى فلـم يجـر
حتى غدا الـوحش كالأطيـار في طـربٍ والجن كالإنس مما جـال في الـضجر
لم يتبـع دعـوة البـاغي لمظلمـة ولم يبـع نـصرة المظلـوم بالبـدر
ولم يـدع بـرؤوس القـوم مـن مطمـع إلا جلاه جـلاء الـسيف مـن وضـر
بـأدهمٍ طبعـت فـيهم سـنابكه ميمَ الماتن على الصادات في الطرُرَ
كـأن نـسر الـدياجي فـوق غرتـه من الأسـارى قـصيص الـريش لم يطـر
فعـال أصـيد قـوم فاضـلٍ حكـمٍ وعـالم عامـل بـالنص والخـبر
فصل الخطاب لـه حتمـا وحجتـه لله بالغـة في لجـة الأثـر
له على الفقه في التـأليف خـير يـد وبالتفاسـير فـضل غـير منحـصر
علم الخليـل الـذي بـاهى بـأبحره يرى لدى علـم هـذا البحـر كالقـدر
بحر من الجـود لـو ضمّت سواحله بحر المحيط لـضمت أصـفر الأكـر
يجـود وهـو يحيينـا بمنطقـة فـلا نفـرق بـين النطـق والـدرر
يا كعبة الجود مُـن لبّـاك فـاز بمـا يرضي الإله وأضـحى خـير معتمـر
يا مكسب السيف فخـرا لا زوال لـه وصاحب القلـم الأمـضى مـن القـدر
يـابن الكـرام وأتقـى الخلـق قاطبـة يـا كنـز مـدّخرٍ يـاخير مفتخـرٍ

إليــك جاريــةً عــذراء جاريــة في ساحة الحسن ترجو نقد معتبر
ترجـو القبـول فـلا شـيء يعادلـه عنـدي ولـيس لهـا إلاه مـن وطـر
فإن سمحـت بـه فـالجود عـادتكم وإن ضننت فمن حظـي وأنـت بـري
دامـت لطلعتـك الأعـوام باسمـة ودمت في كـلّ آن تـاج كـل سـري
وجادك الحرم الأقصى بنيـل منـىً ما قبل المـزن وجـه الـروض بـالمطر
ونشّقتك نسيـمات القبـول شذا ريحانة الليل أونسرينة السحـــر

ولما رجع الأمير من سفره إلى دمشق، قدم قوله :

مَن مجـيري مِـن العيـون الـسكارى ونـصيري علـى القـدود الخـداري
ومقيلـــي مـــن البعـــاد بقيـــل يصرف الـروع عـن القلـوب الحيـارى
يـــا حـــداة المطـــي إن فـــؤادي ضـــالعٌ في ظعـــونكم يتـــوارى
مائــلٌ ضــاع في الرِّحــال ولكــن مــا رأى مَــن يعيــده فتمــارى
فـــارفقوا بـــالفؤاد يـــا مالكيـــة إنّمــا الرِّفــق واجــب بالأســارى
وارحمـوا مـن غـدا وحيـداً فريـداً نازحــا نائحــا مــضاما مــضارى
آه مَــن لــي بوصــل ريمــة خــدر ريقهـــا يـــترك القـــر اح عقـــارا
صـــيَّرتْ مقلـــة الغزالـــة خـــالاً وأخــا طوقهــا الهــلال؛ ســوارا
يــا غـــواني حـــذارٍ إن دمـــوعي أوســـعت كـــل عاشـــق إنـــذارا
مـــن لِـــصبٍّ ببيـــنكم متفـــان يرســـل الـــدّمع خلفكـــم تيـــارا
مَــن مديــد البعــاد وافــرُ ســقمٍ غيركم كامل الملاحـــة مـــارى
أكسبت مضعفُ الجفـون انتـصارا أكثــر اللهُ في الجفــون انكــسارا
يــا بــدور الحمــى أرفقــوا بأســير يطلــق الغيــثَ دمعــه اســتعبارا
وانجدوا يا آل نجـد ميـت هـواكم مــسّني الــضُّر بعـدكم يـا غيـارى
واصطباري إضمحل مـن جـل نـار صـــورت في خـــدودكم جلّنـــارا

ومنامي الذي عتبت عليه شام سهم الجفون ثار فطارا
يا لقيس من قوس حاجب ليلى ملّكت سهمها عليّ فجارا
بدّل النوم بالسُّهاد وأهدى من وريدي لقوسها أوتارا
طال ليلي كفرع ليلى ومالي عن هواها البسيط قطُّ اقتصارا
طال ليلي وهجرها وغرامي ومن الوصل لم أجد أنصارا
كلما ابتعت لتصبر درعاً أشهرت من لحاظها بتارا
جار فينا وعاد عناً سقيما بعد ما صيَّر القلوب فجارا
قل لمن يجهل المحبة من لا يعرف المسك يحسب المسك قارا
نحن قوم نرى المحبة دينا والتلاهي عن الأحبة عارا
كل من فاز بالمحبة منّا حبّة منه ترجع القنطارا
كيف أسلو المهاة لحظا وجيدا والتفاتا وغنّة ونفاراً
أرقتني وفارقتني فعيني ترسل الدّمعَ بعدها مدرارا
دمع عيني إذا جرى خلت عبد القا درِ السمح أورد الأبحارا
الطويل النِّجادِ سمح الأيادي خيرُ من ساد عنصرا ونجارا
باسم الثغر والزمان عبوسُ والضواري من الخطوبِ نعارى
فاقد النِّدِّ ندُّ روح المعالي فاضل الجدِّ أمنع الخلق جارا
عقد فضل به الفضائل فازت بانتظام وكان فيها انتثارا
نيِّر الفكر ولو ألَمَّ بليل صيَّر الليل بالضياء نهارا
أكرم الصيد حلّ أكرم أرضٍ أطلقت من سماحه أبحارا
أزهرت من علومه وأضاءت هكذا الشهبُ تبدعُ الأنوار
ياله الله من سحاب سماح بضباب الملال لم يتوارى
أمطرتني يداه درًا ثقيلا صغته في مديحه أشعارا
فله الفضل لا أمنُّ عليه ببحورٍ من كفِّه تتجارى

عالم عامل خبير خطير في ميادين فضله لا يجارى
تحسب السيف واليراع يكفيـ ـه خيولا إلى العلا تتبارى
تحسب الطرس في يديه عيونا والمداد الذي عليه احورارا
نطقه حكمة وفصل خطاب ومناجاته تفيد افتخارا
عطّر الشعر ذكره فملأنا بغوالي مديحه الأقطارا
وسمعنا حديثه فغدونا بقديم من السلاف سكارى
ماجد صير العفاف مقرّاً ومن الخير قد تخير دارا
ساد أهل الزمان خَلْقاً وخُلُقاً منهما الكون قد غدا معطارا
فاتك فاتح مغاليق رمز من علوم تحيًّر الأفكارا
ذاته النقطة التي ارتكز المجـ ـدُ عليها وثبت الأنوارا
آية الحسن والكمال عليها أرسل الله لطفه زخّارا
لم يزل ضائري الزمان إلى أن شام في الشام سيفه فتوارى
شام في سيفه اخضرار زعاف فاتّقى أن يضل فيه اخضرارا
قل لمن فيه قد تباله جهلا ويك لا تشرق البدور سرارا
ذا الذي أشبع الوحوش لحوما غضة من عداه والأطيارا
أحرق العي بالجهاد وأورى بقلوب العدا من الفتك نارا
شم محياه فهو آية حسن أبدعت من بهائه أنوارا
ودع الحاسد الذي يتعامى عن ثناه البديع أو يتوارى
لا تضر الشموس عين حسودٍ أنكرتها تمرُّضا وخوارا
أيها السيد الذكي الذي كاد ذكاه يصير الماء نارا
والنبيه النبيل والحكم الفر د الذي جلّ عن مقاتل دارا
يا مريش الجناح منّي بأرضٍ لم ينلني سواك منها قرارا
إنّ بُعدَ المزار أبعد نومي عن عيوني وأرمد الأبصارا

فـازجر الـبين لا عـدمتك عنّـي إنــه ظــلّ كــافراً فجّــارا
لا تـدع غـير سـيل قربـك يهمـي فـوق هـامي مؤيَّـدا مـدرارا
قد حبـا جـدَّك الآلـهُ بإسـرا الليـ ـل سـبحان مـن حبـاك نهـارا
لا سـباك الآلـه حليـة حـزمٍ لا يـشق الهجـاء منهـا شـعارا
وبقيـت الـدوام تزجـى البلايـا عـن أرقـاك قـادرا مغـوارا
قاتـلت عبـدك العيـون فنـادى مَن مجيري مِن العيون السكـارى

ذكر قصة مدرسة الأشرفية المعروفة بدار الحديث النبوية

كان رجل من الأروام القاطنين في دمشق، اسمه "بانكو" قد استولى على الدار التابعة لمدرسة دار الحديث الأشرفية. ثم مدّ يده إلى الزاوية الغربية من المسجد واقتطعها منه. وأعدّها لوضع دنان الخمر. فقام عليه العلاّمة الشيخ يوسف بدر الدين المغربي المتقدم ذكره، ورفع أمره إلى الحكومة المحليَّة؛ فلم تسمع دعواه. فتوجه إلى الأستانة وتعاطى الأسباب لإنقاذ هذه البقعة المباركة. وبعد الجهد التَّام، أحرز فرمانا سلطانيا في ذلك. ولما قدمه إلى والي دمشق، طرحه في زوايا الإهمال وبقي الأمرُ إلى أن جاء الأمير إلى الأستانة من فرنسا فاجتمع به الشيخ يوسف وشكا إليه أمره وجاء معه إلى بروسة ثم توجّه إلى الأستانة بقصد الهجرة إلى المدينة المنورة. وحصلت بينه وبين الأمير مكاتبات. ومن جملة ما كتبه له في شأن المدرسة المذكورة قوله :

جناب السيد الهمام، والبطل السميذع الهمام، شقيق الروح، وآسي لجروح مَن محبتنا فيه، كما يعلم الله ورسوله، خالصة. وهي، مع البعد،

متزايدة غير متناقصة، مولانا السيد الشريف الأمير، سيدي عبد القادر بن محيي الدين لطف الله بنا وبه وكافة المسلمين في كل سكون وحركة، آمين.

وبعد؛ فأهدي أوفر تسليمات زكية وأسنى تحيات متوالية إلى الحضرة العليّة، والطلعة السنية، تؤم المغنى وتعمّ المعنى.

هذا والمعروض، بعد أداء الدعاء المفروض، أنه وصلني من الجناب كتابان قرّت بكل منهما العينان، حيث استفدنا منهما صحة مزاجكم وراحة بالكم. فنسأل الله لكم دوام ذلك، وإبلاغكم فوق ما هنالك، وأن يسلك بنا وبكم، وما تفضلتم به، على سبيل البشارة. ثم توقفت في تطبيق معناها على قضيتنا باتحاد البشر والمبشر. ثم خطر بالبال المعلوم أنه من باب تنزيل الخلف الاعتباري،منزل الذاتي،كما هو مبين في الأصول، ويمكن أن يكون من باب السراية على أعداء الزمان. ثم أهم ما سرّني عزوك مسألة عمورية إلى نص القاموس. إذا قالت حزامِ فصدِّقوها ولا عطر بعد عروس. فإني قبل تنبيهك كنت مرتكبا في أيّ النقلين، هو الصواب حتى أتى جواب الجناب. أكثر الله فوائدكم وأدام عوائدكم ... وأرسلت لكم، سابقا جوابا مشتملا على قصيدة بائية من بحر الطويل حمل عليه صدق المحبة، وأخبرتكم فيه أني الآن ولله الحمد، في سعة عظيمة وأحوالي، بفضل الله عزَّ وجل ،مِن قِبل الصحة والدنيا، مستقيمة، قاصدين سكنى المدينة حتى يترل بنا على ملّة الإسلام إن شاء الله الحمام.

ويا سيدي قد نصحتم وأجدتم. وهذا من صدق محبتكم المحقّقة التي لا تحتاج إلى استشهاد. يقول القائل : ليس يصحُّ في الأذهان شيء[1]... الخ. فها أنا أبسط عذري وهو أني قاسيت بالشام من المصائب العظام ما لا يصدر على مثلي لو كان بين عبدة الأصنام وذلك مشهور لدى الخاص والعام.

فأولاً : دار الحديث مدرسة أسست على تقوى وكان بها النعل المنيفة التي مستها قدمه الشريفة (ﷺ) وكانت محطّ رحال العلماء العاملين أساطين الإسلام وأئمة الدين فأولهم الحافظ بن صلاح ثم الإمام أبو شامة، ثم القطب الكبير، الإمام النووي الشهير، ثم الحافظ المزّي، ثم مجتهد الدنيا في عصره، السبكي، الكانس لها بلحيته. وقال في شأنها "و في دار الحديث"...إلخ، إلى الحافظ إبن حجر، شارح البخاري في فتح الباري... وأضرابهم. ومن البيّن أن التبرّك بآثار الصالحين من سنن النبيِّين والمرسلين و ما فعله (ﷺ) ليلة مسراه بإشارة سيِّدنا جبريل، حيث صلى في مكان سيِّدنا موسى، و سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام مع تفاوتهم فى درجة الكمال، بشهادة تلك الرسل، تنبيهاً لأمته على أنه سنَّة قديمة ليغتنموا ثواب هذه المنقبة الفخيمة . فمدرسةٌ، هذا شأنها، خبرها مشهورٌ متواترٌ، امتلأت به بطون الدفاتر. قصدها الأكابر من سائر الأقطار لاغتنام بركة ما فيها

1. يشير إلى قول القائل :

وليس يصح في الأذهان شيءٌ إذا احتاج النهار إلى دليل

من آثار يليق أن يكون بجوارها خمّارة لاجتماع الفسقة فضلا عن كونها في قاعة دراستها ودار وقفها سبحانك هذا بهتان عظيم ويحسبونه هيِّنا وهو عند الله عظيم، وأعجب من هذا أن أهل الكتابين اللذين تحت الذمة في ظاهر الحال مع نقضهم للعهود الدينية والشروط العمرية، هل سمعنا أو رأينا أنه خربت لهم كنيسة، كانت معدّة للعبادة، جعلوها خمّارة أو تجاسر بعض سفهائهم وشرب بها خمرا مع استحلالهم لذلك. وأزيد من هذا ما شهدته بعد توجُّهي في العام الماضي من عندك من تزوير الحجج الباطلة بعد كتب الحجة لنا أن الدار للوقف، بشهادة الجم الغفير من أهل الإسلام. وختم عليها رؤساء المجلس، والعلماء والقاضي وادّعوا أن النصراني حماية وهو رعيّة[1]. ووضع جزية عشر سنين الآن. فما بالهم لا يرجعون الوقف إلى أصله. فقوم هتكوا حرمة شريعتهم وكسروا ناموس دولتهم فعلى أي حال يكون المقام بينهم!

ثانياً : مالي بينهم معاش، ولا مرتب، وكلهم له ذلك، وهو مع ذلك في الزيادة يرغب ... وكسبهم بقراءة القرآن، والتهاليل، ودخول المحاكم للتوكيل، وإصلاح بين الرجلين على أي وجه كان، للأكل من الطرفين. وما اعتدنا، ولله الحمد، شيئا من ذلك. وقد عوّدَنا الحق، سبحانه وتعالى الرزق من حيث لا نحتسب. وضاقت عليَّ بين أظهرهم الأحوال مع أني ببلدهم ذو عيال. فمعاشي

1. قصة الحماية من أفجع القصص التي عانتها البلاد العثمانية حتى أوائل القرن العشرين.

بمزاولة الأسفار ومع ذلك يقول بعض سفهائهم : الشيخ لا ثبات له ولا قرار، راكباً في شامنا متنَ عينِ عمياء، خابطاً خبط عشواء بدون بصير ولا استبصار... . وما درىً الغبي أني في نفسي مهموم بشأني وشأن عيالي ومَن يقدم علي من الأحبة، فأي فكرة تنقدح لإدراك البديهي، فضلا عن النظري من المعلوم مع أنه لم يكن في البلدة عالم مستعد ولا طالب له ذهن متقد. ولا يشتغلون بمهمات العلوم، إنما يشتغلون بصغار كتب بعض الفنون، بدون إتقان وتحقيق. فلا حول ولا قوة إلا بالله ونسأله سبحانه اللطف فيما جرت به المقادير. فخرجت معتقدا أن الهجرة واجبة، للمناكر الشائعة والمصائب المتعاقبة، على الحال الذي رأيته جنابك. فصارت الدنيا في وجهي كالخاتم مع سعتها وسُدَّت الأبواب دوني إلا باب من هو للأنبياء خاتم. فتوسَّلت به إلى الله. فتخلَّصت والحمد لله ببركته من كل شدة بحول الإله. وعلمت أن ذلك تأديب لي منه سبحانه بتركي التشريف بجواره (ﷺ) ونشر شريعته في بلدته على قدر عجزي، حسب الإمكان مع الاستراحة التامة. فلما صمَّمت العزم على ذلك، تيسَّرت أموري كلها عامَّة".

ثم إن الحق تعالى ساق الأمير إلى سكنى دمشق. فرأى الأمر كما بلغه. فحرّكته الحمية الإسلامية والغيرة العلويَّة؛ فأحضر الرومي عنده واشتراها منه. ثم أوقفها بموجب حجة شرعية على الشيخ يوسف وعلى عقبه. وإذا انقطع نسلهم، يرجع ريعها للمدرسة، وذلك في الثامن من جمادى الأولى سنة اثنين وسبعين ومائتين وألف 1272. وأمر بترميم المسجد

والمدرسة على نفقته. وجعل الله تعالى إنقاذها وتطهيرها من نجاسة الخمر على يده. وهذه من أعظم المبرَّات، ونوافل الخيرات.

وبعد أن تم ترميمها وإصلاحها، كتب للشيخ يوسف وأخبره. فحضر من المدينة المنورة. وسكن في الدار. واستلم المدرسة. وفي أوّل يومٍ مِن رجب سنة أربعٍ وسبعين ومائتين وألف 1274، افتتح الأمير فيها التدريس بصحيح البخاري، روايةً، بحضور الشيخ المذكور. وكان يجلس لإقرائه بعد صلاة الظهر إلى أن يصلي العصر. وكان درسه منورا مفيدا يحضره العلماء والأذكياء مِن الطلبة. ووافق ختامه في آخر يوم من رمضان. وحضر ختمه جماعة من العلماء. وأجاز كلَّ من كان حاضراً، في ختامه، من طلبة العلم وفيهم الشيخ يوسف بدر الدين المغربي. فقام في ذلك المجلس، وأنشد بين يدي الأمير قوله :

باب القبول لهذا الختم قد فتحا ... فلاح من يمنه بدر السعود ضحى
وهبَّ مِن روضة الرضوان عارفة ... أضحى بها القلب مسرورا ومنشرحا
أما ترى السعد قد لاحت بشائره ... وطائر اليمن في أدواحه صدحا
وهذه أوجه الإقبال مسفرة ... والوقت بالبشر والآمال قد سمحا
أسأل إلهك ما ترجوه من أمل ... وأضرع إليه فوجه القرب قد وضحا
وابسط يديك إلى مولاك مبتهلا ... فإن من أمّ باب الله قد نجحا
إن البخاريّ معلوم الإجابة في ... ما أمّه المرء في إقرائه ونحا
فما توسل محزون به ورجا ... إلاّ وأبدل من أحزانه فرحا
ولا تلاه لكشف الضر ذو حرج ... إلا تباعد عنه الضر وانفسحا
ولا تقرَّب مكروب لخالقه ... بسرّه مخلصا إلا اغتدى فرحا

ولا تـــنفسّ مـــن أنفاســـه أرجٌ إلا أتـــى فـــرج بـــاللطيف منفتحـــا
فـألهج بـه ورواه فيـه قـد وصـلوا بـه حـديث رسـول الله متـضحا
هـم الأئمـة تُجلـى كـل داجيـة بنـوره وهـم الأقطـاب والـصلحا
وهـم أولـو القـرب في الـدنيا وآخـرةٍ والـسادة القـادة الهـادون والنـصحا
أهل الحـديث حمـاة الـدين تـابعهم في متجر الحقّ والتحقيـق قـد ربحـا
فازوا بدعوة خـير الخلـق مـا وجـدوا إلا ونور الهـدى مـن وجـههم لمحـا
رووا حـديث رسـول الله عـن زمـر غـصنا طريـا عليـه الـصدق متّـضجا
وقـد نفـوا كـل شـك عـن شـريعته فأرغموا أنف مـن للـشك قـد جمحـا
جـزاهم الله خـيراً عـن نبـيهم ودينـه وحبـاهم أجـر مـن نـصحا
وقد تسامى ابن إسماعيـل في شـرف بهـم فنـال العـلا والفخـر والمـدحا
أدى إلينـا صـحيحا مـن حـديثهم بجـامعٍ فـاق ترتيبـا ومـصطلحا
أتـاه مـولاه أجـر المحـسنين فقـد أهدى المحدث عقـدا مـا لـه طمحـا
قد اعتنـى كـل ذي ديـن وذي رشـد بـه فخـار بـه التقـديم والمنحـا
وردّدوا ســـرّه في كـــل آونـــة يرجون مـن يمنـه تقريـب مـا نزحـا
وحـاز قـصب سـباق في دراسـته وفهمـه عـارف بالفضل قـد رجحـا
في مسجد الأشرف السلطان في ما وسمـا دار الحـديث بـدرس أبهـر الفـصحا
ضـبطا وبحثـا مـع الإتقـان مقتفيـا آثـار مَـن حلّهـا مـن سـادة صـلحا
مثـل الإمـام النـواوي والمـضاهي لـه ممن على منهج الإرشـاد قـد سـبحا
فـالله ينفعنـا فـضلا بجـاهم ويكشف الكرب عـن نا الجمـع والترحـا
مـولًى بـه ملـة الإسـلام باسمـة والدين عال وحال النـاس قـد صـلحا
فـسيبه أنعـش المحتـال واكفـه وسـيفه لـضلال الكـافرين محـا
وصـيته ألـبس الإسـلام عزّتـه وعلمـه لمعـاني الـدين قـد شـرحا
نـور النبـوة يبـدو في أسـرته وسرّها مـن حلـى أخلاقهـا وضـحا

قد أكسب الدين رفعا والعلو حلّى فالكفر أصبح والعصيان منطرحا
وعمّر العمر بالطاعات مجتهدا في أشهر الخير للخيرات مقترحا
أدم إلهي لعزّ الدين عبدك من للقادر إنصاف وامنحه العلا منحا
هو الإمام بن محي الدين من ظهرت منه الكمالات في الدنيا كشمس ضحى
من قام الله في أمر الجهاد ومن في في غدا به صدر دين الله منشرحا
في عصرنا ما سمعنا من سواه حبى مثل الذي نال أو طرفا كمن لمحا
أضحى له وزراً في كل نائبة تعرو وحصنا حصينا كلما سنحا
وجاء للدرس والإملاء جهابذة للبحث إن عنّ أو للفهم إن جنحا
قد لازموه ونالوا من معارفه ما يخرس اللسن أوما يبهر الفصحا
فليهنأ الحاضروه نيل مقصدهم من الفوائد إن الباب قد فتحا
ويسأل القوم ما شاؤا لأنفسهم من فضله الجمّ إن الله قد منحا
والعلم أفضل ما ازدان اللبيب به وخير ما اغتبق النحرير واصطبحا
وأسعد الناس من كانت بضاعته علم الحديث الذي قد صحّ واتضحا
وأسند العلم أخذا عن أئمته فنال من عليه الإسناد ما اقترحا
وللبخاري رجال يستغاث بهم في المحل إن حلّ أو في الخطب، إن فدحا
بجاههم أسأل الرحمن مغفرة ورحمة تذهب الأحزان والترحا
ونكبة لعدو الدين عاجلة تدير بالهلك والتدمير كل رحى
بك انتصرنا وأنت الله ناصرنا فالنصر منك لمن يدعوك ما برحا
أنزل بهم يا شديد البطش قارعة تكسوهم الذل والتبديد والبرحا
وامدد بنصرك والتأييد عبدك من أضفته لمجيد القدر ممتدحا
وانظم به شمل هذا الدين واكس به جماعة المسلمين الأمن والفرحا
واجعل بطاعته يارب وألّف الكل واهد كل من نزحا
وزده حلما وتوفيقا وعافية واجعله أفضل من أمسى ومن صبحا

وارفع عماد الهدى والدين واحم به ... شرع النبي وخذ من زاغ أوجمحا
واحفظ بطانته أركان دولته ... ممن أعان على خيرٍ ومن نصحا
و لا تدع لذوي التثليث قائمة ... وطهر الأرض ممن عاث أو مرحا
بخاتم الرسل المختار سيدنا ... محمد مَن به باب الهدى انفتحا
ما خاب من جعل المختار واسطة ... ووصلة الذي يرجوه واقترحا
فإنه باب فضل الله ما برحت ... سحائب الجود منه تمطر المنحا
ما نال نو مطلب دنيا وآخرة ... إلا استعار من المختار ما منحا
صلّى عليه إله العرش ما طلعت ... شمس وما سلر عيسٌ بالحجيج ضحى
والآل والصحب ما انجاب الظلام وما ... ورقٌ على غصن إيك ناح أوصدحا
أو قال يوسف بدر الدين مبتهلا ... باب القبول لهذا الختم قد فتحا

وقال أيضا يمدح الأمير بهذه الأبيات

بك، المسرّات قد نالت أمانيها ... يا نعمة ما لها شيءٌ يدنيها
إن كان عيداً لها، تهني بموسمه ... فغاعيد كونك يا أقصى أمانيها
يا نجل فاطمة الزهراء! من فضلت ... طرّا نساء الدنا من ذا يضاهيها؟!
إني أهنيك بالعيد المبارك بل ... بكون مثلك في الدنيا أهنيها
نعم أهني دمشق الشام إذ ظفرت ... بمثلك الآن تغدو في ضواحيها
لما بدا وجهك الأبهى بساحتها ... ترادفت الخير فيها مع نواحيها
لا سيما سيدي ما كان مدّخرا ... مِن فك دار حديثٍ من خناقيها
بك استنارت وأحيا الله مربعها ... لما تلوت البخاري وسط ناديها
تلاوة ما سمعنا من تلاه بها ... من عهد يحي النواوي في مغانيها
فاشكر إلاهك إذ أولاك منه يداً ... ليست لغيرك. جلّ الله معطيها
وأبشر بخير فإن الله ذو كرم ... يخفي مقادير أشياء ويبديها

في علمه غيب أسرار إذا بلغت آجالها فلذا المخلوق يغشيها
والله ينصركم نصرا كنصرته أصحاب بدر الأولى ثم المضاهيها
لازلت يا نجل محي الدين مرتقيا أوج الكمالات باديها وخافيها
ودام إشرافكم في أفقها ولكم باليمين أرّخت عدّ في مغانيها
واجعلْ دعاء بظهر الغيب جائزتي ولا تسل لي الدنيا إذ لست أبغيها

فأجابه الأمير بقوله :

أتت مهنئة فليهن مهديها جلت تراكيبها دقت معانيها
تدلّ بالحسن والإدلاء حقٌّ لها فما حوت مثلها يوما مغانيها
ودبّ في الجسم من أنفاسها طربٌ دبيب حبي لهذا الحبر منشيها
ليهننا بك عيدٌ أنت شاهده عيد النفوس إذ نالت أمانيها
يا يوسف ردّ لي من قربكم نظرا كرده بقميص أنت مهديها
لينشرح صدرك المملوء من حكمٍ وطيب النفس شهيّها ومنيّها
فأنت بين أخلاءٍ لهم أربٌ تبقى وإن مات قاصيها ودانيها
ولتعطنا من زكاة العلم واجبه أنت المشيّد دار العلم بانيها
أبقاك رب العلا لنشر حكمته رغما لأنف معاديها وشانيها

فأجابه العلامة المذكور بقوله :

تطيب نفسي يا أقصى أمانيها بحكمةٍ منك يا مولاي تشفيها
من حبها ما عن الخيرات أفقدها من المعاصي التي للنار تهديها

واحتفل الأمير أيضا لتدريس كتاب "الإتقان في علوم القرآن"، للإمام السيوطي وكتاب "الإبريز في مناقب سيدي عبد العزيز" لسيدي أحمد المبارك بمدرسة الجقمقية وكتاب "الشفاء"للقاضي عياض

و"العقائد النفسية" و"صحيح مسلم" في المشهد الحسني، والمشهد السفرجلاني، من جامع سيدي يحي. وأكثر اجتهاده في ذلك حال اعتكافه فيه. فإنه أقام سنين يعتكف في الجامع المذكور شهر رمضان من أوله إلى آخره. وبعد رجوعه من رحلة الحجاز، جعل التدريس في مترل الضيوف من داره. وسنذكر ذلك في محلّه، إن شاء الله تعالى.

ذكر ما أحدثه الأمير في دمشق من الأبنية
وما اشتراه من الأملاك داخلها وخارجها

تقدم أن مولانا السلطان الغازي عبد المجيد خان أنعم على الأمير في بروسة بدارٍ على وجه التمليك. ولما جاء إلى دمشق، أنعم عليه بألف كيس بدلاً عن الدار المذكورة. فاشترى، في دمشق، دارين واسعتين، بينهما دار صغيرة. ومدخل الجميع واحدٌ، في زقاق النقيب من خطة العمارة. فهدم إحداهن وأعفى آثارها وابتنى في موضعها درا جميلة، وفق مراده. ولما تمّ بناؤها وتم إصلاح الدارين الملاصقتين لها، انتقل من الدار التي استأجرها الدولة العليّة له إليهن. وكان العالم الفاضل، حسن أفندي الدجاني اليافي، إذ ذاك، زائرا عند الأمير. فقال مهنئا ومؤرخا بناء الدار الجديدة:

يا حسن ما أنشاه عين الأكرمين ... من دار مجد نزهة للناظرين
هو عبد مولى قادر بل سيد ... في عصره والحقّ في ذا مستبين
دار زهت وبها المحاسن كملت ... وغدت مطافا كعبة للقاصدين
وبدا لسان لحال منها قائلا ... أهلا وسهلا فادخلوها آمنين

لا زال مولاهـا بـدار سـعادةٍ يهنا ويهنا بالصفا مع البنين
وحماه ربّي من مكائد حاسد ومن الوقاية دام في حصن حصين
ما السعد قال مهنئا ومؤرخـا نال الهنـاء فنعم دار المتّقين

وقال مؤرخا له أيضا :

إن هذا بيت مجدٍ قد حلا وعن الهموم غمّا قد جلا
يا له مقعد صدق قد سما وعلى الحسن البديع اشتملا
شاده عبد المولى قادر وهو مولى سيد في ذا الملا
ممن به قد أشرق الشرق كما نار فيه الغرب حقّا أوّلا
منزل قد خيم السعد به ولمن فيه السرور أقبلا
إن يكن جدّده الآن فكم سابقا بالفضل شاد منزلا
دام بانيه بعيش رغدٍ وملاذاً للعفاة مؤملا
ما له الإقبال قال أرخوا شاد هذا سيّد مأوى العلا

وأرّخها العالم الأديب أمين أفندي الجندي، رئيس ديوان القلم العربي بدائرة العسكرية بقوله:

دار الأمير الشهم عبد القادر كهف الدخيل وملجأ للحائر
دار بها دار السرور ومنزل بالعز منزله لبدرٍ سافر
مولى جليل القدر أوحد عصره حاز المعالي كابرا عن كابر
شمس أضاء الكون نور سنائها صبح جلا ظلمات ليلٍ كافر
ليث الوغى يلقى الكتيبة وحده فيبيدها ضربا بسيفٍ باتر
في نصرة الدين المبين حروبه تذكارها سمر لكل مسامر
قد حاز كل فضيلة بأقلها يسمو الفتى أقرانه بمفاخر

عين الكمال وجوده ونظيره في الكون مفقود بحكم النار
بحر العلوم فليس يدرك غوره كنز التقى علم الهدى للسائر
من آل بيت المصطفى ولجده باز الرجال أجلّ نجلٍ طاهر
عرفت ملوك الأرض رفعة قدره بل كل بادٍ في الأنام وحاضر
بمشاهد شهدت بقوة عزمه ومواقف وقفت بكل محاور
قد طار بين الناس طائر صيته يرويه فينا حامد عن شاكر
لما توطّن جلّقاً غبطت به وغدت لأهل الكون كعبة زائر
زادت به أرجاؤها شرفاً كما قرّت بطلعته عيون الناظر
وأفاض للعافين من إحسانه وندا يديه أجلّ بحر زاخر
أحيا المساجد والمدارس بالتقى والعلم ثم ببذل مال وافر
واختار في خط العمارة منزلا لجنابه ولمنتمٍ وموازر
وبنى به غرفا زهت وأماكنا بالظرف أضحت بهجة لخاطر
من تحتها الأنهار تجري دائما حول الرياض وكل غصن ناظر
والطير ساجعة على أفنانها سجعاً يكاد يفوق نظم الشاعر
تثني على عليا الأمير فتنثني تهتز من طربٍ كحال الذاكر
مولاي يا إنسان عين زمانه وأجلّ ناه في الأنام وآمر
خذها إليك خريدة زعبوبة بكراً تزف بعقد درٍ فاخر
عربية عربا رشيقة منطق تسبي العقول بغنج طرفٍ ساحر
تهدي إلى كفء كريم ناقد ترجو القبول وتنتمي بمعاذر
جاءت تهنئكم بأبهى منزل كملت محاسنه بلطف ظاهر
لا زلت مرفوع المقام معظما دنيا وأخرى عند ربّ غافر
ما فاه باليمين الأمين مؤرخا دار الأمير الشهم عبد القادر

وأرسل مع هذه القصيدة، كتابا نصه :

"بسم الله الرحمن الرحيم.

أحمد الله تعالى على آلائه وأسأله جزيل نعامه وأصلّي وأسلّم على سيِّد الأنام وآله وأصحابه الكرام، ما أخلص عبد السرِّ والنجوى وأسس عبد بنيانه على التقوى.

وبعد، فألثم يدي حضرة مولاي العالم، العامل، والجهبذ النحرير الكامل، مجمع بحري السيف والقلم، ومطلع نيِّري الحكم والحكم، الكريم الماجد، والأمير المجاهد، الحائز فضيلتي الحسب والنسب والفائز بجدِّه في الدارين بأسنى ما طلب، المشار إليه بالبنان في جميع الآفاق والقامع بهمته العليّة عصبة الكفر والنفاق بمدد سميِّه وجدِّه باز الرجال وبلّغه الدرجة القصوى من مراتب الكمال وشملنا بأنظاره العليّة وتوجهاته السنيَّة آمين.

وأعرض لحضرته الشريفة وسدّته المنيفة أن انتماء العبد إلى حضرة المولى أمر غنيٌّ عن الإثبات بالدليل لدخوله في عموم قضية من القلب إلى القلب سبيل. ثم إني قد تجاسرت بتقديم هذا القصيد إلى رحابه الكريمة معتذرا عن القصور الذي هو لهذا الحقير شيمة. أرجو النظر إليها بعين القبول، وإسبال ذيل العفو عن عثرات الجهول. كما أني ألتمس، لأجل حصول الإفتخار والشرف، وإحياء سنة الموالي ممن سلف، تنقيطها بشيء من الحلي المباح أو تقليدها بقطعة من السلاح. والحمد لله في البدء والختام وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام.

فأجابه الأمير بقوله، وأرسل معه خاتما نفيسا :

أحلى المديح مديحُ خلٍّ فاخر أقواله تزري بدرّ باهر
عمّا أجنَّ من الوداد جنانه ألفاظه تترى كشهد قاطر
تكسو الملاحة والطلاوة وجبها فالود من أرجائها كالعاطر
يا صاح خاتمة الأفاضل كلهم من كل شهمٍ كاتب أو شاعر
عندي لكم بين الضلوع مودّة محفوظة ومصونة للغابر
كن كيف شئت فأنت أنت أمينها ما بين بادي عربها والحاظر
ما الدرّ غلا ما أتانا منكم أنا مخلص للود أوّل شاكر

فكتب إليه أمين أفندي مجيبا ومتشكرا :

فضلك يا مولا لا يحصر وفي سواك المدح لا ينشر
يا كوكب الوقت ومن بأسه حدّث عنه السيف والأسمر
يا شبل باز الله علي الذرى ومن هو السلطان والقَسْوَرُ
يا مركز النظرة من جدّه أنت إلى أسراره مظهر
تعنو لك الآساد من هيبة فإن رأت شخصك لا تزأر
أُعطيت ما لم يعطه سيدٌ في عصرنا ما ثم من يُنكر
ما قيس في الرأي وما خاتم في الجود ما سحبان ما عنتر
صيرتهم دونك حتى ولو جئت أمام الكل لم يذكروا
عن مثلك الدهر عقيمٌ ولم يتحف به كسرى ولا قيصر
أنّى لهم ذاك وهل صوّر العقل بأن ينقسم الجوهر
لا غرو فالباري له حكمة في آل بيت المصطفى تظهر
هم أشرف الناس بلا مرية لهم يد المحراب والمنبر
وهم نجوم الكون أقماره وأنت أنت النيِّر الاكبر

أنت لنا شمس فلا غيّبت | أنت لنا سيفٌ به نقهر
أنت لنا ركن إذا أقبلت | حوادث الكون له تنفر
أهديت لي دّارا نظيما به | ما دمت حيا في الملا أفخر
وجوهرا حلّى بناني فقد | حيّرتني أيهما أشكر
فلا برحت الدهر في نعمةٍ | ما كرّ صبحٌ وجرى جعفر

وجاء مرة لوداع الأمير، فوجده نائما. فكتب قوله :

جاء الأمين مودعا | ولبعض فضلك شاكرا
لكن عذر النوم قد | أضحى جمالك ساترا
أرجو أن لا تنسني | إذ لم أزل لك ذاكرا

ثم اشترى على التوالي، سبع دور أخرى، جعل إحداهن مترلا لأضيافه ومن يقصده من أصحاب الحوائج، وعدّة دورٍ في محلّة العمارة البرانية جعل بعضها جنينة مقابلة للدور، وبين الدور و الجنينة، نهر بردى. واشترى مزرعة "دير بحدل" بأرض الغوطة وهو بستان نضر. وعمر به حوشاً. واشترى أرضا أخرى في قرية أشرفية صحنايا. ثم اشترى حوشا واشترى "البويضية" وباعه. واشترى قرية "قرحتا"، ومزرعة "بلاس" وعمّر فيها حوشا. واشترى الطاحونة المشهورة بالإحدى عشرية وخان الصعب في العمارة وأرضا بوادي قرية دمّر، ابتنى فيها قصرا لمصيفه. ولما أتم بناءه، دعا إليه العلماء والأعيان وصنع لهم وليمة. وبعد الأكل، قرأوا شيئا من صحيح البخاري، لأجل التبرك. وكان من جملة من دُعي العالم الشيخ عبد الغني الرافعي الطرابلسي. فأنشد بالحضرة يقول :

يهنيك يا فرد الزمان دار المسرة والتهان
دار السيادة والسعادة والعبادة والقران
دارٌ بها دار الصفا وسرى السرور بكل آن كأنها
دارٌ تصافحها الأكف كأنها الركن اليمان
أبياتها بيت القرى ودیارها دار الأمان
هي جنة الدنيا التي قد أذكرت دار الجنان
حيث التفت وجدت رو ضا ناضرا، أو غصن بان
أو جدولا أو منهلا عذب الموارد والمجان
فتبارك الله العظيم وما يشاء الله كان
عوّذت رونق حسنها بالذكر والسبع المثان
وأعيذ بانيها برب الناس من إنس وجان
من مولاي عبد القادر الشهم السرى فرد الزمان
علامة الدنيا الذي ما إن له في الكون ثان
ربّ المكارم والتقى بدر الكرام بلا امتنان
رب البلاغة والبراعة واليراعة والبيان
سهل الخليقة ماجد سمح المحيا والبنان
مرّ المشاهد واللقا عذب الموارد واللسان
ما ضنّ قط بماله أو جاهه يوما لجان
وعلى المدى لم يستعن في حادث إلا أعان
مولىً أجلّ من ارتدى حلل الثنا والطيلسان
مولىً حماه كعبةٌ يسعى لها قاص ودان
مولًى عن الأغيار بالأسرار أسرار والعرفان فانٍ
لا تنكروا في بابها يوما موافقة الحسان
من آل بيت حبّهم فرضٌ على طول الزمان

آثـــارهم مـــشهورة وبفـضلهم شـهد العيـان
مـا بـين علياهم وبـين الفرقـدين الفـرق دان
وكفـاك أكـبر شـاهدٍ الـسيد الـسند المـصان
الفـاتح الأمـصار بالأبطـال أبطـال والحـرب العـوان
والقـاهر الأعـداد : بـالر مـح المثقـف واليمـان
لوشمتـه يـوم الـوغى والقـرن قـد قلـب المجـان
والطـوب يرشـق والرصـا ص إلى مـدى يتجاريـان
والهـام شـبه كـرى لهـا ظبـة المهنـد صـولجان
والـسيف والخطـيّ في نقـطٍ وشـكلٍ كاتبـان
والمـوت يختطـف النفـوس مـن الـصدور بـلا تـوان
والحـرب تـسعر نارهـا والجـو أظلـم بالـدخان
لرأيـت ليثـا ضـاريا ثبـت القـوى ثبـت الجنـان
يـنقضّ في الهيجـاء فـو ق أقـبّ مطلـوق العنـان
ويخوض بحـر الحـرب كالـ معطـى مـن المـوت الأمـان
خطّـاره وجـواده نحـو العـدا فرسـا رهـان
لله ذلـك كلـه لا للمغـانم والمغـان
أشـهى إاليـه مـن الـدمى وألـذ مـن عـزف القيـان
وقـعُ الـصوارم في الـوغى يـوم الكريهـة والطعـان
والكتـب تُـدرس والكتيـ ـبة بـاليمين أو اليمـان
ولكـم مـشاهد قامهـا لله محفوظـا مـصان
شـيخا وكهـلا في المـوا قـف والـصبا في العنفـوان
لم يلـق وقـع أذىً فـلا نامـت إذا عـين الجبـان
وإليكهـا عربيـة حـوت المعـاني والبيـان
رقّـت بحـسن صـفاتكم معنـى فمـا بنـت الـدنان

فأقبـــل بفـــضلك رقّهـــا وافــتح لهــا بــاب التــدان
واعـــذر محبّـــا عجـــزُه في مــدح عليــاك اســتبان
مـــا اســطاع ذاك ولــو لــه في كـــل جارحـــة لــسان
لازلـــت في أوج الفـــضائل والعـــلا بـــدر الزمـــان
مـــا امتـــد للحـــسان في أبـــواب جـــودكم يـــدان
أو مـــا بـــني الآمـــال أل قـــوا في جـــواركم الجـــران
أو أنـــشدت دار الـــصفا بيتـــا حلـــى الأوزان زان
يـــسمو بـــه التـــاريخ في الـــ ـحسن علـى عقـد الجمـان
إن الديـــار بأهلـــها وبـــربّه شـرُف المكـــان

وأنشد أيضا :

دارٌ إليهـــا الـــسعدُ دان وحكـــى ســـناها الفرقـــدان
دار بـــــدمّر فالهـــــا بـــالخير دُمْ مَـــرَّ الزمـــان
قـــد شـــادها مـــولاي عـــب د القـــادر الـــشهم المـــصان
كهـــف العفـــاة وملجـــأ القـــصّاد مـــــن قـــــاص ودان
ولـقـــد أتـــى تاريخهـــا دار الفـــضائـــل والأمـــان

وأهدى للأمير ماء الزهر وأرسل معه قوله :

ولمـا رمـتُ أن أهـدي إلـيكم قليلا من جنى بعض الجنـان
تقاطر زهرها عرقا حيـــاءً ولاح البـــردقـان؛ يبَرَدِقـــان

وأرسل مرّة أخرى ومعها قوله :

وقائلـــة لـــا رأتـــني مهـــديا إلى البحر بحر الفضل مستقطَر الزر
سمعنا بمن يهدي إلى الروض وردة ولم نر من يهدي المياه إلى البحـر

وقد حضر الأديب عبد المجيد أفندي الخاني إلى القصر في جماعة لزيارة الأمير، فقال :

أوقاتنا بسعودكم أعياد وسرورنا بشهودكم يزداد
يا سادة ملكوا العباد بفضلهم وغدا الزمان لأمرهم ينقاد
قد خصّكم ربّ الورى بمناقب حارت بوصف جمالها الأمجاد
علمٌ وحلم محكمٌ ومكارم وسيادة وولاية وجهاد
ماذا أقول بنظم جوهر مدحكم ما يفعل الإنشاء والإنشاد
لو أنفق المدّاح كل علومهم في حصر قدس صفاتكم ما كادوا
لله يوم ورودنا لمقامكم إذ حفّنا الإقبال والإمداد
في قصر دمّرّ منشأ الأفراح قد نلنا الحظوظ وعمّنا الإسعاد
قصرٌ بأنواع الجمال مرونق حاز النزاهة مالها إنفاد
لا زلتم شمس المعارف والعلا يهدي الخلائق منكم الإرشاد
ومقامكم حرم المراد وكعبة تأوي إلى أمداده القصّاد
وبفضلكم تحيي الأنام وعزّكم تسمو به الانجال والأحفاد
ما لاح كوكب سعدكم بكماله أو فاح في روض الهنا الأوراد
أو قال عبدك أرّخو عزّاً له لا زال قصرا بالسرور يراد

وللأديب الفاضل، العالم الكامل، أمين أفندي الجندي، مفتي دمشق وكان مدعوا بالقصر المذكور، حين رأى نوفرة بستانة النازلة من نهر يزيد إلى نهر بردى :

ونوفرة يرقى إلى الجو ماؤها فتطحنه الأرياح طحن دقيق
يعودُ إلى حوض به كان أصلها كطالب عليا وهو غير عريق

ولنجل الأمير أخينا، محي الدين باشا، في وصفها :

أنظــر إلى فــوّارة في حــسنها قد شابهت خوداً تمايـل قـدّها
رقصت وقد لبست بياضا ناصعا من عظم ما وثبت تناثر عِقدهـا

وطلب الأمير من الأديب الشاعر، محمد أفندي الهلالي، وصفها فأجابه ارتجالا :

انظر لنوفرة نحو السماء سعت بعزم ماءٍ بديع الـصنع للرائـي
فالجو يعطي مطير الماءِ بركتهـا منه بمقدار ما أعطته من مــاء

وللأمير في وصف هذا القصر وموقعه :

عُـج بـي فـديتك في أبـاطح دمّـر ذات الريـاض الزاهـرات النـضر
ذات المياه الجاريات على الـصفا فكأنهــا مــن مــاء نهــر الكـوثر
ذات الجـداول كـالأراقم جريهـا ســبحانه مــن خــالق مــصور
ذات النسيم الطيب العطر الــذي يغنيـك عـن زبـد ومـسك أذفـر
والطــير في أدواحهــا مــترنم بـرخيم صـوت فـاق نغمـة مزهـر
مغنــى بـه النـسّاك يزهـو حالهـا مــا بـين أذكـار وبـين تفكـر
ما شئت أن تلقى بها مـن ناسك او فاتــك في فتكـــه متطـــور
أين الرصافةُ والسدير وشعب بوّ وان؟ إذا أنــصفتهــا مــن دمــــر

ثم أمر الشيخ عبد الرزاق أفندي البيطار والشيخ محمد أفندي المبارك بتشطيرها. فقال الأديب الشيخ عبد الرزاق :

عُـجْ بـي فـديتك في أبـاطح دمّـر وانظـر لواديهـا البهـيج الأخـضر
وأدِر لحاظــك في حلــي ربواتهــا ذات الريــاض الزاهــرات النـضّر
ذات المياه الجاريـات علـى الـصفا يحكـي لنـا أمثـال عقـد الجـوهر
فيهـا الـشفاء لـشارب مـن سـقمه فكأنهــا مــن مــاء نهــر الكـوثر

ذات الجداول كالأراقم جريها   وخريرها يزري بنغمة مزهر
وانظر لقدرة بارئ ذي حكمة   سبحانه من خالق ومصور
ذات النسيم الطيب العطر الذي   قد ضمّخت أردانه بالعنبر
وأريج أزهار بدت برياضها   يغنيك عن الزبد ومسك أذفر
والطير في أدواحها مترنم   يشدو على قد الغصون السمهري
يدعو الأنام لحسن طيب سماعه   برخيم صوت فاق نغمة مزمر
مغنّى به النسّاك يزهو حالها   لهم إلهنا فازوا بحظ أوفر
أوقاتهم معمورة بعبادةٍ   ما بين أفكار وبين تفكر
ما شئت أن تلقى بها من نسك   خوف الجحيم وهول يوم المحشر
أو ذائق شهد الوجود لذاته   أوفاتك في فتكه متطور
أين الرصافة والسدير وشعب بوانٍ   وغوطة سمرقند الأشهر
أين الرياض الزاهرات بحسن ألوانٍ   إذا أنصفتها من دمّر
قد زانها قصر الأمير الفرد عبـ   ـد القادر الشهم الذي فاق السري
قطب الهدى مردي العدا بحر الندا   يا ظهر إن رمت الفخار به افخر
لو أنصف المداح ولاقتصروا على   آلائه وإلى السوى لم تنظر
قسما بطلعة بدره السامي الذرى   وبجوده المزري بفيض الأبحر
إن عُدَّ سمحٌ قبله أو ماجد   ما كان إلا دون هذا الحيدري
لازال سامي الذكر تاجا للعلا   ومقامه يعلو مقام المشتري
مادامت الدنيا وأنشد منشدٌ   عج بي فديتك في أباطح دُمَّر

وقال الأديب الشيخ محمد أفندي المبارك، في تشطيرها :

عُج بي فديتك في أباطح دُمر   تزهو بها طربا بأبهى منظر
وندير صرف الأنس في ربواتها   ذات الرياض الزاهرات النضر

ذات المياه الجاريات على الصفا كفرائد من لؤلؤ أو جوهر
أحلى من الضَّرَبِ المصفى طعمه فكأنها من ماء نهر الكوثر
ذات الجداول كالأراقم جريها وترابها في الوصف مثل العنبر
هي جنة مولاي أبدع صنعها سبحانه من خالق ومصوِّر
ذات النسيم الطيب العطر الذي ينفي جوى المضني بلطف المخبر
وبحسن نشر عبيره وأريجه يغنيك عن زبد ومسك أزفر
والطير في أدواحها مترنم شوقا إلى الوطن البهيِّ النيِّر
كم هيَّجَ الأشجانَ من أهل الهوى برخيم صوتٍ فاق نغمة مزمر
مغنًى به النُّسّاك يزهو حالها فتفوز فيه بكل حظٍّ أوفرِ
أوقاتها أبدا تراها تنقضي ما بين أذكار وبين تفكُّر
ما شئتَ أن تلقى بها من ناسك باكٍ على تقصيره متحسر
أو سالكٍ نهجَ السعادة والهُدى أوفاتك على فتكه متطور
أين الرصافة والسَّديرُ وشعب بوان من المغنى الزهي الأنور
بل ما بها من حسن أفنان وألواً ن إذا أنصفتها من دمّر
مأوى تفرّد بالمحاسن كيف لا وبه انجلى سر الولي الأكبر
بدر العلا والمجد عبد القادر الـ ـحسنيّ ذي الوجه الجميل الأنضر
عين النَّدا علم الهدى السامي له روحي الفدا من جهبد شهم سري
مولّى به روض المعارف أزهرت فتضوّعت طيبا بعرف عبهري
منه وطلعته التي في حسنها أنفقت كنز تجلّدي وتصبري
من لي بأن أحظى بها متمتعا طول المدى منها ببدر مسفر
أبقاه ربي للوجود وصانه من سوء كل مروِّع ومكدِّر
ما ناح قمري وغنى بلبل وأسر قلبي بالقبول مبشِّري

ذكر حوادث جبل لبنان

هذا الجبل شهيرٌ، لا يحتاج إلى تعريف. يسكنه طوائف من المسلمين والنصارى والدروز، أكثرهم النصارى وأقلهم المسلمون. وكان النصارى والدروز مؤتلفين إلى أن وقعت العداوة بين الفريقين، بعهد إبراهيم باشا المصري حين تغلب على سورية، وذلك أنه طلب من الدروز جنداً يستعمله في أموره؛ فأبوا وتعصَّبوا وأشهروا الحرب عليه. فجرت بينه وبينهم حروب عديدة في وادي التيم وجبل حوران ثم استعان عليهم بالنصارى وألقى بهم إلى قتالهم، ودان الدروز بطاعة إبراهيم باشا؛ فأخذ منهم جميع أسلحتهم، وقوى بها النصارى، نكاية لهم. ولما خرج إبراهيم باشا من سورية ورجع الأمر إلى الدولة العليَّة، أظهر الدروز ما كان كامنا في ضمائرهم ووقع بينهم وبين النصارى الخلاف والشقاق. ومازال يزداد ويتضاعف إلى أن جرت بين الفريقين حروب عظيمة ووقائع جسيمة في سنة خمس وخمسين ومائتين وألف 1255 هـــ وأربعين وثمانمائة وألف 1840 وبعد قبض الدولة على المير بشير الثاني وتعيين عمر باشا المجري، خلفا له على الجبل في سنة ثمان وخمسين ومائتين وألف 258. واثنين وأربعين وثمانمائة وألف 1842، قويت شوكة الدروز وتغلبوا على عمر باشا واستبدوا بأمور الجبل دونه. فأمرت الدولة العلية بالقبض على المشهورين من أمرائهم. فقبض عمر باشا عليهم واعتقلهم في بيروت وفي مقدمتهم الأمير أحمد أرسلان.

ثم تجددت الفتنة بينهم وبين النصارى سنة خمس وسبعين ومائتين وألف 1275 هـ وتسع وخمسين وثمانمائة وألف 1859م وشبَّت الحرب بينهم؛ فقام والي بيروت خورشيد باشا وتلافى أمرهم وأصلح ظاهر فسادهم. وفي سنة ست وسبعين ومائتين وألف 1276 هـ وستين وثمانمائة وألف 1860م ، عدا جماعة من الدروز على رئيس دير عميق ، وهو من القسِّيسين القائمين برهبنة الروم الكاثوليك، فقتلوه. فاهتاج لذلك غضب النصارى وشكوا أمرهم إلى الحكومة وإلى القناصل ، ثم عدا النصارى على درزي في خان الشياح، فقتلوه وثارت الفتنة بين الطرفين واعتدى الدروز على النصراني في قرية عيناب، واشتد ضرامها وسدَّت الطرق وعمَّ الخوف سائر الجهات. وتناذر الدروز من لبنان وحوران ووادي التيم وأحواز دمشق، وتجمهروا. وجمع النصارى جيوشهم، ووقع المصاف واضطرمت نار الحرب واتصلت أيامها؛ فانتصر الدروز على قلة عددهم وأثخنوهم قتلا وجرحا وأحرقوا قراهم وانتهبوا أموالهم. وكان الأمير، عندما بلغه خبر استعداد الدروز لقتال النصارى وتجمهرهم، كتب إليهم يحذِّرهم سوء عاقبة أمرهم، من جهة الدولة العليّة ويرشدهم إلى ترك ما عوّلوا عليه. فأفضت الحال إلى ما إليه الأمر آل.

ذكر حادثة دمشق

ثم سرى سمُّ هذه الفتنة إلى دمشق؛ فتحركت إحَن المسلمين فيها على النصارى جيرانهم وتذكّروا ما نالهم مِن حنَّا بك البحري

وطائفته من الاعتداء أيام المصريين، وصاروا يتحدثون في الأندية والمجامع بما وقع في جبل لبنان، وكثر اللغط، والقال، والقيل.

فخاف النصارى على أنفسهم ورفعوا أمرهم إلى المرحوم أحمد باشا، وكان واليا ومشيرا للمعسكر الخامس، وطلبوا منه ما يؤمِّن خوفهم. فبعث فرقة من العسكر إلى محلّتهم للمحافظة عليهم.

وفي تلك الأيام، أخذ صبيان المسلمين يصوِّرون الصليب في الطرقات ويرسمونه على الأوراق ويلقونها في المحلات القذرة. ولما بلغ الأمير ذلك، علم أن العاقبة وخيمة، وإذا وقع في دمشق نظير ما وقع في لبنان، يجعله الإفرنج ،لا محالة، ذريعة لخراب البلاد. فتوجه إلى الوالي وتكلّم معه في ذلك، فأجابه : إن ما بلغك محض إرجاف من النصارى وكان هذا من الباشا، على ما يعتقده، من إذعان أهل البلد وما يتلقاه من أعيانها.

ثم تفاقم الأمر في جبل لبنان، وتغلبت طائفة الدروز على النصارى وأحرقوا زحلة ودير القمر وغيرهما من القرى الشهيرة.

فازداد ،بهذا، مرض قلوب سفهاء دمشق. فبعثوا إلى الدروز يغرونهم على نصارى بلدهم ويعودونهم بمساعدتهم ويرغبونهم في أموالهم. فوعدوهم بالإجابة بعد فراغهم من أمر الجبل. فاتصل هذا الخبر بالأمير، فوجم له ثم استأذن الوالي في طلب مشايخ الدروز إلى بعض القرى، خارج البلد، والاجتماع بهم ليعظهم ويحذرهم سوء عاقبة ما عزموا عليه. فأذن له وخرج إليهم وتكلم معهم بما أثر فيهم وجعلهم يذعنون لنصائحه ووعدوه بأنهم لا يحركون في دمشق ساكنا ولا يثيرون فتنة.

وكان أمر الله، لا يرد وقضاؤه لا يصد. قويت بواعث الفتنة ولم ينجح فيهم نهي الحكومة السنية ولا أثرت فيهم شدة انتقامها ممن يفعله.

وفي يوم الاثنين الحادي والعشرين من ذي الحجة سنة ست وسبعين ومائتين وألف 1276 هـ والعاشر من يولية (تموز) سنة ستين وثمانمائة وألف 1860م ،أخذ شرطيٌ صبيا يلعب بصورة الصليب إلى الحكومة. فأمرت بتعزيره وإهانته في الأسواق. فساقه الشرطي ومرَّ به في سوق باب البريد. فرآه أخوه، فغاب عن إحساسه ورمى بنفسه من دكّانه على أخيه، وقام جيرانه لقيامه وأخذوا الصبي من يد الشرطي. وماج الناس وكثر الصريخ واللغط في أنحاء البلد. وجعل السفهاء ينادون في الأزقة والطرقات : هلموا إلى الجهاد. وأخذ الناس يتقاطرون إلى محلة النصارى وينسلون إلى جهاتها، من كل ناحية، بلا تأمل في العاقبة ولا روية. ومدوا أيديهم إلى أهلها بالقتل والى أموالهم بالنهب وإلى ديارهم بإضرام النار فيها.

ولما اتصل الخبر بالأمير، قال : "هذا ما كنا نحاذره ونحذّر الناس منه قد وقع. إنا لله وإنا إليه راجعون." ثم ركب إلى محلة النصارى، فوجدها عَرَج ومَرَج، ورأى ألسنة اللهيب ممتدة من المنازل،والغوغاء بين ناهب وقاتل. فجعل ينهى وينصح؛ فلم تسمع له نصيحة. وتمادى الذعّار على ما هم عليه. ولما يئس مِن رجوعهم عن غيّهم، أخذ ينقذ من النصارى من يصل إليه، ويتمكن من إنقاذه، ثم رجع ببعض قناصل الدول وجمٍّ غفير من الأعيان وغيرهم، وصار يبعث المغاربة ، شرذمة بعد أخرى، إلى المحلة وأطرافها ليأتوا بكل من عثروا عليه من غير

استثناء. وكان الأمير أخبر الباشا أن المغاربة ليس عندهم سلاح كاف للمحافظة. فوعده بأن يعطيهم ما يحتاجون إليه عند اللزوم. فلما كان اليوم الثاني من الواقعة بعث إليه فيما وعده به؛ فأُرسل، في الحال، عدداً وافراً من البنادق والفشك. واستقصى المغاربة ،بأمر الأمير، في جمع النصارى من الكنائس والأقبية، وداخل البيوت الملتهبة بالنار. وفي اليوم الثالث اجتمع السفهاء من البلد والصالحية عند باب الحديد بالعمارة.

قاصدين الهجوم علينا. فتوجه الأمير إليهم وألقى الله الرعب في قلوبهم عند رؤيته ورجعوا على أعقابهم، ثم ذهبوا أفواجا إلى بيوت بعض الأعيان الذين اقتدوا بالأمير في جمع النصارى عندهم، بقصد الهجوم عليهم وأخذ النصارى منهم قهرا. فبعثوا إلى الأمير يستغيثون به؛ فأرسل إليهم فرقا من المغاربة لحمايتهم من الذعّار. ولما غصت دور الأمير بالنصارى، مع تعددها واتساعها، أخذ يرسلهم إلى القلعة، بإذن الحكومة. فاجتمع عنده وفي القلعة نحو الخمسة عشر ألف نفس. وكان الأمير يقوم بنفقات الجميع. ولما طال الأمر وضاقت نفوسهم، طلبوا من الأمير أن يرسلهم إلى بيروت، فأجابهم إلى ذلك وصار يبعثهم إليها فوجا بعد آخر، بمحافظة المغاربة. واستمرت الفتنة قائمة ونارها موقدة، أربعة عشر يوما، كل ذلك والأمير مشتغل بأخذ الوسائل ليتوصل إلى إطفائها، باذلا جهده في حسم أسبابها. ولم يدخل إلى بيته في أيامها بل كان يجلس على سجّادة في دهليزه، لا يهجع من الليل إلا قليلا. والباعث له على حمل تلك المشاق تأييده الدولة العلية والدفاع عن حوزتها إذ لو لم يقف في وجوه

الغوغاء، لاستأصلوا النصارى واستحملوهم وتفاقم الأمر أكثر مما وقع، وبذلك يحصل للدولة من الارتباك ما لا يخفى. ولعناية الله تعالى بصاحب الخلافة العظمى ورعايته لسلطنته، لم يقع أدنى خلل يتشبث به الأعداء لإلحاق الضرر بالدولة العليّة. ولم يزل الأمير يعاني المشاق إلى أن حضر صاحب الدولة، فؤاد باشا، وزير الخارجية إلى دمشق. ولأول وصوله أجرى فيها حكومة عرفية خارجة عن القوانين المعتادة. فقبض على ألوف من أهلها حتى امتلأت بهم السجون، وأمر بردّ المسلوبات، وعين لذلك مجالس مخصوصة في محلات البلدة وأنحائها. فجمعوا أغلبها. وأجرى ما أمر بإجرائه من إمعان النظر وتحقيق الدعاوى، ثم فعل ما رآه صوابا واقتضته السياسة. فقتل مَن ثبت عليه القتل أو قامت عليه البيِّنة بأنه أثار الفتنة أو وافق عليها، ونفى جماعة من الأعيان والعلماء لتقصيرهم عن تدارك الأمر، وكف أيدي الغوغاء وأشخص عامة الزعماء ومن جرى مجراهم إلى الأستانة، ثم عقد مجلسا عسكريا للنظر في أحمد باشا وجماعة من رؤساء الجند؛ فحكم عليهم بالقتل. ونفّذ أمر الله فيهم وما أوقع أحمد باشا شهيدا إلا اغتراره بأقوال من كان يستبعد أن يقع في دمشق ما وقع في الجبل، لدعوى وجود البواعث المقتضية لذلك بين أهاليه وعدمها؛ في دمشق. وعلى كل حال، فلا رادّ لقضاء الله ولا معقب لحكمه. وقد أجرى فؤاد باشا أمورا قسرية وأحكاما قهرية توصل بها إلى تدويخ البلاد وإصلاح ما فسد منها. وتمكن من الأخذ بمقادها إلى الطاعة والخضوع. وبعد أن أتمّ ما اقتضته الحال في دمشق، توجّه إلى بيروت وقبض على أمراء الدروز ومشايخهم واعتقلهم ثم أرسلهم إلى الأستانة.

ولأول وقوع هذه الحادثة، أرسلت دولة فرنسا عشرة آلاف جندي إلى بيروت تحت قيادة الجنرال "بوفور" وخيمت في الحرش، وأرسلت بقية الدول مراكب حربية ومعتمدين ليراقبوا ما يجريه وزير الخارجية من الأعمال.

وفي أثناء وجود العساكر الفرنساوية في بيروت، حصل اختلاف بين فؤاد باشا والجنرال الفرنساوي. فبعث الجنرال رسولا مخصوصا للأمير يخبره بأنه اعتمد على ضرب دمشق مِن الصالحيَّة، فليخرج بأهله ومتعلقاته منها. فاغتمّ الأمير لذلك وبعث للجنرال بأن يوافيه بالبقاع وعيَّن له قرية قبّ إلياس محلا للاجتماع؛ وركب معلنا توجّهه إلى الأشرفية، إحدى قراه، ومنها سار ليلا إلى البقاع.
واجتمع بالجنرال وأظهر له سوء عاقبة ما اعتمد عليه. فأصر الجنرال على ذلك. فهدده الأمير وعظم له الأمر حتى عدل عن ذلك. ورجع كل منهما لمحله. وحفظ الله دمشق. وأسرّها الأمير في نفسه وجعلها خالصة لوجه الله تعالى.

ثم إن الدولة العلية استحسنت ،باتفاق الدول المتحابة، على وضع نظامات وقوانين لأهل جبل لبنان، وأن يكون المتصرف الحاكم عليهم مسيحيا غريبا عنهم ويخابر الباب العالي رأسا. فتوجهت ،يومئذ، المتصرفيّة على داود باشا الأرمني. واستتبت الراحة وعمَّ الأمن في سورية والهدوّ والسكون في سائر أنحائها. وارتحلت جنود فرنسا من بيروت ولحقت ببلادها وأقلعت المراكب الحربية إلى مرافيها.

ثم إن فؤاد باشا، لما استبانت له شجاعة المغاربة وما جبلوا عليه من قوة الجأش وشدة الإقدام، فاوض الأمير في أن يعين منهم كتيبة ليكونوا في خدمة الدولة العليّة. فأجابه إلى ذلك واختار منهم أربعمائة فارس وجعل السيد محمد بن فريحة، أحد أقربائه، رئيسا عليهم. ولم يزل فؤاد باشا يقرر الأحكام ويرتب الشؤون إلى أن تمكن من مراده؛ ثم أخذ السلاح من أهل دمشق ووضع عليهم الضرائب لتعويض ما أتلفه سفهاؤهم من أمتعة النصارى وما دمروه من ديارهم، وخصّص يوما لتمرين العساكر بإطلاق البنادق والمدافع، خارج دمشق في سهل القدم، ودعا إليه وكلاء الدول المرسلين لأجل هذه الحادثة. وكان من جملة المدعوين، حضرة الأمير. وعند إجراء فنون الحرب من قبل العساكر، خرج جميع المدعوين من خيامهم التي أركزت لجلوسهم بذلك المحل، إلا الأمير فإنه بقي جالسا محله. فأقبل عليه فؤاد باشا ودعاه أن يناظر التمرين الجاري، فأجابه : إني شاهدت ذلك فعلا وعملا وكنت أتلقى الرصاص و الكلل بصدري، فلا لذة لي ،الآن، برؤيته تمثيلا.

ولما اتصل بحضرة سيدنا مولانا، أمير المؤمنين ما اتفق في هذه الواقعة الهائلة، وما أجراه الأمير في سبيل طاعة عظمته وأداء واجب خدمته، أظهر رضاه العالي بفعله وأنعم عليه بالنيشان المجيدي، العالي الشأن، من الرتبة الأولى، عنواناً على حسن توجهاته وجميل التفاته.

وصورة الفرمان :

"قد أحاط علمي، الشريف السلطاني بحال الحميّة الدينية الثابتة،

في أصل فطرة الأمير عبد القادر الجزائري ،زيد فضله، وخلوصُه الأكيد الوطيد، لطرف دولتي العليّة. وقد اضطره كل منهما لاستعمال الهمة والغيرة الكلية الفائدة في الخدمة المرغوبة وهي تخليص عدد كثير من تبعة دولتي العلية، الواقعين بأيدي الأشقياء الظالمين، عند وقع الفتنة والعناد مؤخرا، في الشام، من بعض ذوي التوحش، الجاهلين بالوظائف العليَّة الإسلامية، والأحكام الجليلة الشرعية. وحيث أن حركته الحسنة قد استوجبت لدى سلطنتي زيادة المحظوظية ووقعت موقع الاستحسان، ولأجل حسن توجهاتي السلطانية الحاصلة في حقه، والمكافأة العلنية على خدمته الخيرية الواقعة، أحسنت إليه بنيشاني المجيدي الهمايوني، من الرتبة الأولى، وأصدرتُ له فرماني السلطاني، المعلوم، المؤذن بالمكارم الملوكانية في أول صفر الخير سنة سبع وسبعين ومائتين وألف 1277".

ثم حضر مكتوب من الصدر الأعظم، عالي باشا، وصورته :

لما طرق مسامع الحضرة السلطانية خبر الفتنة التي وقعت من أراذل الناس في الشام الشريف، وذلك بهجومهم على الأهالي النصارى الطائعين الذين ،نفوسهم وأعراضهم وأموالهم ،بمقتضى الشريعة الغراء الإسلامية، هي نظير نفوسنا وأعراضنا وأموالنا، وتجاسرهم على إجراء حركات كلية قبيحة، مخالفة للشرع كسفك الدماء وهتك الأعراض ونهب الأموال ... فالتأثر العظيم الذي طرأ على القلب الشريف الملوكي من إجراء ذلك ،كان في الدرجة

القصوى؛ ولذلك، اقتضى الأمر رسال حضرة دولتة،ناظر الخارجية، بالرخصة الكاملة والقوة الكافية، ابتغاء إجراء التأديبات القانونيَّة والشرعية، وعمل ترضية للملة ولأهل الإنسانية. فلما وطئها، نكَّل بهم ،بعون الله تعالى، أيَّ تنكيل، وأراهم جزاءهم الذي استحقوه. وبما أنه قد تحقق وشاع أن ذاتكم، المتحلية بالفضيلة، في أثناء اشتعال الفتنة، توفَّقتم، والحمد لله، لتخليص ألوف من التبعة السلطانية المظلومين من أيدي القتلة الخاسرين وكانت غيرتكم التي تكرمتم بها، دليلا ليس له مثيل على حميتكم الدينية وخلوصكم لطرف السلطنة السنية؛ فاستحقيتم لدى الحضرة الملوكية، على وجه الجد والحقيقة، فرط المحظوظية والتحسن. ولذلك جعلت علامة علنية لهذا التحسن وبرهانا جليا على التوجهات السنية بحق حضرتكم. فجادت عليكم بإحسان الوسام المجيدي الهمايوني من الرتبة الأولى وقد أرسل لطرفكم الشريف وصحبته الفرمان المنيف. ومن ثمّ، بمقتضى مودّتي القديمة لطرف سيادتكم، قد غدوت بغاية المنونية لوجودي واسطة لتبليغ المكافأة السنية. وعلاوة على ممنونيتي، فإنني أختم مقالتي بالتهنئة الخالصة والتأمينات الاحترامية. أفندم في السابع مِن صفر سنة سبع وسبعينم ومائتين وألف 1277."

فسُرَّ الأمير بهذا الإنعام السلطاني غاية السرور، ثم رفع إلى الأعتاب عريضة العبودية وصورتها :

"أحمدك اللهم حمد معترفٍ بالتقصير عن شكر ما أوليت من النعم، وأصلي وأسلّم على نبيك، سيدنا محمد، أفضل العرب والعجم، وعلى آله وأصحابه الذين شيّدوا منار الإسلام ودعائم الدين بالعدل والحسام.

ثم أرفع أيدي الضراعة والابتهال إلى ربنا القدير المتعال أن يديم النصر والتأييد لحضرة مولانا الخليفة الأعظم، والملك الأعدل الأفخم، سلطان سلاطين الأمم، ظل الله الممدود في العالم، ناشر لواء العدل على البرية، حافظ أحكام الشريعة بالهمّة العليَّة القويَّة، أمير المؤمنين، أيد الله تعالى دولته العليَّة إلى يوم الدين.

ثم أتوجه إليه سبحانه بقلبي وتضرعي أن يوفق كافة وكلائه ووزرائه وعمّاله في جميع الأقطار إلى تحصيل مرضاته بالتزام صفتي الصدق والاستقامة، في السرِّ والإجهار.

وبعد، فإن العبد لم يزل قائما بوظائف الدعوات الخيرية للدولة العليَّة في كلّ بكرة وعشية، متحدثا بنعم الله الظاهرة والباطنة، شاكرا آلاء أمير المؤمنين المترادفة في كل دقيقة وثانية، مُقرّا بالعجز عن إيفاء بعض ما وجب عليه وعلى كل موحّد في هذا الباب، سائلا من ذي الجلال العصمة عن الزيغ والارتياب. ثم لما وقعت حادثة الشام وانتهكت محارم الله بلا احتشام، وتعيَّن على كل فرد من العباد بذل المجهود في دفع ذلك الفساد، قمت بأداء ما قدرت عليه من الفريضة العينية... والنيَّة الصحيحة، في ذلك تحصيل رضاء الله تعالى ثم طاعة الدولة العليَّة. ولما صدرت الإرادة السنية بسفر صاحب الآراء الصائبة الألمعية، حضرة الوزير فؤاد باشا، ناظر الخارجية، قدم إلى دمشق وهي تفور كالمرجل، وأرجاؤها من تميز الفساد تكاد أن

تتزلزل. فرتّب العساكر المضفرة في المواقع اللازمة على مقتضى الحال، وبادر بتمهيد قواعد الحكمة بلا إهمال. وفي أقرب وقت وأقل مدة، ساعدته القدرة الإلهية، والتوجُّه السلطاني أمده، فأبرز ثمرة تدابيره من القوة إلى الفعل، وأذهب، من المدينة، بنور الهدى ظلام الجهل، وأظهر عدل أمير المؤمنين لكلٍ باد وحاضر حتى أعلنت بذلك خطباء الإسلام على المنابر ورضيٍ به كافة الملل والنحل، من القاصي والدان. وطهّر ذيل الشريعة المحمَّدية من لون أهل البغي والعدوان. فجزاه الله، عن أمير المؤمنين والمسلمين، خيرا.

هذا، وإن سيدنا ومولانا، أيَّده الله، ما برحت نعمه تتجدد على تجدد الآناء والأزمان. ولم يكتف بذلك ،دام علاه، حتى طوّقني بعلامة الافتخار، وهي نعمة شكرها ليس في حيز الإمكان ورفع قدر مملوكه بما لست له أهلا من العنايات والتلطيف، مع أنه يكفيني فخر النسبة بالعبودية إلى مقامه الشريف.

ولم أر أعظــم مِــن نعمـــة مُنحتُ ولم تكُ لـي في حساب
سأشكرها شكر وقت السرو ر وأذكرها ذكر وقـت اشـباب
أيا سابقا بالذي لم يجـــل بفكـري ثوابـا ونعـم الثـواب
كــذا فلتــكن نعم الأكــرميـ ـن تفـاجي بلا منَّة أو طــلاب

وبناء على ذلك فإني أبتهل إلى الله تعالى بكل دعاء مستجاب أن يجعل كافة آراء دولته العليَّة مقارنة للسداد والصواب

ويديم بقاء ذاته الكريمة الملوكية بالتأييد، مشمولا بكمال الصحة والعافية إلى أمد مديد، بجاه سيد الوجود عليه الصلاة والسلام. والحمد لله دعاء المتقين في البدء والختام.

في أوائل ربيع الأول سنة 1277.

ذكر ما ورد على حضرته من مكاتيب الدول ونياشينها
وما قدمته الشعراء إلى أعتابه من قصائد المدح والتهنئة

ولأول وقوع هذه الحادثة العمياء، طار خبرها في أقطار الدنيا، وشاع ما أجراه الأمير من السعي في إطفاء نارها، وتسكين تيارها. فأخذت مكاتيب التشكر من سائر الدول، ونياشينها العالية الأولية ترد على حضرته اقتداء بالدولة العلية. وهذه نصوص المكاتيب المذكورة :

نص ما كتبه وزير خارجية فرنسا

"أيُّها الأمير السامي، إن خبر الحوادث الشامية قد طرق مسامع الدولة الفرنساوية. وإجابة لطاعة مولاي الإمبراطور وإرادته، بادرت الآن بإعلان اعتباره السامي والتشكر الوافر من طرف جلالته، على السعي الذي تكرمتم به على الأهالي المسيحيين والراهبات والمبعوثين الفرنساويين وجمهور القناصل بتلك الواقعة المحزنة. والمزية العظيمة في ذلك هي مشاهدة همتكم العليَّة التي جعلتكم وقاية لحياة ألوف من المساكين، وجعلت محلكم ملاذا لهم في وقت كان الأشقياء الخارجون عن الطاعة يرتكبون القبائح المخالفة لأوامر الباري تعالى ولما تقتضيه الإنسانية. أما الإمبراطور، نظرا لمعرفته بعليّ همتكم وكرم أخلاقكم، فإنه لم يتعجب بما أظهرتموه من الإقدام في ذلك الوقت الضنك. وهو الآن يشعر بداع ذاتّي يدعوه إلى أن يخبركم عن فرحه الشديد الذي أثر فيه تأثيرا قويا بإجراء ما أجريتموه. وأنا أرجوكم قبول التهاني الشخصية مني التي أضيفت،أيها الأمير السامي، إلى تأكيدات سمو اعتباري لحضرتكم".

في 31 أغسطس 1860.

ثم حضر رئيس المترجمين في دائرة الوزراء الفرنساوية، مبعوثا من لدن الإمبراطور إلى حضرة الأمير وقدَّم إليه نيشان "الليجون دونور" المرصَّع من الرتبة الأولى وبلَّغه اعتبار الإمبراطور وسائر الفرنساوية لمقامه العظيم.

صورة المرسوم الممضي بخط ملك بروسيا صحبة النيشان

"نحن غليوم ،بنعمة الله تعالى، ملك بروسيا ... (إلى آخر الألقاب).

قد منحنا الأمير، عبد القادر بن محي الدين، نيشان صليب النسر الأحمر، من الطبقة الأولى. وقد أعطينا إراداتنا هذه لأجل تملكه الحقيقي لهذا الوسام، حاويةً توقيعنا وإمضانا مع الختم الملوكي."

مِن "بالسبيرج"، في الثاني عشر من أكتوبر سنة إحدى وستين وثمانمائة وألف1861.

وهذه صورة المرسوم الممضي بخط يد قيصر الروس المرسل صحبة النيشان

"نحن إسكندر الثاني، إمبراطور وافطوكراطور جميع الروسيين ... (إلى آخر الألقاب) إلى الأمير عبد القادر

اقتضت رغبتنا أن نشهر التفاتنا إليكم بشهامتكم وعملكم .بما اقتضته الإنسانية واجتهادكم في إنقاذ ألوف من المسيحيين من أهالي دمشق الذين وجدوا في خطر عظيم.

اقتضى الحال أننا سميناكم من أعظم فرسان رتبتنا الإمبراطورية الملوكانية المشهورة بالنسر الأبيض، وهذه علامتها واصلة إليكم، ونحن لم نزل باقين على المحبة لنحوكم، بالاعتبار الإمبراطوري الملوكي".

حرر في "بطرسبورج"، في يناير سنة ستين وثمانمائة وألف 1860.

وهذا نص تحرير ملك إيتاليا

"إن عظيم تصرُّفكم، في أمر المسيحيين، في الحوادث الشامية قد أثبتت أمام أوربا أنكم ممن حاز المزايا الحربية العظيمة، خصوصا في الحادثة الدمشقية التي أنقذتم فيها النفوس الكثيرة. فكان ذلك حلية لنفسكم الكريمة المصطفاة. ثم إنه يوجد، بيني وبينك أيها الأمير العزيز، مواصلة أفرح بذكرها وهي محبة الحرية التي تجعل تابعيها محافظين على العدالة الحقيقية. وإذا كنت في أيامك السابقة لم يمكنك الحصول على النجاح التام على حسب مرغوبك، فهذا لا يكون مانعا لاكتسابك، بالنظر لشجاعتك القوية، الاحترام والاعتبار من جانب أهل الحرب المعاصرين لك والذين يقاتلون في صالح استقلالية الشعوب. ونظرا لشهادتي بهذا الاحترام المخصوص لشخصك الكريم، فأنا مرسل إليك الآن الشريطة الكبرى، نيشان "موريس والعازر" وهو أقدم نياشين الخيولية والفروسية، وهو يسلّم لك على يدي إثنين من ضباطي وهما الكاواليردى كاستيلونيو، والكونت دي كاستيلونية، القادمين إلى حضرتك لأجل هذا الأمر. وإني أوصي بها شديد اعتنائك. وأرجوا أن تصادفك السعادة فيما بين يديك ، أيها الأمير السعيد، نظير الندا الذي يقطر من السماء ليعطي الإقبال إلى الأرض. والمأمول قبول هذا الدعاء مني لأجلك في المستقبل كما أني أرجو أن تعتقد تمام محبتي".

حرر في مدينة "تورين"، بتاريخ سبتمبر "أيلول" سنة ستين وثمانمائة وألف 1860.

-محبك فيكتور عمانوئيل-

نص ما كتبه ملك اليونان

"نحن اوتون بنعمة الله ملك اليونان، قد أعطينا الأمير عبد القادر النيشان الكبير، رتبة أولى، من صنف نيشاننا الملوكي المدعو بنيشان المخلّص، المؤرخ يولية "تموز" سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة وألف 1833. وأرسلناه إليه ليحمله ويستعمله بمقتضى أمرنا. وبناء على ذلك، أصدرنا له هذا المرسوم ممضيا منا ثم من وزير بلاطنا الملوكي والتعلقات الخارجية".

حرر في أثينا، بتاريخ سبتمبر "أيلول سنة ستين وثمانمائة وألف 1860.

نص تحرير قنصل دولة إنكلترا في دمشق

"إلى عظمة الأمير، السيد عبد القادر.

المعروض لسعادتكم أنني قد أُمرت من الحكومة الإنكليزية الفخيمة أن أبين لكم حاسيّتها الفائقة نظرا لما أظهرتموه من حقوق الإنسانية بتخليص حياة جماعة كبيرة من المسيحيين الذين لولا ذلك، لهلكوا بين أيدي أهل القساوة في المذبحة الأخيرة بدمشق. وبسلوك عظمتكم، عرفت الحكومة الإنكليزية مقامكم الرفيع للغاية. ثم أعرض أن هذا الشرف الذي صيرني واسطة لتقديم حاسيات دولة انكلترا الفخيمة إلى حضرتكم، أعتبره شرفاً عظيماً، لا مزيد عليه. وقد كنت شاهدت اجتهاد عظمتكم في تخليص عدّة أناس كانوا مضطهدين، حتى إنني حصلت بذلك على حاسيات التعجب. والآن لي الشرف بأن أكون مبلغا لكم ما سطّرته، وداعيا لعظمتكم".

حرر في الرابع والعشرين من أغسطس سنة ستين وثمانمائة وألف 1860.

-من قونصولاتو دولة إنكلترا، دمشق-

وبعد هذا، بعثت الملكة بندقيةً، هدية للأمير، مكتوبا على ظهر صندوقها : "مِن حضرة جلالة ملكة المملكة المتحدة، بريتانيا العظمى، إلى صاحب السمو، الأمير عبد القادر، تذكارا للمساعدة الخيرية المبذولة للمسيحيين في دمشق سنة ستين وثمانمائة وألف 1860".

نص تحرير الجمعية الفرانماسونية بفرنسا

"إلى الأمير الأجل، عبد القادر، في دمشق.

اعلم أيها الأمير أن العالم المتمدن قد كلّل هامتكم الشريفة المقدسة بإكليل الشرف والافتخار. ونحن نقدم إليكم فرحنا بكونكم تسمّيتم، مِن المحكوم لهم، بحسن السيرة، من أي فرقة كانوا، أو دين ،الذين أظهروا أنفسهم بكمال الإنسانية. وأنت قد أظهرت نفسك إنسانا قبل الكل ولم تسمع إلا إلهامات ربانية في قلبك أمَرَتك بمقاومة نار مشتعلة مِن الهيجان البربري والتعصب الجاهلي. نعم، إنك النائب الوحيد للأمة القومية العربية التي أوربا مديونة لها بقسم عظيم مِن تمدنها وعلومها التي استنارت بها. ولقد أثبتَّ بأعمالك وبكريم شيمك أن هذا الجنس لم ينحطّ اعتباره السابق، وهو، وإن كان الآن في سِنَة من النوم، فسيستيقظ للأعمال العظيمة، باستدعاء نفس قوية، نظير نفسك. وانظر فرانسا التي كانت خصيمتك، فإنها الآن عرفت كيف تعتبرك وتبتهل بك، وما ذلك إلا لكونك أعطيت للتمدن حقه.

أيها الأمير، لك المجد والشكر تكراراً. فالإله الذي نسجد له جميعا

والذي عرشه في داخل قلوبنا وقلوب كافة الكرماء، يتمم عمله بكم في الخير. أفلا ينظر إلى العناية الإلهية، بعد تقلبات عديدة، كيف أتت بكم إلى تلك البلاد لأجل تبديد ظلمات الجهل وإطفاء نار التعصب الجاهلي وإنقاذ تعيسي الحظ من يد الجهلة. واعلم ،أيها الأمير الأجل، أننا واثقون بأن تقبلوا منا هذه الرسالة وإن كانت لا قيمة لها".

حرر في باريس، في الثاني من أكتوبر (تشرين الأول) سنة ستين وثمانمائة وألف 1860.

وإثبات هذا القدر من المكاتيب الواردة على حضرة الأمير كفاية. ولو تتبعنا تحرير جمعها، لأفضى إلى ما يوجب السآمة والملل.

وممن مدح الأمير على ما أجراه، في هذه النازلة، من الشعراء، العالم الناظم الناثر، الشيخ إبراهيم الأحدب، نائب المحكمة الشرعية في بيروت؛فقال :

قلب بنار الأسى والوجد حيران لجيرة من حمى جيرون قد بانوا
بانوا فبانت مسرّاتي بهم أسفا فلا انثنى بعدهم في روضة بان
عربٌ بإحسانهم قد أعربوا كلفي غداة تطربني بالوصل ألحان
بذلت روحي لأدنو من منازلهم إن المعالي لها الأرواح أثمان
وقد ألفت بهم خلع العذار ولم يقبل عذاري فأمسى وهو شيبان
ياحبذا عهد نعمان الأراك بهم أيام أنعم لي بالقرب نعمان
ريمٌ أروم التسلي عن هواه وهل يسلو عن الماء بالنيران ظمآن
لا سالمت بعده آرام ذي سلم ولا غزتني بالأحداق غزلان
بلؤلؤ الثغر منه كنت ذا فرح فالآن دمعي بالياقوت مرجان
هل تنطفي نار أحشائي برؤيته وتستكن من الأشواق أشجان
كما بهمّة عبد القادر انطفأت في الشام من حادث الأيام نيران

شمس من الغرب وافتنا فكان لها في الشرق نور به الآفاق تزدان
سرٌّ من الله قد أحيا الأنام به إن كان يبدو لسرّ الله إعلان
حلّت أياديه جيد الكون من عطل وما تعقّده في الدين إيمان
آثاره شامةٌ في الشام قد نفحت طيبا به ارتاح نسرينٌ وريحان
ذو طلعة فوق نجم المشتري شرفا وهمة دونها في الأفق كيوان
إلى النبي غدا يبدي لنا نسبا في وجهه شاهد منه وبرهان
يا مرتجي الغيث يمم فيض أنمله فتلك للمرتجى جدواه خلجان
يدينه للمرتجى لطف الجانب كما يعلو به فوق هام النجم سلطان
وفي العلوم التي ساد الأنام بها لها أياديه بالتحرير إتقان
يا من على البدر أربي نور طلعته والنجم فيما حوت علياه حيران
من بعد بعدك شمس الغرب قد غربت وعطّلت منه أوطار وأوطان
والشرق أشرق فيه من سناك لنا بدر منير به للحق تبيان
هل تنكر الشام فضلا قد خصصت به غداة كلٌّ كسيف البال ولهان
إذ يوقظ الشرّ قومٌ ساء جهلهم أعمالهم عن منار الحقّ طغيان
بذمة المصطفى المختار قد غدروا وإن ذلك للإحسان كفران
شككت في أنهم ناس بما فعلوا إذ ليس يفعل هذا الفعل إنسان
علمتَ عقبى الذي أبداه جهلتم وإن ذلك في الدراين خسران
فقمتَ تمنع ما أبدوه مجتهدا ما فوق ذلك يا مولاي إمكان
ورحت تظهر في حجب الدما شيما ما حازها قبل قحطان وعدنان
كما حميت العذارى بالظبا كرما مطهر النفس ما استغواك شيطان
إذ قد نهى المصطفى عن خفر ذمته وأن يكون لوالي الأمر عصيان
ماذا عليك وقد راعيت سنته إن راح ينكر نشر الورد جُعلان
هذا هو الشرف المحض الذي اشتهرت له مآثر قد أمسى لها شان

على السماع بما قد شاع عنك غدت مشوقةً قبل رؤيا العين آذان
أمسى لي الشعر سهلا حين قام به بيدي مآثر الحسناء إحسان
فاستجلها غادة وقت محاسنها جمالها عن سوى علياك منصان
على ابن سهل معاني لفظها صعبت كما ابن هاني بما أبدته منهان
مع أنني في زمان لا يقام به للشعر سعرٌ وإن زانته أوزان
لكن جدك قد سنّ القبول له أيام أحسن فيما قال حسّان
وأنت خير امرئ يقفو مآثره لا زالت بدراً به العلياءُ تزدان

وقال أيضا:

ماذا تقول بوصفك الشعراء وعلاك ترفع أصله الزهراء
والله قد أثنى عليكم بالذي قد شرّف الثقلين منه ثناءُ
آل الرسول بكم يبين لنا الهدى ويزول عن عين اليقين غشاء
نسل كمثل الصبح لاح لناظر ما للصباح عن العيون خفاءُ
نفحت مآثر الزكية في الورى وتأرّجت بثنائك الأرجاء
وخلائق المختار فيك تجمعت فتشابه الأبناء والآباء
فنظرت بالنور المبين إلى مدى ما أدركت لثرائه الزرقاء
وعداك قد شهدوا بفضلك في الورى والفضل ما شهدت به الأعداء
وبلغت بالهمم العليّة غاية عن درك وصفك تعجز البلغاء
يدنيكَ للراجي التواضع مع علا عين السهى لمناله خوصاء
الله أكبر هذه الشيم التي تقفو معالي فضلها الخلفاء
أسفي على ما حلّ بالشام التي هي في البلاد الجنة الخضراء
بلد له الشريف الرفيع وحسنه قد أفصحت بمديحه الفصحاء
أنّى التفتّ ترى أغنّ مهفهفاً تجلوا سناه روضة غنّاء
أو غادة يبدو لنا مِن فرعها وجبينها الإصباح والإمساء

يا ويح قوم أيقظوا الشر الذي قد أمَّ عمّ الشرق منه بلاء
حذّرتهم عقبى الفساد فما أرعووا فكأنما تحذيرهم إغراء
فسللت من غمد العزيمة صارما يمضيه في فلّ الخطوب مضاءُ
ووضعت أوزار الوغى بحمية بحمى سطاها لاذت الوزراءُ
وفلت حد الخطب منك بهمة تصبو لنعت علوها الخطباء
ومهابة شهامة وحماسة كل له فوق النجوم لواءُ
ما أدرك الجهلاء رشدك فيهم عين الجهول عن الهدى عمياء
ما عذر من لم يشكر المولى الذي صينت بحد حسامة العذراء
شمس من الغرب استنار بها الورى والشرق منه عمّه الأضواء
آيات موسى أظهرت آياته منها استبان لنا اليد البيضاء
حسن الطوية مخلصٌ في فعله إن شاء بعض العالمين رياءُ
متمسك في الدين في أفعاله لم يهو بالإرشاد منه هواءُ
يا ابن الذي بسناه شرّف آدم وحوت به شرف الورى حواء
أعوقت سحب الغيث فهي من الحيا تهمي إذا ما انهل منك نداء
إني قد استشعرت طوق نداك لي فسجعت فيك كأنني الورقاء
وشعرت بالسر الذي أوتيته فبلغت ما لم تبلغ الشعراء
ولقد وقفتُ على علاك قصائدي وقفا تسجل حكمه العلياء
وإليك قد وجهت قبلا غادة نطقت بحق ليس فيه مِراء
والآن قد أرسلت شافعة لها إذ كان عندك تنجح الشفعاء
حررتها فأتت إليك رقيقة ليرى لنظامها لديك ولاء
لم يبق في العلياء مطمح ناظر إلا وجاز علاه منك سناء
فلذلك ندعو أن تدوم مخلدا ووظيفة العبد الضعيف دعاء

وقال عند حضور نيشان نابليون إمبراطور فرنسا :

بسهم رأيك يامن عز سلطانا أصبت مِن غرض العلياء نيشانا
وحزت بالحزم فخرا عز نائله أثار في مهج الأعداء نيرانا
قدرٌ أشم ومجد قد علا شرفا يستوقف النجم في معناه حيران
عداك ما أنكروا فضلا سموت به وما استحلوا لما أبديت كفرانا
بل كلهم قد قد غدى يثني عليك بما تأرجّت منه يا مولانا أرجانا
في الشام همة عبد القادر اشتهرت تبدي لسر الذي أوتيه إعلانا
ما حيلة الشرق إلا نشر سؤدده فليفخر الغرب علياه به الآنا
بفضله معجزات المصطفى نشرت إذ جاءنا بالهدى للحق برهان
يابحر علم مزاج الدهر صحّ به غداة كلّ يعاني منه بحرانا
حتّام تعلو وهام النجم تحت ثرى نعليك مع أنه قد جلّ أركانا
إذاً فما الرتب العليا وإن عظمت تزيد قدرك يا مولاي إمكانا
لم يخطِ سهمك مرماه لذلك قد أولتك دولة نابليون نيشانا
رأت مساعيك الحسناء لقد نجحت فأسرعت بالذي أولاك شكرانا
مع أن بيص أياديك الحسان لقد عمت جميع أولي الأفضال إحسانا
لو كافؤوك على فعل الجميل بهم دعوك فيهم بحكم المجد سلطانا
لكن قصدك نشر العرف تبذله كالغيث عمّ الورى إن فاض هتّانا
يا ليت مثلك يوم الدار كان بهم غداة أردوا بسيف البغي عثمانا
أو كنت في يوم صفين تؤمهم إذًا لَعَزّ دمٌ بالبغي قد هانا
أو كنت في قوم نوح داعيا لهم كفاهم الله بالإيمان طوفانا
أو شام فرعون نور من سناك بدا لم يبن صرحا له مأمور هامانا
يا بن النبي بكم أبدي الغلو وإن منعته في سواكم أي من كانا

ما قدر قولي في مدح غلوت به وفيكم أنزل الرحمن قرآنا
آل الرسول بكم تهدي الأنام كما بحبكم نرتجي فوزا وغفرانا
أحسنت في مدحكم أرجو النجاة به فقابلوا بالولا إحسان حسّانا

ومنهم العالم الفاضل السيد أمين الجندي فقال :

إليك انتهى المجد الرفيع المؤثّل وعنك أحاديث المكارم تنقل
تفرّدت في الآفاق بالسؤدد الذي على فضله بين الأنام المعوّل
سموت سمو البدر في برج عزّه ونورك للأكوان مولاي يشمل
ألست ابن سلطان الرجال ومن له على كل قطب في الوجود التفضل
أما أنت من آل النبي كدرّة تجلّ فلا يجري عليها التمثّل
أما أنت كشاف الكروب عن الورى ومنجدهم إن حلّ خطب ومعضل
حماك غدا للناس آية كعبة فما عنه للعافين يوما تنقل
ومورلك السامي صفا عن كدورة فمنه نوو الآمال بالبشر تنهل
ظهرت بأوصاف الكمال وإنما لديك انطوى ما بعضه اللب يذهل
ومن ظن يستوفي المديح أو الثنا عليك إذًا عند التأمل يخجل
ولا عجبا فالله جلّ جلاله عليم يرى حيث الرسالة يجعل
ملكت زمام المجد فانقاد مسرعا إليك وقوم حاولوه فحوِّلوا
ملأت قلوب الناس لطفا وهيبة وكل إذًا؛ في بابه جاء يجمل
جمعت الندى للحلم والبأس للتقى فأنت لمن وافاك ركن ومنهل
تهاب ليوث الغاب في أجماتها سلطاك ويرجو البرّ منك المؤمِّل
وقفت على سرّ الحقيقة فانجلت لديك عروس الإنس بالعزّ تخجل
وأبرزتَ من كنز العلوم دقائقا يعزّ إليها عن سواك التوصل
حفظت بلادا كنت فيها مملّكا بعزمك دهرا فيه ذو الحزم يحلل

وحاربت قوما أهل بأس وشدة   لهم بين شجعان الخليقة منزل
وكنت عليهم ظاهرا في مواقف   بها تقف الأفكار عجزا وتخبل
أقر بذا خصم هشمت ذراعه   وهذا هو الفضل الذي ليس يجهل
وفي الشام لما أن بغى الناس واعتدى   على بعض بعض بما ليس تقبل
نهضت لإخماد الفساد بهمة   تزيل الرؤس والأسود تجندل
حقنت دماء حرم الشرع سفكها   وصنت من الأعراض مالا يحلّل
بذلت من الأموال وفراً بمثله   يظن سخي الطبع المتموّل
صنيعك هذا ليس يقدر قدره   ولا احد حقا له يتوصل
قصدت به مرضاة ربك مخلصا   وما خاب عبد في رضا الله يعمل
ملوك الورى طراً حبتك علائما   على شرف في حوزه أنت أول نكير
وصيتك عم الخافقين فلا يرى   نكير له في الكون أو متأول
كفى أهل هذا العصر عزّاً ورفعة   وجودك فيهم ما لذلك معدل
وحق التشريف إذ كنت سيدي   ومن أين لي لولا رضاك التوصل
وجدّك في سلمان قال مقالة   فقل أنت مني بالقبول مجمل
لأرفل في قومي بثوبي كرامة   وعزّاً وضدي بالمذلة يرفل
أَقِلْ عثرتي واتخذني لدى حكمي   هزاراً عليه المدح في الغير ينقل
فما كل من ألفى الدراري يصوغها   عقودا ولا كل الأقاويل تقبل
وإني وإن قصّرت فالعذر واضح   وما زلت عفوا منك مولاي أسأل
فلا زلت ملحوظا بعين رعاية   من الله ما سار الحجيج يهلل
وما بسط الداعي الأكف لربه   وما قام في جنح الدجى متوسل
وما أشرقت شمس وما هبت الصبا   وما خصّ بالتسليم في الناس مرسل

ومنهم الشاعر الأديب سليمان أفندي صولة فقال :

شقيقة الروح ما أجرى الدموع دماً ... إلا فرقك دون الآل والندما
ولا أطار منامي عن مواطنه ... غير الصدود، الذي سرّت به الخصما
وساق بينُك لي روعاً نفى ورعاً ... كنت الصؤول به طفلا ومحتملا
سقمان لم أدر تعذيبي بأيِّهما ... سقم اصطباري أم أجفانك السقما
حكمت لي بالهوى والجور عادته ... أأشتكي جوره؟ أم أجور من حكما؟!
الله بي فلقد أصبحت في وجل ... لو حلّ أيسره بالزهر ما ابتسما
هيهات لا صبر بعد الهجر يسعفني ... وبعد شهد اللما صبر المشوق لما
إن كنت سالية عهدي فقد شمتت ... بنا الوشاة وأما إن وصلت فما
أمّا أنا فكما تدرين مكتئبٌ ... لم أسل منك رضابا قد حلا وفما
رضيت بالشوق قوتاً والغرام ردا ... والحب دينا وسلطان الهوى حكما
إن كان بيتك ضيقا فاللقا فرج ... إذا تولاه عبد القادر اقتحما
حامي الشام وقد دارت دوائرها ... وقامت العرب فيها تقتل العجما
وكاشف الضر عنها بعدما عثرت ... أيّ العثار وحاكت أسدها الغنما
الألمعي الأبيّ العبقري أبو ... أشبال نخبة باقي السادة العظما
السيد السند الفرد الذي انقسمت ... به العدا وعلاه الفرد ما انقسما
وجاءه من ملوك الأرض كلٌّ ثنا ... يزري شذاه سحيق المسك منتسما
وأنجم من نياشين مكرّمة ... يشف عنها شعاع الماس مبتسما
تسمو الملوك بها قدراً فتحملها ... يوم المفاخر حتى تدرك العظما
يا من تخوّف دهراً عاث أرذله ... يمم حمّاه تجد مما تخاف حمى
هو الأمير الذي فلّت صوارمه ... عزائم الدهر لمّا جار واحتدما
فذا الزمان وحيد العصر خيّره ... ثبت الجنان طويل الباع إن هجما
المشبع القوم أطياراً إذا التمسوا ... والمشبع الطير أقواما إذا انتقما
درّ الغمامة إلا أن صيّبة ... يوم السماحة درّ الفخر الديما

لو لم يكن أوحد الأوحاد ما اجتمعت ... علـى مدائحـه البـادون والقـدما
الله يا ابن المعالي بي فقد نهبت ... حوادث الدهر منّي ماجمعت وما
وقلّ صبري وما صبري وقد بلغ السيل ... الزبـي وتنـاهى الأمرُ بـي عظمـا
كانت جوائز شعري عندكم ذهبا ... فـامنن علـيَّ بهـا ياسـيدي كلمـا
فاردد بجاهك كيد الحاسدين عـلى ... نحـورهم وعلى مدّاحك النعما

ومنهم الأديب نقولا أفندي النقاش البروتي قال:

دع عنك تشبيبا بوصف محاجر ... ودع التغـزُّل في ضـبا وجـآذر
واطرب بوصف مناقب ومكارمٍ ... والهـج بـذكر محامـد ومفـاخر
شرف الفتى يهوى جميل مناقب ... مـن أن يبيـت أسـير طـرف سـاحر
واقصد حما الفيحاء واركع خاشعا ... في باب كعبة بيت فضل زاخر
وقـل السلام علـى ربـوع غيثهـا ... فـضل الأمـير الـشهم عبد القـادر
مـولى بـه كملـت صـفات سميّـه ... فأنـار فـضلا كـل نجـم زاهـر
مـولى لـه الآسـاد ترجـف خيفـةً ... وتـراه يرجـف خـوف ربٍّ قـادر
هـذا الإمـام لكـل مفـضال وكـم ... عـزّت بوطأتـه رؤوس منـابر
مـولاي أنـت إلى البريـة كوكـب ... تهـدي الأنـام بنـور فـضل بـاهر
يـا كوكبـا بـالغرب أشـرق لامعـا ... وسـرى لأفـق ديارنـا كـالزائر
نعـم الزيـارة سـيدي نلنـا بهـا ... مـن جـود كفّـك بحـر خـيرٍ وافـر
وسمـاء فكرتـك الـسخية أمطـرت ... غيثـا مـن العلـم الـشريف الطـاهر
يـا سـعد عبـدٍ تـابعٍ إرشـادكم ... يهـدي بنـبراس العلـوم الزاهـر
يا صاح إن رمـت الـسعادة فـاتبع ... آثـاره تحـضى بحـسن مـآثر
واسلك سبيل العدل لا عدل إلى ... طرف الـضلال سـبيل عبـدٍ فـاجر
وعن اكتساب المجـد لا تغفـل ولا ... تـشغلك عـن مـولاك ذات أسـوار
واسـلك بطـوع الله لا تهـوي إلى ... طغيـان إبلـيس اللعـين الكـافر

نعم الفتى ما من ليس يجهل باذلا وعدا جليلا بالدنيء الحاضر
ما مجد ذي الدنيا وزينة فخرها غير التلاهي بالضمير القاصر
والواثق المغرور في أوغادها مثل الحريص على الخيال الغابر
ومؤمَّل منها دوام سعادة وثبات موعدها الخؤون الغادر
كمحاولٍ بين البرية أن يرى نداً إلى مولاي عبد القادر
هذا الأمير أبو المعالي والنهى الطاهر ابن الطاهر ابن الطاهر
ملك حوى النسب الصحيح مسلسلا وعلا المعالي كابرا عن كابر
ذو همّة عربية وطهارة حسنيّة ومهابة كالناصر
حاز الفضيلة والرصانة والحجى وجمال خلقٍ عن كمال سافر
وإذا توالى الحرب يوم كريهة ردّ الخميس بعزم زند قادر
يلقى العداة بكل أشهب ضامر ينساب فوق جماجم ومغافر
فكأنهم خلقوا لوطأة نعله أو تربهم من ترب وقع الحافر
تشكو رقابهم إلى صمصامه شكوى الجريح إلى العقاب الكاسر
والنسر صام إذا دنا من جيشه يكيفه من قتلى العدّو الخاسر
تجثو لسطوته الصفوف مهابة وإذا هم وقفوا فوقفة صاغر
سل عنه آل الشام يوم مصابهم لمّا حماهم بالحسام الباتر
يوم به مطرَ السحابُ مصائبا ظلما وشمس العدل تحت ستائر
والبيض تلمع والأسنة شرَّعٌ ما بين ذيّاك العجاج الثائر
والقوم بين مهرولٍ ومجندل ومذافرٍ ومخاوف ومخاطر
ومواقعٍ ومدامعٍ ومعامع أو هاجدٍ أو شارد أو نافر
أو نادبٍ أو هارب أو غارب أو صائح أو نائح أو حاسر
والنار تبتلع الديار بأهلها حتى غدت لجسومهم كمقابر
وحسام مولانا الأمير يصونهم من كلِّ فتّاك ظلوم غادر
تلقاه يخترق المعامع منقذا غنما غدت في فم ذئب كاسر

حتى إذا ما فاه داعٍ باسمه ... فرّت جيوش الظلم مثل الطائر
داوى بحكمته الجراح وقد غدا ... لعظيم ذاك الكسر أعظم جابر
حقن الدماء وصان عرضاً عالياً ... طوعاً لدين بالصيانة آمر
أبدى بهمته العجاب وإنما ... عجب العجائبُ فعله بجزائر
سل أمة الإفرنج عنه في الوغى ... إن لم تفه أفواه ضرب الباتر
قصدته من أقصى البلاد كبارها ... لتفي بمسعاها فروض الزائر
ما عدّ مأجورا فتى ما زاره ... هب طاف بالقدس الشريف الطاهر
يأتون سدّته الشريفة خشّعا ... والقلب يخفق فرحة كالطائر
فيريهم الوجه المكلل بالبها ... لطفا ويشملهم بحسن مآثر
فيرون شهماً بالماجد رافلا ... يختال بالمجد الرفيع الزاهر
يسري ويوميءُ بالأنامل نحوه ... فوق المعالي تحت عقد خناصر
وملائك الرحمن حول جنابه ... لتقيه من عين الحسود الغادر
فبعيدهم يتسابقون لحمده ... ولمدحه بلسان أفصح شاكر
يصفونه وسنا الصواب دليلهم ... ما بين أقران وبين عشائر
أنّى لهم تعداد كلّ صفاته ... وعداهم إدراك بعض الظاهر
وبحصرها قد أعجزت كلّ الورى ... من حاسب أو ناظم أو نائر
مولاي هب طال الكلام بمدحكم ... فبوصفكم ما زال أقصر قاصر
وأنا الذي في وصف غيرك قاصر ... لكن بمدحك صرتُ أوّل شاعر
هذي صفاتٌ منك تهديني إلى ... مدحٍ وترشد للفصاحة خاطري
رصّعتها دررا أتت كقلادة ... ترصيع نقّاش خبير ماهر
وأتيت أهديها الزمان وأهله ... فغدت لهم كجميل طوقٍ فاخر
يتسابقون لحفظ نظم بديعها ... يتنافسون بكل بيتٍ عامر
وسناء مدحك ضاء في أبياتها ... يجلو عن الأبصار كل ستائر
يملي فتكتب والعيون قريرة ... هذا سنا مولاي عبد القادر

ومنهم الأديب اسكندر آغا أبا كاريوس البيروتي

فإنه ألّف كتابا سماه "نوادر الزمان في وقائع جبل لبنان"، وقدّمه إلى حضرة الأمير. ونصُّ ما كتبه، بعد الديباجة، وترتيب أبواب الكتاب :

"وقد قدّمته خدمة إلى أعتاب فخر الموالي وبهجة الأيام والليالي، وحيد دهره وفريد عصره، عمد الأمراء وتاج الكبراء، من شاعت فضائله الآفاق، وامتلأت بمدائحه وذكر أوصافه الحسنية بطون الصحف والأوراق، ذو البأس الشديد والرأي السديد، الذي شمله الله بالنعمة وخصّه بالفراسة والحكمة ومكارم الأخلاق والهمة ورفعة على أقرانه بالشرف والسيادة، وجعل أيامه السعيدة قرّة عين السعادة، الأمير المفخم والهمام المكرّم والشجاع المقدم والليث الغشمشم، معدن اللطف والكرم، صاحب البند والعلم، الجامع بين شرفي النسب والقلم، مولانا عبد القادر بن محي الدين الحسني، أبقاه الله مدى الدوام، وحرسه من نوائب الليالي والأيام، ما غنّى الهزار، وناح الحمام بجاه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وبناء على ما شوهد من حسن خصاله وجودة أخلاقه وكثرة أفضاله، قلت، مادحاً مناقبه الفريدة وأوصافه الحميدة، بهذه القصيدة :

لباب ومولاي عبد القادر ابتدرت أبيات مدح أصابت أصدق الكلم
هذا الأمير الذي باهى الزمان به والطاهر الأصل والآباء والشيم
أنعم به من أمير ماجد فطن قد خصّه الله بالإحسان والكرم
هذا الأمير الذي صارت فضائله في الأرض أشهر من نار على علم
مولًى له سماء المجد منزلة رفيعة الشأن لم تدركْ ولم ترم

فريد عصرٍ تسامى عن مماثله　　في الحزم والعزم والآراء والهمم
حلو الشمائل ممدوح الخصال وكشاف　　المعاضل ماضي السيف والقلم
ترى المعارف في أعتابه اجتمعت　　وكلّ فن من الآداب والحكم
الجاعل العلم مثل الروض مزدهرا　　لما جرت فوقه أيديه كالدّيم
والجاعل الخير نورا للعيون فما　　تخشى الضلال بداجي ليلهاالعتم
لجوده في البرايا كل مكرمة　　وللثناء عليه كل مزدحم
تثني عليه دمشق الشام ما انتشرت　　في سفح قيسون ليلا نفحة الحزم
زهت بهمّته العلياء واكتسبت　　فخرا على كلّ مدن العرب والعجم
أقام ذكرا إلى يوم النشور بها　　تكاد تقرأه الأموات في الرحم
أحيا النفوس بإذن الله حين كفى　　شر العتاة ولم يسمح بسفك دم
أتى به الله كهف المستجير فمن　　يحمي نجا كحمام حلّ في حرك
يا أيها السيد المرهوب جانبه　　والمرتجى غوثه في الأعصر الدهم
هاك كتاب الذي لو كان يمكنه　　سعى على الرأس طوعاً لا على القدم
يرجو لديك قبولاً طاب مورده　　فذاك يحسبه من أعظم النعم
لا زلت في درجات العزّ مرتقيا　　في صفو عيش رغيدٍ غير منصرم
وأسلم ودم ما سرى نجم وما طلعت　　شمسٌ وما غرّد الشحرور بالنغم

وأهدى إليه الأديب رزق الله أفندي حسون ديوانه المسمى "بالنفثات" وكتب له في ذلك :

أمولاي عبد القادر السيد الذي　　وقانا لوجه الله شانيك أبتر
كتابي وقد أهديته تحفة إلى　　علاك ليحضي في الورى حين يشهر
وأضحى جميل الشعر فيه الثنا على　　مكارمك الغرّا مدى الدهر تشكر
هدية عبد يرتجيك قبولها　　لسنّة جود عن سليمان تذكر
وإن كانت النذر القليل فإنها　　لجملة مالي والمقلّ ليعذر

وكتب في آخر هذا الديوان قصيدة ذكر فيها رحلته إلى القوقاس وختمها بمدح الأمير. وممن نوّه بذكر الأمير في هذا الخصوص، الجمعية المعروفة بجمعية عمل الخير وإعانة المصابين في البر والبحر. وهذا نص ما بعثت به إليه :

إن جمعية المصابين المؤلفة من أعيان الأمصار ووجوه المدن الشهيرة في فرنسا قد اتفقت كلمتها على أن يكون الأمير عبد القادر رئيس شرف لها. وإنما فعلت هذا لتؤكد له عظيم اعتبارها لجنابه الشريف، وجزيل تشكراتها الفائقة لما أبداه من أعمال الخير الجسيمة في سورية، سنة ستين وثمانمائة وألف 1860. وبناء على ذلك، بعثت إليه هذا الرقيم كالشاهد على عقدها لما اتفقت عليه، وذلك في باريس، آخر يونيو (حزيران) سنة إحدى وستين وثمانمائة وألف 1861.

وكانت الجمعية الأميركانية الشهيرة بالشرقية، القائمة بتأليف تاريخ العالم، سبقت هذه الجمعية إلى مثل ما فعلته وأرسلت إلى الأمير نسخة من تقريرها، وصورته :

بناء على تقرير الجمعية الأميركانيّة الشرقية، وعلى قرار المجلس، قد أعلنت بتعيين الأمير السيد عبد القادر بن محيي الدين عضو شرف لها، تتشرّف بذكره. وبعثت إليه بهذه النسخة المطابقة للأصل، إعلانا بما قرّرته، في باريس، في الثاني من يوليو (تموز) سنة ستين وثمانمائة وألف 1860.

ذكر ما نشرته بعض الجرائد الأوربية
من أخبار الحادثة الشامية

ذكرت جريدة "مند ابلوسنمري" الفرنساوية في رابع أغسطس (آب) سنة ستين وثمانمائة وألف 1860، تحت عنوان "عبد القادر، أمير معسكر سابقاً" ما نصه :

"إن حوادث سورية المحزنة قد أظهرت للوجود اسما كان محجوباً بغياهب الغربة، وهو ذاك الاسم الذي طالما كرّرته ألسنة الأمة الفرنساوية بالرجفة والاضطراب، هو ذلك الاسم المرسوم بأحرف دموية من شاطئ نهر شلف إلى رمال الصحراء في الجزائر. وقد أيدت له قناصل الدول ونصارى دمشق الشكران الجميل في سوريا. وبذلك انكشف عن مزاياه الحجاب الذي كان ساترا لها. وغدونا جميعا نتبارك باسم عبد القادر وهو الذي اقتحم الأخطار لأجل أولئك المساكين من أيدي سافكي الدماء، ثم جمعهم في قصره وأفاض عليهم من سجال كرمه وبرّه، وقام فرسان المغاربة الأمناء بمساعدته أحسن قيام. فبذلوا وسعهم في إنقاذ المسيحيين وحمايتهم من اعتداء سفهاء الشام والدروز. وهو ذلك الرجل الذي كان يلوح على وجهه من أمارات الثبات وعلامات الحزم والفطنة ما يدل على شرفه واتصال نسبه بالرسول. هو ذلك الرجل الذي أقام في منفاه سنين و لم يتغير عما كان عليه من المحافظة على الأوامر الشرعية

وأداء الحقوق الثابتة للإنسانية. هو ذلك الرجل الذي كان عدوا لدولة فرنسا وأقام مدة سبع عشر سنة ينادي بالجهاد فيها؛ ثم إن ما نسبه إليه أعداؤه من الأفعال غير اللائقة كقتل الأسرى والحنث في اليمين... إلى غير ذلك مما نسبوه إليه ويأباه طبعه الكريم، قد كذبه تحريره الشهير الذي بعثه إلى لويس فيليب، ملك فرنسا، الدّال على كرم أخلاقه، ولطف جانبه. وكانت وقتئذ، نيران الحرب مضطرمة بشدّة، لا مزيد عليها". ومن جملة ما ذكره في ذلك المكتوب، قوله :

"إني أريد منك، أيها الملك أن توافقني على إجراء الفدية في أسرانا وأسراكم". فلم يجبه الملك. ثم أعاد طلبه هذا ثانيا وثالثا فلم يجبه ثم بعد سنين، في آخر أمره، شاع في فرنسا أن جنودا فرنسوية وقعت أسرى في يدي العرب وأنهم قتلوا شرّ قتلة، وأن ذلك كان بأمر الأمير وهذه الحادثة كانت في دائرة الأمير في بلاد مراكش، وهو غائب عنها في الجهة الشرقية من بلاد الجزائر". ولما بلغه خبر هذه القضية واتصل به ما نُسب إليه من الأمر بالقتل، كتب إلى حكام الجزائر" يقول : "من العجب أنكم تنسبون إلينا ما وقع بالأسرى، مع أنكم تعلمون علم اليقين ومشاهدة العين بأني بعيد عن الدائرة بمسافة مائة وثلاثين ساعة للراكب المجد في السير". فظهر من هذا أن الأمير لم يأمر بقتل الأسارى، وأن تأخره عن قصاص الذين قتلوهم في غيبته، بغير إذنه، إنما كان لعجز سلطته إذ ذاك وعدم طاعة العرب لكلمته. وغاية الأمر، فإن مزايا الأمير وأخلاقه الكريمة كانت دليلا على شرف نفسه وتقدّمه في الجزائر كما هو الآن في سوريا، وبرهانا قوّيا على طهارة قلبه وإرادته

الخير إلى سائر عباد الله. وعند انتهاء أمره، وطيّ بساط ملكه، كتب إلى الجنرال لامورسيير، قائد الجيوش الفرنساوية، يقول :

" إنني حاربتكم مدة طويلة. والآن يمكنني أن ألحق ببلاد الصحراء وأستمر فيما كنت عليه من قتالكم وشنّ الغارة على البلاد التي تغلّبتم عليها، إلا أنني تخليت عن ذلك. فإن كان يمكنكم أن تحملوني بأهلي ومن معي إلى الإسكندرية أو إلى عكا فأنا أسلّم لكم سيفي".

فأجابه الجنرال إلى ذلك وأعطاه فيه ميثاقا وعهدا باسم فرنسا وموافقة ابن الملك، حاكم الجزائر ،وقتئذ الدوك دومال. ثم اتفق له نظير ما حصل لنابليون الأول. فإنه انكسر في الحرب، وسلّم ذاته للأنكليز، عدلوا به عن مدنهم وأمصارهم، ونفوه إلى جزيرة القديسة هيلانة، وفيها مات. والأمير عبد القادر، بعد أن استند إلى عهد ابن الملك، وسلم نفسه إليه أخذه أسيرا إلى طولون ولكن الباري تعالى أتاح له أحد ورثة نابوليون الأول؛ فبادر ، عند جلوسه، على عرش إمبراطورية فرانسا ، إلى تسريحه وتخلية سبيله، وفاءً بعهد فرانسا وحفظا على شرفها. وعلى كل حال فنحن نبذل الجهد في آداء الشكر للأمير على ما أظهره من العناية في حق المسيحيين، ولحضرة الإمبراطور نابوليون الثالث لمحافظته على شرف فرانسا".

وذكرت جريدة أخرى ما نصه :

إنه يوجد في ذات عبد القادر شخصان، أحدهما أمير الجزائر، والعدوّ المخيف للفرنسيين، من ثلاثين وثمانمائة وألف 1830 إلى سنة سبع

وأربعين وثمانمائة وألف 1847، والثاني الأمير الموجود الآن في سورية، المخلّص لألوف من النفوس، في حادثة دمشق المهولة سنة ستين وثمانمائة وألف 1860. فالأمير هو الرجل الوحيد الذي ظهر في مكانين بعيدين بصورتين مختلفتين. وأمسى الفرنسيون مديونين له بدين هم مجبورون على أدائه له. الأمير عبد القادر هو ذلك الرجل الباسل الذي أبدى أمورا وأعمالا لم يكن أحد يتصورها. ولذلك، كانت جديرة بأن تدوّن في أجمل تواريخ العالم. وآخر ما نقول إن عودنا القديم في الجزائر، قد جعله الله الآن؛ سببا لإنقاذ المسيحيين في الشام.

وذكرت غيرها ما صورته :

الأمير عبد القادر هو رجل مشهور في العالم. دافع عن وطنه وحرّيته، ثم حكم عليه القدر الإلهي، فسلم لأعدائه، فنقلوه إلى بلدهم على خلاف الشرط الذي اشترطه عليهم. وجعلته حكومتهم أسيرا آيسا مدة سنين، غير أن شهما من سلالة ملوكهم المشهورين كان يضاهيه في النباهة، أعطاه ،حين رآه، برهانا وثيقا وعهدا متينا على أنه يخلّصه؛ ثم وفى بعهده وخلّصه من تقلبات الأيام، وذلك عند انقلاب الحكومة وارتقائه على كرسيها. فبسلطة ذلك البرنس الذي صار امبراطورا، أرجعت إلى الأمير حرّيته التي طالما دافع عنها، ثم أصبح ناصرا للإسلام، وأطفأ عن أهله نار فتنة عظيمة، وذلك بواسطة دوران دولاب سعده. وأضحى في مركز قوي في العالم، وركنا بين عظمائه. وصار يخاطب من الملوك بالألقاب الموضوعة لأعظم المشاهير. وكيف لا وقد دافع عن الذمار والذمة وحافظ على مقام الوفاء

بكرامة كما عمل في بداية أمره في وطنه. وبالجملة، إن سيرته الحميدة لا شبيه لها في التاريخ.

وفي هذا القدر من كلام الجرائد كفاية.

وقد كان بين الأمير والشيخ شمويل الداغستاني مواصلة ومراسلة. ولما بلغه خبر الحادثة، كتب إليه يصوّب فعله، وهو ،إذ ذاك، محجور عليه عند دولة روسيا. ونص كتابه :

إلى من اشتهر بين الخواص والعوام، وامتاز بالمحاسن الكثيرة عن جملة من الأنام، الذي أطفأ نار الفتنة قبل الهيجان، واستأصل شجرة العدوان، رأسها كأنه رأس شيطان، المحب المخلص، السيد عبد القادر المنصف.

السلام عليكم وبعد، فقد قرع سمعي ما تمجّه السماع، وتنفر عنه الطباع من أنه وقع هناك بين المسلمين والمعاهدين ما لا ينبغي وقوعه من أهل الإسلام . وربما كان يفضي إلى امتداد العناد بين العباد في تلك البلاد. ولذلك، عند سماعه ، اقشعر منه جلدي وعبست طلاقة وجهي وقلت ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس.

وقد تعجّبت كيف عمي من أراد الخوض في تلك الفتنة العظيمة، من الولاة عن حديث رسول الله (ﷺ) : "ألا من ظلم معاهدا أو انتقصه حقّه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس، فأنا حجيجه يوم القيامة". وهو حديث حسن؛ ثم سمعت أنك خفضت جناح الرحمة والشفقة لهم وضربت على يدِ من تعدى حدود الله تعالى

وأخذت قصب السبق في مضار الثناء، واستحقيت لذلك؛ والله تعالى يرضيك يوم لا ينفع مال ولا بنون لأنك أحييت ما قال الرسول العظيم الذي أرسله الله رحمة للعالمين، ووضعت من يتجرأ على سننه بالمخالفة، نعوذ بالله من تجاوز حدود الله. ولكوني ممتلئ بالرضا عنك، كتبت هذه الرسالة إليك، إعلاما بذلك، والسلام.

حرر سنة سبع وسبعين ومائتين وألف 1277 شمويل الغريب

فأجابه الأمير بقوله : الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى سائر إخوانه من النبيين والمرسلين.

إنه من الفقير إلى مولاه الغني، عبد القادر بن محي الدين الحسني إلى الأخ في الله تعالى والمحب من أجله الإمام شمويل، كان الله لنا ولكم في المقام والرحيل، وسلام الله عليكم ورحمته.

وبعد، فإنه وصلني الأعز كتابكم، وسرّني الألذ خطابكم، والذي بلغكم عنا ورضيتم به منّا من حماية أهل الذمة والعهد، والذب عن أنفسهم وأعراضهم بقدر الطاقة والجهد، هو ،كما في كريم علمكم، مقتضى أوامر الشريعة السنية والمروءة الإنسانية. فإن شريعتنا متممة مكارم الأخلاق. فهي مشتملة على جميع المحامد الموجبة لائتلاف شمائل الأطواق على الأعناق؛ والبغي في كل الملل مذموم، ومرتعه وخيم، ومرتكبه ملوم ولكن :

يُقضى على المرء في أيام محنته حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن

فإنا لله وإنا إليه راجعون، على فقد أهل الدين، وقلّة الناصر للحق والمعين حتى صار يظن من لا علم له أن أصل دين الإسلام الغلظة والقسوة والبلادة والجفوة. فصبر جميل والله المستعان.

ومنذ زمان، بلغنا وصولكم عند ملك سوريا وأنه فعل معكم ما هو أهله من الإحسان وأنزلكم من الإكرام أرفع مترل ومكان. وسمعنا أنكم طلبتم منه تسريحكم إلى الحرمين الشريفين. فنسأل الله أن يجيب مطلوبكم وينيلكم مرغوبكم ... وإمبراطور روسيا من أعظم ملوك الأرض شأنا وأحرصهم على تخليد المفاخر في بطون الدفاتر. فنرجو لكم من حضرته الفخيمة حصول الأرب بلا نصب ولا تعب، كما فعل معنا الإمبراطور نابليون الثالث. فإنه فعل معنا، من سنّي الأفعال مالم يخطر لأحد في بال. والمرجو ،في الحقيقة، هو الله المعبود لا معبود سواه. حرر في أول جمادى الأولى سنة سبع وسبعين ومائتين وألف 1277، وفي سنة اثنين وثمانين وثمانمائة وألف 1882.

فكتب إلى الأمير، ما نصه :

إلى ذي النسب الطاهر، واللب الباهر، السيد عبد القادر. عليكم السلام الأسنى ولكم الدعوات الحسنى.

أما بعد، فقد بلغنا مكتوبكم الشريف. فرضيت عنكم والله تعالى يرضى أن يأذن لي في زيارة الحرمين الشريفين والسكنى في الحجاز أو القدس الشريف هو كما بلغكم ... وإني مترقب دائما حصول أربي

هذا الآن حيث أني بلغت من العمر سبعين سنة وضعفت قوى نفسي وأنا خائف من حلول أجلي قبل حصول آمالي، مع أنه ليس لي مقصود آخر من الدنيا أعلى وأهم من ذلك، ثم الموت على الأيمان في الحرمين مهبط الوحي والغفران. وإني أوصيكم بالدعاء لنا والسلام.

كتبه في بلدة كالوكة أخوكم في الله تعالى، الشيخ الهرم، الداعي لكم كثيرا ، محمد شامويل.

وقد أجاب الله دعاءه حيث انتقل إلى الحجاز وتوفي في المدينة المنورة. ثم في سنة ثلاث وتسعين، بعث ولده إلى الأمير ما نصه :

بعد حمد الله، والصلاة على رسوله وآله، إلى أكرم الكرماء، وأشرف الشرفاء، والحائز لشرف الحسب والنسب، سلالة سيد المرسلين المختص بمزيد العناية، من الملك المعين، الغازي السيد عبد القادر بن محي الدين.

السلام عليكم ورحمة الله والرضوان بحرمة سيد الإنس والجان. آمين.

أما بعد، فلما طال انقطاع مخابراتنا، وعدم اطلاعنا على أحوالكم الكريمة، عسى الله أن يحفظكم مما يوجب الحزن مدى الدهور والأعوام، بحرمة سيد الأنام، وكنا قبل هذا أرسلنا مكتوبا في مقابلة مكتوبكم السامي الذي تشرفنا به في السنة الماضية. فلعل الله أن يجمعنا عن قريب.

هذا وإننا نتوقع المحاربة بين الدول العليّة والروسية، بالنظر إلى القرائن الظاهرة. فنسأل الله أن يرزق النصر لأهل الإسلام لإحياء شريعة سيد الأنام. وإن وقعت هذه المحاربة، فعسى الله أن يرزقنا فيها اللقاء، بالملأ الأعلى، ويجعلنا من أهل الجهاد. والسلام من الفقير الغازي.

محمد بن محمد شامويل

ذكر توجه الأمير إلى حمص وحماه

لم يزل الأمير، منذ قدم إلى دمشق، متعطشا إلى زيارة السيدين الجليلين سيف الله خالد بن الوليد، وخامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز (رضي الله عنهما). وكثيرا ما كان أهل حمص وحماه يدعونه إلى ذلك وهو يعدهم، ويصف لهم ما هو عليه من التشوق إلى زيارة تلك المشاهد المباركة والتبرك بها، إلى أن تهيأت الأسباب. ولما بلغ أهل حمص خبره، استقبله خارجها الخواص والعوام، واحتفلوا لقدومه. ولأول وصوله، فاتحه العالم الفاضل السيد خالد أفندي الأتاسي، بقصيدة امتدحه بها، وهي قوله :

حمدَ ربي بدت بآفاق المناء ... شمس أنس جلت دياجي العناء
وغدا الرّوض ذا افترار يفـ ... ـتر إذا ما بكت عيون السماء
فكان القرنفل الأحمر الغض ... إذا فتّقته أيدي النِّداء
جنتْ من ياقوتةٍ فوق غصن ... ينثني من زبرجدٍ وصفاء
ليت شعري وليتني كنت أدري ... ما بذا الرّوض قد بدا للرّائي
أعيون أم نرجس ووجوهٌ ... أم بدور أم نجوم الجوزاء
وغصون تمايلت أم قدودٌ ... ووجينات أم شقائق الدماء
لا تلمني إذا خلعت عذاري ... يا عذولي فذاك عين اهتداء
كيف لا أخلع الأعنّة جهرا ... طربا بين السادة الندماء
ومدام السرور في كؤوس البشـ ... ـرٍ سُقِيْنَاها من أكفٍّ الظباء
لو ترى النهر يصفّق من إيناسه ... ما عذلتني بغناء
أو ترى الكون راقصا من سرور ... كنت أولى بخلع ثوب الحياء

إنني مذ رأيت أكناف حمص تتجلى بأيكها المفياء
وثغورا لها تبسم بشرا وهي تيها تجر ذيل الهناء
وهزاراً بها يغني حبوراً في رياض لها برصد الصّباء
سلها عن تجاهل لا جهلٍ فشمس الضحى بدت من خفاء
ناشدتها علام تيهك قالت حقّ لي حقّ لي وربّ السماء
أنت، يا منشدي أناشدك اللّـ ـه فنادِ مُصرِّحا بالنداء
مرحبا مرحبا وأهلا وسهلا بالإمام الهمام ذي العلياء
هو بحرُ العلوم درّة عقد المجد فخرُ الوجود كنز العطاء
جهبذ قد زكا زكاء وأبدى من سنا هَدْيهِ ضياء الذكاء
قد سما نسبة لبيت رسول اللّـ ـه محي بعين سين وراء
هو مغني اللبيب في قطر لفظ يمنح الدُّرّ للمريد الشائي
من مراقي فلاحه نور إيضا ح بدا كالمنار في الظلماء
قد كسا منطق البديع بيانا ليس ينحوه أفقه البلغاء
فإذا عنعن الحديث يقول : أر ويه عن جدِّي سيد الأنبياء
ياله سيدا وأكرم به مو لى له طأطأت رؤوس العلاء
يا هماما بدا لمقدمك الزّا هي هلال الصفا بنور الهناء
عش سعيدا أنت المجاهد في اللّـ ـه ولا زلت أسعد السُّعداء
ليس ينسى العدا منك ما ذا قوا وينسون طعم كأس الرداء
طالما أذقتَهم كأس حتفٍ من يد البيض والقنا السمراء
يا رعى الله راحتيك فكم أرادت لتمزيقهم رحى الهيجاء
جئت مستمطرا سحابك أرجو كَ دعاء في الغيث يا مولائي
فالسما قبلة الدعاء ولكن أنت أفديك قبلةً للسماء
جلّ من أوجب المحبة فيكم آلَ طه وخصّكم بالثناء

حبّكم سرى في دمي فعسى أُحْـ ـشَرُ مع من أحـبّ يـوم الجـزاء
يـا هـلالا نـراه في الأرض يبـدو وحواليـــه أنجـــم الإهتـــداء
هاك بكرا من خـدر فكـر تبـدّت تتجلـــى وبرقعـــت بالحيـــاء
قـد تغنّـت بمـدح عليـاك لكـن ترتجي العفو عـن قـصور الثنـاء
خاب فكـر اللبيـب ثـم وحـارت في مزايـــاك ألـــسن البلغـــاءِ
فاقبـل العـذر سـيدي مـن عُبيـدٍ مـــا لـــه طاقـــةٌ للمـــس الـــسماء
فهـي بكـرٌ لـك زفّـت تنـادي أنّ مهـــري مجـــرّد الإغـــضاء
وصـلاة الـصلاة تهـدي دوامـا لـــنبي محـــا ســـطور العنـــاء
مـــع أصـــحابه الـــصّباح وآل أطلعـوا طـالع الهـدى والتقـاء
ما شـــدا خالد الأتـاسي جـهراً حمـــدَ ربـي بـدت بأفـق المنـاء

وبعد أن زار مشهد سيدنا خالد رضي الله عنه، توجّه إلى دير سمعان. فزار ضريح سيدنا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ثم سار إلى حماه فدخلها في احتفال عظيم ونزل عند مفتيها الفاضل، شيخ السجادة القادرية بها، السيد محمد أفندي الأزهري، بالمنتزه المعروف بالطيارة.

ولمّا رأى الأمير النّاعورة الموجودة فيه أنشد قائلا :

ونـاعورة ناشـدتها عـن حنينهـا حـنين الحـوار والـدموع تـسيل
فقالـت وأبـدت عـذرها بمقالهـا وللـصدق آيـات عليـه دليـلُ
ألست تراني أُلقم الثـدي لحظـة وأُدفـع عنـه والـبلاء طويـل
وحالي كحـال العشق بـات محالفا يـدور بـدار الحـب وهـو ذليـل
يطأطئ حزنا رأسـه بتـذلـلٍ ويرفـع أخرى والعويل عويـلُ

وقد حصل له في حمص وحماه ونواحيهما من حميد الذكر وجميل النشر ما لا تزال الرواة تدرسه والتواريخ تحرسه.

وبعد أن أقام في حماة أياما في إكرام واحترام عند أهلها، خصوصا أولاد القطب الغوث الرباني، سيدنا عبد القادر الجيلاني، توجّه إلى بعلبك وهي مدينة قديمة شهيرة. فرأى من أبنية هيكلها، وآثار الأقدمين فيه ما بهر أفكاره. وعند وصوله إليها، أتى الخبر بانتقال ساكن الجنان، السلطان الغازي عبد المجيد خان، وارتقاء أخيه، السلطان عبد العزيز خان، على سرير الخلافة. فحصل له من الحزن والكدر على هذا المصاب العظيم والرزء الجسيم ما يعجز عن وصفه القلم واللسان. وتذكر نعمته عليه وإحسانه إليه وسُرّ بإدالته بأخيه. ولما اجتمع أهل البلدة واصطفت العساكر السلطانية المخيمة فيها وقتئذ، للقيام بشعائر التعزية ثم التهنئة، تقدّم حاكم البلد وأعيانها إلى الأمير وقدّموه للدعاء. فدعا بما يناسب الحالين وندب إلى الصبر والرضى وعزّى في أمير المؤمنين، خليفة الله، ثم هنّأ الأمير الذي أعطى خلافة الله، والعاقل مَن قبل من الله أفضل العطية وصبر له على أعظم الرزية.

وبعد أن أقام في تلك البلدة أياما، رجع إلى دمشق. وفي آخر سنة ثمان وسبعين 1878، توفيت إلى رحمة الله تعالى والدته، جدّتي، السيدة الجليلة الشريفة، الأثيلة، الصالحة، الطاهرة، السيدة زهراء، ابنة السيد محمد بن دوحة الحسنية، عن ثمانين سنة. فعظم عليه مصابها. وبعد رجوعه من دفنها بمقبرة الدحداح، جلس في الطريق للاستراحة. فقال له بعض من كان معه : أرفق بنفسك. قال له : كيف ذلك وأنا فقدت أعظم من كان يحبني على وجه الأرض

وقدم الأديب سليمان أفندي صوله إلى حضرته مرثية، وهي قوله :

جاورت يا لحدها في الشلم يحيلها وأنت يا روحها بشراك في طه
ولا أقول أختفي في الرمس هيكلها لكن أقول سماء الشمس موطاها
وهل تغيب الثريا في الثرى ومتى أقول هذا الثرى للشمس واراها
وكيف تحتجب الأملاك في جدث وقد يراها على الأفلاك مولاها
يا يوم أمّ أمير المؤمنين لقد أجريت وابل أجفاني كجدوها
كانت دموعي من الياقوت جامدة أذبتها من جوى قلبي فأجراها
ما كنت أحسب أن الشام تفقدها ولا أفوه به حتى فقدناها
وا كنت أعجب من سير الجبال إذا تسير يوما فمذ سارت رأيناها
يا ويل نفس عليها لا تذوب أسى ومقلةٍ لا يذيب الدمعَ جفناها
إن النفوس التي تفنى أسىً وجوىً في طاعة الله تسمو إن مدحناها
وحقّ ما قدمت لله من عمل لو جاورته الليالي السود أزهاها
لو شاهدت حالنا من بعدها لبكت عنّا وقالت كفى فليبكِ من تاها
من كان يعلم أن الموت غايته كيف استراح لها يوما وآخاها
تبا لغرّارة تبا لزائلة تبّا لدار تساقينا رزاياها
تذيقها المشرب المسموم نحسبه شهدا وما هو إلا سمّ أفعاها
ومن يحقق بأن الموت موعده يجفو الدنيّة، لا يهفو لمغناها
كما جفت بضعة المختار ما كرهت آباؤها وأحبّت عفو ملاها
وكيف تدهشها الدنيا بزينتها وجدُّها ترك الدنيا، وألقاها
إن التي انتقلت كالشمس واخترقت كواكب الزهر واختارت لها الله
تلك التي تمنح الأقمار طلعتها وتودع الطيب طيبا ما ذكرناها

أضحى التراب بديلا عن غلائها وجامدات الحصا أسنى خباياها
واعتاضت الطيب عن طيب الحياة وما طيب الحياة بأذكى من سجاياها
يا بضعة المصطفى الدنيا وبهجتها تاهت بليل حدادٍ عمّ أجزاها
على ضريحك ما ناحت مطوقة تبكي السماء بأسخاها وأنقاها
ولا تعدى السحاب الجون معشبة من رحمة الله تحواك طواياها
وأنت يا كوكب الدنيا وبهجتها وخير من شق للرحمن أفواها
صبراً كما صبر الأبرار لا برحت علاك تخترق الدنيا بمبهاها
تا الله إن عيون المجد قد رمدت ولوّثت بدم الأكباد أنقاها
على مصاب كصاب صابنا فكوى منّا القلوب فأشواها وأقلاها
ما حيلة المرء والأيام غادرة هذي عوائدها ساءت سجاياها
هذا الفرق فراق الدهر أجمعه فراق من بعد طول العمر تلقاها
فراق والدة سمحاء طاهرة غرّاء لا ينكر المحراب تقواها
تسعى ملائكة الباري برحمتها سعي العفاة التي تبغي عطاياها
فاءت بنشأتها الأولى مكرّمة والله يكرم فرعاً أصله طه
وخلّفت خلفا أحيا مآثرها ولو يشاء بإذن الله أحياها
ليعمل العاملون الغرّ ما عملت من صالحات لعل الله يرضاها
كفاك مولاي في الإسلام تعزية أن المنية كأس الحق نقاها
أبوك آدم والهادي ترشّفها وسوف ترتشف الدنيا بقاياها
فثق بربك عادات عرفت بها وأضرع تنال من الخيرات أوفاها
كفاك يا خلف الأعلام واحدها شر اللئام وأعمى عنك أعتاها
ولا تزال الردى من عمرنا أجلا حتى نراك على الأعداء تيّاها
ولا برحت طويل العمر وافره تثاب خيرَ ثوابٍ يا فتى طه

ذكر توجه الأمير إلى أرض الحجاز

كان أهم شيء عند الأمير، بعد خروجه من فرنسا، حجّ بيت الله الحرام وزيارة نبيه الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم السلام، والتبرّك بتلك المعاهد الشريفة والمشاهد المباركة المنيفة. وما كان يمنعه من المبادرة إلى ذلك إلا ما كان من أمر والدته المسنّة. فإنه كان يخدمها بنفسه ويغتنم مشاهدتها ومجالستها والقيام بشؤونها آناء الليل وأطراف النهار. ولم يزل على ذلك إلى أن توفيت رحمها الله راضية عنه، داعية له؛ ثم إنه تفرّغ إلى ما كان مهتمّا به. وبعد استكمال أهبة السفر، خرج من دمشق واصطحب معه السيد سليم حمزة، والشيخ عبد الغني الميداني، وقره محمد، وعبد القادر بن رابح، قاصدا الحجاز في أول رجب، سنة تسع وسبعين ومائتين وألف 1279. وركب البحر من بيروت إلى الإسكندرية. فاستقبلته أعيان الحكومة وقناصل الدول بغاية الإعظام والإكرام؛ ومنها توّجه إلى مصر لزيارة المشهد الحسني وضريح الإمام الشافعي رضي الله عنهما وغيرهما من مشاهد أهل البيت والأولياء والعلماء المشاهير... فاستقبله أعيان الحكومة وقناصل الدول وأنزله خديويها سعيد باشا عنده. وأجزل ضيافته وإكرامه. واحتفل طوسون باشا، ابن سعيد باشا بمأدبة عظيمة اتخذها لوالده، ودعاه إليها. فكتب سعيد باشا إلى الأمير يخبره بذلك ويدعوه إلى الحضور معه عند ولده.

ونص ما كتبه :

إلى حضرة الأمير والسيد الأفضل المبجل ذي المفاخر والمآثر السيد عبد القادر.

بسم الله، خير الأسماء، وحمدا على نعمه لا تحصى ثناء، كما أثنى هو على ذاته الأسمى، الذي ألّف قلوب المؤمنين ودّا ورحماً، وصلاة وسلاماً على نبيه الذي لم يسمع في تبليغ ما أُمر به لومة لائم، وسنّ لأمته إخلاص المودة، فيما بينهم بصنع الولائم وعلى آله وأصحابه المتأدّبين بآدابه.

وبعد، فإن ولدنا، طوسون باشا، حلاّه الله بحلية الأدب والأخلاق الكريمة، أحب استجلاب حسن الرضا منا، فصنع لنا وليمةً شكراً لله على ما بلغه من العمر : العام العاشر. وتشكرا لنا على توسيع ثروته بالإيراد الوافر. وحيث أن حضرتكم لكم من مودتنا أوفى نصيب وحضوركم يحصل منه ما يحصل من لقاء المحب للحبيب، فإن تفضّلتم بالإجابة فلنعم المشرّف والمجيب. ويكون تشريفكم غداً يوم الجمعة التاسع عشر من رجب. فصفو الود هو الذي حمل على تحرير هذه النميقة وأوجب.

حرّر في ثامن عشر رجب تسع وسبعين ومائتين وألف 1279.

ثم لم ينشب سعيد باشا أن توفي وتولّى مكانه إسماعيل باشا. وقد دعا الأمير كثيرٌ من الأعيان والوجوه واحتفلوا لضيافته. ودعاه رئيس شركة ترعة السويس، مسيو فرديناند دولسبس وجماعته وأمنعو في إكرامه واحترامه. وبعد أن أقام أياما في تلك النواحي، في إعزاز وإجلال، توجه إلى القنال وركب منه إلى الإسماعيلية، ثم ركب الدواب إلى مرسى السويس. وتوجّه إلى جدة في الوابور.

وعند وصوله إلى جدّة، بعث إليه شريف مكة وأميرها، السيد عبد الله باشا يخبره بأنه مستعد لاستقباله في الاحتفال والأبهة خارج مكة المشرّفة. فأجابه الأمير : إنه لا يقبل ذلك وإنما يريد أن يدخلها دخول عبد منكسر إلى بيت مولاه. فدخلها وعلامة القبول لائحة، وإشارات الدنّو والزلفى واضحة. وتلقاه الشريف عبد الله باشا بعد أن أتم عمرته وأنزله بالمدرسة المجاورة للمسجد الحرام المعظّم من الناحية الجنوبية القريبة من التكية المصرية. وفي اليوم الثاني، جاءه الأشراف والعلماء الأعلام والأفاضل والأعيان للسلام عليه. ولأول وصوله، كتب إلى سائر الأحباب ومن جملتهم صاحب السيادة، السيد محمود أفندي حمزة، مفتي دمشق. فأجابه بما نصّه :

"الحمد لله وحده وصلّى الله على من لا نبي بعده.

من الفقير، صاحب التقصير، محمود إلى مولاي وقدوتي، العارف السيد عبد القادر، أعلى الله في مقام المعرفة درجاته وأمدّني دنيا وأخرى بإمداداته، وأعاد عليّ وعلى المسلمين من صالح دعواته. آمين.

أما بعد حمد الله تعالى بمحامد تليق من عظمته لكماله والتضرّع له سبحانه وتعالى أن لا يحرمني بواسطتكم مشاهدة جماله، فإنني تشرّفت بورود كتابكم وتمتعت بلذيذ خطابكم حيث وافى وكنت أشتكي ألم الفراق الصوري، متوجعا من وحشتي وقصوري. فسرى به نوع مما بي، وخفّفت بعض أوصابي. وكان وصوله لدي قبل وروده إلى الشام بخمسة أيام وذلك أنني رأيت نفسي في عالم المنام كأنني أعطيت كتابا ورد من حضرتكم بخط مغربي، وأنا أقرأه وأفهم معناه

من منطوقه وفحواه. فانتبهت وعند الصباح أخبرت نجل مولانا، السيد محمد، بذلك. فقال نعم قد
تعبّرت الرؤيا بورود كتاب لنا البارحة بعد العشاء من أتباع مولانا يخبرون به عن وصوله. وتمَّ ما هناك. ثم بعد مرور خمسة أيام، حضر السيد محمد وأفاد أن تعبير الرؤيا الآن صحّ وهذا هو المكتوب. فلما فككته، وتشرفت بتلاوته ومبانيه ووقفت فكري في ألفاظه ومعانيه، قلت الآن صحت الريا وحصلت الأمنية العليا وتمليت من عباراته. وفهمت على قدر طاقتي ما تيسر من إشاراته وحمدت الباري سبحانه وتعالى أن كنت في خاطركم ملحوظا بعين توجهاتكم، إذ ذلك، بفضل الله ذخري. وأرجوهُ سبحانه التوفيق للعمل بمقتضاه، وسلوكاً على نهجٍ قضاه ورضاه.

ببذل نفوسٍ في الهوى شاد سادتي وضيعتُ بالتقصير نيل مرامي
لقد وهبوا منهم نفوسا زكيّة فنالوا مقام القرب أي مقام
وأقعدني إمساكُ نفسي حقيرةً وساعده أمرٌ عظيم مرام
فمن لي بنفسٍ يا خليلي كريمةٍ فأبذلها نقدا لوصل كرامِ

فآه ثم آه لو حصل انتشاطٌ من رباط. ولكن الواثق أحكم، والأمر أعظم، والقلَم جفّ والوسائط ترغب، والقاهر أغلب، والعذر مردود تأباه العهود، والسّبب موجود، والعجب أنّه مفقود إذا ساقني شاقني أو أدانني ناداني. وإذا قصدت فقد وجدت كل ذلك حقّ، وأعتقد أنه صدقٌ، مفاوز حارت في تيهها عقولُ الفحول، ودانت لها مذعنة بالعجز عن إدراكها أعناق المعقول والمنقول. فأرجو من إحسانكم ملاحظتكم دائما، والدُّعاء لي بالهداية وحصول العناية، والوصول إلى

الغاية. فهو الغاية تعالى جوادٌ كريم، ذو الفضل العميم. أدام الله تعالى نفعكم للعموم والخصوص من المسلمين.

وكان الأميرلما وصل إلى جدة، كتب على رئيس شركة السويس ونائبه وغيرهما يخبرهم بوصوله إليه. فكتب إليه نائب الرئيس، وهو للأعمال في القنال ما نصه :

إلى حضرة فخر الأماجد الكرام وقدوة ذوي الفضل الفخام، الأمير السيد عبد القادر بن محي الدين، حفظة الله تعالى مدى الدوام. غبّ بثّ أشواق وفيّة لمشاهدة طلعتكم البهية ... أعرض أنني بينما كنت مترقبا لاستماع أخباركم السّارة إذ في أبرك وقتٍ ورد عليّ طرسكم الكريم، حاويا بشائر سلامة أقنومكم الفخيم، ووًصولكم إلى جدّة. فحمدت الله على ذلك وشكرت أفضال سيادتكم على ما أبديتموه لنحوي من اللطف العظيم بتحريركم إليّ ذلك الرقيم. ولا يخفى أنني دائما أترنم بحسن أخلاقكم وكمال أوصافكم بحيث أنكم لم تبرحوا من بالي و لم يفتر لساني على ذكركم. والآن، واصلكم طيّ هذا الكتاب مكتوب من جناب مسيو دولسيبس. ومن اطلاعكم عليه يتضح لديكم أن حضرته مقدِّم لسيادتكم الأرض المدعوة "بير بوبلح" وفيها قصر للسكنى وجنينة ومزارع متسعة. وهذه الأرض هي المكان الذي تلاقى فيه نبي الله يعقوب مع ابنه نبي الله يوسف عليهما السلام وهو مبارك لما فيه من التذكرة الفضيلة. ومسيو دولسيبس، لحسن اعتقاده في سيادتكم يحكم بأن حضوركم تحضر البركات والخيرات العميمة. فلذاك أراد أن يهديكم الأرض المذكورة لتكون مسكنا مباركا لكم ولذريتكم. ويكون هو قريبا منكم. وسيادتكم ما رأيتم الأرض المشار إليها، لما مررتم في البرزخ في الترعة الحلوة من النيل المبارك، بالقرب

من الموضع المعروف "بالتمساح". فإذا حسن موقعها عندكم"، فالهناء لسيادتكم بها والبشر لنا بجواركم.

ثم واصلكم صورة ذاتكم وجرنال فرنساوي، مصوّر به أيضا مروركم في البرزخ.

وسعادة والي مصر الجديد قد أظهر الميل الكلّيّ نحو ترعة السويس أكثرَ من سلفه، سعيد باشا. ونخبركم أنّ الإمبراطور نابليون، لما بلغهُ أنّكم مررتم في البرزخ، سُرَّ بذلك كثيراً. والله تعالى يحفظكم.

حرّر في شوّال تسع وسبعين ومائتين وألف 1279.

ذكر السؤال الذي وجهه الأمير لعلماء مصر

ثم أرسل إلى علماء مصر، ما نصّه :

"الحمد لله.

المالكية قالوا ثبت بالتواتر أنّ ستة أذرع أو نحوها من الحجر من البيت. والشافعية قالوا ثبت ظنا لا تواتراً. ووجود التواتر عند إحدى الطائفتين دون الأخرى مستبعد في مثل هذا. وأيضا نقل القسطلانيُّ عن ابن رُشيد أن الشاذروان لم يرد لذكر في خبر صحيح ولا سقيم، ولا يذكره أحدٌ من قدماء المالكية. وأوّل من ذكره منهم ابن شاش وتبعه ابن الحاجب قال وهو مأخوذ من الشافعية بلا شكّ".

فهل هذا مسلَّمٌ من ابن رشيد أم لا؟ والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فأجاب عنه العلاّمة الشيخ حسن العدويُّ بقوله :

"بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله الذي جعل بيته الحرام مثابة للناس وأمنا. فحنّ إليه منهم في عالم الأشباح من لبَّ في عالم الأرواح فضلا ومنّاً. والصلاة والسلام على سيدنا محمد، عبدك ونبيك ورسولك، صفوة مخلوقاتك حسناً ومعنًى وعلى آله وأصحابه الذين أحرزوا قصبات السَّبق في مضار تلبية الإجابة، فصاروا نجوم الهدى كفاحًا وضمانًا، وعلى أنصاره الذين بذلت أطفالهم مهجهم في محبته وإظهار دينه القويم، علما لا ظنا، فانتدبوا بالسيوف أبا جهلٍ،وهو في صفّ الكفر، حتى نظموه في سلك الرميم. وما ضنّنت كبارهم بذلك ضنا ولا سيما من اقتفى أثرهم في ذلك الجهاد الأصغر مع الأكبر، فرّن مجدُ عزّه في الخافقين رنًّا.

وبعد، فيقول أسير الشهوات وكثير الهفوات، حسن العدوي الحمزاوي : لما كان من أعظم المنن الربانية والمواهب الرحمانية الوقوف على أصول السنة المحمدية، انبعث خاطر ذي الهمة السامية العليّة والنفس الحيدرية الزّكية، سيد علماء زمانه وبدر بدور أقرانه، إنسان عين العرفان ورافع لواء معالم الشريعة في السر والإعلان، الأستاذ المعظم وأمير الأمراء المفخم، السيد عبد القادر بن السيد محي الدين المغربي الواسطي الراشدي منشأً، المجاهد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، طالبا منا الجواب عن مسألتين شرعيتين على سؤال ورد

منه إلينا، مرسل من مكّة المشرفة بخطابه الشريف وخطّه المنيف. فتشرّفت وسررت حين اطلاعي عليه. ووفّق الرحمن لسرعة تحرير المقصود له ليكون عدّة بين يديه. وقبل تبييض الجواب على السؤال.تصادف الاجتماع مع بعض الأفاضل الأعلام.وكان عنده إشعار بحضور السؤال فبادرني هل حرّرت المقصود من الجواب؟ فقلت : نعم، غير أنه للآن ما رسم وكان ذلك بحضرة ذي المجد الأثيل والقدر الجليل، جرثوم الحسب والنسب الأصيل، بدر بدور العصابة الصديقية وشمس نقباء السلالة الهاشمية، فخر الأشراف السيد علي أفندي البكري. فحمله حسن ظنه فينا حين وقف على حقيقة السؤال الوارد من حضرة السيد المشار إليه آنفا ،على أن أجعل لذلك الجواب رسالة مستقلة كما هو الأليق مع ذلك الجناب الفخيم ورجاء أن يكون بها النفع للمسلمين. فانشرح لذلك صدري وقلت : سمعا وطاعة ولا سيما إجابة لسيدين. فلعل وعسى ببركاتهما تكون وصلة عند سيد الكونين. ورتّبتها على ثلاثة أبواب وخاتمة، جاعلا لكل مذهب من الثلاثة ،مالك والشافعي وأبي حنيفة النعمان فصلا يخصه في كل باب من البابين الأولين، وسميتها كنز المطالب في فضل البيت وفي الحجر والشاذروان وما في زيارة القبر الشريف من المآرب.

الباب الأول : فيما يتعلق بالحجر الحرام وبيان حدّه، وهل هو من البيت أو خارجه وهل كونه من البيت، ثبت تواترا أو ظنا؟

الباب الثاني : فيما يتعلق بالشاذروان. هل هو من البيت أو خارجه؟ وهل ورد في السنة ما يدل عليه؟ وهل ما نقله الإمام

القسطلاني في شرحه على البخاري عن ابن رشيد (تصغير رُشد) من المالكية أن الشاذروان لم يرد له ذكر في خبر صحيح ولا سقيم، ولم يذكره أحد من قدماء المالكية غير ابن شاش وتبعه ابن الحاجب قال : وهو مأخوذ من الشافعية، مسلّم عن ابن رشد، موافقا لمذهب مالك أو المذهب على خلافه. وهذا مضمون السؤال الوارد إلينا من الأستاذ. ولفظه الشريف بخطة المنيف : الحمد لله ... (إلى آخر السؤال المتقدم بحروفه) ثم قال :

ثم استطردت **بابا ثالثا** : في بيان أول من بنى البيت وكم مرة بني. وذكر بعض الآثار الدّالة على فضله وما يتعلق بأركان الحج وواجباته وسننه في المذاهب الثلاثة المتقدم ذكرها، تتميما للفائدة.

وخاتمة : تتعلق بفضل الحرم المدني وزيارة سيد العالمين وصاحبيه، المطلوبة على وجه الكمال والأدب.

وأسأل الله العظيم، متوسلا إليه بوجاهة وجه نبيه الكريم أن يتفضل عليها بالقبول وأن تكون لجواب السؤال هي المأمول.

ولنشرع الآن فيما قصدنا على الترتيب السابق فأقول، وبالله التوفيق، لأقوم طريق :

الباب الأول

الفصل الأول

في تحقيق جواب ما ذكر على مذهب مالك.

اعلم أن الذي عليه التحقيق والمعوّل في مذهبه أن الحجر كلّه من البيت وأن تحديده من الأمام بستة أذرع يقتضي صحة الطواف عند غايتها ولو كان خارجه. ومعتمد المذهب خلافه. ونص العلامة الأمير في مجموعه : "وخروج جميعه (أي الطائف) عن الحجر، واقتصار الأصل على ستة أذرع ضعيفٌ" (ا ه) ونص الشيخ عبد الباقي على قول العلاّمة خليل "وخروج كل البدن عن الشاذروان، وستة أذرع من البيت" تبع المصنف في التحديد بالستة أذرع، الإمام اللخمي. ولكن الظاهر من قول مالك في المدونة "ولا يعتد بما طافه داخل الحجر" أنه لا بدّ له من الخروج عن جميع الحجر لأن ذلك شامل للستة أذرع وما زاد عليها. قال : "وهو الذي يظهر من كلام أصحابنا. ولطوافه عليه الصلاة والسلام من ورائه". وقال : "خذوا عني مناسككم (ا ه)" قال المحقق البنّاني في حاشيته عليه : "فاعلم أن ما درج عليه الإمام خليل، في مختصره، تبعا للأمام اللخمي، طريقة مرجوحة. والراجح وجوب الطواف من وراء الحجر" (ا هـ). وقال صاحب الطراز : سئل مالك عن ممر الطائف في الحجر فقال : "ليس ذلك بطواف". فإن الطواف إنما شرع بجميع البيت إجماعا. فإذا سلك في طوافه الحجر أو على جداره أو على شاذروان البيت،

لم يعتد بذلك. وهو قول الجمهور لأنه لم يطف بجميع الكعبة. قال : "وقد صين ذلك بالحواجز لاستكمال الطواف" ...(أ هـ) ولعل إشارة الأستاذ، السيد عبد القادر، إلى زيادة أو نحوها، بعد تحديد الإمام خليل بالستة أذرع، جرى منه على المعتمد. فلله درّه. ما أكمله في دقّة فهمه مع أدبة في شأن الأئمة.

أقول : ولكونه من البيت، قيس عليه، في صحة النفل فيه، دون الفرض. قال الإمام خليل : "وصحّ فيها وفي الحجر (أي النفل) لأي جهة". ومعتمد المذهب رجوع التعميم للبيت لا الحجر. فلذا قال الإمام عبد الباقي، ناقلا عن الحطّاب، قال : "والذي أدين الله به وأعتقده أنه لا يجوز لأحد أن يستدبر القبلة (أي الكعبة) ويستقبل الشام ويجعله عن يمينه أو عن يساره" وطريقة الإمام اللخمي الصحة لمن استقبل الحجر القدر الذي تواتر أنه من البيت، وهو الستة أذرع... واحتج بذلك بعض الشراح، ردًّا على الحطاب القائل بعدم الصحة. وقال بصحة من صلّى النفل داخل الحجر ولو استدبر القبلة أو شرّق أو غرّب؛ قال : وهو مردود لما نقله ابن عرفة عن اللخمي أن صريح كلامه : "أنه صلّى خارج الحجر، مستقبلا له. وكلام الحطّاب في الصلاة داخله "على أن ما قاله الإمام اللخمي ضعيف ولا يجوز ولا يصح النفل، مستقبلا للحجر، مستدبراً للبيت؛ فأولى من صلّى فيه. قال : ولا يحسن الرد على الحطاب بكلام اللخمي لما علمت من اختلاف الموضوع بين المقيس والمقيس عليه، على أن ما قاله اللخمي ضعيف. والقول بعدم الصحة هو المعتمد (ا هـ). وقال

الإمام البنّاني على قول خليل : وفي الحجر لأي جهة. قال الإمام الرماصي، متعقبا لكلام الحطّاب : قد يقال لا وجه لعدم ظهور الصحّة لنص المالكية كابن عرفة وغيره، على أن حكم الصلاة فيه كالبيت. وقد نصوا على الجواز في البيت ولو لبابه مفتوحا. وهو في هذه الحالة غير مستقبل شيئا. وكذا يقال في الحجر على ما يقتضيه التشبيه ...(ا هـ).

قلت وفيه نظر لأن ما نقله الحطاب صريح في ترجيح منع الصلاة إلى الحجر خارجه، كما دلّ عليه كلام عياض والقرافي. وصرّح ابن جماعة بأنه مذهب المالكية، خلافا للخمي، فمنع الصلاة فيه أولى من الصلاة خارجه، والله أعلم (ا هـ).

وقال العلامة الدسوقي في حاشيته على عبد الباقي : صرّح الحطاب بعدم صلاة من صلّى في الحجر لغير الكعبة، مستدبرا لها. فقال له الشيخ سالم السنهوري : كيف هذا؟ مع أن اللخمي صرّح بأن من كان خارجا عن الحجر يجوز له أن يستقبل، في صلاته ستة أذرع من الحجر المقطوع بكونها من ظاهره ولو كان مستدبرا للكعبة فيقاس عليه من كان في الحجر. فيجوز له؛ استدبار القبلة والصلاة فيه ... إلى أن قال : لكن يقال إن كلام اللخمي ضعيف، فالحق ما قاله الحطاب. (ا هـ).

إلى هنا انتهى تحرير المقام في كون الحجر من البيت. وأما قول الأستاذ السيد، في أول سؤاله : "المالكية قالوا : ثبت بالتواتر أن ستة أذرع أو نحوها من الحجر من البيت. والشافعية يثبتون ذلك ظنا" مستبعدا لوجود التواتر عند إحدى الطائفتين دون الأخرى لأن التواتر يفيد القطع. فلا يكون ظنيا. فهو مبني على طريقة مرجوحة في

المذهب للإمام اللخمي. والراجح أنه ظني لكونه لم يُرْوَ إلا عن السيدة عائشة ولم يثبت في الصحيحين ولا في باقي السنن المشهورة نقله عن غيرها. فهو حديث آحاد. ونص الإمام المحقق البناني على قول الشيخ عبد الباقي حكاية عن اللخمي : "استقبل من الحجر القدر الذي تواتر أنه من البيت" إلخ. قوله "تواتر أنه من البيت" فيه نظر، بل كلام ابن رشد الذي في الحطاب صريح في عدم تواتره. ولذا قال الشيوخ : لا نعلم أنه رواه من البيت عن رسول الله (ﷺ) غير السيدة عائشة رضي الله عنها مع البحث عنه. (ا هـ). وقال العلامة الدسوقي على عبد الباقي : قد يقال إن قول اللخمي سابقا "من استقبل القدر الذي تواتر" إلخ، يقتضي القطع لكونه قبلة لأن التواتر، يفيد القطع. وبعد ذلك فالحق أن كون الستة أذرع من البيت، إنما ثبت بالآحاد لا بالتواتر. فتخصيص السيدة عائشة في الموطأ والصحيحين وباقي السنن المشهورة برهان قاطع على عدم التواتر. ونص الموطأ، عن مالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أم المؤمنين : "ما أبالي، أصليت في الحجر أم في البيت" ... وحديث البخاري ومسلم عنها : "سألت النبي (ﷺ) عن الجدر (بالفتح، لغة في الجدار) أي الحجر من البيت هو؟ قال نعم" قال الحافظ العسقلاني ظاهره أن الحجر كله من البيت قال : وبه كان يفتي ابن عباس، كما رواه عبد الرزاق. ورواية الترميذي والنسائي وأبي داوود وابن عوان بطرق كلهم عن عائشة، قالت : "كنت أحب أن أصلي في البيت. فأخذ (ﷺ) بيدي وأدخلني الحجر وقال : صلي فيه، فإنما هو قطعة من البيت. ولكن قومك اقتصروا حين بنوا البيت،

فأخرجوه من البيت" إلى أن قال الحافظ : والأحاديث المطلقة متواترة على سبب واحد وهو أن قريشا قصّروا عن بناء إبراهيم وأن ابن الزبير أعاده على بناء إبراهيم وأن الحجاج أعاده على بناء قريش. قال : ولم تأت رواية قط صريحة أن جميع الحجر من بناء إبراهيم في البيت ... (اهـ). وفي الإمام الزرقاني، على الموطأ : "اتفق العلماء على وجوب الطواف من وراء الحجر"، كما حكاه ابن عبد البر ونقل غيره أنه لا يعرف في الأحاديث المرفوعة، ولا عن أحد من الصحابة، فمن بعدهم أنه طاف من داخل الحجر وكان عملا مستمرا. قال العلامة المذكور : "وهذا لا يقتضي أن جميع الحجر من البيت. فلعله احتياطا، والعمل لا يقطع بالوجوب، لاحتمال الندب (اهـ)".

إذا علمت ما تحرّر، وبالنصوص تقرّر لك أن ثبوت كونه من البيت ظني، لا تواتراً فما بناه الأستاذ في أول سؤاله من كونه ثبت عند المالكية تواترا، جرى على طريقة مرجوحة للإمام اللخمي فلا خلاف بين مالك والشافعي. ولا تناقض ولا استبعاد حينئذ. والله تعالى أعلم.

الفصل الثاني

في تحقيق ما ذكر على مذهب سيدنا وولي نعمتنا الإمام الشافعي

فنصوص المذهب قاطعة بأن الحجر جميعه من البيت وكذلك الشاذروان. وعبارة المنهاج للأمام النووي : "ولو مشى على الشاذروان أو مس الجدار في موازاته أو دخل من إحدى فتحتي

الحجر وخرج من الأخرى، لم تصح طوفته" قال المحقق، ابن الحجر، في "تحفته" عليه : وهو (أي الشاذروان) بعض جدار البيت، نقصه ابن الزبير رضي الله تعالى عنهما من عرض الأساس لما وصل أرض المطاف لمصلحة البناء. ثم سنّمه بالرخام لأن أكثر العامة كان يطوف عليه. ومن ثم، صنّف المحب الطبري في وجوب ذلك التسنيم صونا لطواف العامة، وهو من الجهة الغربية واليمانية وكذا من جهة الباب. قال : كما حرّرته في الحاشية. قال : واستثناء ما عدا الركن اليماني منه لأنه على القواعد يردّ بأن كونه كذلك لا يمنع النقص من عرضه عند ارتفاع البناء. وهذا هو المراد بالشاذروان في الجميع. فهو عام في كلها حتى عند الحجر الأسود وعند اليماني. وقوله : "أو مس الجدار في موازاته" (أي الشاذروان) أي مسامتته له، أو دخل شيء من بدنه قال : "وكذا ملبوسه" على أحد التأويلين. والراجح عدم الضرر. وقوله : "أو دخل من إحدى فتحتي الحِجر" (بكسر أوله) ما بين الركنين الشاميّين على جدار البيت؛ أصين، بينه، وبين كل من الركنين فتحة، كان زربية لغنم إسماعيل. وروي أنه دفن فيه.

ويسمى حطيماً لكن الأشهر أن الحطيم ما بين الحجر الأسود ومقام إبراهيم. وقوله : "وخرج من ألأخرى" أي فلو وضع أنملته على طرف جدار الحجر القصير كما يفعله كثير من العامة لم تصح طوفته، أي بعضها الذي قارنها ذلك المس أو الدخول لأنه طائف في البيت لا به، المذكور في الآية. أمّا في الأولى؛ فلأن هواء الشاذروان من البيت كما علم من التعريف. وأما في الحجر فهو، وإن لم يكن فيه من البيت إلا ستة أذرع أو سبعة، لكن الغالب على الحج التعبد. وهو

(ﷺ) والخلفاء الراشدون ومن بعدهم لم يطوفوا إلا خارجه فوجب اتباعهم فيه (اهـ) بلفظه. قلت : وليحرر الجمع بين قوله "نقصه ابن الزبير" مع ما سبق لك عن الحافظ العسقلاني في الفتح أن الأحاديث متواترة على سبب واحد وهو أن قريشا قصّروا عن بناء إبراهيم وأن ابن الزبير أعاده على بناء إبراهيم وأن الحجاج أعاده على بناء قريش (اهـ). فصحيح الأحاديث على أن النقص منها وقع في بناء قريش ، لا بناء ابن الزبير. ولعل الجمع بأن الذي نقصته قريش فقط هو الحجر. ويشهد له حديث البخاري ومسلم المتقدم عن السيدة عائشة : "سألت النبي (ﷺ) عن الجَدَرَ" (بالفتح لغة في الجدار، كما تقدم) أي الحجر، كما صرّح به شراح البخاري، والإمام الزرقاني، على الموطأ حيث فسروه بذلك فقط. فيحمل إعادة ابن الزبير له على قواعد إبراهيم على الحجر خاصة. وأما الشاذروان، فأبقاه على ما كان عليه من قريش. فيكون معنى "نقصه ابن الزبير" أي أبقاه على نقصه. غاية الأمر أنه سنّمه بالرخام خوفا من طواف العامة عليه وهذا صريح قول ابن حجر في «تحفته» وفي حاشيته لها في قوله السابق:«نقصه ابن الزبير»، رضي الله تعالى عنهما، من عرض الأساس لمّا وصل أرض المطاف لمصلحة البناء ثم سنّم بالرخام إلى آخر ما تقدم له... ونصّه في حاشيته "أن قريشا، لما ثبت البيت على هيئته التي هو عليها اليوم، نقصوا عرض الجدار لمّا ارتفع على وجه الأرض، لأنهم لم يجدوا من الأموال الطيبة ما يغني بالنفقة وتركوا، من جانب هذين الركنين، بعضا وأخرجوهما عن قواعد إبراهيم عليه الصلاة والسلام وجعلوا على ذلك البعض، وما زاد عليه، جدار قصيرا وهو المسمى بالحجر. فهما ليسا موضوعين على قواعد الأركان، التي وضعتها، كما في اليمانيين،

وإن كانا موضوعين على أساس البيت بوقوع البناء الذي حصل التركيب به على الأساس الذي أسسه، إذ الركن عبارة عن ملتقى طرفي جدارين وكل منهما موضوع على إسّ سيدنا إبراهيم، كما هو جلي. وإنما لم يراعوا ذلك لأن الاستلام بالأركان المخصوصة لا لنفس البيت ولما وضع من الأركان على أساسه.

ومن ثم، لما بناه ابن الزبير ،رضي الله تعالى عنهما، من جهة الحجر على القواعد، استلمت الأركان، فنقص الجدار عن عرضه، لا سيما بعد ارتفاعه. ولا يخرج كون اليمانيين موضوعين على قواعد إبراهيم (ﷺ) (اهـ). وعبارة شيخ الإسلام في "منهجه" وشرحه عليه : "وثالثها جعْلَ البيت عن يساره مارّا تلقاء وجهه" فيجب كونه خارجا بكل بدنه عنه حتى شاذروانه وحجره، للإتباع مع خبر مسلم : "خذوا عني مناسككم" قال : "فإن خالف شيئا من ذلك، كأن استقبل البيت، أو استدبره، أو جعله عن يمينه أو عن يساره، ورجع القهقري نحو الركن اليماني، لم يصح طوافه". والحِجر (بكسر الحاء) ويسمى حطيما، المحوط بين الركنين الشاميين بجدار قصير، بينه وبين كل من الركنين فتحة. قال المحشيّ البجيرمي : قوله "بكل بدنه" فلو مس البيت بيده مثلا، أو أدخل جزأ منه في هواء الشاذروان أو هواء غيره من أجزاء البيت، لم يصح بعض طوفته. وليس الثوب كالبدن على المعتمد خلافا للشويري. وقوله : "شاذَروانه" (بفتح الذال المعجمة) وهو الخارج عن عرض جدار البيت، مرتفعا عن وجه الأرض قدر ثلثي ذراع، تركته قريش، عند بنائهم له، لضيق النفقة أي لقلّة الدراهم الحلال، التي يصرفونها في البناء، والله أعلم (اهـ). فصريح هذا، من شيخ الإسلام؛

قاطع بأن نقص الشاذروان كان حاصلا في بناء قريش، كما نقصت الحجر غير ان الذي أعاده ابن الزبير هو الحجر فقط. ويقوي هذا الجمع قول الإمام الزرقاني، على الموطأ : "فلما قتل ابن الزبير، شاور الحجاج عبد الملك بن مروان في نقض بناء ابن الزبير. فكتب إليه : أما ما زاد في طولها فأقرّه. وأما ما زاده في الحجر فردّه إلى بنائه. وسدّ الباب الذي فتحه ... ففعل. كما في مسلم عن عطاء.

أسأل الله الكريم أن يتفضل علينا بالعطايا الربانية، بجاه خير البرية صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته وآل بيته وسلم وشرّف وعظّم كلما ذكرك الذاكرون وغفل عن ذكرك الغافلون.

الفصل الثالث

في مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان، رحمه الله

فالحجر عنده، باتفاق المذهب، من البيت. ويجب أن يكون الطواف وراءه، فقد توافق فيه المذاهب الثلاثة وإنما الخلاف في نهايته.
هل ستة أذرع أو سبعة أوستة وشبر؟ ومع ذلك يجب أن يكون الطواف من ورائه، باتفاق الجميع، لحديث مسلم : "خذوا عني مناسككم". ولم يطف (ﷺ) والخلفاء الراشدون إلا من خلفه. وعبارة الدرّ : "قالوا ويمر بجميع بدنه على جميع الحجر، جاعلا قبل شروعه، رداءه تحت إبطه، ملقيا طرفه على كتفه الأيسر ،استسناناً، وراء الحطيم وجوبا لأن منه ستة أذرع من البيت. فلو طاف من الفرجة، لم يجز.

كاستقباله احتياطاً، وبه قبر اسماعيل وهاجر. وعبارة المحقق، ابن عابدين، عليه قوله؛ قالوا ... إلخ. قال في البحر : "ولما كان الابتداء من الحجر واجبا، كان الابتداء في الطواف من الجهة التيّ فيها الركن اليماني، قريبا من الحجر الأسود. وكثيرا من العوام شاهدناهم يبتدئون الطواف وبعض الحجر خارج عن طوافهم. فاحذروه (اه). فإن قلت : هذه الكيفية عن اللباب، وإنها مستحبة، لامتعينا، وبه صرّح في فتح القدير أيضا. وفي الشرنبلالي بعد ما مرّ عن البحر : "هذا إذا لم يكن في قيامه مسامتا للحجر بأن وقف جهة الملتزم ومال ببعض جسده ليقبِّل الحجر. أمّا من قام مسامتا بجسده الحجر، فقد دخل في ذلك، شيء من الركن اليماني لأن الحجر ركن، وركنه لا يبلغ عرض جسد المسامت له. وبه لا يحصل الابتداء من الحجر" (اه). قلت : لكن لا يحصل به المرور بجميع البدن على الحجر. لكن قد علمت أنه غير لازم عندنا. ولعلّ الشارح أشار إلى ضعفه بلفظ : (قالوا) وقوله : (وراء الحطيم) قال المحشي، العلامة المذكور "ويسمى حظيرة اسماعيل" وهو البقعة التي تحت الميزاب، عليها حاجز كنصف دائرة، بينها وبين البيت فرجة سمّي بالحطيم لأنه حطم من البيت أي كسر. وبالحجر لأنه حجر منه. وقوله : "لأن منه ستة أذرع من البيت". لفظه "من" خبرُ أن مقدما و"ستة" اسمها مؤخرا. و"من البيت" صفة ستة. والتقدير "بأن ستة كائنة من البيت، ثابتة منه "، أو "من" حالٌ، من "ستة" مقدم عليه. و"من البيت" خبره، وهو جائزكقوله : "لميّة موحشا طللٌ" قلت : والثاني؛ أظهر، فافهم. قال في الفتح : وليس الحجر كله من البيت؛ بل ستة أذرع منه فقط، لحديث عائشة

-رضي الله تعالى عنها- عن رسول الله (ﷺ) قال : "ستة أذرع من الحجر من البيت. وما زاد ليس من البيت". رواه مسلم. قوله : "لم يجز" (بفتح أوله وضم ثانيه) من الجواز، بمعنى الحل لا الصحة. أو (بضم أوله وسكون ثانيه) من الإجزاء. أي : على وجه الكمال. قال القاري في شرح النقاية : ولو طاف من الفرجة لا يجزئه في تحقيق كماله. ولا
بدّ من إعادة الطواف كلّه لتحقّقه. وإن أعاد من الحطيم وحده، أجزأه بأن يأخذ عن يمينه، خارج الحجر، حتى ينتهي إلى آخره ثم يدخل الحجر من الفرجة، ويخرج من الجانب الآخر أو لا يدخل الحجر ،وهو أفضل، بأن يرجع ويبتدئ من أوّل الحجر. هكذا يفعل سبع مرّات ويقضي صفته من رمل وغيره. ولو لم يعد صحّ طوافه ووجب عليه دم. (اه) ... قوله : "كاستقباله" أي فإنه، إذا استقبله المصلي، لم تصح صلاته، لأن فريضة استقبال الكعبة ثبتت بالنص القطعي. وكون الحطيم من الكعبة، ثبتت بالآحاد. فصار كأنه من الكعبة من وجه دون وجه. فكان الاحتياط، في وجوب الطواف وراءه، في عدم صحة اسٍتقباله. والتشبيه يمكن تصحيحه على الوجهين اللذين ذكرناهما، في قوله : "لم يجز" مع قطع النظر عن المفهوم، فافهم. قوله : "وبه قبر إسماعيل وهاجر"، عزاه، في البحر، إلى غاية البيان. وذكر بعضهم أن ابن الجوزي أورد أن قبر إسماعيل فيما بين الميزاب، إلى ما بين الحجر الغربي. (اه) إذا علمت هذا، تبين لك في المذاهب الثلاثة أنه يجب خروج جميع البدن عن جميع الحجر. ولو على القول بأنه ستة أذرع فقط لما علمت أنه، عليه الصلاة

والسلام، والخلفاء الراشدون، فمن بعدهم إلى وقتنا هذا، لم يطف أحد منهم داخل الحجر ... فهو أمر تعبدي.
وقال ،عليه الصلاة والسلام، : "خذوا عنّي مناسككم". وإن كونه من البيت ثبت بالآحاد عند المذاهب الثلاثة لا تواتراً. والله أعلم.

الباب الثاني
فيما يتعلق بالشاذروان

هل هو من البيت أو خارجه؟ وهل ورد في السنة ما يدلُّ عليه؟ وهل ما نقله الإمام القسطلاني، في شرحه على البخاري، عن ابن رشيد (تصغير رشد) من المالكية أن الشاذروان؛ وإن لم يرد له ذكر في خبر صحيح ولا سقيم ولم يذكره أحد من قدماء المالكية، غير ابن شاش وتبعه ابن الحاجب، قال : وهو مأخوذ من الشافعية، مسلم عن ابن رشيد، موافقا لمذهب مالك، أو المذهب ،على خلافه، وهذا مضمون السؤال الثاني الوارد إلينا من الأستاذ. وفيه فصول ثلاثة :

الفصل الأول
في تحقيق ذلك على مذهب مالك. فأقول وبالله التوفيق :

إن جمهور المذهب على أن الشاذروان من البيت. فمن طاف ببعض شيء منه، من داخله بأن أدخل يده في هوية، بطل طوافه.
وهذا هو الذي عليه الاعتماد والمعوّل في المذهب. وخلافه لا يلتفت إليه. فلذا اقتصر عليه العلاّمة خليل في متنه. وخاتمة المحققين، الأمير،

في مجموعه. ولم يذكروا فيه خلافا بل اقتصر جميع الشراح، مع المتون، قديما وحديثا، علة وجوب خروج جميع البدن على الشاذروان. ونص العلامة خليل : "وخروج كل البدن عن الشاذروان" ونص العلامة الخرشي عليه، قال : "والمعنى أنه يجب على الطائف بالبيت أن يجعل بدنه في طوافه خارجا عن الشاذروان". وهو البناء المحدودب، في أساس البيت. وذلك شرط في صحة طوافه. والمعتمد عند المؤلف أن الشاذروان من البيت معتمد على ما قاله سند وابن شاش، ومن تبعهما كابن الحاجب، والقرافي، وابن جزي، وابن جماعة التونسي، وابن عبد السلام، وابن هارون في شرح المدوّنة، وابن راشد في اللباب، وابن معلا، والتادلي، وابن فرحون. ونقله ابن عرفة ولم يتعقبه. وتبعه الأبي وهو المعتمد عند الشافعية.قال وأنكر كونه من البيت جماعة من متأخّري المالكية والشافعية فممن بالغ في إنكاره، من المالكية الخطيب أبو عبد الله بن رشيد (مصغر رشد). اهـ. ونص المجموع. "وخروج جمعيه (أي الطائف) عن جميع الحجر والشاذروان، فيعتدل المقبل". (اهـ). ونص العلامة الدسوقي، على الشرح الكبير، على قول العلامة الدردير : "لو طاف –ويده على الشاذروان– لم يصح"، أي : لدخول بعض يده، في هوي البيت. وما ذكره من أن الشاذروان من البيت هو الذي عليه الأكثر من المالكية والشافعية. وذهب بعضهم إلى أنه ليس من البيت، قال الحطّاب : وبالجملة فقد كثر الاضطراب في الشاذروان . وصرّح جماعة من الأئمة المقتدى بهم بأنه من البيت. فيجب على الشخص الاحتراز منه في طوافه، وأنه إذا طاف، وبعض بدنه في هوية، أن يعيد، ما دام بمكة. فإن لم يذكر

ذلك حتى بعد من مكة فينبغي أنه لا يلزمه الرجوع، مراعاة لمن يقول : "إنه ليس من البيت" (اه). إذا علمت هذا، ظهر لك أن ما نقله الإمام القسطلاني عنه أنه لم يقل به أحد، من قدماء المالكية غير مسلم لابن رشيد، لما علمت ممن نقله الإمام الخرشي عن الأئمة الأعيان. وقول الحطاب : "وصرّح جماعة من الأئمة المقتدى بهم بأنه من البيت". فكيف ينظر لقول ابن رشيد : أنه لم يذكره أحد من قدماء المالكية مع هؤلاء الأئمة المتقدم ذكرهم آنفا؟ ولذا، اقتصر عليه الإمام خليل بقوله : "وخروج كلّ البدن عن الشاذروان" ومثله الإمام الأمير الدردير. و لم يذكروا خلافا، فضلا عن اعتباره مرجوحا. فلو كان لقول ابن رشيد، قوة في المذهب لنبّهوا على وجود الخلاف في المتون، كما هي القواعد المقررة في ذلك. فعدم التفاهم إليه رأسا، دليل على عدم اعتباره، وارتكان الإمام القسطلاني على القول "بأنه ليس من البيت"، تعويلا على ما لابن رشيد، نظرا لما اطلع عليه فقط، وإلا فها هي شروح المذهب ومتونه ناطقة بكونه من البيت. وهم حجة في النقل. فالواجب علينا إتباع ما نقلوه، واعتمدوه و لم يعوّلوا على خلافه. والله تعالى يرشدنا جميعا لاتباع الحق والصواب بجاه سيد الأحباب، (ﷺ). وشرّف وعظم .

الفصل الثاني

في تحقيق ذلك على مذهب الإمام الشافعي

قد سبق لك ما يفيد بالنص الصريح أن الشاذروان من البيت،

وعبارة المناهج السابقة للإمام النووي : "ولو مشى على الشاذروان أو مس الجدار، في موازاته (أي مسامتته) له، أو أدخل شيئا من بدنه، لم تصح طوفته. وعبارة شيخ الإسلام في منهجه : "فيجب كونه خارجا بكل بدنه عنه حتى شاذروانه وحجره، للإتباع مع خبر مسلم : "خذوا عني مناسككم" قال : "فإن خالف شيئا من ذلك، لم يصح بعض طوافه . قال المحشي البجيرمي : قوله "بكل بدنه" فلو مس البيت بيده مثلا، أو أدخل جزأ منه في هواء الشاذروان أو هواء غيره من أجزاء البيت، لم يصح بعض طوفته. وليس الثوب كالبدن على المعتمد، خلافا للشويري. وقوله : "شاذَروانه" (بفتح الذال المعجمة) وهو الخارج عن عرض جدار البيت، مرتفعا عن وجه الأرض، قدر ثلثي ذراع، تركته قريش عند بنائهم له، لضيق النفقة أي لقلّة الدراهم الحلال التي يصرفونها في البناء. والله أعلم. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الفصل الثالث

في تحقيق كون الشاذروان من البيت أو خارجه عند الإمام أبي حنيفة النعمان

وعلى كل، هل يجب خروج بدنه عنه ولو على القول بأنه ليس منه. قال المحقق ابن عابدين : الشاذروان هو الإفريز المسنّم الخارج عن عرض جدار البيت، قدر ثلثي ذراع. قيل إنه من البيت، حين عمّرته قريش كالحطيم، وهو ليس منه عندنا. لكن ينبغي أن يكون

طوافه وراءه خروجاً من الخلاف، كما في الفتح، واللباب، وغيرهم. (اهـ) إذا علمت هذا تبين لك أنه في المذاهب الثلاثة يجب خروج جميع بدنه عن جميع الحجر. والشاذروان عند أبي حنيفة، ليس من البيت. وإنما وجوب خروج جميع البدن عنه عنده، احتياطاً، مراعاة لمذهب الغير، وأن ثبوت كون الحجر من البيت ظني عند المذاهب الثلاثة لا تواتراً لما علمت سابقاً : أنه لم يرو إلا عن السيدة عائشة. توافق في الحجر مالك والشافعي وأبو حنيفة على أنه من البيت،وثبت ظنا. وكذلك الشاذروان عند مالك والشافعي. وعند أبي حنيفة، ليس منه. ومنشأ الخلاف مبني على الخلاف في فهم قوله ـعليه الصلاة والسلامـ للسيدة عائشة : إن قومك حين بنوا الكعبة اقتصروا عن قواعد إبراهيم. فالذي عليه الجمهور من مذهب مالك والشافعي أن الاقتصار عن قواعد إبراهيم شامل لما ترك من الحجر، ومحل الشاذروان. وخصه الإمام الأعظم بالحجر، دون الشاذروان. وحديث الصحيحين –رضي الله عنهما– يشهد بظاهره لأبي حنيفة بالتخصيص، ونصه : "عن عائشة –رضي الله عنها– سألت (ﷺ) النبي عن الجدر أي الحجر ... أمن البيت هو؟ قال : نعم. قلت فما له لم يدخلوه في البيت ؟ قال : إن قومك قصرت بهم النفقة. قلت : فما شأن بابه مرتفعا؟ قال : فعل ذلك قومك ليدخلوا من شاؤُوا، ويمنعوا من شاؤوا". وحديث مسلم عنها : "عن رسول الله (ﷺ) ستة أذرع من الحجر من البيت وما زاد ليس منه". ورواية الترمذي، والنسائي، وأبي داوود بطرقٍ؛ كلّهم عن عائشة. قالت : كنت أحب أن أصلي في

في البيت. فأخذ (ﷺ) بيدي وأدخلني الحجر وقال : "صلي فيه، فإنما هو قطعة من البيت. ولكن قومك اقتصروا -حين بنوا البيت- وأخرجوه من البيت". وفي شرح الزرقاني، على الموطأ، رواية عن صحيح مسلم، قالت : قال (ﷺ) : إن قومك اقتصروا من بنيان البيت. ولولا حداثة عهدهم بالشرك، أعدت ما تركوا منه. فإن بدا لقومك، من بعدي، أن يبنوه؛ فهلمي لأريك ما تركوا منه". فأراها قريبا من سبعة أذرع، وفي الشرح المذكور أنه لا تنافي بين رواية سبعة أذرعورواية ستة أذرع وخمسة أذرع. فإن رواية الأقل أريد بها : ما عدا الفرجة التي بين الركنين والحجر. قال : وهذا الجمع أولى من دعوى الاضطراب والطعن لأن شرط الاضطراب أن تتساوى الوجوه بحيث يتعذر الترجيح، أو الجمع. ولم يتعذر هنا. وإطلاق اسم الكل على البعض شائع مجازاً. قاله الحافظ في الفتح : فهذه الأحاديث ظاهرها تقوي ما للإمام أبي حنيفة. ورواية الإطلاق استند إليها مالك والشافعي كما في الصحيحين. ونصّهما : "لو لا أن قومك حديثو عهد بجاهلية؛ لأمرت بالبيت فهدم. فأدخلت منه ما أخرج منه وألزقته بالأرض وجعلت له بابين : باباً شرقياً، و باباً غربياً. فبلغت به أساس إبراهيم". قال خاتمة الحفاظ، الإمام العسقلاني، في الفتح : وفي الحديث فوائد منها أنه يترك ما هو صواب خوف وقوع مفسدة، أشد. منها؛ استئلاف الناس إلى الإيمان، ومنها اجتناب ولي الأمر ما يتسارع الناس إلى إنكاره. وما يخشى منه تولّد الضرر عليه، في دين أو دنيا. وتآلف قلوبهم ؛ لما لا يترك فيه أمر واجب كمساعدتهم على ترك

الزكاة وشبه ذلك، وتقديم الأهم على المهم من دفع المفسدة وجلب المصلحة، وأنهما إذا تعارضتا، بدئ بدفع المفسدة. ويؤخذ منه أيضا حديث الرجل مع أهله في الأمور العامة، وفيه رد الذرائع،ونقل الإمام ابن بطال عن بعض العلماء أن الحامل له،عليه الصلاة والسلام، على الترك، خشية أن ينسبوه إلى الإنفراد بالفخر دونهم، بدليل رواية الشيخين : "أخاف أن تنفر بالقاع" وفي رواية : "أن تنكر قلوبهم أن أدخل الجدر في البيت، وأن ألصق بابه إلى الأرض" ورواية مسلم عن الزبير : "وليس عندي من النفقة ما يقوّيني على بنائه، فأدخلت فيه من الحجر قدر خمسة أذرع". إذا علمت هذا، تبين لك أن الشاذروان مندرج في عموم ما أخرجته قريش من البيت، عن قواعد إبراهيم، عملا بالأحاديث المطلقة : "في الاقتصار عن القواعد". وخصه الإمام الأعظم بالحجر، عملا بالأحاديث المقيدة. ولكل وجهةٌ رضي الله تعالى عنهم وعنا بهم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته وآل بيته وسلم وشرّف وعظم، كلما ذكرك الذاكرون، وغفل عن ذكره الغافلون. انتهى المقصود من الرسالة.

ثم أقبل الأمير على عبادة الله تعالى عند بيته الحرام في مسجده الحرام، وتفرّغ لها من كل شيء يتعلق بالدنيا، وأهلها واختار الشيخ محمد الفاسي، المجاور في مكة المكرمة، أستاذا له. فأخذ عليه الطريق، وتلقى شؤونها عنها، ولازم الرياضة، والخلوة، والاجتهاد، وعكف

على ما في تلك الطريقة الميمونة من الوظائف، والأوراد. إلى أن رقي معارج الأسرار إلى حظائر القدس ذات الأنوار. ووقعت له كرامات وخوارق وأحراز، بقوة سعده، أحوالا سنية، وأنفاسا محمدية. وما تم له الارتقاء إلا في غار حراء لأنه انقطع فيه أياما عديدة إلى أن جاءته البشرى بالرتبة الكبرى، ووقع له الفتح النوراني، وتفجرت ينابيع الحكم على لسانه وفاضت عيون الحقائق بين أدواح جنانه، وانفتح له باب الواردات، واستظهر من القرآن العظيم آيات، ومن الحديث النبوي أحاديث صحيحة. فكتب من خلوته، إلى حضرة أستاذه، يصف بدايته ونهايته. ويثني على الله بما أولاه على يده، بقوله :

أمسعود جاء السعد والخير واليسرُ ... وولّت جيوش النحس ليس لها ذكر
ليالي صدود وانقطاع وجفوةٍ ... وهجران سادات ولا ذكر الهجر
فأيامها أضحت قتاما ودجنةً ... لياليها لا نجم يضيء ولا بدر
فراشي فيها حشوة الهم والضنى ... فلا التذّ لي جنبٌ ولا التذّ لي ظهر
ليالي أنادي والفؤاد متيم ... ونار الجوى تشوي لما قد حوى الصدر
أمولاي طال الهجر وانقطع الصبر ... أمولاي هذا الليل هل بعده هجر
أغث يا مغيث المستغيثين والهاً ... ألّم به من بعد أحبابه الضر
أسائل كل الخلق هل من مخبّر ... يحدّثني عنكم فينغشي الخبر
إلى أن دعتني همة الشيخ من مدىً ... بعيد ألا فادن فعندي لك الذخر
فشمّرت عن نيلي الإزار وطار بي ... جناح اشتياق ليس يخشى له كسر
وما بعدت عن ذا المحبّ تهامة ... ولم يثنه سهل هناك ولا وعر
إلى أن أنخنا بالبطاح ركابنا ... وحطّ بها رحلي وتمّ لها البشر
بطاح بها البيت المعظم قبلة ... فلا فخر إلاّ فوقه ذلك الفخر

بطاح بها الصيد الحلال محرّم ومن حلّها حاشا يبقى له وزر
أتاني مرّ بي العارفين بنفسه ولا عجب فالشأن أضحى له أمر
وقال فإني منذ أعداد حجّة لمنتظر لقياك يا أيها البدر
فأنت بنيتي مذ "ألست بربكم" وذا الوقت حقا ضمة اللوح والسطر
وجدك قد أعطاك من قدمٍ لنا ذخيرتكم فينا ويا حبذا الذخر
فقبلت من إقدامه وبساطه فقال لك البشرى بذا قُضِي الأمر
وألقى على صفري بإكسير سرّه فقيل له هذا هو الذهب التبر
وأعني به شيخ الأنام وشيخ من له عمّة ذي عذبة وله الصدر
عياذي ملاذي عمدتي ثم عدّتي وكهفي إذا أبدي نواجذه الدهر
غياثي من أيدي العداة ومنقذي منيري مجيري عندما غمني العمر
ومحي رفاتي بعد أن كنت رمّة وأكسبني عمرا لعمري هو العمر
محمد الفاسي له من محمد صفيّ الإله الحالُ والشيم الغر
بفرض وتعصيب غدا إرثه له هو البدر بين الأولياء وهم الزهر
شمائلهً تغنيك إن رمت شاهدا هي الروض لكن شقّ أكمامه القطر
تضوّع طيبا كل زهر بنشره فما المسك ما الكافور ما الندّ ما العطر
وما حاتم قل لي وما حلم أحنف وما زهدُ إبراهيم أدهم ما الصبر
صفوح يغض الطرف عن كل زلّة لهيبته ذلّ الغضنفر والنمر
هشوش بشوش يلقي بالحرب قاصداً وعن مثل حب المزن تلقاه يفترّ
فلا غضبٌ حاشا بأن يستفزه ولا حدّةٌ كلا ولا عنده ضرّ
لنا منه صدرٌ ما تكدّره الدّلا ووجه طليقٌ لا يزايله البشر
دليلٌ لأهل الفقر لا عن مهانةٍ عزيزٌ ولا تيه لديه ولا كبر
وما زهرة الدنيا بشيء له ترى وليس لها يوما بمجلسه نشر
حريصٌ على هدي الخلائق جاهد رحيم بهم برّ خبير له القدر

كساه رسول الله ثوبَ خلافةٍ له الحكم والتصريف والنهي والأمر
وقيل له إن شئت قل قدمي علا على كل ذي فضل أحاط به العصر
فذلك فضلُ الله يؤتيه من يشاء وليس على ذي الفضل حصرٌ ولا حجر
وذا وأبيك الفخر لا فخر من غدا وقد ملك الدنيا وساعده النصر
وهذا كمالٌ كَلَّ عن وصف كنهه فمن يدّعي هذا فهذا هو السر
أبو حسنٍ لو قد رآه أحبّه وقال له أنت الخليفة يا بحر
وما كل شهمٍ يدّعي السبق صادق إذا سيق للميدان بأن له الخسر
وعند تجلي النقع يظهر من علا على ظهر جردبلٍ ومن تحته حمر
وما كل من يعلو الجواد بفارس إذا ثار نقع الحرب والجو مغبرٌّ
فيحمي ذماراً يوم لانو حفيظة وكل حماة الحيّ من خوفهم فرّوا
ونادى ضعيف الحي من ذا يغيثني أما من غيور خانني الصبر والدهر
وما كلّ سيف ذو الفقار بجدّه ولا كلّ كرّار عليّا إذا كرّوا
وما كل طير طار في الجو فاتكا وما كل صيّاح إذا صرصر الصقر
وما كل من يسمى بشيخ كمثله ولا كل من يدعى بعمرو إذا عمرو
وذا مثل للمدعين ومن يكن على قدمٍ صدقٍ طبيباً له خبر
فلا شيخ إلا من يخلص هالكا غريقا ينادي قد أحاط بي المكر
ولا تسألن من ذي المشائخ غير من له خبرة فاقت وما هو مغترٌّ
تصفّح أحوال الرّجال مجرِّبا وفي كل مصرٍ بل وقطرٍ له أمر
فانعم بمصرٍ ربّت الشيخَ يافعاً وأكرمْ بقطرٍ طار منه له ذكر
فمكة ذي خير البلاد فديتها فما طاولتها الشمس يوماً ولا النسر
بها كعبتان كعبة طاف حولها حجيج الملا بل ذاك عندهم الظفر
وكعبة حجاج الجناب الذي سما وجلّ فلا ركنٌ لديه ولا حجر
وشتّان ما بين الحجيجين عندنا فهذا له ملكٌ وهذا له أجر

عجبت لباغي السير للجانب الذي ... تقدّسَ سراً لا يجدّ له السير
ويلقي إليه نفسه بفنائه ... بصدق تساوى عنده السرّ والجهر
فيلقى مناخ الجود والفضل واسعا ... ويلقى فراتا طاب نهلا فما القطر
ويلقى رياضا أزهرت بمعارف ... فيا حبّذا المرأى ويا حبذا الزهر
ويلقى جنانا فوق فردوسها العلا ... وما لِجنان الخلد إن عبّقت، نشرا
ويشرب كأسا صرفةً من مدامة ... فيا حبذا كأس ويا حبذا خمر
فلا غول فيها لا ولا عنها نزفةٌ ... وليس بها برد وليس بها حر
ولا هو بعد المزج أصفرُ فاقعٌ ... ولا هو قبل المزج قان ومحمر
معتّقة من قبل كسرى مصونة ... وما ضمّها دنّ وما نالها عصر
ولا شانها زقّ ولا سار سائر ... بأحمالها كلاّ ولا نالها تجر
فلو نظر الأملاك ختم إنائها ... تخلّت عن الأملاك طوعا ولا قهر
ولو شمّت الأعلام في الدرس ريحها ... لما طاش عن صوب الصواب لهم فكر
فيا بُعدَهم عنها ويا بئس ما رضوا ... فقصدُهم قصدٌ وسيرهم وزر
هي العلم كل العلم والمركز الذي ... به كلُّ علمٍ كل حين له دور
فلا عالمُ إلا خبير بشربها ... ولا جاهلٌ إلاّ جهول بهٍ غرّ
ولا غبن في الدنيا ولا من رزيئة ... سوى رجل عن نيلها حظه نزر
ولا خسر في الدنيا ولا هو خاسر ... سوى والهٍ والكف من كأسها صفر
إذا زمزَم الحادي بذكر صفاتها ... وصرّح ما كنّى ونادى نأي الصبر
"وقل اسقني خمراً وقل لي هي الخمر ... ولا تسقني سرّاً إذا أمكن الجهر"
"وصرّحْ بمن تهوى ودعني من الكني ... فلا خير في اللذات من دونها ستر"
ترى ذائقيها منها هامت عقولهم ... ونازلهم بسطٌ وخامرهم سكر
وتاهوا فلم يدروا من التيه من هم ... وشمس الضحى من تحت أقدامهم عفر
وقالوا فمن يرجى من الكون غيرنا ... فنحن ملوك الأرض لا البيض والحمر

تميدُ بهم كأسٌ بها قد تولَّهوا فليس لهم عرفٌ وليس لهم نكر
حيارى فلا يدرون أين توجَّهوا فليس لهم ذكر وليس لهم فكر
فيطربهم برقٌ تألّق بالحمى ويرقصهم رعدٌ بسلع له زأر
ويسكرهم طيب النسيم إذا سرى تظن بهم سحراً وليس بهم سحر
وتبكيهم ورق الحمائم في الدجى إذا ما بكت مَن ليس يدري له وكر
بحزن وتلحين تجاوبتا بما تنوب له الأكباد والجلمد الصخر
وتسبيهم غزلان رامةَ إن بدت وأحداقها بيض وقاماتها سمر
وفي شمها حقا بذلنا نفوسنا فهان علينا كل شيء له قدر
وملنا عن الأوطان والأهلِ جملةً فلا قاصرات الطوف تثني ولا القصر
ولا عن أصحاب الذوائب من غدت ملا عبهم مني الترائب والنّحر
هجرنا لها الأحقاب والصحب كلهم فما عاقنا زيد ولا راقنا بكر
ولا ردّنا عنها العوادي ولا العدى ولا هالنا قفرٌ ولا راعنا بحر
وفيها حلالي الذلّ من بعد عزَّةٍ فيا حبذا هذا ولو بدؤه مرُّ
وذلك من فضل الإله ومنّه عليّ فما للفضل عدّ ولا حصر
وقد أنعم الوهّاب فضلا بشربها فلله حمد دائم وله الشكر
فقل لملوك الأرض أنتم وشأنكم فقسمتكم ضئزى وقسمتنا كثر
خذ الدنيا والأخرى أباغيهما معاً وهات لنا كأسا فهذا لنا وفر
جزى الله عنا شيخنا خيرَ ما جزى به هاديا فالأجر منه هو الأجر
أمولاي إني عبد نعمائك التي بها صار لي كنز وفارقني الفقر
وصرُت مليكاً بعدما كنت سوقةً وساعدني سعد فحصباؤنا درُّ
أمولاي إني عبد بابك واقف لفيضك محتاج لجدواك مضطرّ
فمر أمرَ مولًى للعبيد فإنني أنا العبد ذاك العبد لا الخادم الحرّ
هنيئا لنا يا معشر الصحب إننا لنا حصنٌ أمنٍ ليس يطرقه ذعر

فنحن بضوء الشمس والغير في دجىً وأعينهم عميٌ وآذانهم وقر
ولا غرو في هذا وقد قال ربنا تراهم عيون ينظرون ولا بصر
وغيم السما مهما سما هان أمره فليس يرى إلا لمن ساعد القدر
ألا فاعلموا شكرا لمن جاد بالذي هدانا ومن نعمائه عمنا اليسر
وصلّوا على خير الورى خيرِ مرسلٍ وروح هداة الخلق حقا وهم ذرّ
عليه صلاة الله ما قال قائـــــلٌ أمسعود جاء السعد والخير واليسـرُ

وبعد أن أتم الحج، وأدّى المناسك في تلك السنة توجه إلى لطائف وأقام بها نحو ثلاثة أشهر ثم رجع إلى مكة المشرّفة على ما هو عليه من الاجتهاد في العبادة والانقطاع إليها. ومن حين توجه إلى الطائف انقطعت عنا مكاتيبه، وعمّيت علينا أخباره. ولما طال الأمر، وتوشوش الفكر، كتبت إلى حضرة سيادة المولى الشريف، السيد عبد الله باشا، أمير مكة المكرمة، أسأله عنه، وأطلب الإفادة. فكتب لي في السابع والعشرين من ذي الحجة، سنة ثمانين ومائتين (1280) ما نصه :

"غبّ إهداء سلام يفوح شذاه المسكيّ من سوح الكعبة الغراء والحرم المكي، وتحيات صادرة من مهابط التنزيل، محفوفة بمزيد التعظيم، والتبجيل إلى جناب قدوة الأكابر، جابر كمالات المفاخر، الأعز الأكرم، السيد محمد، ابن السيد عبد القادر، سلّمة الله تعالى ورحمة الله وبركاته عليه تتوالى.

وبعد، لا يخفاكم أن الموجب لتحريره السؤال عنكم لما يبلغنا من حميد سيركم. فوصل والدكم الفاضل، السيد عبد القادر، وحقق لنا طيب حالكم، فحمدنا المولى الكريم على ذلك، وشكرناه على ما هنالك.

ثم إنه وصلنا صندوق فيه آلة الشاي السفري، وما هو برفقة المرسل صحبته من طرفكم، وحلّ محل القبول وصار لنا بذلك مزيد الميمونيّة حيث أنه كان سببا للمكاتبة ووالدكم المشار إليه قد قضى وطره من أداء حج بيت الله الحرام، والتملي بهذه المشاعر العظام. وها هو متوجه للتشرف بزيارة سيد الأنام، عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام. نسأل الله أن يحمله بالسلامة ويمن عليه بالوصول إلى الأوطان، بعد بلوغ كل مقصد ومرام. ودمتم في حفظ الله، وحسن رعايته آمين".

والصندوق المذكور، كانت زوجة الإمبراطور نابليون الثالث أهدته لسيدي الوالد.

وكان الأمير، بعض الأحيان، يجتمع به أهل محبته، وإخوانه في الله؛ فيباسطهم ويداعبهم. ذكر لي حضرة الأديب الشيخ أحمد الخضراوي، وكان معهم في الطائف أنه جال معه في الحديث يوما، وأفضت بهم المناسبة إلى ذكر شروط أهل مكة على الخدود. قال فمدحها له، وأنشدت فيها قول بعضهم :

رأيت لها شرطاً على الخدِّ قد حوى ... جمالاً وقد زادَ الملاحة بالقرط
فقلتُ مرادي اللثم قالت بخلوةٍ ... فقبّلتها ألفاً على ذلك الشرط

فأنكر ذلك واستقبحهُ وقال:

أقول لقومٍ لا تفيد نصيحتي ... لديهم ولو أبديت كلَّ الأدلّة
ألا فاتركوا ورد الخدود وشأنه ... فتحديدكم في الخدّ أقبح فعلة
أيعمد ذو لبٍّ لخدٍّ مورّد ... ويقسمه عمداً إلى شرِّ قسمة
ومادح شرط الخدِّ بالسود صادقٌ ... وأماً بخدِّ البيض فالقبحُ عمدتي

أما يخشى مـن أن يكـون مخـدّداً ويدخل فـيمن حـاز أفظـع قولـة
فياللحظ لا الموسى تخـدّش وجنـةٌ فيـا ويلـتي منـه ويـا طـول حـسرتي
وإنـــي لأهوى كلّ خـــد موردٍ زها قطّ لم يمسسه موسى بخدشة

فأجبته بأبيات منها :

قد عمّت البلوى بذلك سيّدي ولقد نصحت عبيدكم بجميلة

ذكر سفر الأمير من مكة الطاهرة
إلى المدينة المنوّرة الزاهرة

وفي أوّل يومٍ من رجب سنة ثمانين ومائتين وألف (1280)، توجّه إلى جدّة ومنها إلى مرسى الرائس ثم إلى بدر ثم بئر عباس، فوجد هناك حافظ باشا حاكم المدينة، وشيخ الحرم النبوي مخيّماً بعسكره، ينتظر القوافل القاصدة إلى المدينة المنوّرة من الجهات. فاحتفل به للغاية وضرب له خيمةً إلى جانب خيمته واتصل خبره بقبيلة حرب الشهيرة وغيرها من قبائل تلك النواحي؛ فجاءه الشيخ فهد في جماعة من الأعيان؛ فأكرم نزلهم وعرضوا أن يكونوا في خدمته إلى المدينة. فدعا لهم وشكر تودّدهم إليه. ولمّا تلاحقت القوافل، ارتحل بها الباشا والأمير. فدخلوا المدينة المنوّرة في السادس والعشرين من رجب واستقبله أشرافها وعلماؤها في وادي العقيق. وكان الشيخ محمد الدرابزلي، المعروف بالشيخ المنتظر، تهيّأ لنزوله عنده؛ فأجابه إلى ذلك وقام في ضيافته أياماً. ثم استأجر منه بيته الكائن في طريق الحمّام النّبوي، بالقرب من المسجد وانتقل إليه ثم طلب محلاً

لخلوته في الحرم الشريف؛ فهيّأ له السيد أحمد أسعد أفندي محلاً لصيقاً بجدار المسجد وهو في الأصل بيت سيدنا أبي بكر الصِّديق ،رضي الله عنه، وله خوخة في المسجد، وهي التي قال فيها صلىّ الله عليه وسلم:"كل خوخة في المسجد تسدُّ إلاّ خوخة أبي بكر". فانقطع الأمير في ذلك المحل المبارك مدّة شهرين. فقويت بها معارفه ، وزكت عوارفه، وانكشفت له الحقائق القرآنية والأحاديث النّبوية. ومن طالع مواقفه في الحقائق وقف على ما أشرنا إليه، واطّلع على ما لا مزيد عليه. ولأوّل وصوله إلى المدينة المطهّرة مدحه بعض أدبائها بقوله:

بشرى لطيبة بالهمام الزائر | أكرم به من ليث غابٍ زائر
وافى حماها وهي في شوقٍ له | من بعد طول تباعدٍ وتهاجر
فتمايلت أعطافها لوصوله | فرحاً ونوَّر كلُّ روض ناضر
وبوطئه شرفت رحارحها كما | شرُفت بجدِّه في الزمان الغابر
وتأرّجت أرجاؤها من طِيبه الـ | ـزكيِّ وعرف شذا يديه العاطر
وغدا لسان الحال ينشد قائلاً | أهلاً بمن هو ليث غابٍ كاسر
فلطالما قد كنتُ في شوقٍ إلى | رؤيا جمالك أن يلوح لناظر
فالآن منِّي العين قد قرّت كما | بإيابه قرَّت عيون مسافر
وبقدرة المنّان زاد تشرُّفي | إذ حلَّ سوحي الشَّهمُ عبد القادر
نجل الفحول ابن البتول خلاصة الـ | أشراف بل شبل الرسول الطاهر
حبر كسي خير الفضائل والتقى | عطف الخبير بكلِّ فنٍّ ماهر
وروى أحاديث المفاخر والمعا | لي مسلسلاتٍ كابراً عن كابر
بحرٌ من الإحسان يقذف جوهراً | لعافته لكن بغير تفاخر
شهم تقضّى منه شرخ شبابه | في نصرة الدِّين الحنيفي الزاهر

وأقـام أحقابـاً بـصهوة سابحٍ يرمي الطغاة بـصاعقات بـواتر
وجفـا عـشائره وفـارق ربعـه طلبـاً لمرضـاة المليـك الغـافر
نـال المعـالي بـالعوالي والظبـا فلذا لـه خـضعت رقـاب الكـافر
ولكـم بـصارمه أبـاد كتائبـاً ذهبت هباءً مثل أمسِ الـدَّابر
إن أضـحك البيض الرهـاف بكفّه بكت الرقاب نجيـع دمـعٍ هـامر
وإذا انتضى يـوم الكريهـة عـضبه سجدت لـه قمـم الظلـوم الجـائر
بطلٌ إذا لمس القنـا في جحفـلٍ طـارت جناحـاهُ بـدون تـشاور
وإذا أحسَّ الجيش رجـع زئيره بلغت قلـوب سـراته بحنـاجر
والليثُ إن يسمع صـهيل جـواده يغدو بقلـبٍ في جنـاحي طـائر
وحـسامه إن لاح بـرق فرنـده بغمـام نقـعٍ فـرّ قلـب الغـادر
يلـج الخمـيس بـصافن وبعامـل فيعـود يقـسم خمـسه لعـساكر
يلقى الكماة الصيد فـرداً في الوغـا فـيردّ وردهـم بـدون مـصادر
ويداه إن هـزّت أنابيـب القنـا قطعت قلوباً في صـدور قـساور
ألفتـه عقبـان الفـلا ونـسوره مـذ أبـصروه بكـلِّ نقـع ثـائر
أنّى يـسير تـسير كمـا تبتغـي عـاداتهن بـشلو علـجٍ كاشـر
وثعالـب الخطـيّ بعـد أوامهـا وردت حياض طلى العدوِّ الفـاجر
مـولاي إنـي في الثنـاء مقـصِّر أنّى لمثلـي غـوص بحـر زاخـر
وبحلبـة الأدبـاءِ يـوم رهـانهم لستُ المجلّي بل ولستُ بـشاعر
لكن قـصدي مـن جنابـك دعـوةٌ بصلاح حـالي جنح ليل عـاكر
من لـي وفضلك كيـف أحصي عدّه وصفات ذاتك مـا لهـا مـن حاصر
أنـت المجـدِّد للبريّـة ديـنهم بالكتـب والـسيف الطريـر البـاتر
لو جئت في العُصُر الغـوابر في الـورى لم تلقَ منهم غـير شـهم ناصـر
لكـن عـصرك قـد تـأخَّر وقتـه وأتى مجيئـك في الزمـان الآخـر

فالصبر أفضل ما يكون لـذي النهـى وكفى الكتـاب مبـشّراً للـصّابر
فاشكر إلهك أن حبـاك بـزورةٍ لخاتم رسل الله أفـضل شـاكر
والسعد قـد وافـى حمـاك مهنّئـاً لـك بالوصـول إلى الـنبيّ العـاطر
وأتى القبول إليك منه مؤرّخـاً بشراك أنت أعزّ حِبّ زائـــر

واستمرَّ الأمير مدمناً على أداء وظيفة أوراده في الخلوة والجلوة. لم يلحقه في ذلك فتور. وفي الشهر الأخير من إقامته في المدينة المنوَّرة كان يكثر من زيارة أُحُد وقبور الشهداء والصلاة في مسجد قبا، ويجيب من دعاه إلى الضيافة. فكان أهل المدينة يتسابقون إلى ذلك، وأكثرهم فيه السيد أحمد أفندي أسعد وأقاربه. ودعي يوماً، إلى البستان، المعروف بالقائم في قبا، أيام الزهر. وكانت المأدبة حافلةً، والمجلس مشمولاً بأنواع الطيب، فأنشأ الأمير يقول:

بخّر بعود الطيب لا زلت طيِّبـاً ورشّ بمـاء الزهـر يـا خلّـي والـورد
وما بغـيتي هذا ولكـن تفاؤُلاً بعُـودٍ إلى عَـوْدٍ ووَرد إلى وِرد

ودعي إليه مرة أخرى، فحانت منه التفاتة إلى جبل أُحد فأطرق ساعةً ثم رفع رأسه وأنشأ يقول:

تذكّرتُ وشكَ الـبين قبـل حلولـه فجادت عيوني بالدموع علـى الخـدّ
وفي القلب نـيرانٌ تـأجّج حرُّهـا سرتْ في عظامي ثم سارت إلى جلدي
ومـالي نفـس تـستطيع فـراقهم فيا ليت قبـل الـبين سـارت إلى اللحـد
إلى الله أشكو ما أُلاقي مـن الجـوى وحملـي ثقيـلٌ لا تقـوم بـه الأيـدي
بطيبة طاب العـيش ثـمَّ تمرمـرت حلاوته فالنّحس أربى علـى الـسّعد
أردِّدُ طـرفي بـين وادي عقيقهـا وبين قباهـا ثـم ألـوي إلى أُحـد
منازلَ من أهواه طفلاً ويافعـــاً وكهلاً إلى إن صرت بالشّيب في بـرد

وفي مدّة إقامته في الحجاز، توفّيَ ملك اليونان الأسبق، وانعقد مجلس نوّاب الأمّة اليونانيَّة في أثينا للنَّظر فيمن يولُّونهُ عليهم ملكاً. فكتبوا اسم الأمير في المنتخبين لذلك ونادى كثيرٌ منهم باسمه.

وأهل إسبانيا قد انتخبوه في جملة من انتخبوهم، للملك عليهم حين وقوعِ الفتنةِ بينهم، قبل أن يتولّى ملكهم المتوفى أخيراً.

فتشكّرَ الأمير للأمّتين على اعتبارهما لمقامه، بما دلَّ على ما تكنّه صدورهم من احترامه وإعظامه.

ذكر رجوع الأمير إلى مكة ثم إلى دمشق الشّام

ولّما حضر الرَّكبُ الشّاميُّ إلى المدينة المنوَّرة، توجَّهَ فيه عائداً إلى مكَّةَ في السابعِ والعشرينَ من ذي القعدة. وأحرم بالحجِّ من ذي الحليفة. وبعد الفراغ من أداء مناسك الحجِّ وطواف الوداع، توجَّه الأمير إلى جدَّة في الرَّابع عشر من ذي الحجَّة. وفي التَّاسع عشر، ركب الوابور المصريّ إلى السُّويس ومنها إلى مصرَ. فأجلَّ مقامَه خديويّها، إسماعيل باشا، وأجزلَ من ضيافته، وأكرمهُ ثم دعته شركة السُّويس إلى الإسماعيلية. فتوجَّه إليها على طريق الزقاريق ومرَّ على التلِّ الكبير ثمَّ على بوبلح الذي أهدته إليه المذكورة. فرآه واستوعب حدوده ثمَّ توجَّه إلى الإسماعيليَّة وأقام أيَّاماً في ضيافةِ الشَّركة ثمَّ رجع إلى مصرَ وتوجَّه إلى الإسكندريَّة. وبعد خمسة أيَّامٍ مِن وصوله إليها، توجَّه إلى بيروت. وفي التَّاسع عشر مِنَ المحرَّم سنةَ اثنين وثمانين

ومائتين وألف 1280، وصل إلى دمشق واستقبله في جمٌّ غفيرٍ منَ الأهالي والمهاجرين في محطَّة الهامة. وقرَّت عيوننا برؤيته، وامتلأت صدورنا سروراً بمشاهدته، وتوالت علينا وعلى كافَّة المهاجرين الأفراح، وزالت عنَّا وعنهم،بوجوده، الهموم والأتراح. وتواردَ على بابه أهل البلد على اختلافِ طبقاتهم، يسلِّمون عليه، ويهنِّئونه بما أسداهُ الله من النِّعم إليه. فكان يقابلهم بما جبله الله عليه من الأنس واللُّطف ولين الجانب... ورفع إليه حضرة العالم العلاَّمة الحبرُ البحرُ الفهَّامة، شيخنا الشيخ محمَّد أفندي الطَّندتائي الأزهري، قصيدة يهنِّئه فيها بحجٍّ بيتِ الله الحرام، وزيارة نبيه الكريم عليه أفضل الصَّلاة وأكملُ السَّلام، وهي قوله:

يـا سـيِّداً فـاق الـورى ... بمـا حبـاه ذو الجـلال
مِـن همـمٍ عاليـةٍ ... تـدركُ صـغراها الجبـال
حتَّـى تجـاوزتِ الـسّها ... مِـن بـين أربـابِ الكمـال
فخـضتَ بحـراً دونـه ... قـد أحجمـت همـمٌ عـوال
في طلـب الأخـرى ولم ... تنظـر لجـاهٍ أو لمـال
فكـم هجـرتَ مـضجعاً ... وكـم سـهرت مِـن ليـال
وكـم تركـتَ لـذَّةً ... مـع رغبـةٍ وصـدق حـال
وكـم بـذلتَ مهجـةً ... حتَّـى ظفـرتَ بالوصـال
ونلـتَ أعلـى رتبـةٍ ... ممَّـا ينالـه الرِّجـال
وقـد شـفيت غلَّـةً ... مِـن ذلـك الـورد الـزّلال
أعظـم بهـا مـن نعمـةٍ ... لم ينلـها ذو دلال

وكيف لا وأنت نجل المصطفى مِن خير آل
مع الذي حويتَ من شرف المزايا والخصال
علمٌ وحلمٌ وندا والمنطق السِّحر الحلال
ولطف زهدٍ وتقى بشاشةٌ مع الجمال
شجاعةٌ تواضعٌ وفاءُ وعدٍ صدقُ قال
محاسنٌ جميعها يفوق عدَّها الرِّمال
فمن أراد حصرها فقد تصدَّى للمحال
بشراكم قد قبلت أعمالكم على الكمال
فالحجُّ حقاً سالم مِن رفثٍ ومن جدال
والقصد وجهُ الله وال مال أتى من الحلال
والمصطفى جدُّكم ولا يردُّ الجدُّ آل
يا أيُّها الحبر الذي حويت هاتيك الخصال
أبقاك ربِّي ملجأً إلى النِّساءِ والرِّجال
ممتّعاً منعَّماً بما حباك ذو الجلال

وللأديب سليمان الصّولة يهنِّئه بالقدوم بقوله:

حتَّى الطّلا شهدت أنَّ اللَّما عذب فكيف أينع فيه اللُّؤلؤُ الرّطب
وكيف جاوره جمرٌ فأثلجه وما تعاوره مِن برده عطب
واحرَّ قلباه... من نار يؤجِّجها بردُ الرّضاب ولم يفتر لها لهب
بي ظمأةٌ وبها أيامي سارية ألا تبلُّ فؤاداً ساءه اللغب
مَن لي بعانسة في فيك يدخرها بين المراشف هذا المبسم العذب
بحقٍّ معطيك هذا الحسن لا تسبي منها حشاشة صبّ كلّه وصب
يميته الشوق أحياناً وينشره فكم يموت ويحيى وهو مضطرب

قد هزّني الضرّ يا ليلى وعاذلتي تقول يا ويلها قد هزّه الطرب
وعاورتني همومٌ خفّضت هممي لا ترفع الذلّ رأسي حين ينتصب
جودي بوصلك لي والمهر يا أملي العقل والروح لا ورق ولا ذهب
لم يبقَ لي نشب أما إذا رجع ال مولى فعندك منّي المال والنشب
حبرٌ بدعوته الأوزار تنقضب ومِن سماحته الأمطار تنجذب
تهزّ نفحة أشعاري مناكبه كما يهزُّ قناة الفيلق اللّجب
لذاك والله خير الناس قاطبةً وجوده فوق ما جادت به السحب
كأنّ عيني به والحيّ مبتهجٌ يزهو بطلعته لا ساءها صخب
يقلّه فرسٌ مِن فوقه أسدٌ في وجهه قمر في كفّه يَلَب
إن صال قطّع أوصال الرجال وإن جال استطال عليها الويل والحرب
يا قاصد البيت لو لم تأتِ حجرته سعى إليك كما تسعى إليه العرب
أنت ابن "يس" بيت الله يعرفكم يا آل "يس" فيكم جاءت الكتب
لم يبق جودك لي في المال مِن أربٍ فدعوة تتحاماني بها النوب
عوّدتني الخير في حلٍّ وفي سفرٍ كالغيث ينهله دانٍ ومغترب
أنت الذي تقبل الدنيا بدعوته تقبّل الله ما يولي وما يهَب
عسى يبدّل إعساري بميسرةٍ ويصلح الله أيامي فتنقلب
زُرْ حجّ طف واعتمر وارم الجمار على قلب الحسود وعد لا فاتك الأرب
لازلت أفضل مَن حجُّوا وأورع مَن لبوا على عرفات المجد واقتربوا

وكتب الأمير إلى ابن عمنا الفاضل، الناظم، الثائر، السيد الطيِّب ابن المختار يخبره بما أسنى الله له مِن الفتح المبين والحصول على التمكين. فأجابه بقوله:

الحمد لله الذي بحمده تفتح الأمور، وهو الفتّاح العليم، والصلاة والسلام على سيِّدنا محمد، صاحب الخلق العظيم والكرم العميم وعلى آله وصحابته، ذوي الشرف الباذج، والفخر الصميم.

يا قادماً عمَّت الدنيا بشائره   أبشر بمقدمك الميمون طائره
قدمت والخلق في نعمى وفي جذل   أبدى بك البشر باديه وحاضره
أمارة الدين والعلم الذي رفعت   أعلامه والندى الفياض زاخره

الإمارة التي أشرق في سماء العدل شهابها، واتصلت بأسباب المجد أسبابها وأجيلت قداح المفاخر، فكان إلى جهة الله انتدابها، واشتملت على العفاف والطهارة أثوابها. المناضل، عن مرضاة الله، أصيلٌ فخرُه، المتّسم بالمرابط المجاهد على اقتبال سنّته وجدّة عمره، مخدوم الملوك على شدة بأسها ومعظّمها على اختلاف أجناسها.

ملكٌ تتوّج بالمهابة عندما   لم يستجز في الدين لبس التاج
ماضي العزيمة والسيوف كليلة   طلق المحيا والخطوب رواج

سيّدنا ووسيلتنا إلى ربّ العالمين، مولانا عبد القادر، ابن شيخ الإسلام وقدوة الأنام، مولانا محيي الدين، رزقكم الله تأييداً تبدي له الجياد الجرد والرماح الملد ارتياحاً، واهتزازاً، وعزاً، يطأ من أكناف البسيطة وأرجائها المحيطة سهلاً، وإعزازا، ويمناً، يشمل من بلاد الله أقطاراً نازحةً ويعمّ أحوازاً ومجداً يجوب الآفاق جوب المثل السائر عراقاً وحجازاً.

لازلت ترقى وترقى في العلا أبداً   ما دام للسبعة الأفلاك أحكام

وسلامٌ كريمٌ، طيب عميمٌ، ختامه مسكٌ، ومزاجه تسنيمٌ على ذلك الجناب الرفيع الظاهر في أقصى المغارب والمشارق في زيٍّ بديع مِن عبدٍ أقعدته ذنوبه وأبعدته عن حضرتكم عيوبه.

صبٌ يحثُّ مطاياه بذكركم فليس ينساكم إن حلّ أو سارا
لكنَّها حادثات الدهر تمنعه وقد أقامت له الأيام أعذارا

وبعد، فإن كتابكم الصادر من طابه، المشحون بالألفاظ العذبة المستطابة، المشرق شمساً في سماء الفصاحة والبلاغة، المنسبك تبراً في صناعة الصياغة، المبدي لنظّاره دلائل الإعجاز، المظهر بلطافته عين الحقيقة في خيال المجاز، قد وافانا ونحن في غاية الارتقاب لما يصل إلينا مِن ذلك الجناب. فعظم موقعه مِن نفوسنا وقبَّلناه إجلالاً، ووضعناه فوق رؤوسنا، وأنشدنا عند إزالة اللثام وفضِّ الختام لشبه الحال بالحال، قول أبي تمام:

فضضتُ ختامه فتبلّجت لي غرائبه عن الخبر الجليّ
وكان أغضّ في عيني وأندى على كبدي مِن الزهر الجنيّ
وأحسن موقعاً منِّي وعندي مِن البشرى أتت بعد النعيّ
وضمّن صدره ما لم تضمّن صدور الغانيات مِن الحليّ
فكائن فيه مِن معنًى خطيرٍ وكائن فيه مِن لفظٍ بهيّ
رسالة من تمتّع منذ حينٍ ومتَّعني مِن الأدب الشهيّ

ثم تتبعنا غرائبه وأسطاره، وحللنا تراكيبه وأشطاره، وأقمنا بواجبه القيام الحسن، واحتفلنا به احتفال المأمون ببنت الحسن. فتساقط

علينا رطباً جنياً، وهمى ودقُه على الربيع من أفكارنا وسمياً، فجاد وأورى، وأجاد فيما روى، وأحيا مِن القريحة ميتاً كان حديثاً يروى.

ستكشف مِن سرّ الكتائب مثل ما رأيناك عن سرّ البلاغة تكشف

فو الله، لقد سرت معانيه في الجسد روحاً، وأشرقت في سويداء الفوائد بوحاً. وما عسى أن نقول وما هو إلا لطافة نسيم، أو سلافة نديم. فلذا، سكر كلّ رقيق طمع برحيقه وشكر، وآمن برسالة محمد ولو أنه المتنبِّي وما كفر. فتلقّينا منه حقيقة الحال بعد الالتباس، وأخذنا وجه الخبر مِن نصّه المغني عن القياس. فاستفدنا منه ما حصل لكم مِن النعم الوافية، والاستمدادات الكافية، زيادةً على ما لديكم مِن المواهب وتكملةً لأعلى المراتب وأسنى المطالب، وأنّكم لازلتم متردِّدين بين مكّة والطائف وطيبة ذات المحاسن واللطائف، آونةً في حرم الله وآونةٍ في حرم رسول الله.

ربوعٍ بها تتلو ملائكة العلى أفانين وحيٍ بين ذكرٍ وقرآن
وعرّس فيها للنبوة موكبٌ هو البحر طامٍ بين هضب لجانِ
مطالع آمالٍ مثابة رحمةٍ معاهد أملاكٍ مظاهر أعيان

وإنّك طالما وردت مِن تلك الحياض ومتّعت ناظرك في تيك الرياض، لنفحاتها متنسِّما ولسكانها مقبلاً ومعظماً، وأنت سامعٌ بالأحبّة وبالمحبوب راض، وجدير كما قال القاضي، أبو الفضل عياض، لمواطن عمِّرت بالفضل والتنزيل وتردّد فيها جبريل وميكائيل، وعرجت منها الملائكة والروح، وضجت عرصاتها بالتقديس والتسبيح،

واشتملت تربتها على جسدِ سيِّد البشرن وانتشر فيها من دين الله وسنة رسول الله ما انتشر: مدارس آيات ومساجد وصلوات، مشاهد الفضل والخيرات، ومنبع البراهين والمعجزات ومناسك الدين، ومشاعر المسلمين، ومواقف سيِّد المرسلين، ومتبوّأ خاتم النبيّين. ومنها انفجرت النبوّة بدين فاض عبابها، ومواطن مهبط الرسالة وأوّل أرضٍ مسّ جلد المصطفى ترابها، جديرة بأن تعظّم عرصاتها وتتنسّم نفحاتها وتقبّل ربوعها وجدرانها.

يحـقّ علينـا ركـوب البحـار وجـوب القفـار إليهـا ابتـدارا
فيـا فـوز مَـن فـاز في طيبـةٍ بلـثم المغـاني جـداراً جـدارا
وألـصق خـداً علـى تربتهـا وأكمـل حجـاً بهـا واعتمـارا
وأهدى السلام لخير الأنـام على حين وافى عليـه مـزارا

مثلي، إذا سارت الركاب، تعلّق بالأسباب وأنشد ممتثلاً، وعلى النيَّة الصادقة ،إن شاء الله تعالى، معوّلاً.

يا سائرين إلى المختـار مـن مضرٍ سرتم جسوماً وسـرنا نحـن أرواحـا
إنَّا أقمنا على عجزٍ وعن قدرٍ ومَن أقام على عجزٍ كمن راحـا

والحقّ: أن الحازم مَن أخذ على كل حال بقول حازم في تصدير إعجاز لامية الضليل، مخرجاً لها عن ذلك السبيل.

وفي طيبـةٍ فـانزل ولا تغـش منـزلاً "بسقط اللوى بين الدخول فحومـل"
وزرْ روضةً قـد طالمـا طـابَ نـشرُها "لما نسجتها مِن جنـوبٍ وشمـأل"
وأثوابـك اخلـع محرمـاً ومـصدقاً "لـدى الـستر إلا لبـسة المتفـضل"
لدى كعبةٍ قد فاض دمعي لبعدهـا "على النحر حتى بلّ دمعي محملي"

ومثلكم مَن يراعي أمر الله حقّ الرعاية، ويجري في معاملاته على ما أسّس مِن حسن البداية. فقد انقطع ،والحمد لله، رجاء الحاسد، وسلم المعاند، وتساوي في ذلك الغائب والشاهد، وأقرّ بفضل الله الجاحد.

ومليحةٍ شهدت لها ضرّاتها والحسن ما شهدت به الأعداء

فأنّى يجاري الضحضاح قاموساً أو يباري السحرة عصا موسى. فليتطاول المتطاول، وليساجل الساجل. فالكلُّ ، دون تلك الغاية، وقف وشهد بالعجز عن إدراك ذلك الشأوِ واعترف، وبان الانفراد بالفضل، وظهر، وانتشر الاختصاص بالمجد انتشار الغزالة، واشتهر، وسدّ الحال في ذلك مسدّ الخبر.

فالوصف أغنى وما أغنت شهادتهم لكنّها زادت التبيان تبيانا

فهنيئاً لك ثالث العمرين، الجامع بين فضيلتي عالم المدينة وعابد الحرمين، ذلك الشرف الصميم، والفخر العميم، والفوز العظيم، وعمل سلفك القديم. فكم مفازةٍ في أرض الله عبروها، ومدارس ببثّ قواعد الدين عمروها، أنسابٌ طاهرة، وعلومٌ فاخرة، وأيادٍ غامرة، وسيوف للأعادي قاهرة، ووجوه ناظرة إلى ربّها ناظرة.

لا ينتهي نظري منهم إلى رتبٍ في المجد إلاّ ولاحت فوقها رتب

فكم أنعشوا مِن أرماق، وفكّوا من وثاق، ودرّوا على الخلقِ من أرزاق، بهذا أقرّت لهم البريّة وشهدت وما قلت إلاّ بالذي علمت. فما هي ،والله، إلاّ طريقتهم المثلى سلكت، وشمائلهم الفضلى ورثت

فملكت. وقد أشار العبد إلى هذا في القديم وسبق قوله فيه. وإن كان ،لجهله بقواعد القريض، غير مستقيم.

شيمٌ يهزُّ الراسيات سماعها ويجرُّ في أنف الزمان غوال
أوصاف والدك الإمام المرتضى للدين والدنيا بحسن خلال
لك فيهم الفخر الكبير وإن يكن لك في العلى نسج على منوال
كلُّ الكمال لهم وأنت مقرّه والفرع عين الأصل عند مآل

هذا وقد بلغنا عن ألسنة الوافدين من الحضرة الحجازيّة والديار التهاميّة أنك اجتمعت في سفرك هذا بشيخٍ عارف أخذت منه. فما كدت أصدّق فيما سمعت، بعد أن علمتُ ،مِن فضل الله، الذي لديكم، ما علمت. ولقوّة اعتقادي فيك وحصول العلم الذي لا يقبل التشكيك، فقد جلتُ في مغارب الأرض ومشارقها وسبرتُ الرجال وكشفتُ عن حقائقها، وجالستُ ،بقصد الاستفادة، علماءها. وجالستُ ،برسم التّبرك، شيوخ الطريقة وكبراءَها. فلا بحر إلاّ ورفعتُ شراعه، ولا برّ إلاّ وطئت ،كما هو في علمك، ذراعه. فحصل لي من أنواع الاغتراب ومشاقّ السفر ما لا أصفه من العناء، ثم رجعتُ ،وأنا بعد ذلك كلّه، فما رأيتُ مِن ذهب بظاهره مع الشريعة ووقف بباطنه مع الحقيقة مثلك، ولا مَن تعرّف مِن صدور الكراسي والمنابر، وألسنة الأقلام وأفواه المحابر معرفتك. فمقامك مقام عارفٍ، لا مقام مريدٍ. ومثلك مَن يفيد لا مَن يستفيد، وإن كان، فمن عجائب الدهر، ومِن باب يوجد في النهر ما لايوجد في البحر. وسبيل المزيّة تكون في المفضول دون الفاضل. وشاهد ذلك

كلّه حديث "ما المسؤول بأعلم مِن السائل". أقول هذا والحقّ أن طريقة التسليم أسلم. ففي صنع الله ما لا أدري، وفي علمه ما لا أعلم والآن سيدي، لحجٌ مبرورٍ، وعملٍ مقبولٍ، وسعيٍ مشكور، فاهنأ. أميرَ الواصلين لأمّةٍ أفواههم ما إن بغيرك تنطق هذا ولا زائد ،بحمد الله تعالى، سوى ما عندنا لكم مِن الصنائع التي تشام بوارق التشييع مِن خلالها وتدلّ مخائل بدايتها على حسن مآلها والودّ الذي يجلّ موقعه في النفوس وتضيق على حمل بعضه هذه الطروس.

فلا تنسني مِن أهل ودّك إنني أخاف الليالي أن تطول فتنساني

وقد اقتضى المقام ختم هذه الرسالة بقول ابن خاتمة ختم الله لنا ولكم بحسن الخاتمة، ومثل ذلك ممّا يرتاح له اللبيب ويستحسنه الأديب وللأرض مِن الكرام نصيب مع ما في ذلك مِن وضع النقل في محلّه بلا مرا ومطابقة الحديث لأصله كما ترى.

قدمت بما سرّ النفوس اجتلاؤُه فهنّئت ما عمَّ الجميع هناؤُه
قدوماً بخير وافره وعنايةٍ وعزٍّ مشيدٍ بالمعالي بناؤُه
ورفعة قدرٍ لا تداني محلّها رفيعٌ وإن ضاهى السماء اعتلاؤُه
عنيت بأمر المسلمين فكلّهم بما ترتجيه قد توالى دعاؤُه
بلغت الذي أمّلته مِن صلاحهم فأدركتَ مأمولاً عظيماً جزاؤُه
فيا واحداً أغنت عن الجمع ذاتُه وقام بأعباءِ الأمور غناؤُه
بقيتَ وصنع الله يدني لك المنى ويوليك مِن مصنوعهِ ما تشاؤُه

هذا ما سمحت به الفكرة التي ركضها الدهر، فأضناها واستشفّها الحادث الجلل، وتقصّاها. والمرجو من المخدوم للخادم العفو عمّا هو من عثرات القلم لازم. فالقلب بلوع الشوق مشغول، والفكر بترادف الأهوال مشغول، والعذر عند خيار الناس ،أمثالكم، مقبول؛ وإلاّ فلسان الشكر،وإن طال، قصير، وتحرير جميل المحامد، وإن حصل الإطناب فيه، يسير، والله لو جاز أن تسافر نفسٌ عن إنسانها أو ترحل عينٌ عن إنسانها، لكنتُ أوّل من سبق الكتاب بنفسه لتفوز العين بمشاهدة جمالكم المزري ببدر الأفق وشمسه. وما كان المملوك يختار المخاطبة بالقلم عن المشافهة بالفم، لكن لا حيلةَ مع المقدور والله مسيِّر الأمور. ودمتم سيدي في عزٍّ وأمان، ما استجدّ الجديدان.

كتبه ،عن ودٍّ صادق، وقلبٍ بشدّة الأشواق خافق، تلميذكم المفتخر بالانتساب إليكم أيَّ افتخارٍ، محلّكم الطيب بن المختار، أصلح الله أحواله وأجرى ،على وفق الشريعة المطهّرة، أقواله وأفعاله، وصلّى على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلّم تسليماً.

ما نمّق المشتاق طرس رسالةٍ بحديث أشواقٍ وبثّ غرام

حّرر في ربيع الثاني سنة إحدى وثمانين ومائتين وألف 1281"

ولما وصل الأمير إلى دمشق، توالت عليه مكاتيب أهل مكّة المشرّفة والمدينة المنوّرة يتأسّفون على فراقه وبعده عنهم، ومن جملتهم، شيخ الخطباءِ في طيبة، السيد محمد مدني. فأجابه الأمير بقوله:

"الحمد لله، حقّ حمده والصلاة والسلام على سيّدنا محمد رسوله وعبده وعلى آله وصحبه وجنده وجيران مضجعه الشريف ولحده.

أما بعد، فإني أهدي لحضرة المحبّ الأوفى، المصافي الأصفى، ذي الفضائل الجميلة، والفواضل، نخبة الكرم الأماثل.. السيد محمد مدني، شيخ الخطباءِ وتاج الأدباء، أوفى تسليماتٍ وأزكى تحيّات وأنمى بركات ألطف من النسيم وأعذب ،على كبد المحبٍ، من التسنيم.

هذا وإنه بلغنا عزيز كتابكم وانتعشت الروح بلذيذ خطابكم، واشتفينا بوروده، وبرَّد غليل الشوق بعذب موروده، واتّقينا حرّ النوى بحواشي بروده. فإنّه أظهر ما لنا عندكم من رعي الذمام وأعرب وأتى بالسحر الحلال وأعذب.

كتاب كوشي الروض خطّت يد ابن هلالٍ عن فم ابن هلالِ

وإنّا لهاتيك الحضرة الشريفة وجيرانها، والمعاهد المنيفة، وسكانها لفي أعظم أشواق، وفيض آماق، وتمنيّ عودٍ وتلاق، وما عسى يغني عنّا تعليل النفس بالتلاقي وكادت الروح تبلغ التراقي.

بعــدُ المــزار ولوعــةُ الأشــواق حكمـا بفـيض مـدامع الآمـاق

أمعلّلي أنّ التواصل في غـــدٍ مَن ذا الذي لغدٍ فديتك باقــي

ولطالما أردنا ترويح النفس بتذكار أيام الوصل واجتماع الشمل، فيشتد قلقها ويزيد أرقها.

وقفنــا ســاعةً ثــم افترقنــا ومـا يغـني المشوقَ وقـوفُ سـاعة

كأن الشمل لم يكُ ذا اجتماع إذا ما البين شتّت بالجماعـة

فالقلب عندكم مقيم والجسم في عذاب أليم إذ المراقبة مع المباينة ليست كالمشاهدة والمعاينة.

لئن أصبحت مرتحلاً بجسمي فروحي عندكم أبداً مقيم
ولكن للعيان لطيفُ معنى لذا سأل المعاينة الكليم

وإنكم بشّرتمونا بأنكم نائبون عنّا في تقبيل تلك العتبات، ومعتكفون على الدعاء لنا واستجلاب الرحمات. فجزاكم الله عنا أفضل الجزاء ووفّر حظكم بين الحظوظ والأجزاء وكافّة الأحباب. لازلتم محفوظين، بعناية الحفيظ الوهاب.

ذكر توجه الأمير إلى الأستانة
ثم إلى باريس ورجوعه إلى الشام

ولما رجع الأمير من الرحلة الحجازية، تعلّقت همّته بزيارة حضرة السلطان الغازي، عبد العزيز خان. وفي السابع والعشرين من ذي القعدة سنة مائتين وإحدى وثمانين ومائتين وألف(1281) والثاني والعشرين من نيسان سنة خمس وستين وثمانمائة وألف (1865)، توجّه إلى بيروت، ومنها إلى الأستانة. فأكرمت الدولة العليّة نزله، وأظهرت من الاحتفال به أكمله، ومن الإكرام أجزله. وعند وصوله، تلقّاه مأمور التشريفات في البابور. وبعد أداء ما يليق، نزل به إلى البرّ، فسار في جماعته، بالعربات المهيّأة لركوبه، إلى المحلّ الذي أعدّته الدّولة

لتروله؛ ثم جاء الوكلاء والوزراء والأعيان وسفراء الدول للسلام عليه.

وكان أحضر معه، من الشام، ثلاثةً من جياد الخيل العربيّة. فحصل تقديمها وحازت القبول ثم تعطّفت الحضرة السلطانية؛ فأرسلت إليه تدعوه إلى الحضور. وكانت المقابلة على غاية ما يكون من الأنس والمجاملة. وظهر له من اللطف الملوكاني ما أطلق منه اللسان بالشكر له على ما أولاه من الإحسان. ثم أخذ الأمير في ردّ زيارات الوزراء وأرباب الدولة وسفراء الدول.. وغيرهم من الأعيان.

وزار الخرقة الشريفة. وأنعم السلطان عليه بالنيشان العثماني من الرتبة الأولى. جاء إليه به الصدر الأعظم، فؤاد باشا. ثم أنعم السلطان عليَّ وعلى الإخوة برتبٍ ونياشين، وعيّنت له الدولة وابوراً صغيراً للتنزّه في البوغاز، وعرباتٍ يركبها أين أراد. واحتفل الصدر الأعظم لضيافته احتفالاً ملوكياً، ودعاه الشريف عبد المطّلب، ثم تتابعت الضيافات والمآدب.

وفي ليلة الجلوس السلطاني، دعاه فؤاد باشا، إلى حضور الاحتفال في مترله. ومن عناية السلطان به، وحسن التفاته إليه ما ترك له حاجةً رفعها إلى أعتابه إلاّ أمر بقضائها على أكمل الوجوه. وفي جملتها، شفاعته في أعيان دمشق الذين حكمت الدولة عليهم بالنفي

في حادثة دمشق، ونفوا إلى قبرص ورودس. وصدرت الإرادة السنيّة بتسريحهم ورجوعهم إلى أوطانهم. فقال في ذلك مفتي اللاذقية، السيد عبد الرزاق أفندي فتاحي الحسيني:

لازمـــة

سلّت لفتكي مِن الأحداق هنـدياً   خودٌ حكى قدّها بالميل خـطياً

دور

رشـيقة القـد بالأعطـاف تـسبيني   تسمو بطلعتهـا حـسناً علـى العـين
رضابها العذب منه الرشف يحييني   وقد دعاني بفرط الوجد مسمّيـا

دور

يابانة اللطف كـم ذا تهجـرين الـصبّ   مُنّي بطيب اللقا راعي حقوق الحـبّ
متى تجودين يا أخت المهى بالقرب   لمغرمٍ قد غدا بالشـوق مضنّيـا

دور

مالي إذا مـا جفـا الأحبـابُ أو بعـدوا   سوى الأمير الذي وافى بـه الرشـد
السيّد الشهم عبد القادر السنـد   مولى غدا مدحه في الكون عطرياً

دور

سليل ذي الفضل محيي الـدين والحـسن   في نـسبةٍ منتهاهـا صـاحب الـسنن
بـدر الجـزا من له وافى على سنن   غـدا به عند ربّ العـرش مرضياً

دور

في فتنـة الـشام كـم وفـى مـن الهمـم   حتـى حكـى صـنعه نـاراً علـى علـم
وقد حبته ملوكُ الأرض بالنعم   وللفخـار نياشيناً زهـت زيّا

دور

وقد أتمَّ صنيع الخير حيث سرى لباب سلطاننا الأسمى الرفيع ذرا
يرجوه إطلاق من في النفي فاعتبرا منه المقامَ وبالبشرى لهُ حيا

دور

وقد بلغنا جميعا غاية الأملِ بحسن إقدام هذا السيد البطلِ
مَن فاق فينا بحسن العلم والعملِ لازال دهراً مِن الأسواء محمّياً

ولهُ في ذلك أيضاً:

بشرى فقد نلنا المنى والغمّ زال والعنا

دور

الله عوّدنا الجميل من فيض إحسان جزيل
لا بدَّ للخطب الجليل من منحةٍ فيها الهنا

دور

كم شدَّةٍ ذاب الفؤاد منها وجافانا السهاد
قد حفّها لطفٌ فعاد فيها لنا يسرٌ دنا

دور

صبراً أخا العقل السليم وارضَ بتقدير الحكيم
فالله ذو الفضل العظيم بفضله قد عمّنا

دور

بالصبر قد حزنا الفرج وبه لنا فاح الأرج
والغمّ زال كذا الحرَج مع كلِّ كربٍ أحزنا

دور

قــد فــاز عبــد القــادر   ربُّ الكمــــال البـــاهر
بجـــزيلِ أجـــرٍ وافـــر   لمّا بـــذا الخيـــر اعتنى

دور

بــدر الجزائــر ذو العــلا   مَـــن فــاق قــدراً في المــلا
بحـــرٌ لـــواردٍ حـــلا   وفي العطـــا مـــولى الغنا

دور

ليــثُ الـوغى ربّ النـدا   سامي الذرى شمس الهـدى
أهـــل التـــقى نورٌ بدا   يمحو الدياجي بالسنـا

دور

في فتنـــة الــشام الــشريف   قد سكّن الخطـب المخيـف
بحـــزمهِ الـوافي المنيـــف   خـــفّ البلا عن قطـــرنا

دور

للوســـع أضـــحى بـــاذلاً   وقـــد رقـــى منـــازلاً
وله المـــلوك عاجـــلاً   أهدوا نـــياشيـن الثنـا

دور

ثـم انتـضى العـزم الـوفي   لـــردّ مَـــن منـــا نفـــي
فنحا حمى الليث الصفـــي   بـــدر المـــلوك عـــزّنا

دور

ســـلطاننا عبـــد العزيـــز   غوث المـلا الحـرز الحريـز
سامي الذرى الغوث المجيز   مَـــن بالمـــراد أمّـــدنا

دور

إلى حمـــــاه قـــــد ورد   قــد فــاز منــهُ بالمــدد
وأجابه فيــما قصــــد   وعفــا له عمَّــن جنــا

دور

وحبــاه نيــشان افتخــار   وأحلًّــــه أوج الوقــــار
فمــا له ذكــر وســـار   مع ما مِنَ الخير اقتنى

دور

نــدعوك ربَّ العــالمين   بالمــصطفى طــه الأمــين
أيِّــد أميــــر المؤمنــين   سلطاننا غوث الدُّنـــا

دور

واحفــظ لـــه أشــبالهُ   وامنحـــــهم إقبــاله
يسِّــــر لهُ آمــالــهُ   وافنــح لـهُ يا ربَّنـــا

وله أيضاً:

لئن أنكر الوغد اللئيم نائعاً   بدت بدمشق مِن أمير الجزار
فتلك لعمري سطَّرتها يد العلا   على جبهة الدنيا مدى دهر داهر

وبعد أن أقام الأمير في الأستانة شهرين، توجَّه في الخامسِ من صفر والثامن والعشرين من حزيران إلى فرنسا. وفي الثاني عشر من صفر، والخامس من تموز، دخل مرسيليا؛ فاستقبله حاكمها بالاحترام. واهتزَّت البلد بأهلها لقدومه.فإذا خرج من محلِّ نزوله، تبعته زمر الأهالي ينظرون إليه احتفالاً به واحتفاءً. وكانت جماعات كثيرة

تجتمع في ساحة الدار النازل فيها ويصرخون "فليعش الأمير عبد القادر." وبعد أن أقام أياماً، عزم على السفر إلى باريس، وعيَّن اليوم الذي يسافر فيه. ثم ظهر له في التأخُّر إلى اليوم الذي يليه. فاتَّفق أنّ قطار سكة الحديد في اليوم الذي عدل عن السفر فيه، صادمه قطار آخر ملاقياً له؛ فمات فيه نحو الخمسة عشر نفساً، وجرح كثيرون. فظهر من تأخّره؛ ما دلّ على عناية الله به ورعايته له. وفي ثاني ذلك اليوم، توجَّه إلى مدينة ليون الشهيرة، ومنها إلى باريس. فاستقبله أعيان الدولة، وخرج أهل باريس لرؤيته. وحصل في طرقاتها ،مع اتساعها، من شدة الازدحام ما لحق به الضرر للضعفاء والأولاد. وكان نزوله في المنتزه الذي أعدَّته الدولة له. وبعد أخذ الراحة، اجتمع بالإمبراطور نابليون الثالث. فرأى من أنسه ولين جانبه ما يعجز الواصف أن يصفه. واستمرَّ جلوسه عنده نحو الساعة، ثم اجتمع بوزراء الدولة وأمرائها وقادة الجيوش فمن دونهم من المأمورين، وكلّهم فرحون، مبتهجون بمشاهدته، معجبون بحسن مجالسته ولذيذ محادثته. وكان إذا خرج إلى محلٍّ، تسابقَ الناس إلى الطريق التي يسلكها. وكلَّما مرَّ بجماعةٍ يصرخونَ "ليعش الأمير عبد القادر". ودعاه سائر أمراء العائلة الإمبراطورية النابوليونية إلى منازلهم، واحتفلوا لضيافته بأنواع الزينة وغيرها من دواعي السرور. وفي العاشر من ربيع الأوّل، وأوّل أغسطوس، توجّه إلى لوندره. فاستقبله وزير الخارجية في جماعةٍ من الأعيان بالإعزاز والإعظام. وكانت

الملكة ووليّ العهد ،وقتئذ، في أطراف الجزيرة. وأظهر أهل لوندره السرور بوفادة الأمير إلى بلادهم، ولهجت به جرائدهم، وأطنبت في مدحه بما شاهده الأهالي من لطفه وكماله. وافتخرت بزيارته بلادهم على غيرها من مدن أوربا. وبعد أن أقام أربعة أيام رجع إلى باريس ثم توجَّه إلى سراية فرسالي؛ فجال فيها، وجاس خلال منازلها العظيمة، ونظر إلى محلٍّ فيه صور الحروب التي جرت بينه وبين جنود فرنسا. فتتبع بنظره تلك الصور؛ فرأى في جميعها نصرةَ الجيوش الفرنسوية وغلبتها، فالتفت إلى الجنرال، المحافظ على ذلك القصر وقال له: ولو لَمْ تثبتوا صور الحروب التي انهزمت فيها جيوشكم وكانت الدَّبْرَةُ فيها عليهم. فضحك الجنرال ومن كان حاضراً معه من الأعيان وأيَّدوا كلام الأمير وصوَّبوه. ثم نزل الأمير إلى الجنينة في ساحة السراية، وصلىَّ الظهر بمن معه من رفاقه، ثم ودَّع الجنرال وركب العربة المعدَّة له، وتوجَّه إلى غاية "بولونيا". وصلىَّ العصر بمرأى من جموع كثيرة اجتمعت لرؤيته. أخبرني بعض من كان حاضراً معه أن جميع من كان موجوداً في ذلك اليوم بتلك الغابة، من الفرنساويين وغيرهم، وقفوا صفوفاً، ينظرون إلى صلاته ويمدحونه على إظهار شعائر دينه. ثم قال: والحق يقال، إن منظر الأمير منتصباً للصلاة أمام الجميع، خاشعاً لحضرة الحق تعالى، لمن المناظر التي تتحرَّك بها القلوب وتصرفها إلى جانب الحقّ تعالى.

وبعد أن أتمّ صلاته، توجَّه إلى محلّ نزوله. واتخذت الحكومة على محلّ صلاته سياجاً من حديد، احتراماً له وهو موجود لهذا العهد.

ثم دعاه الإمبراطور إلى معسكر شالون ليحضر معه موسم عيده.

فأقام عنده يومين في إعزاز وإكرام، ثم رجع إلى باريس، وتوجَّه إلى برست، وحضر الاحتفال البحري. وكانت الدوارع الفرنساوية والانكليزية راسيةً في ميناء تلك البلدة. فجرى للأمير الاستقبال العجيب من الوزراء وقادة البوارج وضبّاطها، وضربوا له المدافع، وأجروا الحركات الحربيّة ولم يتركوا شيئاً مِن أنواع الزينة البحرية إلاّ أجروه، ثم رجع إلى باريس. وفي الثامن والعشرين من الشهر المذكور، ركب سكة الحديد إلى مدينة أمبواز، التي أقام فيها أسيراً أربع سنين. ولما وصل محطّتها، وجد جميع سكانها ينتظرون وصوله. فقابلوه بالفرح والسرور. ومشى، الأعيان والوجوه بين يديه، إلى محل نزوله. ثم قام أحد الأعيان وتلا خطبة مدح فيها الأمير. وفي اليوم الثاني، دعاه حاكم البلد إلى محلّه، واحتفل لضيافته باسم كافة أهل البلد. فكانت وليمةً شائقةً حافلةً، حضرها جميع وجوه المدينة وأعيانها. وتليت خطب التشكر للأمير والثناء الجميل عليه، حيث شرّف مدينتهم وراعى ما كانوا عليه أيام إقامته عندهم من الخلوص والمودّة له، ثم شيَّعوه إلى المحطة، مظهرين شعائر الأسف على سفره.

وأيام إقامته في باريس، دعي إلى منازل الوزراء ورجال الدولة والقسّيسين. وكان أكثرهم يطلبون منه أن يكتب لهم شيئاً يتذكّرونه

به. فكان يكتب لكل واحدٍ ما يناسب حاله ومقامه. فيكتب لهذا بيتَ شعرٍ في المدح، ولهذا في الموعضة، وللآخر حكمة من حكم الأقدمين. وهكذا... فكانوا لذلك من الشاكرين له، متعجبين من المناسبات التي يقفون على سرّها ويصلون بأفهامهم إلى المراد منها.

وفي أثناء المحادثة، كلّم الإمبراطور في شأن الشيخ شمويل الداغستاني بقوله:

" إن الناس، لمّا علموا شدَّة اعتنائهم بشؤوني وحسن التفاتكم إليّ، صاروا يتعلّقون بي في مصالحهم الجسيمة. وهذا الإمام شمويل، المحبوس عند ملك الروس، قد كتب إليّ مراراً، لمّا كنت بالشام، وفي مكة المكرمة، يريد منيِّ السعي بهمّتكم في خلاصه إلى بلاد الإسلام. والآن، أرسل إليَّ رسولاً مخصوصاً لهذا الأمر، وقال إن عمره قارب السبعين. فهو يحبُّ أن يموت عند المسلمين. ولما كنت في الأستانة، تذاكرت مع سفير روسيا أن يطلقه من حبسه إلى مكة، وأن الملك أجابه بأن يصبر إلى نهاية الحرب في داغستان. والحرب انتهت الآن. وأحوال داغستان قد انصلحت واستقامت. فلا مانع من إطلاقه. ولكن لا يكون ذلك إلاّ بعد انتهاء مهاجرة الجراكسة من بلادهم إلى بلاد الدولة العليّة. وربما يتمُّ ذلك في مدَّة ستَّة أشهرٍ، ثمَّ إنِّي تكلَّمتُ مع الصَّدر الأعظم ووزير الخارجيَّة في مدَّة إقامتي في الأستانة في هذا الأمر. فقالا: إذا أطلق ملك الرّوس سراح الشيخ شمويل، فالدَّولةُ العليَّةُ تقبله في ممالكها.

وبناءً على هذا، فإذا حسن عندَ حضرتكم، فإنِّي أذهبُ برسمِ الزيارة إلى قيصر الرّوس وتقديم الشكر على النِّيشان الذي أرسله إليّ، ثمّ أطلب منه تسريح شمويل. وإنيّ لم أعتنِ في أمره إلاّ لكونه سلك في الطريق الذي سلكته. وكلُّ إنسان يميل بالطّبع إلى شبيهه، ولا سيّما أنّه أسيرٌ كما كنت أسيراً مدَّةً طويلة. ولولا أنّ العنايةَ الإلهيَّة استعملتكم في خلاصي وإطلاق سراحي، لما كنت تخلَّصت"

ولّما بلغ الأميرَ تأسُّفُ ملكة إنكلترّا على عدم حضورها في لوندرة حين شرَّف إليها، كتب إلى ولدها، وليّ عهدها، ما نصّه:

"المعروض: منذ زمان، أترقّب فرصةً أحضر فيها إلى عاصمتكم الملوكيّة، وأجتمع فيها بحضرة الملكة وحضرتكم. ولّما تهيّأت الأسباب، توجّهت نحوكم، فلم يقدِّر الله لنا ما نويناه من الاجتماع. وبعد أن أقمنا في لوندرة أربعة أيَّام، وقام بضيافتنا فيها وزير الخارجية وغيره من أعيان الدولة، رجعنا إلى باريس شاكرين لهم. وقد أرسلت مكتوبي هذا إلى سموِّكم لينوب عنِّي بما أمكن في تقرير الحال لديكم.

حُرِّر في رابع أغسطوس (آب) سنة خمس وستِّين وثمانمائة وألف 1865".

ولما علم الإمبراطور نابليون أن المرتّب المرسوم للأمير غير كافٍ لمصارفه الكثيرة، أمر له بزيادة خمسين ألف فرنك في السنة من خزينته الخاصة. ثم بلغ الأمير أن زوجة الإمبراطور كانت السبب في هذه الزيادة. فكتب لها يشكر فعلها، وشدَّة اعتنائها بأموره، بقوله:

" أما بعد، فإن وزير الخارجيّة أخبرني بأن حضرة الإمبراطور

وفقه الله زاد في مرتَّبي خمسين ألف فرنك، ثم أخبرني الجنرال "فلوري" بأنَّ حضرتك كنت السبب الأقوى في حصول هذا الخير الجسيم لنا. فحملني ذلك على أن أشكر صنيعك معنا وسعيك في عمل الخير. زادك الله توفيقاً إلى مثل هذه المبرَّات التي لا شكَّ أنها تخلِّد لكم ذكراً حسناً في العالم".

وفي أيام إقامته في لوندرا، قدَّمت إلى حضرته الجمعية المؤسَّسة لحماية بني الوطن فيها تحريراً صورته:

" إلى سمو الأمير عبد القادر.

أما بعد، فنحن الواضعون أسماءنا في هذا التحرير، عمدة جمعية حماية بني الوطن، قد سررنا وابتهجنا عندما سمعنا بوصولك إلى عاصمتنا لأننا نحبُّ شخصك، ونحترمه، نظراً لما نعرفه من حسن أخلاقك وصفاء طويَّتك لسائر عباد الله. ولا يخفى أن مبادئ هذه الجمعية التي نحن مرتبطون بها توجب علينا أن نحب ونحترم أبناء الشرف وتلزمنا بمراعاة مصالحهم. وقد رجح ميلنا لنحوك لأنك مملوء بالشفقة والرحمة على عباده تعالى، وبرهان ذلك ما أبديته مع ألوف من مسيحيي دمشق، حين التجأوا إليك. فإنك آويتهم، وبالغت في الإحسان إليهم مع أنهم، ليسوا من أبناء دينك. فنحن الآن، بالنيابة عن نصارى هذه العاصمة، نؤدي لك الشكر والثناء الجميل، حيث إنك جبرت المنكسرين. ثم نخبرك أننا قد تمثَّلنا بين يدي إمبراطور فرنسا وأدينا له ما يليق بعظمته من الشكر على إحسانه إلى سكان الجزائر.

ونفرح الآن بكوننا نخاطبك، أيها السيد المحترم ونسأل الله تعالى أن يديمك رحمة للمساكين زمناً طويلاً".

وقبيل سفره، زاره رؤساء بلدية باريس، وقدموا له ثلاث مادليات، الواحدة مموهة بالذهب، والثانية مموهة بالفضة والثالثة نحاس. ففي الجهة الواحدة نصف صورة الأمير، مكتوب على دائرتها"عبد القادر بن مُحيي الدين، أمير إفريقيا الشمالية، محامي المسيحيين المظلومين، ولد في معسكر سنة 1807، حامي مسيحيي الشام، سنة 1860، فرانسا التي حاربها تحبّه وتفتخر به".

وبعد هذه الكتابة، صورة يدين تتصافحان"وجيكورتا" اسم رجلٍ من إفريقية حارب الرومانيين ودافعهم عن وطنه.

وبعد أن قضى الأمير جميع مآربه في باريس، ودّع الإمبراطور ووزراءه وأعيان باريس ووجوهها، وخرج منها في الثاني عشر من ربيع الثاني، والثاني من سبتمبر، قاصداً دمشق. وحصل له في الطريق مزيد الإكرام، والاحترام، لاسيّما في مدينة ليون الشهيرة. فإن حاكمها جمع عساكرها، وأجرى في ساحتها، بين يدي الأمير، حركات حربيَّة عجيبة، قسم فيها العسكر إلى برّية، وبحرية. واتفق أن البرية انكسر جانب منها. فأمدّها الجنرال "مونتويان" ،وهو القائد الأكبر، بكتيبة من البحرية. وكان نهر ليون العظيم حائلاً بين الطائفتين. فلمّا أمر العسكر بالجواز إلى العدوة الثانية لنجدة الفئة المنهزمة، وضع كلّ واحدٍ منهم دفّة كانت معه على متن الماءِ، بإزاء

دفّة الآخر، فصارت جسراً وأجازوا عليه. وفي أقرب وقت كانت تلك النجدة حاضرة في الميدان، دافعة للفئة الغالبة. فعجب الأمير من تلك الكيفيَّة الحربيَّة الغربية في سرعة الحركة.

ولمّا وصل إلى مرسيليا، استقبله حاكمها وأعيانها استقبالاً بهر عقل من شاهده، ومنها ركب البحر إلى بيروت وتوجّه إلى دمشق على أحسن الأحوال وأكملها. فدخلها على أكمل الهيئات وأجملها.

ذكر ما أجاب به الأمير عن أسئلة أرسلها إليه الجنرال دوماس الفرنساوي

وهذا الجنرال من أكبر قوّاد الجنود الفرنساوية في الجزائر الذين اشتهروا بالإقدام في حروبها العظيمة ووقائعها الجسيمة مع الأمير. وكان تعيّن عنده وكيلاً بمعسكر، في المعاهدة الأخيرة، وتعلّم اللسان العربي، واطلع على أشياء من أحوال أهل الوطن. فكتب أسئلةً تتعلّق بذلك، وبعثها إلى الأمير، وطلب الجواب عنها. ونحن نذكر كل سؤال منها مع جوابه فنقول :

السؤال الأول

قد رأينا المسلمين يتزوّجون من غير أن ينظر أحدهم إلى من يريد أن يتزوج بها. وربّما، عند الاجتماع، يجد كلٌّ منهما الآخر منافياً لمطلوبه. فيقع النفور من أحدهما أو منهما معاً وهذا يؤدِّي إلى سوء المعاشرة مدّة حياتها أو إلى الفراق لا محالة.

الجواب

إن المسلمين لا يتزوج أحدهم إلاّ بعد النظر، إلى من يريدها من النساء، أو يرسل امرأة عاقلة، عارفةً بما يستحسنه الخاطب،

ويستقبحه من صفات النساءِ وأحوالهن؛ فتنظرها ثم تخبره بما رأته من صفاتها وأحوالها. واعلم أن شرع الإسلام لا يمنع من النظر، بل يجوز للرجل إذا أراد أن يتزوج بامرأة أن ينظر إلى وجهها ويديها ورجليها، كما يجوز للمرأة أن تنظر إلى الرجل الذي تريد أن تتزوج به. وقد ورد في الحديث الشريف أنّ النبي (ﷺ) قال: "إذا أراد أحدكم أن يتزوّد بامرأة؛ فلينظرها. فإن بذلك تدوم الألفة والمحبة بينهما".

ومن كلام العرب في هذا المعنى: كلُّ نكاحٍ وقع من غير رؤية فعاقبته همٌّ وغمٌّ. فالتزويج من غير رؤيةٍ غرر، والغرر يكون في الجمال وفي الأخلاق. فالغرر في الجمال يزول بنظر كلٍّ من الرجل والمرأة إلى الآخر. والغرر في الأخلاق يزول بسؤال الجيران ومن يخالط كلاًّ منهما. ولا يصدق في الخبر عن الجمال والأخلاق إلاّ من كان عالماً بهما، صدوقاً في خبره، لا يميل إلى أحد الطرفين،فيزيد في المدح، ولا يحسدهما فيقصِّر في الوصف، دون ما هو كائن. ومن كلام العرب: أربعة لا تقدم عليهما حتى تسأل الخبير بها عنها: المرأة، لا تخطبها حتى تسأل عن منصبها، وخَلقها، وخُلقها.

والطريق، لا تسلكها حتى تعرف أنها مأمونة أو مخوفة.

والبلد، لا تستوطنها حتى تطّلع على سيرة سلطانها، وأخلاق أهلها.
والسوق، لا تقصدها حتى تعلم نافقها من كاسدها.

ومن كلامهم: الندامات ثلاثة: ندامة يوم، وندامة سنة، وندامة العمر. فندامة اليوم بأن يخرج لرجل قبل الغذاء، وندامة السنة بترك الزراعة في وقتها، وندامة العمر بأن يتزوّج الرجل من غير نظرٍ ولا سؤال خبير.

السؤال الثاني

إن المسلمين يتزوّجون من غير أن يأخذوا من الزوجات مالاً، وإنما الزوج يدفع للمرأة الصداق، وبذلك يحسبها ملكه ويجعلها بمثابة الأشياءِ التي تشترى.

الجواب

إن المرأة، إذا كان لها مالٌ، فإن شرع الإسلام يلزمها إن تأتي منه معها بقدر صداقها الذي دفعه الزوج لها. فإن لم يكن لها مال، فلا يلزمها شيءٌ. ولا يتزوّج المرأة لأجل مالها إلاّ أخسَّاءُ الناس. فأكثر المسلمين لا يتزوّجون النساء لمالهنَّ، ويقبح على الرجل الكريم أن يخطب امرأةً ويسأل عن مالها، ومن كلام العرب: إذا خطب الرجل المرأة، وسأل عن مالها، فهو سارقٌ لصٌّ. وقالوا: هذا فعل يشبه التجارة وليس من مقاصد النكاح ولا من مكارم الأخلاق. فإذا كان الحاملُ للرجل والباعثُ له على تزوّج المرأة مالها فقط، فلا شكَّ أنها لا تدوم الألفة بينهما لأن المال عرض زائل. فإذا زال المال، زالت الألفة. وكذلك إذا منعت المرأة مالها من الزوج...

ومن كلامهم: يلزم أن يكون الرجل فوق المرأة بثلاثة أشياء: المال والسنّ والشرف، وإلاّ احتقرته. ومن كلامهم: إيّاك أن تتزوّج المرأة التي تنظر لما في يديها، بل تزوّج من تكون هي تنظر لما في يديك. فإذا كان المال تابعاً للجمال والشرف، دامت الألفة. واعلم أن العرب، لما كانوا يحبون النساء محبّةً شديدةً، كانوا لا يسألون عن مال المرأة. ولا تجد امرأة بلغت حدَّ التزويج وهي بلا زوج، بخلاف غيرهم فإنك تجد المرأة التي لا مال لها، في سنِّ الثلاثين والأربعين، وهي من غير زوج لأنهم لا يحبون النساءَ لذواتهن بل يحبونهنَّ لدراهمنَّ. ولو دفع الرجل العربي للمرأة قناطير الذهب والفضة، لا يحسبها ملكه ولا يجعلها بمثابة الشيء المشترى ،كما زعمتم، وإنما يرى أن الفضل له عليها لأنَّ الله فضَّل الذكر على الأنثى. فأوَّل ما خلق الله الذكر، ثم خلق الأنثى منه. فالذكر أصلٌ والمرأة فرعٌ. والأصل أشرف من الفرع. وفي العهد القديم، في سفر التكوين، قال الله لحوَّاء: " تكونين تحت سلطان الرجل وهو يتسلَّط عليك". فإذا خالف الرجل هذا، صار تحت حكم المرأة؛ فقد خالف حكمة الله واستحقَّ الغضب من الله لأن الله جعل الرجل متبوعاً لا تابعاً، وآمراً لا مأموراً، وناهياً لا منهيًّا. وكانت نساء العرب يعلّمن بناتهن عند الزفاف كيف يختبرن أزواجهن. فتقول الأمّ لابنتها: يا بنيَّة، اختبري زوجك قبل الإقدام والجراءة عليه. فانزعي زجَّ رمحه. فإن سكت فقطّعي اللحم على ترسه. فإن سكت فكسِّري العظام بسيفه. فإن سكت فاجعلي البرذعة على ظهره واركبيه، فإنه حمارك!.

السؤال الثالث

من عادة المسلمين أنهم يتزوّجون أربعةً من النساء، ويتّخذون ما يقدرون عليه من الجواري. فنحن نتعجّب من الحُرة كيف تعيش مع الجارية.

وربَّما تكون هذه العادة سبباً في فساد العشرة، ونزاع الورثة، وقوَّة الغيرة، ومباغضة الأولاد بينهم. فينقلب الأمر المطلوب ويفسد العيال. والذي ينبغي للرجل أن لا يحبَّ امرأةً أكثر من الأخرى. فكيف يعمل إذا فسدت العشرة؟ وبما يصلح فسادها؟ وما الذي عندكم، في الشرع، حين تقع المنازعة بين النساء؟ أعني: ما الذي يفعله الرجل في الصلح بينهنّ؟

الجواب

إن الله تعالى خلق النساء لتكثير الأولاد، وتفرقيهم في أقطار البلاد. ومن أراد تكثير الغلّة، يكثر المزارع ويجعلها أكثر من الحارث. والله تعالى ما افترض على الرجل تزويج أربع نسوةٍ، وإنما افترض عليه سلامة الدين والكفَّ عن الزنا. فمن كانت سلامته في واحدة، فهو أفضل، ومن لم يسلم دينه بواحدة، أُذن له في أن يتزوّج أكثر من واحدة. فالله تعالى لا يأذن لعباده في فعل ما فيه ضرر. فلو كان في فعل ما ذكرته ضررٌ، ما فعله الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. ففي التوراة، في الإصحاح التاسع والعشرين أن يعقوب تزوج ليًا وراحيل وفي الإصحاح السادس والعشرين أنّ عيصو اتَّخذ نساءً منهن: يهوديت وبسمات. وفي سفر التكوين، في الإصحاح الرابع: فأخذ لهُ "لامكُ" امأتين، اسم احداهما عادي واسم الأخرى صالي.

والجماع أعظم اللذات الجسمانية. رأيت في بعض الكتب: " ينفق ذو المال ماله في ثلاثة وجوه: في الصدقة إن أراد الآخرة، وفي مصانعة السلطان إن أراد الدنيا، وفي النساء إن أراد لذّة العيش.

ومن كلام العرب: ذهبت اللّذات إلاّ من ثلاث: الخلوة بالنسوان، وشمّ البنين، وملاقاة الإخوان.

ومن منافع الجماع أنه يبسط النفس ويفرحها، ويطرد الغضب، ويذهب الأفكار السيئة، ويسكّن عشق العاشق إذا اشتدّ عليه. والإكثار من الجماع في امرأة واحدةٍ لا يكون لذيذاً في الغالب لأن ملازمة الشيء الواحد يوقع في الملل والقرف. وقد اتفق الأطباء على أن أشدّ ما يساعد على تنبيه الشهوة بعد اليأس منها تجديد النساء. والجماع عظيم النفع لأصحاب الأبدان القوية.

ولما كانت الشهوة تغلب على مزاج العرب، كانوا أكثر الناس نساءً لأنهم يقدرون على كثرة الجماع. وأكثرهم لا تكفيه المرأة الواحدة بل تبقي نفسه مشوّشة. فيلزمه أن يزيد حتى تستريح نفسه، ولا يتشوّق للزنا. ومن المعلوم أن كثيراً من نساء العرب يشتكون أزواجهن من كثرة الجماع ويدعونهم إلى القاضي للمحاكمة. ومن العرب من يكرّر الفعل مرات عديدة في ليلة واحدة. وربّما تقول إن هذا شيء سمعتَ به، لا أنك رأيته، فيحتمل الصدق والكذب. فأخبرك عن نفسي: فإني أكرّر الفعل في الليل والنهار، ولا تمضي عليّ أربعة وعشرون ساعة من غير جماع، إلاّ في القليل النادر

من الزمان وذلك لعذرٍ كسفرٍ ونحوه. ومن كانت هذه حالته فهو محتاج لتكثير النساء. فإذا كانت له امرأة واحدة وحاضت أو نفست أو مرضت أو سافرت، فلا يقدر عل الصبر. وإذا لم يجد محلاً حلالاً يدعوه الشيطان إلى الزنا، فيهلك. ومن المعلوم عند الأطباءِ أنه إذا حصل للرجل ما يوجب إنزال الماء إلى الأوعية كتذكارٍ واحتلام، وكان الإنسان قوياً وترك الجماع، وقع في الأمراض العسِرة البرء. فإذا كان عند الرجل أكثر من واحدة، لا يحصل له ضرر ولا يزني في الغالب وأما غير العرب، فيكفي الرجل منهم امرأة واحدة. وربّما لا يقوم بحقّها ولا يشبعها نكاحاً.

ومن الأسباب التي أوجبت النكاح في العرب حلق شعر العانة من الرجل والمرأة. فإن عدم الحلق ينقص الشهوة ويضعفها، ومنها استعمال نساء العرب للروائح الطيبة كالمسك والعنبر. فإن الطيب من أقوى الدواعي للوطء.

ومنها الختان؛ فإن الغصن، إذا قُطّ وزُبر، قوي واشتدّ وغلظ.

وما دام لا يفعل به ذلك، لا يزال رقيقاً ضعيفاً، كما هو مشاهد... وهذه الأشياء لا يستعملها إلاّ العرب.

وقولكم: ويتّخذون ما يقدرون عليه من الجواري، كذلك هو حلال في شرع الإسلام وفي الشرائع القديمة. وفعله الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. ففي التوراة، في الإصحاح السادس عشر: أن "سارة" امرأة إبراهيم كانت لها أمةٌ مصرية، اسمها "هاجر" فقالت لبعلها: هو

ذا حرمني الربّ الولد، فادخل على أمتي. فدخل بها. فحبلت. وفي الإصحاح الثلاثين أن "راحيل" أعطت أمتها "نبها" إلى يعقوب. وولدت له ولدين. وكذلك امرأته "ليّا" أعطته "زلفا" وولدت له ولدين. وفي الإصحاح الثاني والعشرين أن سرّية "ناصور" أخي إبراهيم اسمها "روما" ولدت له: "طابخ وحاجم وناخس ومعكا". وكان لنبي الله داود ،عليه السلام، عدّة كثيرة من الجواري، ولابنه سليمان سبعمائة امرأة وثلاثمائة سرّية.

والعرب يحبُّون أولاد الجواري ويقولون: ليس قومٌ أكيس من أولاد الجواري لأنهم يجمعون بين عزّ العرب وعلوّ همّتهم وبين دهاءِ العجم وكمالِ عقولهم. ومن كلامهم: إذا كانت المرأة لا تلد واتخذَ زوجها جاريةً فإنها تلد بسبب الغيرة.

وقولكم: ونحن نتعجّب من الحرَّة، كيف تعيش مع الجارية. فاعلموا أنّ الجارية لا تصل في المقام والمترلة إلى مقام الحرّة ومترلتها، بل دائماً تكون في قبضتها وتحت أمرها، تقبِّل يدها ورجلها، وتخدمها، ولا تخرج عن طاعتها وأمرها ونهيها، ولا تحدِّثها نفسها بأنها تساوي سيّدتها. ولا يمكن أن يقربها سيِّدها إلاّ سراً من الحرّة. وبذلك تسمّى سريّة، أخذاً من السرّ.

وقولكم: ينقلب الأمر، وتفسد العشرة...إلخ. هو حقٌّ. ولكن في حقّ الفقير. وأما إذا كان الرجل غنياًّ، يجعل، لكل امرأةٍ دارها وحدها ويعطيها ما تطلبه من الأمور اللازمة، فلا يحصل كبيرُ ضررٍ.

وقولكم: ينبغي للرجل أن لا يحبّ امرأةً أكثر من الأخرى وهل يقدر على ذلك.

جوابه: أن التسوية بين الزوجات في المحبّة، ليس بلازمٍ في الشرع. لأنّ الحبَّ لا اختيار للإنسان فيه حتى يقدر على فعله وتركه. بل هو أمرٌ ضروري لا قدرة له على دفعه، ولا على الزيادة فيه، ولا النقص منه، بل هو على حسب ما يضعه الله في القلب. وللمحبة أسبابٌ في المحبوب: إماّ جمالٌ، أو إحسانٌ. والقلوب مجبولةٌ مقهورةٌ على حبّ: الحسن والإحسان ولا يقدر الإنسان أن يبغض الوجه الحسن ولا من يحسن إليه. قال بعض الشعراء:

في وجهه شافعٌ يمحو إساءته　　من القلوب وجيهٌ أينما شفعا
مستقبلٌ بالذي يهوى وإن كثرت　　منه الذنوب ومعذورٌ بما صنعا

ولا يقدر الرجل أن يسوّي بين زوجاته في الحبّ أبداً. ولا يعاقبه الله على ذلك، ولا يلزمه التسوية بينهن في الجماع. وإنما تجب التسوية في المبيت فقط. يبيت عند هذه ليلةً بنهارها وكذلك عند الأخرى. وتجب عليه التسوية أيضاً بينهن في اللباس والأكل والفرش والكلام والمباسطة، وفي كلّ ما يرضيهن ويطيّب قلوبهن. وإذا ظلم امرأةً بليلتها، قضى لها ليلةً أخرى. وإذا أراد السفر، يجعل القرعة بينهن. فمن خرجت قرعتها، سافر بها. وإذا رجعت من السفر، لا يحاسبها ضرائرها بأيام السفر.

وقولكم: وما الذي عندكم في الشرع حين تقع المنازعة بين النساء، أعني ما الذي يفعله الرجل في الصلح بينهن.

أقول إنّه يلزمه أن يبحث عن الظالمة من نسائه، فيعظها ويخوّفها. فإن تابت، فذلك؛ وإن لم تتب، فإنهُ يهجرها ويترك الكلام معها. وإذا نام عندها في الفراش يوليها ظهره.

يفعل معها ذلك ثلاثَ ليالٍ إلى عشر ليالٍ وإلى شهرٍ. فإذا تابت وطلبت العفو، حصل المراد، وإلاّ فالطلاق والفراق.

السؤال الرابع

رأيت الناس يلومون العرب على ضربهم نسائهم، وعلى استعمالهن في الخدمة فوق طاقتهن، وعلى قلّة المبالاة بهنّ وهم مستريحون، لا يخدمون ولا يعملون شيئاً.

الجواب

لا يضرب النساءَ إلاّ أوباش الناس والسفهاءُ الذين لا دين لهم، ولا مروءَةَ. وأماّ أفاضل العرب وأهل الدين منهم، فإنهم لا يفعلون مع النساء إذا فسدَ حالهن، إلاّ ما يطيّب قلوبهنّ، ويرضيهن من حسن الكلام ولين الخطاب، والمداراة، والتلطف حتى إنّ الرجل يجوز له أن يكذب على زوجته ويعدها ويمنّيها إذا رأى ذلك يكون سبباً في طيب قلبها ورضاها. وإذا فسدَ حالُ المرأة، ولم تنفع فيها المداراة ولين الجانب، فإنه يفعل معها ما أذن فيه الشرع من الوعظ، والهجر، ثم الضرب الخفيف الذي لا يغيّر جلداً ولا يسيل دماً. وقد نهى شرع الإسلام عن ضرب النساء. وقال رسول الله (ﷺ): "لا يضرب النِّساء إلاّ أشرار الرِّجال". وكان (ﷺ) عند موته، يوصي بالنساء ويقول:

"استوصوا بالنِّساء خيراً".. حتى ثقل لسانه وخفي كلامه. وقد جاءت الوصيَّة بالنِّساء في القرآن، في مواضع كثيرة. فيلزم الرَّجل تحسين خلقه مع النساء، واحتمال الأذى منهنّ. قال رسولُ الله (ﷺ): "من صبر على خلق امرأته، أعطاه الله من الأجر ما أعطى أيّوب على بلائه". وليس حسن الخلق بالمرأة كفُّ الأذى عنها، بل احتمال الأذى منها، والحلم عند غضبها. وأماّ خدمة النِّساء وتكليفهنّ فوق طاقتهنّ وعدم خدمة الرّجال...فهذا ما رأيناه ولا نعرفه بل الذي رأيناهُ وعرفناه هو أنّ الرّجل، إذا كان غنياًّ، فزوجته لا تخدم شيئاً. وإن كان ولا بدّ فإنها تخدم الخدمة الخفيفة، داخل البيت، بشرط أن لا يحصل لها بها أدنى ضرر. وإن كان الرَّجل فقيراً، فهو يخدم الخدمة التي تناسب الرِّجال كخدمة الفلاحة والمواشي والتجارة... والمرأة تخدم الخدمة التي تناسب النساء كالغزل والنسيج والخياطة والطّبخ في الحاضرة، وسقي الماء والاحتطاب في البادية وإذا كان الرجل صاحب دينٍ ومروءةٍ، فلا يكلّف زوجته بخدمةٍ خارجةٍ عن البيت، ولو كان فقيراً. فهو يسقي الماء ويحتطب على ظهره، ولا يمكّن زوجته من الخروج من البيت.

السؤال الخامس

بناتُ الأكابر من المسلمين لا همّة لهنَّ إلاّ في زينتهنّ وتبرّجهنّ، بحيث لا ينظرن إلى غير ذلك. ولا يحسنُ بالمرأةِ أن تهمل أوقاتها. وتفوّتها في البطالة. فإن ذلك ينشأ عنه شرورٌ كثيرةٌ.

الجواب

إنَّ المرأة عند المسلمين لا تترك الخدمة كما سبق، سواءٌ كانت من بنات الأكابر أو الأصاغر. فإذا كان زوجها فقيراً، تشتغلُ بالخدمة دائماً. وإذا كان زوجها غنياً، تشتغل بالخدمة في أوقاتٍ مخصوصةٍ، لا في سائر الأوقات. وما سمعنا بامرأةٍ معرضةٍ عن الخدمة، مقبلةٍ عن اللّهو والبطالة، إلاّ إذا كانت صغيرةً لا تدرك ولم تصل إلى حدِّ التّكليف بشؤون الخدمة. ومَن أخبرك بخلاف هذا، فقد أخطأ. وقد كان والدي من الأشراف الأغنياء. وكان في بيته نحو السِّتّين نفساً بين خادمٍ وخادمة. ومع ذلك، فإن بناته ونساءه، لم يتركن الخدمة اللاّئقة بهنَّ في أوقاتها المخصوصة.

حُكِيَ أنَّ امرأةً من العرب كان أبوها أميراً، وزوجها أميراً، وهي تغزل الصّوف. فقيل لها: لِمَ تغزلين وأنت شريفةٌ، غنيَّةٌ عنِ الغزل؟ فقالت: إنَّه يطرد الشيطان ويقطع حديث النفس.

ومن أقوال العرب: خيرُ لعب المرأة بالغزل والإبرة.

وأمّا اشتغال المرأة بالزِّينة في أوقاتٍ مخصوصة، فهو مطلوب منها. لأنّ التّزيُّن من الأسباب التي تدوم بها الألفة والمحبّة بين الزوجين. قال بعض العرب: إنَّ المرأة تنال محبة زوجها، بعد تمامِ حسن خلقها، وكمال خُلقها بأن تكون مداومةً على الزِّينة، عارفةً بما يزيد في حسنها من أنواع الحلي، واختلاف الملابس، وبما يستحسنه زوجها.

واتفق حكماء العرب والعجم، على أن إشارة الشهوة لا تكون إلاّ

بالموافقة التامة من المرأة. ولا شكَّ أن تزيّنها لزوجها مماّ تتم به الموافقة. ومن كلام العرب في الأمثال: عقل المرأة في جمالها، وجمالُ الرَّجل في عقله. ويلزم الرّجل أن يتزيّن لزوجته بما هو من زينة الرِّجال. فإن المرأة تحب ذلك. ولا تطمح نفسها إلى غير زوجها إذا رأت رجلاً جميلاً. فكما أنَّ الرجل، إذا كانت له زوجة وسخة قذرة، ورأى امرأةً متزيِّنة، نظيفة الثياب، يشتهيها قلبه، كذلك المرأة، إذا رأت زوجها قذراً وسخاً، ورأت رجلا آخر نظيفاً جميلا، تشتهيه نفسها.

السؤال السادس

إنَّ المسلمين، نرى الرجل المسن منهم يخطب البنت الصغيرة، وعند النّصارى هذا عيبٌ ووقاحةٌ. وقليلٌ من يصبر على هذه الوقاحة؛ يأخذ بنتاً صغيرةً، وهو كبيرٌ هرم.

الجواب

هذا غير مسلّم به، بل فيه عيبٌ كبير عند المسلمين. وقليل من يفعله ومنهم نادرٌ. والنَّادر لا حكم له. إذ الغالب فيه عدم الألفة. والمحبة من البنت الصغيرة للشيخ غير مرجوة، بل لا بدَّ أن تكرهه وتنفر من شيبه. ومن طبع النساء النفور من الشيب. قال امرؤ القيس:

إن تسألوني عن النساء فإنّني خبير بأحوال النساء طبيبُ
إذا شابَ رأس المرء أو قلَّ ماله فليس له في ودّهنَّ نصيبُ

وقال بعض العرب، وقد كان شيخاً شائبا: رأيت امرأة جميلة فقلت لها: أيّتها المرأة إن كان لك زوجٌ؛ فبارك الله لك فيه، وإلاّ فأخبرينا.

فقالت له: فيَّ شيءٌ لا تحبه. قال: قلت ما هو؟ قالت: شيبٌ في رأسي وتبسَّمت ضاحكة من قولي. فذهبت عنها. فقالت لي: ارجع والله ما بلغ سني عشرين سنة، وهذا رأسي، ولكن الشيب في رأسك؛ فأعلمتك أننا نكره منكم ما تكرهونه منَّا.

وقيل لامرأة من العرب ما تقولين في ابن عشرين سنة؟ قالت: ريحانة يشمّ. قيل لها فابن ثلاثين؟ قالت: قويّ متين. قيل لها فابن أربعين؟ قالت: أبو بنات وبنين. قيل لها فابن خمسين؟ قالت: يجوز في جملة الخاطبين. قيل لها فابن ستين؟ قالت: صاحب سعال وأنين.

وعندنا، إذا صبغ الرجل شيبه وتزوج المرأة وأوهمها أنّه شابٌّ، فإن الشرع يعاقبه ويفسخ النكاح ويبطله. وكان رجل خطب امرأة وصبغ شيبه، فعرفت المرأة ولامته. فقال:

قالت: أراك خضبت الشيب قلت لها ... سترته عنك يا سمعي ويا بصري
فقهقهت ثم قالت من تعجّبها ... تكاثر الغشُّ حتى صار في الشعر

وكذلك المرأة العجوز، إذا تزوجت شاباً صغيراً، يتّخذها الناس هزؤاً وسخرية.

السؤال السابع

المرأة، عند النصارى، تُحَبُّ على ما فيها من الخصال الحميدة التي حصّلتها، وأفعالها الجميلة. وأما عند المسلمين، فإنها لا تحبّ إلا على جمالها في الكثير، وفي القليل على حسب أصلها.

الجواب

إن المسلمين يحبون المرأة الجميلة إذا كان مع الجمال دينٌ وصيانةٌ. وإنما يرغبون في المرأة الجميلة لأن الألفة والمحبة لا يحصلان في الغالب إلا مع الزوجة الجميلة. والطبع لا يكتفي بالمرأة القبيحة المنظر. وأما الجمال الذي لا صيانة معه، فهو مذموم. وقلّما توجد الأخلاق الجميلة والآداب إلاّ تابعة للحسن لأن الظاهر عنوان الباطن. والبدن، بما فيه، مطابق للنفس وصفاها. فحسن الخَلق والخُلق لا يفترقان في الغالب. ومن أمثال العرب: حسن الصورة أول السعادة. والنظر إلى الوجه الحسن يورث الفرح ويزيد في نور البصر. والنظر إلى الوجه القبيح يورث العبوسة ويضرّ البصر. وللجمال سلطان على النفوس الشريفة، تخضع وتذلّ له. وأما النفوس اللئيمة فلا فرق عندها بين جميل وقبيح، وهي النفوس البهيمية.

يحكى أن أحد ملوك الفاطميين قال شعراً، من جملته:

نحن قوم تذيبنا الأعين النجل على أننا نذيب الحديدا
وترانا لدى الكريهة أحراراً وفي السلم للغواني عبيدا

فاتفق أنه غزا الشام وحاصر مدينة بها. فلما أشرف على أخذها، قالت لأهلها امرأةٌ منهم، كانت مشهورةً بالجمال: أنا أرحّله عنكم. فخرجت إليه متنقّبة وقالت: أنت القائل: نحن قوم تذيبنا الأعين النجل؟ إلى آخر البيتين... قال: نعم. فأزالت النقاب عن وجهها.

وقالت له: أجمالاً ترى؟ قال: نعم والله. فقالت له: إن كنت صادقاً في قولك أنك عبدٌ للحسان، فارحل عن هذه المدينة. فرحل من يومه.

والجمال الذي تُحبه العرب هو أن يكون في المرأة أربعةٌ سودٌ، وأربعةٌ بيضٌ، وأربعةٌ حمرٌ، وأربعةٌ كبارٌ، وأربعة صغارٌ، وأربعة واسعة، وأربعة ضيّقة.

أمّا السود فشعر الرأس، وشعر الحاجبين، وأشفار العينين، والحدقتان.

وأماّ البيض فاللون، وبياض العينين، والثغر، والظفر. وأماّ الحمر فالوجنتان، والشفتان، واللسان، واللثة.

وأماّ الكبار فالثديان، والفرج، والركبتان، والعجيزة.

وأماّ الصغار فالأذنان، والفم، واليدان، والرجلان.

وأماّ الواسعة فالجبين، والعينان، وأصول الثديين، والسرَّة.

وأماّ الضيقة فالمنخران، والأذنان، والخصر، والفرج.

وكانت العرب؛ تحبّ المرأة الزرقاء العينين. ويتتيّمون بها.

وقولكم: "وعلى حسب أصلها في القليل"، فاعلم أن العرب كانوا يرغبون في الجمال والأصل معاً. ولما جاء الإسلام، رغبوا في المرأة ذات الدين. قال رسول الله (ﷺ): "تُنكح المرأة لجمالها، ولمالها، ولحسبها، ولدينها. فعليك بذات الدين". أي اخترها وقربها من بين سائر النساء. وقال: "لا تنكحوا المرأة لمالها، فلعل مالها يطغيها. ولا لجمالها فلعل جمالها يرديها. وانكحوا المرأة لأجل دينها". فإذا كانت المرأة جميلةً، متدينة، من بنات الأصل، فهي الغاية عند العرب لأنها

إذا كانت أصيلةً، تربِّي أولادها مثل تربيتها، ولأنها تلدُ مثل أبيها وأخيها. قال رسول الله (ﷺ): "تخيّروا لنطفكم، فإنّ العرق نزّاع". وقال بعض العرب: أنا لا أتزوج المرأة حتى أنظر إلى ولدي منها. فقيل له: كيف ذلك؟ فقال: أنظر إلى أبيها وأخيها وعمِّها؛ فإنها تلد مثل أحدهم لا محالة.

والحاصل أنّ الخصال المطلوبة في المرأة، المطيِّبة للمعيشة، التي لا بدَّ من مراعاتها ستّةٌ: "الديانةُ، وحُسن الخلقِ، والجمالُ، والولادة، والبكارة والنسب". فإذا كانت ديِّنةً، صانت فرجها، وصانت وجه زوجها من المعرّة بين الناس. وإذا كانت حسنة الأخلاق، كان زوجها في راحة بخلاف ما إذا كانت سيِّئة الأخلاق، جاحدة للنعمة، كان الضررُ منها أكثر من النفع. وإذا كانت حسنةَ الوجه، كفت نظر زوجها عن النظر إلى غيرها، وحقنت فرجه من الزنا لأن الطبع لا يكتفي بقبيحة الوجه. وإذا كانت ولوداً حصل منها أعظم فوائد النكاح. وتعرف أنها ولود بأن تكون شابّة صحيحة، فإنها تكون ولودا في الغالب. وإذا كانت بكراً فإنها تحبُّ الزوج وتألفه لأن الطباع مجبولة على الأنس بأوّل مألوف لها. وإذا كانت بنتَ أصلٍ ولها حسب، كانت مؤدبة وتربي أولادها مثل تربيتها.

السؤال الثامن

بلغنا عن العرب أنّ أحدهم لا يحترم زوجته، ولا يحسبها إلاّ كخادمة له، ولا يشاورها، ولا يقربها إلاّ عند قضاء شهوته، ولا يعتدُّ بكلامها.

ونحن عندنا، الأمر بخلاف ذلك. فتشاور المرأة على كل شيء وهي رئيسة البيت. وكيف بالعرب يؤخِّرون المرأة عن كل الأمور؟

الجواب

الأمرُ؛ على خلاف ما سمعتم. فإن المرأة لها حرمةٌ عظيمةٌ، عند العرب. وذلك أنهم يحبون النساء كثيراً. ومِنْ لازم المحبة الاحترام. قال رسول الله (ﷺ): "ما أكرم النساء إلاّ كريم، ولا أهان النساء إلاّ لئيم". وقال (ﷺ) لأصحابه: "خيركم لامرأته وأنا خيركم لنسائي". وقال بعض حكماء العرب: يلزم الرجل أن يفعل مع امرأته كلّ شيءٍ يحبّبه إليها حتى يكون هو أحب الناس إليها. وكان رسول الله (ﷺ) يرفع امرأته على يديه حتى تركب على البعير. وكان أمير المؤمنين معاوية، يقول النساء يغلبن الكرام من الرجال ويغلبهن اللئام منهم. وكان الأحنف التميميّ من سادات العرب،يغضب لغضبه مائة ألف سيفٍ لا يسألون عن سبب غضبه. فإذا أراد حرباً، تقول العرب: غضبت زبرا، يعنون امرأته لأنه كان يمشي على رأيها. وكان الخليفة هارون الرشيد يقول: أريد القرب من زوجتي، أم جعفر، وأهابها، وأهاب الجلوس على فراشها تعظيماً لها. وكان ابنه المأمون كذلك يروى عنه في هذا المعنى ما هو أعظم منه، مع كونه سلطان أهل الأرض. وفي ذلك يقول:

عجباً يهاب الليث حدَّ سناني وأهـابُ سـحر فـواتر الأجفـان
ما لي تطاوعني البرية كلّـــها وأطيعهنّ وهـنّ في عليـان

وكان نساء النبي (ﷺ) يراجعنه في الكلام ويصبر إكراماً لهنّ وأنا عبد الله، كانت ابنة عمي تغضب عليَّ وتواجهني بما يكره وأصبر لها، وفي حقّها قلت قصيدة:

وأخضع ذِلّةً فتزيد تيهاً وفي هجري أراها في اشتداد
فما تنفكّ عنّي ذات عزٍّ وما أنفكُّ في ذلّي أنادي
ومن عجبٍ تهابُ الأسد بطشي ويمنعني غزالٌ عن مرادي

وقولكم: "وزوجها لا يشاورها"، اعلم أن العرب يحبون النساء محبّة عظيمةً، ويطلقون لهنَّ التصرُّف في البيت، بحيث تكون المرأة في بيتها مثل الحاكم الذي أُطلق له التّصرُّف في الرّعية، ولا يخاف تعقّباً في حكمه. ولا بدَّ للرّجل أن يشاور زوجته في أُمور بيته. ويسلّم لها شؤونها لتهتم بها وتدبّرها. ومن عادة العرب، يجتمع العيال الكثير، في البيت الواحد إلى عشرين نفساً وأكثر، وتحكم في جميع العيال؛ امرأةٌ واحدة وتدبّر لهم أُمورهم. وكان في عيال والدي (رحمه الله) أكثر من ستّين نفساً، ووالدتي هي التي تحكم فيهم، وتنظر في أمورهم من أكلٍ وكسوةٍ وغير ذلك، ووالدي لا يدخل في شيء من ذلك. وإنما يمثل أمرها. وأمّا الأمور التي هي خارجة عن البيت وهي من وظائف الرجال، فالعرب يكرهون مشاورة المرأة فيها لأن الغالب على النساء الجبن والبخل، وهما من أحسن صفاتهن ومن أقبح صفات الرجال، إذ المدح والمزايا لا ينالها الرجل إلاّ بالشجاعة والسخاء، والنساء لا يشرن بشيءٍ فيه إتلاف النفس والمال. قال بعضهم:

لا يبلغ المجدَ إلاّ سيِّدٌ فطن لما يشقّ على الأيام فعّال
لولا المشقّةُ ساد الناس كلّهم الجودُ يفقر والإقدام قتّال

السؤال التاسع

الذي يظهر أن غَيْرة المسلمين غيرة زائدة حتى إن نسائهم لا يخرجن إلاّ متلحِّفات ولا يظهرن لأصدقاء أزواجهن ولا لأقاربهنّ كابن العم وابن الخال مثلاً. ونحن عندنا، النساء يخرجن باديات الوجوه، وبحضورهنّ مع الأحباب والأقارب يتمّ البسط. ويحصل السرور. وبذلك يعشن مع أزواجهن في دعةٍ وهناءٍ. فكيف الأمر عندكم؟ وما الأفضل؟ عاداتنا أم عاداتكم؟

الجواب

إن غيرة المسلمين ليست بزائدة وإنما هي في ميزان الوسط. والغيرة إذا كانت كذلك، فهي محمودة. وهي أن لا يتغافل الرجل عن مبادئِ الأمور التي يخاف عاقبتها، ولا يبالغ في إساءة الظنّ بزوجته، ويراقب حركاتها وسكناتها، أو يتجسّس عليها. فإن هذا ليس من مكارم الأخلاق. ومن كلام العرب قولهم: لا تبالغ في الغيرة على زوجتك؛ فيرميها الناس بالزنا من أجلك. والغيرة الممدوحة لا تكون إلاّ في أشراف الناس وأعلاهم همّةً لأن الله تعالى جعل الغيرة في الإنسان سبباً لحفظ الأنساب. قال الحكماءُ: كلُّ أمَّةٍ كانت الغيرة في رجالها، كانت الصيانة في نسائها. والغيرة في القلب مثل القوّة التي في البدن، تدفع المرض وتقاومه. فإذا ذهبت القوّة، كان الهلاك. وإذا ذهبت الغيرة، كان الفساد. رأى بعضُ العرب امرأته أكلت بعض

تفاحة ورمت بباقيها إلى خادمها، فضربها. وأكثر الحيوانات غيرةً حمار الوحش. فإنَّه إذا رأى الولد ذكراً، قطع آلته وأنثييه.

وقولكم: نساءُ المسلمين لا يخرجن إلاّ متلحِّفات، اعلم أن المرأة يجوز لها في الشرع أن تخرج لقضاء حوائجها، باديةً الوجه واليدين، ولو كانت شابّةً جميلة. ويجوز للرجل أن يرى من المرأة الأجنبية الوجه واليدين، إلاّ إذا قصد برؤيتها الشهوة واللذة، فيحرم عليه. ولما كثر الفساد، وقلّت المروءة وكثرت الفاحشة، صار أشراف الناس وأهل الديانة يأمرون نسائهم بتغطية وجوههنّ دائماً. وكان عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) إذا رأى امرأةً متلحفةً مغطّيةً وجهها، يأمرها بكشف وجهها له. فإن رآها جميلةً، قال لها: غطّ وجهك. وإن رآها قبيحةً، قال لها: اكشفي وجهك.

وقولكم: "ولا يظهرن لأصدقاء أزواجهن، ولا لأقاربهم، ولا لأقاربهن"،

اعلم أنّ العرب كانوا في الجاهليّة، يتحدّث الرجال منهم مع النساء ويجتمعون معهن، حضر أزواجهن أو غابوا. وليس عندهم، في ذلك، عيبٌ ولا عارٌ إلى أن جاء الإسلام، فمنع ذلك.

قال رسول الله (ﷺ): "لا تتبع النظرة. فإن مبدأ الزنا معاودة النظرة". وقال عيسى بن مريم: إياكم والنظر فإنه يزرع في القلب الشهوة. وأول العشق النظر، وأول الحريق الشرر. وقال حكيمٌ لصيادٍ رآه يتكلّم مع امرأةٍ: يا صياد الوحوش، إحذر أن تصيدك هذه المرأة. وقال بعض الحكماء: النظر إلى المرأة سهمٌ، والكلام معها سمٌّ.

ومعلومٌ أن النساءَ لحم يشتهيه كل رجل. وإذا دعا الرجل المرأة إلى نفسه، فالغالب عليها الإجابة، لا سيّما إذا كان الرجل شاباًّ، جميلاً، صاحب مال. فخصّهنّ الله بالحجاب وقطع الكلام معهنّ وأمر بمباعدة أجسادهنَّ عن أجسادِ الرِّجال. وفي المثل ثلاثةٌ لا تؤمن على ثلاثةٍ: شابٌّ على امرأةٍ وامرأةٌ على سرٍّ. وفقيرٌ على مالٍ. وقال بعض الشعراء:

لا تأمننَّ على النّساء ولو أخاً   ما في الرِّجال على النِّساء أمين

وقولكم: "النِّساءُ عندنا يخرجن باديات الوجوه ويحضرن المحافلَ مع أزواجهنّ"، اعلم أن محبة العرب للنساء شيء عظيم. وما أظنُّ أن جنسا في الدنيا يحب النساء كمحبة العرب لهنّ. فلا يمكن أن يرى الرجل المرأة الجميلة ويبقى قلبه مستريحاً أبداً. فإذا كان يخاف الله، وصاحب مروءة، فإنّه يبقى مع نفسه في قتالٍ دائم، ويحصل له تعب عظيم. وإذا كان لا يخاف الله ولا مروءة له، فإنه يبقى مشغول الفكر في معاودة النظر إليها والتحدث معها والقرب منها، وكيف الحيلة في الوصول إلى قضاء وطره منها. وربّما لا تمكنه معاودة النظر إليها مرة أخرى لأسباب تمنعه من ذلك؛ فيبقى حيران وتضيع مصالحه كلّها. وعندنا، في الشرع، إذا لبست المرأة الثّياب الجميلة ومرّت على الرِّجال لينظروا إليها، فإنها زانيةٌ آثمة لأنّها تشوِّش أفكار الرِّجال بسب نظرهم إليها. وذلك يؤدي إلى حصول المعصية من الرِّجال. وكذلك المرأة إذا حضرت مجالسِ الرجال، ربما يكون زوجها قبيح المنظر أو شيخاً، وترى شاباً جميلاً فإن قلبها يتعلّق به.

وكذلك إذا حضرت مواضع الرّقص والغناء من الرجال، فإن ذلك يفسدها ويحرِّك شهوتها. ومن المعلوم عند كل أحد أن الحصان إذا صهل، أصغت له الحجرة ورمت الماء من فرجها. وإذا هدر الفحل، قامت الناقة وبركت بقربه. وإذا غنّى الرجل، أصغت المرأة وتمنّت أن تكون هي التي يُغني بها. وقال بعض الحكماء: ليس بشيءٍ أضرّ على النِّساء من الخروج. وليس شيءٌ خيراً لهنّ من البيوت. والغالب أنّ المرأة، إذا خرجت إلى مجامع الرجال والنساء ومحافل الزهو، لا ترجع سالمة القلب. وأقل مفسدةٍ في ذلك أن ترى المرأة غيرها لابسةً حلياً وثياباً أحسن ممّا عندها، فتسخط على زوجها. وتكره عيشتها عنده. فلهذا، كان المسلمون أهل الدين والمروءة، يجنِّبون نسائهم سماع الغناء من الرجال وحضور اللعب والرقص من الرجال، والنظر إلى الرجال الأجانب، وسماع حكاياتهم ومجالسة النِّساء اللواتي يعلمن ذلك، لا سيما العجائز. وقال بعض الحكماء: الوجه الذي يغني عن الغيرة هو أن لا تخرج المرأة إلى مجامع الرجال ولا يدخلون عليها.

ويحكى عن امرأة من الصالحات، قالت: كنت جالسة مع زوجي في طاق على الزقاق، فمرَّ رجلٌ شابٌّ جميل الصورة. فكنت أنظر إليه وإلى زوجي، فصار زوجي في عينيَّ مثل القرد أو الخنزير أو الكلب. ثم تبتُ إلى الله تعالى من الجلوس في الطاق من ذلك اليوم. قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لابنته فاطمة الزهراء رضي الله عنها: "أيُّ شيءٍ خيرٌ للمرأة؟ فقالت: هو أن لا يراها الرجال ولا تراهم". فقبل ما بين عينيها، استحساناً لكلامها. ولكن أنتم معشر

الإفرنج، لمّا كنتم من حين ينشأ الرجل منكم إلى أن يشيب، يجتمع مع النساء ويجالسهنَّ ليلاً ونهاراً في البيوت والأسواق ومواضع اللّعب وفي الطُّرق، والنساء كذلك، ضعفت محبّة الرِّجال للنِّساء والنِّساءُ للرِّجال وقلّت الشَّهوة لأن الشهوة إنما تثور بقوة الإحساس واللمس بالنظر. والإحساس إنما يقوى بالأمر الغريب الجديد. فأما الذي دام النّظر إليه مدّةً، فإنه يضعف الحيّ عن تمام إدراكه، فلا تثور به الشهوة. فأنتم ،مع الاجتماع الدائم، في راحةٍ من العشق.

السؤال العاشر

كيف بالعرب يزوِّجون بناهم صغاراً وربما يكون ذلك قبل البلوغ. والمرادِ من التّزويج الذّريّة. والصَّغيرة التي لم تبلغ، لا تحصل منها ذرِّية. فهل ذلك جائز في شرعكم أم لا؟ وربما تلد المرأة، وهي بنت اثني عشر أو ثلاثة عشر. فلا تقدر على ترقية الولد وتربيته. وعندنا لا يزوّجن صغاراً بل كباراً حتى لا تفسد صحّتهن ولا شبابهنَّ، وليكون أولادهنَّ صحاح الأجسام. وقد رأينا المسلمين يتزوّجون كثيراً ولا نرى لهم كثرة أولاد ولا رعيّة بخلاف غيرهم فإنهم يتزوّجون قليلاً ومع ذلك تكثر أولادهم، وبكثرتهم تكثر الرّعيَّة.

الجواب

اعلم أن العرب لا يزوجون بناهم صغاراً إلاّ لفائدة وهي إما أن تكون للزوج أو لوليّ البنت. فأما فائدة الزوج، فإن البنت إذا كانت ابنة أكابر ،إماّ بالشرف، أو بالمال، فإن الرجال يرغبون في نكاحها

ويتسابقون إليها. فكلٌّ واحد يخاف أن يسبقه إليها غيره. فيبادرون إلى إحرازها. ومن مقاصد النكاح وفوائده عند العرب، التَّعزُّز بعشيرة المرأة. فإن ذلك ممَّا يحتاج إليه في دفع طوارئ الشرور وطلب السلامة. ولهذا يقولون: ذَلَّ من لا ناصر له، ومن وجد من يدفع عنه المضار، سلم حاله وفرغ قلبه من الهموم. فإن الذلّ مشوِّش للقلب، والعزّ بالكثرة دافعٌ لذلك. وأماّ فائدة وليّ البنت، فإن الرجل قد يزوج ابنته صغيرة لأحد أمرين.

أحدهما أن يكون له أولاد غير البنت، فيخاف إذا تزوجها غريب أن يضر بأولاده، من جهة أن البنت تشاركهم في مال أبيهم والمشاركة في الدار والبستان ونحو ذلك، يصير في الغالب منها ضررٌ بين الشريكين. ورأي المرأة في يد زوجها. فلهذا يبادر الرجل ويزوج ابنته من ابن أخيه أو ابن عمِّه أو ممّن يظنّ فيه أنه يرفق بأولاده ولا يضرَّهم.

الثاني أن بعض الناس يخاف من الطعن في ابنته وتهمتها بالقبيح فيزوّجها ويستريح. وتزويج الصغيرة جائزٌ في شرعنا، إذا لم تكن يتيمة. أما إذا كانت يتيمة، فإنها لا تتزوج صغيرةً؛ إلاّ إذا خيف عليها الفساد. وتزويج الصغيرة جائز في الشرائع القديمة. ففي التوراة: إذا بلغت البنت اثني عشرة سنة، فلم يزوّجها أبوها، فأثمت البنت إثماً؛ فإثم ذلك عليه لأنه هو السبب في تأخير تزويجها.

وفوائد التزويج ليست محصورة في طلب الذرّية فقط، بل له فوائد كثيرة منها: التّعزز بعشيرة المرأة كما تقدم، ومنها ترويح النفس

وإيناسها بالمجالسة والنظر والملاعبة. وفي ذلك كلّه إراحة للقلب، وتقوية له على الأعمال التي تشقّ النفس، ومنها التحصّن عن الشيطان ودفع مهلكات الشهوة وغضّ البصر وحفظ الفرج، ومنها رياضة النفس ومجاهدتها برعاية الزوجة والقيام بحقوقها والصبر على أخلاقها، ومنها تفريغ القلب من تدبير المترل والتكفل بشغل الطبخ، وتهيئة أسباب المعيشة، ولوازم البيت... وبنات العرب يسرع إليهن البلوغ.فكثيرٌ منهنَّ تبلغ في تسع سنين ويأتيها الحيض. قال الإمام الشافعي رضي الله عنه رأيت امرأةً ابنة إحدى وعشرين سنة، وهي جدّة. وكذا الرجال يسرع إليهم البلوغ. كان عبد الله بن عمر بن العاص بين ولادته وولادة أبيه، إحدى عشرة سنة. ولنساء العرب خصوصيات. فتحمل المرأة العربية وهي بنت خمسين سنة، وتحمل المرأة القرشية في سنٍّ الستين. ولا يوجد هذا في غير نساء العرب. ومن قريش، الشيخ عبد القادر الجيلاني قدس الله سره: ولدته أمه فاطمة وهي في سن الستين. ومنهم، موسى بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى: ولدته أمّه هند وعمرها ستّون سنة. وهم كثيرون لا يحصون... وقولكم: " ربما تلد البنت في اثني عشر عاماً"، فاعلموا أن البنت لا تتزوج صغيرة في الغالب إلاّ إذا كان أبوها أو زوجها صاحب مال كثير. وإذا ولدت صغيرة، لا تتعب في تربية الولد. وتكون لأولادها مربيات ومرضعات.

وقولكم: "وعندنا البنات لا يتزوجن صغاراً إلى آخر كلامكم" هو كما قلتم. ولكن المرأة، إذا تأخر ي تزويجها إلى عشرين، سنة أو نيّف

وعشرين، يحصل منها الزنى غالباً، لا سيّما إذا كانت تخرج. وترى الرجال وتجالسهم. وكذلك الرجل، إذا تأخر تزويجه، لأن الإنسان ،سواء كان رجلا أو امرأة إذا اجتمعت شهوته، ولم يجد لوضعها محلاّ حلالاً بالتزويج، يطلب لها محلاً حراما بالزنى. ولا يقدر على الصبر إلاّ القليل من الرجال والنساء.

وعادة العرب، إذا تزوّج الرجل المرأة على أنها بكر ثم وجدها غير بكر، يطلّقها في الحال. وإذا استحيى من أهلها، يبقيها، ولا قلب له فيها ولا محبة منه إليها.

وقولكم: "وقد رأينا المسلمين يتزوجون كثيرا ولا نرى لهم كثرة أولاد ولا رعية"، اعلم بأن قلة الرعية ليست لقلة ولادة نسائهم وإنما لعدم استعمال الأسباب التي يكون بها بقاء أولادهم، ومن عدم معرفتهم بحسن تربية الأولاد ومداراتهم حتى تطول أعمارهم، وهذا بإرادة الله تعالى.

السؤال الحادي عشر

إن الطلاق عند المسلمين كثير وعندنا لا يكون أبدا. ونحن نلومهم على ذلك لما فيه من الضرر على النساء وعلى الأولاد أيضا، لكونهم يقعون في يد من لا يرحم كوالدهم.

الجواب

الغالب خفاء بعض عيوب الزوجين من الرجل والمرأة، إما في الخلقة أو الطبيعة. فإذا ازدوج الرجل والمرأة وتعاشرا أو اطّلعا على ما كان

خفيا مغيّبا، ربّما يظهر بعض العيوب لأحد الزوجين. فجعل الله الطلاق راحة للذي يحب الفراق منهما. وجعل الله الطلاق بيد الرجل لشرفه. وأذِن الله للمرأة أن تطلب الطلاق من زوجها إذا حصل لها من جهته ضرر.

والطّلاق؛ مباحٌ في الأديان القديمة. ففي التوراة، في الإصحاح الحادي والعشرين، في سفر الخروج: إن استقبح سيّدها زواجها، فليطلّقها. وفي سفر الأحبار، في الإصحاح الثاني والعشرين: إن طلّقت بنت الكاهن ولم يكن لها أولاد ورجعت إلى بيت والدها، تأكل من القدس. فعلم من هذا أن الطلاق ليس خاصاً بالمسلمين.

وفي الطلاق منافع وأضرار. أمَّا المنافع فكما ذكرنا...وأما الأضرار فكما ذكرتم. وهو مباحٌ إذا لم يحصل منه إيذاء للمرأة بالباطل. وعلى كلّ حال، فإنه لا يخلو من الأذى. ولذلك قال رسول الله (ﷺ): "تزوجوا ولا تطلّقوا. فإن الطلاق يهتزّ منه العرش". وقال: "تزوّجوا ولا تطلقوا. فإن الله لا يحبّ الذواقين والذواقات" لأن المقصود من النكاح النسل ودوام العشرة وحصول الألفة، والطلاق يهدم جميع ذلك. ومن منافع الطلاق، من جهة أن الرجل، ربما لا توافقه المرأة لعيب في خلقها، أو طبيعتها. فإذا لم يطلّقها، يبقى معذّبا بها، مشغولا ظاهراً وباطناً بسببها. يقول العرب في المثل: إذا لم يكن وفاق ففراق. ويقولون: دواءُ ما لا تشتهيه النفس الفراق. والعيش لا يطيب بين اثنين من غير اتفاق. ويقولون: قلع الضرس

المسوّس يريح، ومن طلّق امرأة السوء يستريح. فالطلاق راحةٌ للرجل إن كانت امرأته خبيثةً أو معيبةً، وراحةٌ للمرأة إن كان زوجها خبيثاً أو معيباً. والرجل إذا طلّق امرأته وكان بينهما أولاد، فإن الشرع أوجب على الزوج أن ينفق عليها وعلى أولادها منه حتى يبلغ الولد إن كان ذكراً، وحتى تتزوج البنت ويدخل بها زوجها. فلا ضررَ على الأولاد إذا طلّقت أمّهم وكان أبوهم متّبعاً للشرع.

السؤال الثاني عشر

إن المسلمين لا يورثون البنت مثل الذكر. وكيف ذلك والكلّ أولاده؟

الجواب

إن الله تعالى هو الذي قسم الميراث ونزل به القرآن العظيم، فجعل للذكر قسمتين وللأنثى قسمةً واحدةً. وبذلك فضّل الله الذكور على الإناث كما فضّلهم بالقوّة عليهنّ والصبر على المشقات، وفضلهم أيضاً بعظائم الأمور كالسلطنة ومباشرة القتال وتولية الأعمال والمناصب الدينية والدنيوية.. والرجل يحارب ويدافع عن بلاده. وعشيرته. فهو محتاج إلى زيادة القسمة ليستعين بها على ذلك. ولأنّ الرجل، إذا كان في قسمته زيادة، ينفق على النساء من أقاربه إذا احتجن إلى ذلك، بخلاف المرأة، فإنها لا تنفع إلاّ نفسها في الغالب. وأماّ في غير الميراث، فإنه يجب على الرجل أن يسوي بين أولاده في العطية. قال رسول الله (ﷺ) : "اتقوا الله واعدلوا بين

أولادكم". وجاء رجل قال له: اشهد عليَّ أني أعطيت لولدي فلان كذا وكذا.. فقال رسول الله (ﷺ) : أعطيت أولادك كلّهم مثله؟ قال: لا. فقال: إنّنا لا نشهد الجور.

السؤال الثالث عشر

إن نساءنا يدخلن المدارس ويتعلّمن الكتابة ويحصلن المعارف والآداب، بخلاف نساء العرب. وإن العربيّة، إذا تلاقت مع غيرها تكون غير عارفة ولا كيِّسة. والمومسات من العرب، ما أوقعهن في الفساد إلاّ عدم معرفتهن. وإن نساء العرب هنَّ أعرف النساء بآداب المحبّة.

الجواب

اعلم أن الكتابةَ مثلُ السيف، مِن وظائف الرجال لا من لوازم النساء. فالكتابة إنما يحتاجَ إليها الرجال، يجمعون العلوم ويقيِّدون الحكم ويضبطون الخراج ويحفظون تواريخ الأمم وأخبارهم. فالكتابة قيدٌ للعلوم وما يحتاج فيه إلى النقل والرواية. فإن عقلَ الإنسان الواحد لا يقدر على استنباط العلوم الكثيرة ولا على حفظها. فصار إذا استنبط مقداراً من العلوم، قيّده. وكذلك إذا استفاد شيئاً مِن غيره... وأما النساء فلا يؤلّفن كتاباً ولا يستنبطن صناعةً ولا فائدةً، فيحتجن إلى تقييدها بالكتابة لينتفع بها الناس.ولا يتولّى النساء قبض خراج ولا صرف مال في مصارفه ولا بشيء من الوظائف التي تحتاج إلى الكتابة. فلا فائدة في تعليم النساء الكتابة، بل فيها ضررٌ كبير لأن الكتابة عين العيون، بها يبصر الشاهدُ الغائبَ. وفي الكتابة تعبيرٌ عن الضمير بما لا ينطق به اللسان، بل الكتابة أبلغ مِن اللسان. فإنّ الإنسان يقدر على كتابةِ ما لا يقدر أن يخاطب بهَ غيره ويبلغ

المقصود حيث لا يمكن الكلامُ مشافهةً. فقد تكون المرأة لا تقدر على لقاء من تهواه ولا تقدر على أن تتكلّم معه بحضرة الغير. وكذلك الرجل، فقد لا يجد سبيلاً إلى لقاء من يهواها والكلام معها بحضرة غيره. فإذا كانت المرأة عارفةً بالكتابة سهل طريق الزنى بينهما بسبب الكتابة. فلهذا نهى شرع الإسلام عن تعليم النساء الكتابة، وهو حقٌّ لا ينكره عاقلٌ. فتعليم الكتابة واجبٌ على الرجال في حقٍّ النساء. قال بعض حكماء العرب: ليس للنساءِ الكتابة والخطابة، بل هما وما ماثلهما للرجال.

وأماً النساء فلهنّ على الرجال أن لا يبيّتوهن إلاّ على جنابةٍ.

وقولكم:" إنّ العربية إذا تلاقت مع غيرها، تكون غير عارفةٍ، ولا كيِّسة"، فاعلموا أن العربيات، إنّما يتعلّمن الأدب، الذيٍ يليق بأزواجهن، وتصلح به العشرة بين الفريقين، وتجلب قلوب الأزواج إليهنَّ. فكان نساء العرب يعلِّمن بناتهن الأدب مع الأزواج. قالت امرأة لابنتها: يا بنية، لو استغنت امرأة عن زوجها لغناها لكنتِ أغنى النساء عن الرجال، ولكنّ النساء خلقن للرجال كما أن الرجال خلقوا للنساء. كوني لزوجكِ أرضاً، يكن لك سماءً. وكوني له وطاءً، يكن لك غطاءً. واصحبيه بالقناعة وعاشريه بالسمع والطاعة ولا تغفلي عن موضع نظره ولا موقع أنفه. فلا تقع عينه على قبيحٍ منك. ولا يشمُّ منك إلاّ ريحاً طيبة. ولا تغفلي عن وقت طعامه، ولا عن موضع منامه. فإن حرارة الجوع تلهبه، وتنغيص النوم

ينغّصه. واحفظي ماله. وتفقدي خدَّامه وعياله. ولا تفرحي إذا كان حزيناً. ولا تحزني إذا كان فرحاً. وعلى قدر تعظيمك له، يكون إكرامه لكِ. وقدِّمي ما يحبّه على الذي تُحبّينه أنت... وقالت امرأة أخرى لابنتها: يا بنية، إنّ الوصيّة، لو تُرِكَتْ لزيادة أدب، لتركت لك، ولكن الوصية تذكرةٌ للغافل، ومعونةٌ للعاقل. يا بنية لا تعصي لزوجك أمراً ولا تفشي له سراً وكوني أكثر الناس لزوجك إعظاماً، يكن أكثر الناس لك إكراماً وكوني أكثر الناس له موافقة، يكن أحسن الناس لك مرافقةً. ولا تصلين إلى رضا زوجك حتى تقدّمي ما يحبّه هو على ما تحبين أنت... ومن قول العرب: يلزم أن تكون المرأة فوق الرجل في ثلاثة أشياء وإلاّ احتقرها: " الأدب والجمال والصبر"... وقالت امرأة لابنتها: لا تقربي من الرجل دائماً، فيملّك ولا تبعدي عنه فينساك. إن دنا منك فاقربي منه، وإن نأى عنك فابعدي عنه. واحفظي سمعه وبصره. فلا يسمع من كلامك إلاّ حسناً، ولا ينظر منك إلاّ جميلاً، ولا تتكلّمي عند غضبه. وكوني دائما في قعر بيتك ملازمة لشغلك، ولا تكثري الكلام مع جيرانك ولا تدخلي عليهم إلاّ لحاجة. واحفظي زوجك في غيبته وحضوره، في نفسه وماله ولا تخرجي من البيت إلاّ بإذنه، ولا تطلبي معرفة أصحابه. وكوني قصيرة اللسان، عن سبِّ الأولاد والخدَّام، ومراجعة الزوج في الكلام... وقالت امرأة لابنتها: لازمي الانقباض إذا غاب زوجك. والعبي وانبسطي إذا حضر. ولا تتكبّري عليه بالجمال. ولا

تحتقريه لقبح وجهه. واطلبي ما يفرح زوجك في جميع الأقوال والأفعال. ولا تجعلي همك إلاّ في إصلاح شأنك وتدبير بيتك.

فهذه الآداب وأمثالها هي التي تتعلّمها نساء العرب. وأما الأدب مع الرجال الأجانب، فإن نساء العرب لا يعرفنه، وذلك لأنهن لا يجتمعن بالرجال الأجانب في الملاعب ومواضع الرقص والغناء كما يفعل نساء الإفرنج. ولا يفعل ذلك إلاّ الزانيات. قال بعض حكماء العرب: شرُّ خصال الرجال خير خصال النساء: " الكبرُ والبخل والجبن". فإن المرأة إذا كانت متكبِّرة، أنفت أن تكلم كلَّ أحد من الرجال بكلام لين. وإذا غلب عليها الجبن، خافت من كلِّ شيءٍ، فلم تخرج من بيتها. وإذا كانت بخيلةً، حفظت مالها ومال زوجها.

وقولكم: "المومسات من العرب ما أوقعهن في الفساد إلاّ عدم معرفتهن"، اعلم أن الزنى، إنما يقع من النساء اللواتي ينتسبن إلى العرب، ولسن بعربيات أصليات. فإن نساء العرب في الجاهلية كن لا يعرفن الزنى رأساً. وإنما يزني عند العرب الإماء. حتى إنه، لما نزل قول الله تعالى في القرآن: "إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين"[1].. قالت امرأة من الحاضرات: أو تزني الحرّة، يا رسول الله؟ فقد استبعدت الزنى من الحرة. وكان العرب في الجاهلية لهم عفّةٌ عن الزنى، رجالاً ونساءً. فلا تخون المرأة زوجها ولا يخون الرجل زوجته. فكيف بهم في الإسلام الذي جاء بتحريم الزنى وشدّة العقاب لمرتكبه.

---

1 ـ سورة الممتحنة، الآية 12.

وقولكم: "إن نساء العرب هنَّ أعرف النساء بآداب المحبّة". سألت أمُّ البنين، زوجة عبد الملك بن مروان، ليلى الأخيليّة عن عشق العرب. فقالت لها: يرى الرجل المرأة وتراه. فيعشقها وتعشقه. فإذا ساعدهما الوقت وتلاقيا، لا يشتغلان إلاّ بذكر ما لقيا من الحبّ لبعضهما بعضا. ويشكو كلّ منهما الشوق إلى صاحبه. ويتناشدان الأشعار. فقالت لها أمّ البنين: ولا يكون بينهما زنى؟ فقالت لها: النكاح شأن من يطلب الولد، لا شأن المحبّين، وإذا وقع الجماع، فسد الحبّ. وبالجملة، فإنّ نساء العرب، في هذا المعنى، لهم حكاياتٌ عجيبة تدلّ على أن محبّتهن قلبية روحانية، لا جسمية كما زعمتم. ولولا خوف التطويل، لذكرنا لكم جملةً منها.

السؤال الرابع عشر

نساء المسلمين لا يدخلن المساجد للصلاة. وأماّ نساء النصارى فيدخلن الكنائس ويتعبّدن مع الرجال.

الجواب

إن شرع الإسلام ما نهى النساء عن دخول المساجد ولا منعهن عن الصلاة فيها. وكانت النساء في زمان رسول الله (ﷺ) يصلّين معه في المسجد الشريف. وكان يقول لأصحابه رضي الله عنهم: "لا تمنعوا إماء الله من مساجد الله" فيجوز للنساء الخروج إلى المساجد والصلاة فيها ليلاً ونهارا، لكن بشروط، منها أن لا تكون متطيِّبة بطيب له رائحة يشمّها الرجال، ومنها أن لا تكون متزيِّنةً بشيءٍ من

أنواع الزينة، ومنها أن لا يكون لها خلاخل تسمع صوتها الرجال، ومنها أن لا تكشف وجهها إذا كانت شابّة جميلة يعشقها من رآها من الرجال. وبهذه الشروط، كانت النساء يخرجن إلى المسجد، ويصلين مع رسول الله (ﷺ). فإذا انعدم شرط واحد من هذه الشروط، حرِّم على المرأة الخروج إلى المسجد. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه شديد الغيرة. وكانت زوجته تخرج إلى الجامع في الليل والنهار لأجل الصلاة، ولم يقدر على منعها ظاهراً، لنهي رسول الله (ﷺ) عن منع النساء من الخروج إلى المساجد كما قلنا. فعمل الحيلة في منعها وذلك أنه تعرّض لها في طريق الجامع، في ليلة مظلمة، وقبض يده على ثديها، ولم تعرفه. فكانت بعد ذلك لا تخرج فيقول لها: لم لا تخرجين إلى الجامع لتصلي فيه؟ فتقول: لا أخرج. فقد فسد الزمان، ظناً منها أن الذي تعرّض لها وقبض على ثديها رجلٌ أجنبي.

السؤال الخامس عشر

يقال إن المسلمين يمنعون نساءهم من الدخول إلى المساجد إذا كنَّ صغيرات وجميلات، ولا يمنعونهن من السفر إلى الحجّ.

الجواب

قد ذكرنا لكم أنه لا يجوز منع النساء عن الدخول إلى المساجد بالشروط التي قدّمنا ذكرها. وأما تسريحهن إلى الحجّ، فلا تسافر المرأة إلى الحجّ، إلاّ إذا كان معها زوجها أو رجل محرم لها، وهو الذي يحرم

عليه أن يتزوج بها شرعا كابنها وأبيها وعمها وأخيها وخالها وابن أختها وابن أخيها. وأما إذا لم يكن معها زوجها، ولا محرمٌ، فلا تحجّ، ولا يلزمها حجّ ولو كان عندها مالٌ كثير.

السؤال السادس عشر

بلغنا أنّ بعض الناس يقولون إن النساء لا يدخلن الجنّة. فلا بدّ أن توضّحوا لنا هذا الإشكال.

الجواب

إن هذا القول كذبٌ بحتٌ وافتراءٌ صرفٌ. فالنساء يدخلن الجنّة ويكنَّ مع أزواجهن في منازلهم، إذا كان زوجها من أهل الجنّة. وأما إن كان زوجها من أهل النار وهي من أهل السعادة، فإن الله تعالى يزوّجها برجلٍ من الجنة. وإذا تزوجت المرأة في الدنيا برجلين أو ثلاثة، فإن كان الأزواج كلهم من أهل الجنة، فإن الله يخيِّرها. فالزوج الذي تختاره، تكون معه. وإن كان بعضهم في الجنة، والبعض الآخر في النّار، فإنها تكون للذي في الجنّة.

السؤال السابع عشر

بلغنا أن المسلمة إذا ماتت لا يخرج الناس في جنازتها مثل الرجل فهل لهذا صحّة أم هو محض كذب؟

الجواب

هذا كذبٌ مِن قائله، بل لا فرق في الخروج مع الجنازة بين جنازة الرجل وجنازة المرأة. وإنما الممنوع خروج النساء مع الجنازة سواءٌ كانت جنازة رجلٍ أو جنازة امرأة لأنّ النساء لا يحفرن قبراً. ولا يحملن تابوتاً ولا يغسلن ميتا. فلا فائدة في خروجهن... بل فيه تشويش قلوب الرجال بالنظر إليهن وإلى محاسنهن؛ والقبور محل موعظة، يتذكرّ الإنسان فيه كيف يفارق الأحباب، وكيف يصير إلى التراب. وحضور النساء يشغل عن هذا.

السؤال الثامن عشر

إن كثيراً من المسلمين لا يأنفون من تزوج المرأة المومسة إذا تابت. ولا ينقص ذلك من قدره بخلاف النصارى، فإن الذي يتزوج بالمومسة منهم يبتذل بين الناس ولا يبقى له اعتبار عندهم.

الجواب

إنه لا يتزوج بالمرأة المومسة عندنا إلاّ أخسّ الناس وأرذلهم. والشرع نهى عن تزويجها. قال الله تعالى: الخبيثات للخبيثين، أي الزانيات للزانين. وقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): إياكم وخضراء الدِّمن. قالوا: وما خضراء الدمن؟ قال: المرأة الحسناء، في المنبت السوء. معناه باعدوا المرأة الفاسدة ولا تتزوّجوها. شبّه المرأة الجميلة الفاسدة بالخضرة التي تنبت على المزابل ومواضع القذر. فإن ظاهره زينٌ وباطنه شينٌ. ومن كلام حكماء العرب: لا تتزوّجوا

العاهر، ولا المختلعة، ولا المبارية، ولا الناشز، ولا الأنّانة ولا المنّانة، ولا الحنانة، ولا الحدّاقة، ولا البرّاقة، ولا الشدّاقة. أمّا العاهر فهي الزانية. وأما المختلعة فهي التي تطلب الطّلاق من زوجها كلّ ساعة. وأما المبارية فهي التي تفتخر على زوجها بمالها ونسبها. وأما الناشز فهي التي تعلو على زوجها في الكلام. وأما الأنانة فهي التي تكثر الأنين والتشكي، وتعصب رأسها كلّ ساعة. وأما المنانة فهي التي تمنّ على زوجها، فتقول له: فعلت لأجلك كذا. وأما الحداقة فهي التي ترمي بحدقتها إلى كل شيء وتشتهيه، وتكلّف زوجها شراءه. وأما البراقة فهي التي تكون طول النهار في تصقيل وجهها ليكون له بريق، ولا تشتغل بمصالح بيتها. وأما الشداقة فهي التي تكثر الكلام، والتصنع فيه. وإذا كانت المرأة متولّدة من زنى، فالشرع يمنع من التزوج بها.

السؤال التاسع عشر

هل العرب يطلقون المرأة التي لا يربحون عليها بغير سببٍ آخر أم ذلك كذب؟

الجواب

إن هذا كان في العرب وقت الجاهلية. ويقولون: أقصاص أو نواص أو بعض الذراري. يعنون بذلك أن الربح واليمن والخسران والنحس يكون على قصّة المرأة، وناصية الفرس، والمولود. ولما جاء الإسلام أبطله. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا طيرة ولا عدوى" فقال رجل: يا رسول الله، فما بال الإبل، تكون كأنها الغزلان. فإذا

دخلها بعير أجرب، جربت. فقال له رسول الله (ﷺ): ومن أعدى الأول؟ ولكن بقيت هذه العادة الجاهلية عند بعض الجهلة من المسلمين الذين دينهم ضعيف. وأما أهل الدين الصحيح القوي، فإنهم يعتقدون أن الله تعالى يفعل ما يريد بالعبد، من ربح وخسران، ومن خير أو شر، لا مدخل للمرأة ولا للفرس ولا للولد ولا للدار ولا لشيء من المخلوقات فيه. فلا ينفع ولا يضرّ إلاّ الله تعالى.

السؤال الموفي للعشرين

المرأة عند النصارى يسرّها ما يسرُّ الجنس ويحزنها ما يحزن الجنس. وكلامها مع زوجها يقوّيه على الحرب وعلى فعل الخير مع جنسه، والدفاع عن بلاده. وأما المسلمة فقد بلغنا أنها لا تلتفتُ إلى ذلك. ولا يؤثّر فيها.

الجواب

إنّ هذا الذي ذكرتموه في نساء النصارى هو موجود في نساء العرب أكثر، بما لا يتقارب حتى إن العربيات، إذا وقع لرجالهن هزيمة، أو حصل فيهم قتل، لا تترك الواحدة منهن زوجها يقبلها، ولا يجامعها حتى يأخذ بثأره من عدوِّه. وكان نساء العرب لا يبكين المقتول إلاّ بعد أن يؤخذ بثأره تحريضاً للرجال على الحرب. وكان الحارث بن عوف، من أشراف العرب، وكانت له اليد الطولى في عقد الصلح بين عبس وذبيان، أوّلاً وآخراً. والسبب في ذلك أنّه قال يوماً لخارجة بن سنان: أتراني أخطب إلى أحدٍ فيردّني؟ قال نعم.

قال: ومن ذاك؟ قال: أوس بن حارثة بن لامٍ الطائي. فقال الحارث لغلامه: اركب. فركبنا حتى لقينا أوسا في بلاده. ووجدناه في فناء مترله. فلما رأى الحارث بن عوف، قال مرحبا بك يا حارث. قال: وبك. قال: وما حاجتك؟ قال: جئتك خاطباً. قال: لست هناك. فانصرف ولم يكلمه. ودخل أوس إلى امرأته مغضباً وكانت من عبسٍ. فقالت: من الرجل الذي وقف عليك؟ قال: سيِّد العرب، الحارث بن عوف. قالت: فما لك لم تنزله؟ قال: إنهُ استحمق. قالت: وكيف؟ قال: جاءني خاطبا. قالت: أفتريد أن تزوج بناتك؟ قال: نعم. قالت: فإذا لم تزوج سيِّد العرب؛ فمن؟ قال: قد كان ذلك. قالت: فتدارك ما كان منك. قال: بماذا؟ قالت: بأن تلحقه فتردّه. قال: وكيف؟ وقد فرط منِّي ما فرط إليه؟ قالت: تقول إنك لقيتني وأنا مغضب بأمرٍ لم يكن تقدم لي فيه قولٌ. فانصرفْ ولك عندي ما تحبّ. فإنه سيفعل. فركب أوس بن حارثة في إثره. قال خارجة: فوالله إنا لنسير، إذا حانت مني التفاتةٌ، فرأيته، فأقبلت على الحارث، وما يكلِّمني غماً. فقلت له: هذا أوس بن حارثة. فقال: وما نصنع به؟ امضِ. فلما رآنا لا نلتفت، صاح: يا حارث، اربع عليَّ. فوقف له، فكلَّمه بذلك الكلام، فرجع مسروراً. فبلغني أن أوساً دخل مترله، قال لزوجته: ادعي لي فلانة لأكبر بناته؛ فأتته فقال: يا بنية، هذا الحارث بن عوف، سيد من سادات العرب وقد جاءني خاطباً. وقد أردت أن أزوجك منه. فما تقولين؟ قالت: لا تفعل. قال: لِمَ؟ قالت: لأني امرأةٌ في وجهي ردَّة وفي خلقي بعض العهدة، ولست بابنة عمِّه؛ فيرعى

رحمي. وليس بجارٍ لك في البلد، فيستحي منك. ولا آمن أن يرى مني ما يكره، فيطلّقني، فتكون عليَّ وصمة. فقال: قومي، بارك الله فيك. ثمّ دعا الوسطى فأجابته بمثل ذلك، أو بقريب منه. ثم دعا الصغيرة، فقال لها كما قال لأختيها، فقالت: أنت وذاك. فقال: إني عرضت ذلك على أختيك؛ فأبتاه. فقالت: لكني الجميلة وجهاً، الصناع يداً، الحسيبة أباً. فإن طلقني، فلا أخلف الله عليه. قال: بارك الله عليك. ثم خرج إلينا فقال: قد زوجتك بهيَّة بنت أوس. قال: قد قبلتُ. ثم أمر أمها أن تهيِّئها وتصلح من شأنها. ثم أمر ببيت، فضرب له، وأنزله إيَّاه. فلماًّ أدخلت إليه، لبثَ هنيهةً، ثم خرج إليَّ. فقلت: أفرغت من شأنك؟ قال: لا والله، لما مددتُ يدي إليها قالت: مهْ، أعند أبي وإخوتي؟ هذا لا يكون. قال: فأمر بالرحلة. فارتحلنا بها، فسرنا ما شاء الله. ثم قال لي: تقدَّم. فتقدَّمت، فعدل بها عن الطريق، فما لبث أن لحقني. فقلت: أفرغت؟ قال: لا والله، قالت لي: كما يُفعل بالأمة الجليبة، والسبيَّة الأخيذة؟ لا والله حتى تنحر الجُزُرَ وتذبح الغنم وتدعو العرب وتعمل ما يعمل لمثلي. قلتُ: والله لأرى هيئة عقلٍ. وأرجو أن تكون المرأة النجيبة. ثم سرنا إلى أن دخلنا بلادنا. فأحضر الإبل والغنم ثم دخل إليها وخرج. فقلت: أفرغت؟ قال: لا والله قلت: ولم ذلك: قال: دخلت عليها أريدها، وقلت: قد أحضرنا من المال ما ترين. قالت: والله لقد ذكرت لي من الشرف ما لا أراه فيك. قلت: كيف؟ قالت أتتفرّغ لنكاح النساء والعرب يقتل بعضها بعضها؟ (يعني بني عبسٍ وذبيان). قلت: فتقولين ماذا؟ فقالت:

اخرج إلى هؤلاء القوم، فأصلح بينهم ثم ارجع إليّ وإني لست فائتتك. قلت: والله إني لأرى عقلاً وهمّة. وقد قالت قولاً لا يردُّ. فاخرج بنا. فخرجنا حتى أتينا القوم. فمشينا بينهم بالصلح، فاصطلحوا على أن يحسبوا القتلى من الفريقين. ثم يؤخذ الفضل ممن هو عليه. فحملنا عنهم الدّيات. وكانت ثلاثة آلاف بعير.

وعاش الحارث إلى أن أدرك النبي (ﷺ) ووفد عليه. وأسلم وبعث معه رسول الله (ﷺ) رجلاً من الأنصار، في جواره، يدعو قومه إلى الإسلام.

ومن شعر الحارث قوله:

فإن أكبر فإنّي في لداتي وعاقبة الأصاغر أن يشيبوا
وما كثّرت فائدتي بعذرٍ كفاني في الفوائد ما يطيب

انتهت الأسئلة والأجوبة. وقد قصدنا بذكرها إزالة الإشكالات التي لم تزل أفكار الإفرنج المتحاملة على دين الإسلام تخوض وتوجّه الاعتراضات على المسلمين في تعاطيها، وتفوّق سهام الطعن عليهم، للعمل بها. ولقد أوضح الأمير في أجوبته الصبح لذي عينين. وأظهر الحقّ لأهله من العقلاء، هذا، مع المناسبة للمقصود من التاريخ والمرغوب فيه.

ذكر توجّه الأمير إلى مصر لحضور فتح خليج السويس

وفي رجب سنة ستٌ وثمانين ومائتين وألف 1286 وتشرين الثاني (نوفمبر) سنة تسعٍ وستّين وثمانمائة وألف 1869، دُعي الأمير إلى حضور فتح خليج السويس، كما دعي إلى ذلك أعيان العالم. فتوجّه إلى بيروت، ومنها إلى الإسكندرية. فاجتمع هناك بإمبراطورة فرانسا،

فأعظمت لقاءه وأجلّت حضوره، ثمّ توجّه إلى بروت سعيد بالباخرة الحربية التي أعدّها الإمبراطورة لركوبه. فاستقلبله الأميرال الفرناوي بالإعظام والاحترام. ثم جرى الاحتفال بكمال الأبهة والزينة وجلس الأمير مع إمبراطور النمسا وإمبراطورة فرانسا وابني إمبراطور ألمانيا وملك إيتاليا.. وغيرهم من الأمراء وأعيان العالم المشاهير، تحت المظلّة التي أعدّت لجلوسهم. ثمّ إنّ الأمير سار في الخليج في باخرته إلى السويس، ثمّ عاد إلى بورت سعيد واجتمع بالإمبراطورة وشكر فعلها. ثمّ ودّعها. واجتمع إليه رؤساء الكومبانيّة[1] يقدمهم الرّئيس الأوّل، مسيو فردينان دولسّبس وفاوضوه في أمر أرض "بوبلح" التي كانوا أهدوها له. فأخبرهم بأنّ إسماعيل باشا، خديوي مصر، غيرُ موافقٍ لهم على هذه المنحة وأطلعهم على ما كتبه إليه في ذلك؛ فصمّموا على تنفيذ أمرهم بأيِّ وجهٍ كان. فأبان لهم أنّه لا يريد وقوع الشحناء بينهم وبين إسماعيل باشا بسببه، ثم تبين أنّ إسماعيل باشا، إنّما قصدَ بمنعه هذا وإنكاره أن يستأثر بهذه الأرض دون غيره. فلمّا اطّلع الأمير على الحقيقة، سمح فيها للكومبانيَّة وسقط في يد المانع المنكر.

ونصُّ كتاب إسماعيل باشا إلى الأمير في هذه القضيّة:

"جناب الأمير المحترم، والملاذ المكرّم، الأمير عبد القادر

---

1. الكومبانية: لفظة إفرنجية، تعريبها الشركة. وهذه اللفظة مازالت مستعملة حتى اليوم في كثير من العربية على مستوى الأوساط الشعبية.

بعد إهداء السَّلام التّام، وكمال الاحترام اللائق بالمقام، نبدي لجنابكم أنه قد بلغنا تشريف حضرتكم، وتوجّهكم إلى ترعة السويس، بقصد الاستيلاء على قطعة الأرض التي كنتم موعودين بها من طرف الكومبانية على ما قيل. وبما أنّه لما كنتم مشرِّفين هذا الطرف، وحصلت المقابلة مع جنابكم وأخبرتمونا بأن الكومبانية لا يمكنها تمليك شيءٍ من تلك الأرض، حيث أنّها، إلى الآن، لم تثبت لها حيازتها، وأشرنا وأومينا لجنابكم بألطف إشارة وأليق عبارة أننا لا نوافق على توطُّنكم هناك لما في ذلك من مخالفة الأفكار. وبما أنَّ عقب إخبارنا لجنابكم بما ذكرناه، كنا تحدَّثنا أيضاً مع جناب قنصل جنرال دولة فرنسا، وبعدها جنابه أخبرنا رسمياً مشافهةً أنَّ ذات حشمة الإمبراطور لا يأذن في إقامتكم هنا ما دام ذلك مخالفاً لرغبتنا، وضداً لأفكار الأهالي والحكومة، كما ،والحالة هذه أيضاً، مضمون الحكم المحترم الإمبراطوري الصادر في حقِّ مادّة هذه الترعة لم يصرّح بالترخيص للكومبانية أنها تملّك أرضاً من هناك، لأحدٍ ما؛ ومن حيث أنَّ توطّن جنابكم بهذا الطرف لا تساعدنا عليه أفكار الأهالي والحكومة معاً، كما أنَّ حكم الإمبراطور المفخم لا يساعدكم على استملاك أرض في هذا الطرف، فمع غاية التأسُّف صرت مجبوراً على إخطار جنابكم عن ذلك ونأمل عدم المؤاخذة. ودمتم"

ثم أرسل إليه آخر، ونصّه:

"حضرة المحترم، الأمير المبجّل المكرّم، بعد السلام، وكمال الاحترام اللائق بالمقام،

قد وصلنا عزيز مكتوبكم الذي أرسلتموه على يد حضرة الباشا، باش معاوننا، وبه عرّفتم عن حضور حضرتكم لأجل استلام الأرض التي أعطتها الكومبانية لجنابكم إلى غاية ما ذكر فيه صار معلوماً. والحال أنّه قبل وصول مكتوبكم هذا، لمّا بلغنا تشريف حضرتكم إلى الإسكندرية، والتعجيل بالتّوجه إلى جهة القنال، ثاني يوم تشريفكم لنجاز المقصود... بوقته، حرّرنا لحضرتكم مكاتبةً واضحةً عن الحقيقة وبها عرّفنا جنابكم أن الكومبانية لم يكن لها إذن ولا صلاحية في أن تعطي أراضي ولا أملاكاً في تلك الجهة لأحد، كما هو مصرّح عن ذلك، بالحكم الصادر من ذات فخامة الإمبراطور المعظّم، المتعلّق بمادة الأراضي الكائنة في تلك الجهة. ولا يجوز لها في تمليك شيءٍ منها لأحدٍ. ثم أفهمنا حضرتكم أن مقتضيات الأحوال لا تساعد على قبول توطن حضرتكم في هذه الجهات كما أن فخامة الإمبراطور ما أجاز توطُّنكم هنا مع عدم رضانا وقبولنا... ومن تاريخ مكتوبكم يعلم أن وصول تحريرنا كان بعد تحريره. ولا بدَّ أنَّه عُلِم لديكم منه ما يكفي عن الإطالة في الشرح والإطناب في الاعتذار بهذا الخصوص، نظراً للضرورة. ودمتم".

وقد ذكرناهما بنصّيهما ليعلم الواقف عليهما ما كان عليه هذا الإنسان من الشّدة والبذخ وما ارتكبه فيهما من الصّلف والعسف. ومع هذا لمّا نُكب وأُبعد عن أوطانه وأعوانه، كتب إلى الأمير يطلب

منه أن يستأذن له من الدولة العليَّة في سكنى الأستانة، عسى أن يتعطَّف عليه مولانا أمير المؤمنين، الخليفة الأعظم، ويدنيه ويعفو عنه ويجتبيه. ونصٌّ ما كتبه، وهو في نابلي، من بلاد إيتاليا، منفياً:

"جناب فخر السلالة الهاشمية، وفرع الشجرة النبوية، حضرة السيد الأمجد سيدي الأمير عبد القادر الحسني، دامت معاليه.

ألا وهو السيد المعول عليه في المهمات، والمستضاء بنبراس رأيه في دياجي الملمّات. أبقاه الله تعالى متسنِّماً غوارب المجد، متنسِّما بنسائم المدح والحمد، سعده مقتبل ومجده غير منتقل، وما قيل ونقل في مدائح الكرام، فهو بالقياس إلى قدره الجليل ،وإن كثر، يقلّ. ولا زال للخائف والضعيف مأمناً ولكلّ مشروف وشريف حصناً وموئلا.

وعاش في عزٍّ وفي بهجةٍ وصفوِ عيشٍ سعده مقبلُ

كتبت له أبقاه الله وحرسه، وثبّت قدمه في مقام المحبَّة وأسَّسه، وأكّد حبَّه في القلوبِ وغرسه، وأرغم حاسده ونحسه، وحطّ قدره وبخسه، وأبقاك الله مورياً زند الأمل، وارداً صفو العيش، نهلاً وعلّ، لابساً من الثناءِ الجميل أبهى حُلل، لا يسأم مادحكم ولا يملّ.

والناس كلّهم لسانٌ واحد يتلو الثناءَ عليك والدنيا فمُ

هذا وقد بعثتُ هذا الكتاب لينوب عنِّي في الخطاب، مضمون ما احتوى عليه. وخلاصة ما انطوى عليه هو أني وعائلتي، من مدَّة سنة ونصف، في ضنكٍ ونصب. ننتظر من الله تعالى عزَّ وجلّ الفرج. ثم أرجو أن لا تقطعوا عناً المراسلات والدعاء مع بذل الهمة لنا،

ولعائلتنا المسلمة في إنقاذنا من هذه البلاد وبرجوعنا إلى الأستانة العليَّة لنحظى بالإقامة بين أبناء جنسنا، ونتمتع بالرفاهية في ظلّ سلطاننا، أدامه الله تعالى وأبقاه. ووفّقنا جميعاً لما يرضاه. آمين. بجاه طه ويس. والسلام التّام في البدء والختام.

حُرِّرَ في شهر صفر، سنة ثمان وتسعين ومائتين وألف 1298".

فكتب إليه الأمير في موضوع هذه القضية. فراجعه بما صورته:

"إلى مقام سيادة الأمير، عبد القادر المعظم.

نحمد الله الذي به يستكشف الكرب ويضمحلُّ بالالتجاءِ إليه كلُّ خطب، وبالصلاة والسلام على أشرف خليقته وأفضل بريّته تنجلي عن القلوب الهموم، وتنفرج الغموم. فعليه صلاة الله وسلامه الدائمان وعلى آله وصحبه، ما توالى الملوان.

أما بعدُ، فقد تشرَّفت بخطابكم السامي ولازالت أتشكر توجُّهاتكم العليَّة ومساعيكم السنية...

ثم قال: وها أنا متوكلٌ على الله، ثم عليك في إنجاز هذا الأمر، ومفوِّض أمري إلى الله ثم إليك.

حُرر في جمادى الأولى، سنة ثمان وتسعين ومائتين وألف 1298".

وكان شاهين باشا كنج بعث بعض الطلبة، المجاورين في الأزهر، إلى حضرة الأمير في هذا الخصوص. وتكرَّرت بينهما المراسلات والمكاتبات فيما جرى بينه وبين الأمير من المذاكرات. فكتب إليه في بعضها ما نصّه:

"والحاصل إن المهمة المطلوبة هي من حضرة السيد الأمير وحده. فإن أفندينا مستندٌ على حضرته دون خلافه. والقصد والرجاء من حضرته هو إرسالُ عريضةٍ من طرفه عن عجلٍ إلى الأعتاب السلطانية لتكون مساعدةً لعريضتنا التي قدمناها إليها. والسلام ختام..."

ثم كتب إلى الأمير قوله:

"نبتهل إلى الله تعالى بالأدعية الصالحة الناطق بها كلُّ لسانٍ وجارحة، متمسِّكين في المحبَّة بوثيق العرى، مواظبين على الثناء الذي لا يزال منه الكون معتبراً للحضرة التي سمت بالفضائل ربوعها وزكا عنصرها؛ فطابت أصولها وفروعها. لا زالت كعبةً للآمال؛ فتقصد من كلِّ فجّ عميق، وحمىً لسائر العفاة؛ فيأتونها من كلِّ مكان سحيق. وأيَّدها السعد والمجد؛ فتسعى الوفود إليها كسعي العرب إلى ربى نجد.

هذا وما نعرضه على المسامع الكريمة ونهزّ به أريحية تلك الشمائل المستقيمة هو أن الداعي قد تشرف بورود أمركم الكريم السامي. ولا يمكن أن أعبر عما حصل لي من الفرح والسرور. وقد شكرت مولاي في الثانية والأولى. وها أنا قد ذكرت تفصيل ما يلزم في مكتوب محسوبكم الشيخ (فلان) المقيم الآن عندكم. ودمتم في عزٍّ سالمين، آمنين بحرمة النبي الأمين.

حرر في صفر الخير، سنة ثمان وتسعين ومائتين وألف 1298.

وإني أُقدم بكل احترام مزيد سلامي إلى كلٍّ من سعادة الأنجال حفظهم الله وحرسهم."

ذكر بعض الرسائل والأجوبة

منذ خرج الأمير من بلاد فرنسا إلى بلاد الإسلام، كان يكاتب الملوك فمن دونهم من الوزراء والأمراء لداعي تهنئةٍ أو غرضٍ لازمٍ عرض أو تشكر على إحسان حصل. فتأتيه الأجوبة على حسب ما يكتبه. وكذا كان الشأن مع العلماءِ الأماثل والأدباء الأفاضل. ولما كان استيعاب ذلك متعذّراً، اقتصرنا على البعض منه ولا يخفى أنّ البلاغة هي الدلالة بالقليل من اللفظ على الكثير من المعنى. وكما أنّ للعرب في ذلك اليد الطُّولى، فإنّ لغيرهم منه نصيباً. ومن اطّلع على رسائلهم وكتاباتهم، وجدها على السنن العربي، عاريةً على الفساد والتّكلف. فيكتبون المراد على حسب الواقع لأوّل وهلة. فوافقوا العرب في ذلك غير أنّ العرب، لتوسّعهم في لغاتهم وتجرّدهم في الفصاحة، جازوا قصب السبق في مضمار الكتابة. فتجدهم ينوّعون الخطاب ويتفنّنون في أساليبه بما يسحر الألباب. وكلا الفريقين ينزّلون الألفاظ على قدر الكاتب والمكتوب إليه. فلا يخاطبون الوضيع من الناس برفيع الكلام ولا رفيعهم بوضيعه... إلى غير ذلك. ومن المعلوم أن الأمير من مشاهير العالم وأعيانه. والنّاس على اختلاف مللهم ونحلهم لهم به تعلّق ومواصلة. فلا يخلو يومٌ من كتابٍ واردٍ وجوابٍ صادرٍ. فمن رسائله التّلغرافية إلى الباب العالي في تهنئةٍ عيديَّة:

أسعدَ الله أيّامك بهذا العيد المبارك سعادةً تستمرُّ استمرار الزَّمان وتعمُّ جميع الرَّعايا، في ظلّ الأمن والأمان.

هنّأ الله مولانا وأيَّده بعيده الوارد عليهِ وأعاده كيف شاء إليه، مقرونا بالعزِّ، والنّصر، والهناء، وطول العمر.

ومنها في التهنئة بمنصب الصَّدارة العظمى:

هنَّأكم الله بالمنصب العالي وقَرَنَهُ باليمن والبركة اقتران الأيام بالليالي.

ومن أجوبة الباب العالي التّلغرافيّة عن التّهاني بالعيد، وبتوجيه الصدارة لمن وجّهت إليه:

إلى حضرة الأمير عبد القادر بالشام

قد أخذت بكمال الممنونية تلغرافكم، المتضمِّن التَّهنئة بالعيد السعيد. ومقابلة لهذا جعلت التَّشكر وارداً بلسان المودّة المخصوصة.

ومنها في سبتمبر (أيلول)، سنة سبع وثمانين ومائتين وألف 1287.

إنَّ مزايا تلغرافكم العالي في التبريك، بتوجيه سند الصَّدارة، لعهدة داعيكم؛ أوجبت محظوظيّتي.

ومنها في أكتوبر (تشرين أوّل) سنة ثمان وثمانين ومائتين وألف 1288.

قد تشرّفت بتلغرافكم الحاوي التبريك بمأموريّتي الجديدة. فحصل لنا غاية المحظوظية والسرور. نرجو أدعيتكم الخيرية.

ومنها في أفريل (نيسان) سنة تسع وثمانين ومائتين وألف 1289.

قد أخذت تلغرافكم العالي. وعليه فإنّي أقدِّم الثّناء والتَّشكر لهمَمِكم الجليلة القائمة بإيفاء رسم التَّهنئة.

ومنها في ديسمبر (كانون الأوّل) سنة اثنين وتسعين ومائتين وألف 1292: أخذت تلغرافكم العالي، فأستلزم كمال الممنونيَّة وتشكُّراً لمعاليكم. أُكرِّر الدعاء بالزِّيادة في عمركم ودوام عافيتكم.

وفي ذكر هذا القدر من أجوبة الباب العالي كفاية. وعليه يُقاس باقيها. وممّاً كتبه الأمير إلى حضرة الأمير شاه العجم، في رسالة بعث بها إليه، عندما أرسل النيشان العالي، من الرُّتبة الأولى. وكان الشّاه وقتئذ زار المشهد الحسيني المعظم، في كربلاء، ثمَّ المشهد العلويّ المفخّم في الكوفة. وآبَ إلى دار ملكه، طهران.

قد وافاني من حضرتكم السَّنية النّيشان الأعلى من الرتبة الأولى. ولولدي من الثالية، صحبة وكيلكم المحترم في دمشق. فجلت حنادس الهموم كما جلت نوازعه، فوارس المفاخر، في محفلٍ مشهود في يومٍ معلومٍ جمعتم فيه لنا أنواع المبرّة والكرامة وجعلتموه على رفعة مقامنا عندكم علامة. فلأقعدنّ على علاكم، من الثّناء الجميل، إكليلاً، وأجعلنَّ دعائي الصَّالح لكم ورداً، بكرة وأصيلا.. إلى أن قال: وقد حدّثنا وكيلكم المشار إليه، عما شاهده من أحوال المحفل الأكبر الذي حُشر الناس إليه حشراً، وطابت إليه الآمال عرفاً ونشراً. وشاع أمره وذاع وملأ خبر محاسنه وبدائعه الأسماع. فالتذّت بأنبائه المسامع، وتعطّرت بذكره الأندية والمجامع. فليهنكم الإياب والزِّيارة التي هي أعظم غنيةٍ، وأربح تجارة.

ومن أجوبة وزير الشاه المذكور، عن تلغرافٍ، وصله من الأمير:

قد اطّلعت على تلغرافكم العالي وقدّمته لحضرة الشاه، وشاهد منه ما أوجب ممنونيّته. أرجو أن لا تنسوني من دعائكم.

ولماَّ آل أمرُ مصرَ إلى توفيق باشا، في يوليو (تموز) سنة تسعٍ وسبعين وثمانمائة وألف 1879، بعث إليه الأمير تلغرافاً يهنِّئه بذلك فأجابه:

إنِّي أقدِّم تشكّراتي عمَّا تكرّمتم به من التَّهنئة، بمناسبة ارتقائي للسُّلطة الخديويّة.

ومن رسائل الأمير إلى لويس نابوليون الثالث، إمبراطور فرنسا، بعثها إليه من دمشق:

منها:" ولو أعطيت نفسي مناها وسوّغتها هواها، لأوردت على حضرتك، في دور كلّ يوم جديد وافر الشكر، وجدّدت لكم مع كلّ خاطرٍ جميل الذكر. وحسبي من ذلك أن أخباراً تواترت وأنقالاً تظاهرت بإطباق سكاّن اليابسة على ذكر مزاياكم الباهرة، وبدائعكم الزاهرة، ونشر نتائج عدلكم، وشكر وافر فضلكم حتى لقد صار للناس، فيما أجريتموه معنا من الخوارق، محافل تعقد ومشاهدُ تُشهد. ولم يزل ذلك مستمراً إلى الآن. وبهذا الحال التي طاب مسمعها ولذّ موقعها، استفزّنا فرط الارتياح وصدق الانشراح إلى بعث هذه الرسالة نهنِّيكم بالتوفيق الذي قسمه الله لكم في شأننا، والتيسير الذي أظهره الله على يدكم لتسريحنا والإحسان إلينا".

وقد جرت عادة الأمير مع الإمبراطور المذكور، من بعد خروجه إلى بلاد الإسلام، أن يهنِّئه بدخول كلّ سنة، كما يهنِّئه بعيد جلوسه،

على تخت الإمبراطورية، في أمثال اليوم الذي تهيَّأ له فيه ذلك. ولكثرة الرسائل ووفرة الأجوبة في هذا الخصوص، اقتصرنا منها على بعض أجوبة الإمبراطور حيث أن مؤدَّى الجميع واحدٌ. فمِن أجوبته عن تهنئة، سنة خمس وخمسين وثمانمائة وألف 1855 :

قَد وصلني تلغرافكم، مسفراً عن صادق المودّة، وموضِّحاً شدّة ارتياحكم لتهنئتي بالسنة الجديدة. فحصل لي بذلك سرورٌ عظيم. وبمثل هذه التهنئة أُهنِّئكم وأؤكّد أني أحبكم. وأرجو لك الخير.

وعن التّهنئة بعيد الجلوس:

اطّلعت على تلغرافكم وضجّت الألسن فرحاً بعباراته وصادف مناً غايةَ الارتياح والقبول.

وعن سنة ستين 1860 :

قرأت رسالتكم واهتززت سروراً بها لكونها جاءت نائبةً بما أكنّ عن شخصكم الكريم لدينا.

وعن سنة إحدى وستين 1861:

حين اطّلاعي على رسالتكم في التبريك بالسنة الجديدة، انشرح صدري وانبسط فكري وانبعث شكري.

وعن سنة اثنين وستين 1862:

سرَّني تلغرافكم جداً. صحتي جيِّدة. دائماً أتذكَّر وأتفكَّر في محاسنكم ومزاياكم.

وعن سنة ثلاث وستين 1863:

تهنئتكم صار لها في قلبي موقع عظيم جدا، كما يقع في قلوب الأحباب بمثلها.

وعن سنة أربع وستين 1864:

وردت علينا التهنئة من حضرتكم؛ فتلقّيناها بالقبول والسرور.

وهكذا في كل سنة، وعيد جلوس إلى أن عرض للإمبراطور ما عرض في حرب ألمانيا من الأسر. ثم الموت بعد خلاصه منه في بلاد الإنكليز. ولما شاع خبر موته، بعث الأمير إلى زوجته "أوجيني" يعزِّيها. فأجابته بما ملخّص ترجمته:

"إن القادر على كلّ شيء قد منحني تعزيةً وصبراً جميلا في أثناء المصائب التي أصابتني والنوائب التي نابتني. ونحن وإن كان كثير من الناس تركنا، فإنه يوجد في العالم من يفتكر في شأننا، مثلكم. ثم إن إظهار ميلكم إلينا قد أثّر فينا تأثيراً حسناً قلبياً. فالله الذي ضربنا بأيدي الشرّ، أسأل منه القوَّة على الخضوع لإرادته. وإنِّي أتشكّر من معروفكم باسم الإمبراطور، واسم ابني. فكن أيُّها الأمير واثقاً بمودّتنا في كلّ الأحوال.

واستمر الأمير معها على ما كان عليه في أيام زوجها من المواصلة والمراسلة.

ومن أجوبتها على ما كان يصلها منه من التّهاني في الأعياد، ودخول السنين، ما كتبته في رابع فبراير، (شباط) سنة ثمان وسبعين وثمانمائة وألف 1878:

"إن أنواع التهاني التي ترد عليّ وعلى ولدي من لدنكم، جعلتني وإيَّاه في غاية السرور لأنها تبرهن لنا على أنكم وإن كانت الأحوال قد تغيّرت علينا، فإن حسن عهدكم، وجميل ذكركم للإمبراطور، لم يطرأ عليه ضعف ولا نسيان. وهذا مماً ينبئني، ويدلّ على صفاء طويَّتكم، وثبات قلبكم، مع كثرة العوارض التي من شأنها تغيير الأحوال بحيث أنّه لم يمسّه أدنى انحطاط، بل قاومها وانتصر عليها. فأشكركم على ذلك وعلى جميع ما اشتمل عليه تحريركم".

ومنها:

"إنَّ تجديد التهنئة، لي ولولدي، بحلول كلّ سنة، لا محالة أنه يجدّد لنا سروراً لا مزيد عليه لأن ذلك يؤكد لنا أن الحوادث ،إن كانت قد غيرت أحوالنا وشأن حظوظنا، فإنها لم تؤثر في مودّتكم ولا أنستكم إحسان الإمبراطور. وهذا يدلٌّ على عظيم نفسٍ، وثبات قلبٍ، ومن شأنكم المعروف عنكم أنكم دائماً تنتصرون على تقلُّباتٍ الزمان وصروفه مع سلامة الطويَّة وصفائها.فلذلك أشكركم وأظهر عظيم اعتباري واحترامي لقدركم دائماً".

ومنها، في رابع أفريل (نيسان) سنة تسع وسبعين وثمانمائة وألف 1879:

"إن البواعث الشريفة هي التي تحرِّك القلوب العظيمة لمعاني الإنسانية. فبقدر ما تكون عزيزةً، تكون دائمةً وثابتةً. وهذه البواعث التي حرّكتكم للسؤال عنَّا وتقديم الدعوات لنا ولولدنا، قد وقعت منا موقعا حسناً جداً. ولذلك، أقدم لأجلها بلساني ولسان ولدي، أنواع التشكرات القلبية. وولدي قد سافر مع الجنود الإنكليزية إلى الرجاء الصالح. ودون وصول تحريركم إليه صعوبات شتَّى. وبناءً على ذلك، أبقيته عندي لأسلمه إليه عند مرجعه".

ومن أجوبة ولدها، البرانس أميرال المذكور:

"إنَّ التَّهاني الواردة عليَّ وعلى والدتي، من حضرتكم، قد أثرت فينا تأثيرا حسنا لكونها أظهرت لنا ما أنتم عليه من حفظ الوداد لوالدي والوفاء بحسن العهد. وأكّدت لنا صدق ميلكم الحبِّي الذي نعتبره أمراً عظيماً، صادراً من رجل عظيم، ظهر في العالم متَّصفاً بالبسالة في الحروب، مستقيما في سلوكه، عادلاً في شؤونه، أمينا في حاسيأته. ومن الأمور المؤكّدة أنَّ الباري تعالى جعل قلوب الرجال العظام مرايا تظهر فيها صور الكمال الإنساني. فلذلك لا تضعف عرى المودّة بينهم، ولا تنقسم. ثمّ إنِّي أشكركم على عدم انحرافكم عن طريق تعلّقكم السَّابق، وانعطافكم لنحو والدي. وأرجو الباري سبحانه أن يحفظ وجودكم".

ثمَّ إنَّ هذا البرنس سافر مع عسكر الإنكليز، فقُتل في بعض حروبهم مع الزّولوس. ولمّا اتصل خبره بالأمير، كتب إلى والدته، يعزّيها فيه. فأجابته:

"إنّ التّأسّف الذي أظهرتموه لفقد ولدي العزيز الذي قتل وأسلحته في يده، مقاوماً لأعداءٍ كثيرة، قد وقع عندي موقعاً عظيماً وأوجب عليّ أداء التّشكرات العظيمة، لاشتراككم معي في هذه المصيبة التي أصابتني وفي أحزاني العموميّة، راجيةً من الحقّ تعالى أن يحفظ وجودكم".

ولمّا أدليت الدولة الإمبراطورية بالحكومة الجمهورية، انتهز رجالها الفرصة في إحكام عرى المواصلة مع الأمير، خشية أن تذهب بذهاب الإمبراطور. فبعث وزير خارجيّتها إلى قنصلها بدمشق رسالةً تلغرافية ونصُّها:

"من الواجب على الأمير، عبد القادر، أنه لا يشكّ في ميل الحكومة نحوه ، بل هي تعامله بالمجاملة والمكارمة، على ما كان عليه الأمر سابقاً. وأرجوكم أن تبلّغوه أنّ المرتّب يتّصل عطاؤه له، في أوقاته". واستمرّت المواصلة جاريةً، بينهم وبين الأمير، على هذا. يكاتبهم ويكاتبونه في المواسم وغيرها.

وفي سنة سبعٍ وسبعين وثمانمائة وألف 1877، كتب الماريشال "مكماهون دوك ده ماجنتا"، رئيس الجمهورية، إلى الأمير جواباً عن مكتوب منه إليه:

"أيُّها الأمير المعظّم، قد أخذت تحاريركم في أوقاتٍ مختلفة بأعظم السّرور. ولا أقدر أن أتأخّر عن إفادتكم عمّاً حصل ليَ من الارتياح، لما اشتملت عليه من أنواع التّهاني ولما أبديتموه، من الميل لفرانسا. هذا وإنّ الصّفات الحسنة التّي ميّزتكم عن جميع النّاس؛ نحن نعتبرها وننوّه بقدرها. ولذلك لا أحتاج إلى إقامة دليلٍ على شدّة ميلي نحوكم. وبناءً عليه؛ فثقوا بمحبّتي وخلوصي القلبي نحوكم".

وفي سنة ثمانٍ وسبعين وثمانمائة وألف 1878. كتب ما نصُّه:

"إنّ مبادرتكم لتقديم التّهنئة بدخول السنة الجديدة، والدعاء بنجاحي فيما أسعى فيه من الخير، لعباد الله تعالى قد سرّني وأثّر فيّ تأثيراً حسناً جداً. ولهذا لا أريد أن أتأخّر عن إظهار مسرّتي لكم بذلك. وإنّني لسعيدٌ بتمكني من هذه الفرصة التي أوضحت لكم فيها ما حصل لي من الانشراح. ثمّ إنّني أتمنّى لكم من قلبي أنّ الحقّ تعالى يصون حياتكم ويمنحكم الحظّ الحسن والسّعادة".

ولمّا تولىّ "جول كريفيه" رئاسة الجمهورية، خلفا للماريشال "مكماهون"، كتب إليه الأمير يهنّئه. فأجابه:

"أيُّها الأمير المعظم، إنّ حسن اعتقاد أبناء وطني دعاني لرئاسة الجمهورية الفرنساوية. ولكونكم بادرتم بتقديم التّهاني وأنواع التّبريك الشّخصي بهذا المنصب الوطنيّ، لا أريد أن أتأخّر عن تقديم التّشكّرات لكم على ذلك. واعلم أن خلوص مودّتكم قد أثّر فيّ كثيراً وأوجب عليّ أن أؤكّد صدق مودّتي واعتباري لمقامكم السامي. ولذلك أقول إنّني مستعدّ دائما للسّعي فيما يعود بالخير العظيم على شخصكم الشّريف. وأرجو من الله تعالى أن يحرسكم ويفيض نعمه عليكم".

وفي سنة اثنين وثمانين وثمانمائة وألف 1882، كتب إليه الأمير يهنّئه بالعيد الأهلي في يوليو (تموز)؛ فأجابه:

"أيُّها الأمير الكريم، قد قابلنا التّهاني التي قدّمتموها لنا بالعيد الأهلي بمسرّة عظيمة. واهتمامكم بهذه الأمور يدلّ على خلوصكم للمشيخة

الفرنساوية. ولذلك نجعل لعبارات التَّبريك التي تقدِّمونها لنا أهمية عظيمة. ثمّ إنّنا نكرِّر لكم تأكيد اعتبارنا وصدق محبَّتنا. وندعو لكم بدوام الصِّحة والسَّعادة".

وفي سنة ثمانين وثمانمائة وألف 1880، عرض للملك إيتاليا "فكتور عمانوئيل" مرض شاع خبره، ثمَّ إنه عوفيَ منه. فكتب إليه الأمير يستفسر عن أحواله ويهنِّئه بالشِّفاء. فأجابه:

"إنَّ ما أنا عليه من شعائر الوداد والخلوص لكم يشهد لي به ضميركم الشَّريف. وما لنا عندكم من المودَّة يشهد به تحريركم المحبوب. ثمّ أيَّدتموه بإظهار الإشفاق من مرضنا؛ فاستوجب هذا ممنونيّة فائقة وتشكُّرات أكيدة قلبية. كما استوجب ذلك تهنئتكم لي على الفوز بالصِّحة التَّامة. فالباري تعالى يحفظ عالي وجودكم ويوفِّر سعودكم".

و لم تزل المواصلة جارية بينهما إلى أن توفي الملك المذكور. ولما تولَّى مكانه ابنه، وليُّ عهده، الملك "همبرت"، كتب إليه الأمير يعزِّيه ويهنِّئه بما نصّ ما تمسّ الحاجة إليه:

"ولا يخفى أنّ الأقدار الإلهيّة من شأنها أنّها تختلف بين مكروه ومحبوب، وتتصرف بين مسلوب وموهوب. وكثيرا ما أخذت بيدٍ ثم ردّته بأخرى، وأحزنت بكرةً ثم أحدثت بالعشيِّ سروراً وبشرى. هذا وإنَّ حكم الله تعالى بموت عظيم إيتاليا وملكها، والدكم، وإفضاء أمر الملك إليكم قد جمع بين ما يوجب الأسف والتّعزية وما يوجب المسرّة والتّهنئة. ولا شكّ أنّ الله تعالى أسا بكم حادثَ الكلْمِ وسدَّ بشخصكم العظيم، عظيم الثُّلم، وردّ النفوس بعد

انزعاجها إلى محالها. والآمال؛ إلى محطّ رحالها. فلذلك؛ ترى النفوس إلى التهنئة أميل منها إلى التعزية، إذ الموتُ أمرٌ لا بدّ منه، وسهمٌ لا محيد لكلّ مخلوق حيّ عنه. فالله يصلح بكم البلاد والعباد ويوفّقكم إلى سبيل الرُّشد والسَّداد. ثم لا يخفى أنّ عيون العائلة الملوكية ترمقكم في هذه الحال لتسلك على سبيلكم وتأخذ بصبركم فيها، وتحمّلكم. فينبغي لكم استعمال الوسائط اللازمة في تهوين ما نزل بها حتّى تتفرّغوا إلى القيام بأعباء ما أسداه إليكم الباري تعالى من الملك العظيم. ثم أرجو قبول ما اشتملت عليه هذه النَّميقة الودادية من التعزية والتهنئة".

وكان الغراندوق بن قسطنطين، شقيق الإسكندر الثّاني، إمبراطور روسيا جاء إلى الأرض المقدّسة ودخل دمشق واجتمع بالأمير. وعند سفره، كان الأمير منحرف الصِّحة، فلم يتّفق لهما اجتماع لأداء سنة الوداع. وبعد وصوله إلى بطرسبورج، عاصمة ملكهم، بعث تلغرافاً للأمير يخبره بوصوله. فأجابه الأمير تلغرافيا:

سرّني جدا وصولكم بالسلامة لمقركم. صحتي جيدة. دائما أذكر ما أنتم عليه من الأخلاق الحسنة. إن تحسّن عندكم، قدّموا أسنى تحياتي إلى حضرتكم الإمبراطور. واقبلوا تهنئتي بالسنة الجديدة".

وهي سنة اثنين وسبعين وثمانمائة وألف (1872)

وفي فبراير(شباط) منها، جاء الجواب من الغراندوق، ونصّه:

"أيها الأمير الماجد المعظم، قد سُررت كثيرا بتلاوة الرسالة التلغرافية التي أتحفتموني بها. وجاءت شاهدةً على دوام ذكري عندكم. وكانت من أحسن الوسائل لديّ لتجديد انبساط قلبي بذكر اجتماعنا في دمشق وما كان من سياحتي في المشرق التي لا يتطرّق إليها عندي نسيان. وما كان لبعد الشقّة ولا لطول المدّة أن ينسياني ما رأيت في ذلك القطر الكريم من إكرام النزل وحُسن اللقاء، ومن جملة ما بدا لي منكم ومن جميع أهل دمشق. ثم إن من محاسن نميقتكم هذه، إتحافي بحصولكم على كمال العافية والصحة. فإن لسلامتكم شأنا عظيما لديّ لما أعلمه من انبعاث الفضل والفضائل من أفعالكم وآرائكم. فأحياكم الله إلى أمد بعيد وأمدّكم بفضله المديد. وقد أجبت سؤالكم بعرضي عنكم لدى السدّة القيصرية تحية الاحترام والإخلاص. فارتاح جنابه الرفيع إلى ذلك بمسرّة، ثم تكرّم بالثناء عليكم، وأنه لا تزال تترنح أعطافه، لشدّة مسرّته، بحسن صفاتكم، وحميد سيرتكم. ولذلك أهنّئ نفسي وأفرح بالفرصة التي أتيحت لي لتبليغكم هذا التعطف من لدن مقامه القيصري، وحيث أنّي أودُّ أن أبثّ إليكم، وأظهر لديكم، ما عندي من المودّة، فقد أرسلت إليكم، داخل هذا الرقيم، رسم صورتي لتكون تذكارا لي عندكم. فاقبلوها واحفظوها، علامةً على بليغ ودادي، وصدق ولائي. ومنّي سلام مستمر على سموّكم. ولن أزال، ملء عواطفي، أتمنى لكم كلّ خير وغبطة".

وكان الوزير السياسي "غورتشاكوف" الروسي، جاء سائحا إلى هذه البلاد، ولما رجع إلى وطنه، بعث إلى الأمير مكتوبا ملخّصه:

"أعدُّ نفسي سعيداً حيث أني رأيت شخصكم الممجّد، وسمعت خطابكم اللذيذ، ولم يزل فكري يجول في رياض محاسنكم الفاخرة. ويستنشق نسيم كريم أخلاقكم، ولا أبرح على هذا مدّة حياتي. وانحراف مزاجكم الشريف هو الذي منعنا من وداعكم عند السفر، وأوجب لنا الأسف الشديد. والآن نحمد الله على اعتدال مزاجكم، وكمال صحّتكم. وقد اتصل بالإمبراطور ما أنتم عليه من الميل إلى جانبه الرفيع. وغدا بذلك ممنونا متشكّرا. أرجو عدم إبراجي من الفكر الكريم".

ومن أجوبته قوله:

"أيّها الأمير الأكرم إن مسيو "مكايف" قد سلم إليَّ التحرير الذي كلّفتموه بحمله إليّ من لدنكم. وإنّي أجلُّ ما تحسن عندكم إظهاره من المودّة. ولا يخفى أن تمسُّكي العظيم بكم، واحترامي لمقامكم، نظراً لما اتّصفتم به من الأخلاق الكريمة الخالصة الشرعية، يقابل عظيم تلك المودّة وشهادتكم له بإظهار شعائر المحبّة والخلوص لحضرتكم، قد سرّني كثيراً. وفي الحقيقة إنّ ما أجراه من ذلك هو مراد لعظمة الإمبراطور. والذي أعلمه بوجه التأكيد أن خلفه، يحذو حذوه. وبذلك يكون قد قام بما تقتضيه إرادة ملكنا المعظم من الميل والانعطاف لنحوكم، كما أنه يكون بذلك قد تمكن من استجلاب

تعطّفكم لنحوه. فاقبل ،أيها الأمير، الفائق الاحترام، تأكيد مودّتي القلبية لسموكم، واعتباري الفائق لمقامكم".

ومن أجوبة سفير الدولة الإنكليزية في الأستانة العليّة، السير "هنري".

"إلى مفخر الأماجد الكرام، ذوي القدر والاحترام، الأمير عبد القادر، غبّ إهداء واجبات الإكرام بمزيد الاحترام، نبدي أنه وصلني عزيز كتابكم. واطلعت على ما فيه حرفيا. وعلمنا أنكم بذلتم غاية الهمّة والغيرة في وقت الفتنة العظيمة، في حقِّ تبعة الدولة الإنكليزية. وهذا يدلُّ على مودّتكم لنا. وهو أمر لا بدّ أن يكون في حقّك عظيماً معتبرا. ثم إن اقتضى لكم غرض من الأغراض في طرفنا، أخبرونا به. فإنّه يحصل على وفق مرغوبكم".

وكان بين الأمير وبين الحكومة التونسية مراسلات ودادية، ومواصلات حبية. ولما أنجز الوزير "خير الدين باشا" تأليف "أقوم المسالك"، بعث إلى الأمير نسخةً منه وأصحبها بمكتوب. فأجابه بما ملخّصه:

"وقد ورد علينا من حضرتكم كتاب سنيّ؛ يشتمل على خطابٍ لذيذٍ شهيّ. فاستدعى شكري وحمدي. واستخلص في صفاء المودّة ما عندي. عرّفتمونا فيه من خبر سلامتكم ما نرجو له الدوام، وندعو له بالحفظ من حوادث الأيام. هذا وقد اطّلعنا على "أقوم المسالك"، فرأينا فيه ما بهر العقول، وأدى الأفكار إلى الذهول، من قضايا المعقول والمنقول. فاتّفقت القلوب على تفضيله، واختلفت الأسنة في تمثيله. أما نحن، فقد تركنا التشبيه وقلنا ما له في فنّه مثيل، ولا شبيه. قد أرانا من

الرجال بقايا وفي الزوايا خبايا. كتابٌ تنفّس الدهر به، تنفّس الروض في الأسحار وتبسّم عن ثغور النّور والأزهار. كتابٌ يزري بتاج تراجم الأعيان وكأنّه مرآة انعكست فيه رسوم أخبار الملوك، وأفاضل الزمان. فاتخذته مرتع ناظري، ومنتعش خاطري. ولا يخفى أنه لا بدّ لكلّ عصرٍ من رجالٍ يقومون بأعبائه ويهيمون في أودية أنبائه. وبالجملة فقد أبنتم في هذا التأليف من كلامكم العالي المنيف ما يجب على كلّ عاقل أن يتّخذه سميراً، ويجعله على كلّ كلامٍ أميراً. فلقد ابتدرت ،أيّها الوزير الخطير، إلى إحراز المعالي. وسبقت وحزت قصب السبق في مضمارها وفزت. فللّه درّك، ودرّ ما به ألمعت، وما قرّبت من فنون المعارف وبعدت. ثم إنك حميت ذمار الشرع المحمّدي، وعضدته، وقطعت عنه ضرر الملحدين وخضدته، وذلك بما قرّرتموه من أن الشريعة المطهّرة لائقةٌ بكلّ زمان، صالحة للحكم بها في كل أوان. وذكرتم أنّ بعض من خالف الحكم المحمّدي فتأخر. نسبت جنايته إليه وما احتشم ولا تبصّر. ولم يعلم ذلك المخذول أنه إنما أُتي من قبل مخالفته وأُصيب في عين بصيرته، من جهة إساءته.

والشمس إن تخفى على ذي مقلةٍ نصف النهار فذاك تحقيق العمى

نسأل الله العافية".

ولما تكرّم صاحب تونس بالنيشان العالي من الرتبة الأولى، عزّزه وزيره الأكبر، "مصطفى الشهير بخزنه دار" بمكتوبٍ منه إلى الأمير. فأجابه برسالة منها:

"إنّ ما بيننا من الودّ متين عرى الحقائق. فلا يحوله عن مركز ثبوته عائق. قد ارتبطت في الله معاقده وأُسست على المحبّة لأجله قواعده. ولقد أوليتم فأخلصتم وعرفتم حقوق الأخوة فأيّدتموها، وبأعبائها قمتم، ثم تكرّمتم بما يدلّ على ذلك دلالة الروض على الزهر، والشاطئ على النهر، وهو النيشان العالي الشان، الذي تفضّلت به

الحضرة الصادقيّة ،أيَّدها الله، على ولدي الأكبر، السيد محمد. ولكونه من الرتبة الأولى، صار شكركم عندي من كلّ شكرٍ أحقّ وأولى. نسأله تعالى أن يبقي تلك الذات السنيّة سامية الركّاب، عالية القباب بمنِّه تعالى وكرمه".

ومن رسالةٍ أخرى إلى الوزير المذكور:

"قد رفعتم للعدل الراية، وبلغتم من الكمال الغاية حتى أحبّكم البعيد والقريب ودان بودِّكم المتوطّن والغريب. ولم تزل ألسن المهاجرين بطرفكم تلهج بما لكم من الخصال الحميدة، والمزايا العديدة. وفي هذه الأيام وردت علينا رسائلهم، تترى، طالبين أن نحدث لكم من أمرهم ذكرا. فجعلنا هذه النّميقة تذكرةً حسنة لتعاملوهم بمقتضى معاليكم المعاملة الحسنة، على نحو ما سبق من إحسانكم، وألفوه من أفضالكم وامتنانكم. ولا يخفى أن ذلك من أسنى الأعمال الصالحة وأبهى المساعي الناجحة. وأنتم أبقاكم الله بكل فضيلة أحقّ وإلى كلّ منقبة فاخرة أسبق".

"قد بلغنا كتابكم الكريم مبشِّراً بنعمة عافيتكم التي هي مبتهج الأمل ومُنى الرغبة. ونستوهب الله تعالى على ذلك من الشكر ما يكافئُ مزيد نعمائه ويوافي عظيم آلائه. وما سنح لخاطركم الشريف من توكيد الوصيّة على من لهم تعلّق بجنابكم، من المهاجرين القاطنين بالمملكة التونسية، فإنهم لا يزالون بحمده تعالى في ظلّ نعم مولانا وسيدنا أدام عزّه وعلاه في أمنه ورعايته: مأنوسين محروسين. ثم المرجوّ أن تبقى صلة المودّة، بالمكاتبة، موصولةً لتزداد النفوس مسرّة، والعيون قرّة".

وفي سنة ثمان وثمانين 1288 هـ جاء الوزير "خير الدين باشا" إلى الأستانة في أمور تتعلّق بحكومته. وعندما اتصل خبره بالأمير، كتب إليه رسالةً منها:

"ولما بلغ خبر مروركم إلى دار السعادة، قلنا لعلّ الأقدار الإلهيّة تجذبكم إلى هذه المواطن المباركة الطاهرة لتفوزوا بمشاهدة المشاهد النبويّة الزاهرة، وتتنسّموا عرف أنفاسها الزّكية العاطرة ولتتمتع بمشاهدتكم نواظرنا، وتنشرح بطيب مذاكرتكم خواطرنا، ونترقّى في معرفتكم من العلم إلى العيان، ومن مخاطبة القلم إلى مشافهة اللسان، وحتى تتمكّن النفوس من صقالها، والعقول من حلّ عقالها، والألسن من فصل مقالها. فإن ساعد القدرُ في حصول هذه الأمنية وحظينا بمشاهدة ذاتكم البهيّة فيا حبذا، وإلاّ ؛ فللّه الأمر من قبلُ ومن بعد. وله الحكم في القرب والبعد."

فجاء الجواب، إلاّ أنّه غير مطابقٍ، من كلّ جهة، للخطاب. وهو:

"قد اتصل بنا عزيز كتابكم المتضمن التعريف بعافيتكم وارتياح نفسكم الشريفة التي هي قرارةُ كلِّ فضيلة وبكلِّ مكرمة كفيلة. فحمدنا الله تعالى على ذلك باللسان والجنان، وعلى ما أنعم به أيضا علينا، وأرانا إيّاه في وجهتنا هذه المنتظمة في سلك مراحم الخلافة العثمانيّة ومرضاتها، في تسهيل المصلحة العموميّة الإسلاميّة، وتمهيد أسبابها، وتثبيت دعائمها التي خلّدت للإسلام فخراً، وأدامت له من مكارمها ذخراً. ونستودع الله شكراً يوافي ما أنعمت به السلطنة العليّة ،خلّد الله عزّها، من الأمور المرضيّة الشخصيّة التي كانت فوق الظنّ. ونرجو دوام صلة المودّة، إذ هي بين الأحبة مسؤولة، ولديهم؛ مقبولة، وما برحت منح الله تعالى تفاتح جنابكم. وترتاح، بكل مكرمة، مثابكم بمنّه تعالى وكرمه".

وفي سنة أربع وتسعين 1294 هـ بعث إليه الأمير هديّة سنيّة من التحف الدمشقيّة وذلك أيام وزارته الكبرى، ومعها كتابٌ. فأجاب بما نصّه:

"المقام الذي لمعت في الخافقين كمالاته وسطعت فيها آياته، الإمام العارف، أنيس المعالي والمعارف، جناب الأمير، السيد عبد القادر الحسني، لازال العلاء سميره، وعين المجد به قريره.

أمّا بعد السلام الأتمّ، ومزيد الثناء على ذلك المقام الأفخم، فقد تشرّفت بعزيز كتابكم الوارد، وكرعت منه أصفى الموارد، مشتملاً من الحسن بطراز، متوشّحاً من الودِّ بالحقيقة لا المجاز. وقد وقع منّي ما اتحفتموني به موقعاً عظيماً حتى إنّه لم يبق لزيادة الاستحسان موضع،

ولا من طرف الإعجاب مهيع. ورأيناها من أعظم المنح، وإن رآها جنابكم لجلالته أقلَّ من أن تمنح، ولا سيّما أنّها من بلدةٍ مباركة، ومن جناب سليل الأكارم. فكيف أن تدع لأحدٍ معه مشاركة. فأكّدت تذكاري، مع شقّة البين وإن كان نصبً العين. نسأله تعالى أن يجعلها وسيلةً يستعان بها على قضاء الأوطار المحمودة، باعثة على نهج الطرق التي هي بالتوفيق مدعّمة، وبالهدى معضودة. وإنّي ، وإن أجهدت نفسي، في شكر مودّتكم وعائد صلتكم، فما أوفي حقّها ولو أعارتني السماء مداداً. وأرجو من مكارمكم العديدة، وشمائلكم الوحيدة، وحسن الالتفات،للمتّسم بودّكم؛ بصالح الدعاء،حتى أرى الإجابة تخرج من خلاله، وأرتوي من زلاله. فإن تعطّشي لذلك مديد، وشوقي إليه عتيد".

وكتب الأمير إلى رستم باشا، أمير الأمراء يوصيه بأولاده "مقرات" حين التجئوا إلى المملكة التونسية. فأجابه بقبول وصيته، والسعي في مراده وبغيته. فكتب إلى الأمير ما نصّه:

"أما بعد، فقد ورد علينا كتابكم الأعزّ، وخطابكم الألذّ الأوجز، مشتملاً على ألفاظٍ فائقة، ومعانٍ رقيقةٍ رائقة، ومخبراً بما أنتجته العناية السنيّة الصادقة بالفئة الملتجئة "المقراًتية" منً عميمٍ إحسانها، وفيض امتنانها. وأنها أنزلتهم فيما تخيروه من أوطانها، ورغبوا فيه من أعطانها. فنسأل الله أن يديم رفعتها، ويؤيّد سطوتها، ويبقيها للآبدين ملاذاً، وللعائدين معلداً.

هذا ونحن نعلم أنّ ما أبرزته مراحمها، وجادت به مكارمها، ما

وقع إلاّ بإشارتكم، ولا ظهر للعيان إلاّ بواسطتكم فجزاكم الله جزاء الدالّ على الخير، وأعاذكم من كلّ فتنة وضير، وأدام توفيقه إياكم، لمثل هذه الأعمال السنّية، والمزايا البهيّة. إنّه جوادٌ، كريمٌ، برٌ، رحيمٌ. ولا نحتاج مع وفور فضلكم إلى تجديد الوصيّة بكافّة المهاجرين، وتكرار التذكرة بملاحظة الأوّلين منهم والآخرين. والله تعالى يقيكم، ومن كلّ سوءٍ يقيكم".

فأجابه بقوله:

"جناب الفذّ، العريق في الرياسة والسيادة الحقيق بارتداءِ ملابس الفخر والسعادة، الذي أربى عزيز جنابه على سائر أقرانه وأترابه، وشُكرت مساعيه الحسنة، واتفقت -على كمال وصفه الآراء والألسنة.

حضرة الأمير الجليل الأبرّ، سيّدي عبد القادر بن محي الدين، لازال وجه الأيام بسناء سعادته ساطعاً، وضياء نورها بسيادته لامعاً.

أما بعد سلامٍ، يتمسّك بذيل عرفه النسيم، ورحمة يشملها سلامٌ قولاً من ربٍّ رحيم. فإنّ كتاب جنابكم الأعلى، وخطاب سيادتكم الأغلى ورد عليَّ؛ فكان أعظم وارد، وأكرم وافد. وانشرح صدري عند تناوله وقبلته قبولَ مبتهجٍ إكراماً لمرسله. وشكرت الله تعالى على تعطّفكم علينا، وحسن التفات سيادتكم إلينا. وأعظمُ ما سرّنا به عافيةُ حضرتكم الشريفة، وأخبارها السارة اللّطيفة. فالله تعالى يسمعنا عنكم دائماً ما يتعاظم به السرور، وتزدهي به الخواطر، وتنثلج الصدور، والمرغوب من الجناب العالي، الزاهر المتلالي أن تمدّوني

بصالح دعاكم. والله سبحانه وتعالى يديم شموس سعادتكم مشرقة، وأغصان سيادتكم مورقة، بمنّه وطوله".

ولمّا تولى "حسين" أمير الأمراء التونسي، رئاسة مجلس الشورى، سنة أربع وتسعين،كتب إلى الأمير يخبره بذلك، ويذكر اعتناءه بأمور المهاجرين في تلك المملكة. فأجابه الأمير:

"إنّ ألسنة المهاجرين لم تزل تلهج بكمالكم، ونفوسهم تبتهج بحميد خصالكم. فأحببناكم على السماع، وتمنّينا أن يحصل، بيننا وبينكم، اجتماع. ثم لما ورد تحريركم علينا؛ ثبتت محبّتكم في قلوبنا، بالوسائل المؤكّدة، على ما يقتضيه حديث "الأرواح جنود مجندّة". ثم إنّا نقدّم لحضرتكم أنواع التّهاني بالمقام الذي ترقّيتم إليه، والمنصب الذي دار فلك فخركم عليه وفي الحقيقة التهنئة للمنصب حيث إنه بجمالكم تجمّل، وبكمالكم تكمّل. لكن جرينا على الظاهر المعروف، وسلكنا في ذلك سبيل المألوف. ونسأله تعالى أن يديم ترقّيكم، ويوفّقكم لما يرقيكم. آمين".

وفي سنة خمس وتسعين،كتب إلى الأمير، في عنايةٍ بأحدِ أصحابه، ما نصّه:

"أدام الله تعالى عزّ الكهف الهمام، مجمع الكمالات المتفرّقة في الأنام ذي المآثر المسطّرة، على جبين الدّهر، والحائز في مضمار الشرفين غاية المجد والفخر، سيّدنا وملاذنا الوحيد، سيدي عبد القادر، لازالت الأفئدة تتضافر على ودّه، والأندية تتأرّج بشذا مجده.

أما بعد إهداء تحيّة، يرنّح قبولها الأريحية؛ فإن توفر حظّ العبد من مودّة السيادة يسعُ مقترحي، وهو أنّ حامل الكتاب (فلان) عنَّ له أن يزور مواطن الشام. وربما يبلغ في سياحته بغداد، ودار السلام. فأمل من عبدكم، وشيّعي ودكم أن يصحبه بمكتوب، إلى أعتابكم السامية ليتشرف برؤيتكم، ويكون تحت حمايتكم. وعليه فالمرجو أن توصوا به سائر العرب الذين يكون مروره عليهم في طريقه حتى يكون في حلوله وارتحاله آمناً مطمئناً. فأسعفته بمراده لسابق وداده. ولا زال حماكم المحميّ مراح العاني، ومطمح نظر القاصي والداني. آمين".

وكتب إليه أيضاً في عناية أخرى بما نصّه:

"تستقبل هذه الصحيفة، محراب جامعِ أشتاتِ الكمال، والشيم الشريفة، جناب رئيس المهتدين، وقاهر المعتدين، مولاي عبد القادر ابن المولى محي الدين، حرس الله كماله، وأنجح، بسديد رأيه، آماله.

أمّا بعد إهداءِ تحيّة؛ ترنّح قبول قبولها، عذبات الأريحية. فالداعي إلى تسطيره، بعد التشرّف، بارتسام صور هذه الكلمات في مزايا أفكاركم أنّ المحترم الأنجب، محبّنا (فلان) حامل هذا المكتوب، لسيادتكم العليّة بالله قد أقام عندنا نائباً عن قنصل إيتاليا، بثغر حلق الواد، من محروسة تونس مدّة سنتين. والآن أمرته دولته بالانتقال لقنصلية دمشق الشام المحروسة. فلعلم السنيور المشار إليه بتشيّعي بالمودّة إلى جنابكم؛ رغب بأن أصحبه بتحريرٍ لسنّي حضرتكم حتى يتشرّف بمعرفة ذاتكم الشريفة. فوافقه العبد على رغبته. وهو في نفس الأمر من أظرف وأكيس بني الجنس حتى إنه لم يفارق بلادنا إلاّ

وكلٌّ من عرفه يتمنى عوده إليها. وأرجو أنكم ،حفظكم الله، تجدون من تعرّفه بجنابكم فوق ما وصفناه به من محاسن الشيم. والله؛ يحرس حماكم، مناخ الأكياس، وملاذ سراة الناس. ودمتم في أمنِ الله. والسلام من شيعيّ ودّكم، وعبد كمالكم".

ولما تولّ أمير الأمراء "محمد" المعروف "بالبكوش" وزارة الخارجية بتونس؛ كتب إليه الأمير يهنّئه بها. فأجابه بما نصّه:

"الجناب السامي فخاره، الواضح افتخاره، المشرق مناره، الحميد، في المكارم إيراده وإصداره، نخبة الأعيان، أهل المعرفة والشان. سيدي الأمير عبد القادر الحسني، لازال بكلّ فضيلة سنيّ.

أما بعد أداء ما يجب لعزيز جنابكم من التعظيم والتكريم؛ فقد بلغني كتاب سيادتكم، متضمّناً الإفادة عن نعمة عافيتكم. لازالت ضافية الأذيال، بادية الإجلال، ومعرّفاً بمسرّة جنابكم، بولايتنا وزارة الأمور الخارجية. فشكرنا مكارم أخلاقكم الجليلة التي هي محلّ الشّكر، وقرارة الفخر. ونسأل الله عوناً على مرضاةِ حضرةِ سيّدنا. أدام الله عزّه، وعلاه. كما أنّنا نسأله تعال- أن يديم حفظ ذلك الجناب، على ممرِّ الأحقاب، بمنّه تعالى وكرمه. آمين".

ومنه إليه، بتاريخ سابع رجب، سنة خمس وتسعين ومائتين وألف 1295 ما نصّه:

" الجناب الذي ضربت عليه العلياءُ قبابها، ورفعت له المسرّة نقابها، وامتدّت به شجرة المجد أغصاناً، وكانت الألسنة، على الثناء عليه،

أعواناً، معجز الأقلام عن تعداد محاسنه، والألسن عن عدِّ إحسانه، المفرد العلم، وحيد الشمائل والشيم، الأمير السيد عبد القادر، لازالت الأسماع لمآثره واعية، وأجياد الزمان بفضائله حالية، والكمال من رياض معاليه يرتاد، والأنس بوجوده على الدوام يزداد.

أما بعد إهداء تحيَّة، يطير بها الشوق إلى ذلك الناد، وليس له إلاّ أكيد الحبِّ، حاد. فقد بلغ السرور بكتابكم العزيز المنتهى، حتى كدت أصير به مغرما ولهاً. جاء مبشِّراً بما عمَّكم من النعيم الكافي، والفضل الوافي، ومقرِّراً لما عليه جلالتكم لنا من الودِّ الفائق، والاعتناء الرائق. فحمدنا الله على ذلك، وشكرنا فضلكم لما هنالك. والمطلوب من حضرتكم اللطيفة الشمائل، النجيحة الوسائل حسن الالتفات للعبد بصالح أدعيتكم التي هي للإجابة أسرع من هطل سحابة. والله يمدُّ سيادتكم من خزائن فضله ما أنتم من أهله. آمين".

ولمّا تولى مصطفى بن إسماعيل التونسي الوزارة الكبرى؛ كتب إليه الأمير يهنِّئه. فأجابه بقوله:

" المقام الذي مازال الهدى يؤيّده، والجود الإلهيّ يسدِّده، من حاكاه البدر في هالاته، وعجزت الأقلام عن تعداد كمالاته، جناب الهمام النحرير والإكسير الرَّباني، سيِّدي عبد القادر بن محي الدين الحسني، لازال للأعين قرَّة وفي جبين الزمان غرّة.

أما بعد أتمّ السلام على ذلك المقام، والثناء بملء اللسان على خصائلكم الحسان؛ فقد اتصلت يدي بأعزّ كتاب جنابكم، وتيمّنت

بأعزّ خطابكم، وعلمت ما عليه احتوى من التهنئة بولايتي الوزارة الكبرى. والمسؤول من ربّنا -سبحانه- أن يتفضّل عليّ بالإعانة، في القيام بأعبائها، واستنتاج نتائجها حتى يكون السعيُ سديداً، والرأي بفضله رشيداً. وقد تضمّن كتابكم الكريم أنه كان عرض لجنابكم مرض أوجب تأخير كتاب التهنئة. فنحمده تعالى على شفائكم، ونضرع إليه في دوام عافيتكم. وأرجو من جنابكم أن أكون ممّن يشمله دعاكم، ولا ينساه علاكم، ما برح بجنابكم مصوناً، واليمن بوجودكم مقروناً."

وكتب الأمير في سنة إحدى وتسعين ومائتين وألف 1291 إلى أمير مكّة وشريفها الشريف عبد الله باشا، يعزّيه في بعض أقاربه، فأجابه برسالةٍ نصُّها:

"غِبّ إهداء جزيل سلامٍ، أطيب من عرف النسيم، وأعذب من رحيق مختوم، ختامه مسك، ومزاجه من تسنيم، وأزكى تحيّاتٍ تتبسّم بالمحبّة ثغور سطورها، وترقم بصدق الإخلاص أحرف منشورها. إلى حضرة فريد الذات والصفات، حميد الخصال والسمات، قدوة الأفاضل والأكابر، وعمدة ذوي المعالي والمفاخر، الأجلّ الأكمل، السيد عبد القادر الحسني.

وبعد؛ فإنّا لم نزل نتطلّب ورود الأخبار المسرّة عنكم، بما يطمئن به الخاطر عليكم. وفي أشرف الساعات ورد علينا مكتوبكم

الشريف المشتمل على الخطاب اللطيف، المتضمّن التعزية، فيما جرى به القضاء المبرم، والقدر المحتّم بوفاة من تغمّده الله بالرحمة والرضوان، وأسكنه فسيح الجنان. ولقد أحسنتم، فيما بلغتم، من حسن العزاء. ولازلتم موفقين لتسلية المحبين المخلصين. فالله تعالى يجعلنا ممّن يتلقىّ قضاه برضاه. وأفدتم أنّه بلغكم ما حصل لنا من التّأثر. فله مزيد الحمد قد تفضّل المولى سبحانه باللطف؛ فيما قدَّر. ودمتم سالمين في حفظ الملك المعين".

ولمّا توفيّ الشريف، عبد الله، المذكور، وتولى مكانه شقيقه، الشريف حسين باشا؛ كتب إليه الأمير يعزِّيه ويهنِّئه. فأجابه بما نصُّه:"غبّ إهداءِ أصفى تحيّات وافرة، وأوفى تسليمات عاطرة، يفوح نشرها العبيقَ من سوح الكعبة الغرَّاء والبيت العتيق، إلى جناب صاحب الأخلاق الحميدة، ومحاسن الأوصاف الرشيدة، قدوة الأفاضل، وعمدة ذوي الفضائل الأجلّ الأكرم، السيد عبد القادر الحسني، زيد فضله.

وبعد؛ فبينما نحن في البحث عن صحّة ذاتكم، والسؤال عن كمال صفاتكم إذ ورد إلينا كتابكم، المسفر صبح مضمونه عن صدق إخلاص، والموضِّح أكيد مودَّة ليس لزائدها انتقاص، متضمِّناً التَّهنئة بما منَّ الله سبحانه به علينا من إكرام السلطنة السنيّة بتوجيه الإمارة إلى عهدتنا. فللّه مزيد الحمد على ما أنعم، وله كمال الشكر على ما تكرّم. ونسأله سبحانه وتعالى التوفيق والإسعاد والهداية إلى سبيل الرشاد. إنّه سبحانه جدير بالسؤال، وقديرٌ على تبليغ

الآمال. وقد سرّنا ذلك منكم، وشكرنا صنيع همّتكم، لاسيّما ما تضمّنه من الأدعية الخيرية، المرجوّة القبول، لصدورها عن المحبّة الصادقة القلبيّة. ودمتم سالمين على الدوام. والسلام".

ومن رسائل الفاضل، السيد عبد الرّزاق، مفتي اللاّذقية، إلى الأمير قوله:

"الحضرة التي نستجلب رضاها، ونستجلي ضياها، حضرة المكارم التي لاح سناها، وعطّر الآفاق طيبُ ريّاها، والدوحة التي تستظلّ الأنام بظليل حماها، والروضة الغنّاء التي تفتّحت أزهار رباها، وجرت جداول فيضها ونداها، لازال شامخاً في رتبٍ للمعالي بناها، ولا برح الكونُ مبتهجاً بجلاها. آمين.

يعرض الداعي الذي لازال في مركز انتسابه، ولا يتحوّل عن خصوصيّته في ابتعاده واقترابه أنه قد تقدّم قبلاً من الداعي عريضة لم يرد عنها جواب يشفي جوى حشاشة، غدت للبعاد مريضة. ومع أن الداعي على ما كان عليه، لايحضر بمحفلٍ في أفاضل الناس حافل، ولا يجلس مع مذاكرٍ ومساجلٍ إلاّ ويملأ الأسماع من جريان هاتيك المعاني المروقة في أواني المباني، ويبرز من كواكب تلك المناقب ما يملأ ضوءهُ ما بين المشارق والمغارب، ويملي من مصابيح خلائقك الساطعة الأنوار ما هو أزكى من عبير العنبر المعطار، فله في كلّ ديوانٍ لسانُ شاكرٍ لإحسانك، وبيِّنات مجدك وفضلك ما يقرِّط بدرره المسامع، وتأخذ فرائده من القلوب المجامع. فما من نادٍ إلاّ وعطره بنفحات شذى أخلاقك النديّة. ولا من وادٍ إلاّ وأفعمه

برشحات ندى راحتك النديّة، أدام الله عماد المجد قائماً بوجودك. وليل هذا الدهر مشرقاً ببدر سعودك. آمين".

ومن رسائله أيضاً، قوله:

"إلى مقام مكارم الأخلاق والشيم والمآثر العالية القيم، مقام المعارف الرّبانيّة، ومورد الحقائق العرفانيّة، مقام حلّ الرموز، ومفتاح الكنوز والسرّ المطلسم المرموز، والمنح التي لا يحلّ إنكارها، ولا يجوز مقام الوراثة المحمّدية، والمواهب الصمديّة، والفيوضات اللدنيّة، والعنايات الربّانية، مقام علاّمة الآفاق، ومن فضل أهل عصره، وفاق. كيف لا وهو ابن سيِّد العالمين على الإطلاق والنور الذي كسا الأكوان، حلة الإشراق مقام ناصر الملّة والدين، وقرّة عين الموحّدين. من قام في تأييد كلمة الإسلام بما عمّ ذكرهُ، وعبق في آفاق البريّة نشره، ببأسٍ يطير شرره، وإدراكٍ تتبلّج غُرره، وذهنٍ يكشف الغوامض، ويسبق البارق الوامض، وطعنٍ بالصارم الفاتك، والسنان الباتك حتى قهر الأكاسرة بأساً وعزماً، وحيّر القياصرة شأناً وحزما مع قوّة شكيمة، ونفاذ عزيمة، وأياد حكت الديمة، وأخلاقٍ مستقيمة، وخصالٍ قويمة، ومشاهد رواياتها عميمة بأنواع الثناء عند ملوك الدنيا، موصوفة موسومة، ذو الورد الأصفى والمورد الأهنى، أقرّ الله بطول بقائه عيون الأمة وكفاه بفضله كلّ ملمّة ومهمّة. آمين.

والذي يعرضه المحسوب بلسان الخجل، وهو بمقتضى التصرُّفات الإلهية في اضطرابٍ ووجل أنّني من محبّتكم في مكانٍ، فيه لا أشارك، يعلمه الله تعالى، وتبارك ، والمحبّة هي النسبُ الأقوى،

الملحقة بالسابقين ولو مع القصور في التقوى. فأرجو دوام قبولي، وملاحظتي بعين العناية، وشمولي. فإنّني ممّن لا ينفكّ عن عهده، ولا يخرج من دائرة حبّه ووده. ومثل عرفانكم لا يقدّم لديه الزّيف، حمى الله شمائلكم من كلّ سوء وحيف، وبلّغنا من معاليكم الآمال، وأقرَّ منكم العين، لساداتنا الأشال، بحرمة جدِّك الأعظم والآل. وصلّى الله عليه، وعلى آله، وصحبه ما لمع سرابٌ وآل. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته".

ومن رسائله العجيبة إلى الأمير، رسالة أدمج فيها أسماء السور القرآنية. وهي قوله:

"أوشِّح فاتحة عريضتي برفع البنان والضَّراعة لمن أنزل البقرة، واصطفى آل عمران ببقاء إنسان عين الإنسان، والآية الكبرى التي زيَّن الله بها الزّمان، المولى الذي جاءت به أمُّ المعالي بدراً في سمائه. وآلت أن لا تلد النِّساء بعده، مثيلاً له، في علائه، والغوث الذي من حلّ ساحة نعمائه فاز بمائدة إنعام فضله، وآلائه، واحتسى من حياض أعراف نعمه انفال طوله وكرمه حتى لزم التوبة بأنّه لا يرد غير موارد هيّ شيمه وأن يشدَّ ركاب العزم لغير رفيع حرمه وسَعِدَ من ألطافه بما يؤنس الأفئدة المرتاعة وينسى خلال الأكارم من عهد هود إلى قيام الساعة، ورأى أنّ مواهب ما سواه هي ما كان لإخوة يوسف من البضاعة، وإن انتمى لغير رفيع حماه، أضاعه. كيف لا ومن سماء علاه، سبَّح رعد الجنان لكلّ أمة من ذوي العثرات ببلوغ الأمان، وأحرقت صواعق بأسه شياطين الطغيان، ذو المهجة التي منحت عطف

إبراهيم وبأس موسى بن عمران، ولاحت له رقبةُ خدر المعارف من حجر العوارف. فأقبلت عليها وفود الحقائق كالنّحل بكلّ تليدٍ وطارف، وفازت منذ أسرى بها إلى كهف الأسرار بأشهى ما هزّت مريم بجناه الجزع من اللطائف. ألا وهو سلالة سيّد المرسلين، طه سراج الأنبياء، الذي فرض الحجّ، وبه أفلح المؤمنون، النّور المتقلّب في أشرف أفلاك الأصلاب، وأطهر رياض البطون، المؤيّد بالفرقان الذي أعجز الشعراء عن أن يأتوا بآيةٍ من مثله، وغدوا بكماً فهم لا ينطقون. فأقبل النّاس كأفواج النّمل في دين الله يدخلون حتى دهشت لقصص آثاره أفئدة ملوك الأرض. وغدا سلطانهم أوهن من بيوت العنكبوت، وامتدّ ملكه حتّى بلغ الرّوم والهند والصّين، وثبت أيّ ثبوت (صلى الله عليه، وعلى آله، وصحبه، المستكملين النُّعوت) وأمدّ الله بروحانيّته المحمّدية، درّة صدفة آله، المولى عبد القادر بن محي الدين، من أحيا بحكمة لقمان شريعة جدِّه، سيّد المرسلين، ونصر دين الله في قطرٍ تسمّى به أمير المجاهدين، وتلقّب بناصر الدِّين.

وأدّت له جباه القلوب سجدة الشُّكر، مذ تسامت بإقدامه أحزابُ الدِّين. هذا وإنّ سبأ بلقيس السّامعة، طالما تليت عليها آيات تلك الصفات التي منّ بها فاطر الأرضين والسَّموات. وماهي إلاّ كيس من صافّات رياضها. وكم مشوقٍ صادٍ لورد حياضها، وزمرٍ متوجِّهةٍ لغافر الذّنب، بحفظ تلك المآثر، والسّجايا التي تضيق عنها إذاً نقلت بطون الدَّفاتر، مآثر من انتخبته شورى المعالي لدين الله عمادا. فوهى زخرف الباطل مذ عضد الحقّ إسعادا، وتلاشى دخان الجهالة برياح الحقّ، من

تلقاء مدين عرفناه، وغدت فرق الضّلال جاثية في أحقاف التدلّل، آية من الزمان بخذلانه. أمدّه الله بروحانيّة جدّه محمد، سيِّد المرسلين، المؤيد من -ربّه في القتال- بالفتح المبين.

آمين آمين لا أرضى بواحدةٍ حتىّ أضمَّ إليها ألفَ آمين

و لم يزل الدّاعي مترقّباً فرصة الانتساب، ودخول حجرات المديح من الباب، وهو ،وإن يكن في قصورٍ عن حصر تلك الأوصاف السامية شأناً، على قاف، فقد قيّد نفسه بوظيفة مدح سيادتكم، مُدّة المحيا إلى الممات، بل وتثني أعظمه برمسها وإن ذرتها الذّاريات . أدام الله طور عزِّكم الخطير، يزهو بزاهر نجمه على القمر المنير، مشمولين بألطاف الرّحمن في كلّ واقعة، يذوب لها الحديد. تذيبون الضّد في المجادلة بحشر الامتحان. والتشريد. ودام صفّ بجدكم محفوظا من الإضاعة بحرمة من حضّ بالجمعة والجماعة، على، أنّك -أيُّها المولى، حُفظَ مِن المنافقين وتغابنهم قدرك الفخيم. ولا برحت نعم أعدائك عنهم في طلاق وتحريم. قد فقت بالشيّم الحميدة السابقين واللاّحقين، وفضلت بالهمم المقارنين والمعاصرين. فتبارك من خصّك بمزايا لا يحصرها القلم، وجعلك إذا حقّت الحاقّة في معارج الفضائل، كناز على علم. فمكارمك الهامية تزرى بطوفان نوح، والكمالات جسمٌ وأنت لها روح. وكم لك من ثناء يطرب الإنس والجنّ نثره، وكم من مزّمل مدّثر برفدك يبث مديحاً زكا نشره، فمآثره البهيّة عطّرت عراق الكون وشامه، وحيث أنّ المرسلات إحسانكم، شاملة للقاصدين، وسحائب نوالكم عمّت العفاة والواردين؛ استمنح هذا الرَّقيق، فكّ أسره من نازعات الهموم،

وكفٍّ أصره في زمنٍ عبس وجهه المذموم، واستجدي عنايةً، بها تكوير الأسى، وانفطار ليلٍ كذرٌ جنحه عسعساً على أنّ بضاعة الأدب في غير أعتابكم كيلت بمكيال المطفّفين. فأوجب انشقاق بروج حصنها المتين؛ طارق الجهل المكين. وقد حططنا الرِّحال بالرِّحاب الأعلى، مستمدِّين كشف غاشية الكدر بفجركم الأعلى، لنحلّ من بلوغ المراد في البلد الأمين، وتزيل عناّ شمس مكارمكم ليل الأسى، بضحاها المبين، فينشرح الصدر، ويقسم بالتّين والزَّيتون وبمن صوَّر العلق في الأرحام والبطون أنّ نفحة رضاكم ليلة القدر تزيل بعنايتها القيِّمة زلزلة عاديات الأحزان والأصر، وتهزم قارعة تكاثر الأوهام، فيطوي عصر الأسر غمّ عداة همزة لمزة طغام. ونسأله تعالى أن يجعل كيد حاسديكم في تضليلٍ، ويديم لعشيرتك قريش ظلّك الظّليل، ويبقي حماكم موئلاً للقاصدين، ويخذل بسطوتكم من يكذّب بالدِّين، ويغدق كوثر نداكم الذي أثرى به الصّادرون والواردون. ويرفع للملّة بكم شأناً تذلُّ له الكافرون والمعاندون. فلا يرون نصراً. وتبّت أيديهم وهم خاسرون، وأن يكلأكم باسمه، الأحد الصّمد. ويحفظ سيادتكم من حاسدٍ إذا حسد، ويقيم شرّ الوسواس الخنّاس ويديم بكم للبريّة السُّرور والإيناس.

يــا رعــى الله للأحبّــة عهــداً حيث منّت بوصلها العذب سعدى
كم أدرنا كأس الصّفا فيـه دهـراً ولبـسنا مــن المــسرّة بــردا
عـهد أنسٍ قد فاح عـرف شـذاه في ريــاض الــسُّرور آســاً وورداً
هــل إلى عــودةٍ ســبيل لمـضني كاد يقضي من الـصّبابة وجـدا
جيرة الحيِّ منّـوا بحـسن التّلاقـي وامنحـوني مـن التّواصـل رفـدا

وارحموا مغرماً حليف سقامٍ يشتكي لوعةً إليكم وسهدا
في هواكم عن كلِّ عذبٍ قراحٍ طالما استعذبَ المدامعَ وردا
أيّ شجوٍ عاينتُ بعد نواكم فيه ضيعت من جنابي رشدا
وزماني بسهم خطبٍ رماني ودعاني بعد السِّيادة عبدا
ودهاني بنائبات توالت قدحت بالأسى بقلبي زندا
ورحى الكرب حين دارت بجسمي طحنت بالخطوب عظماً وجلدا
ليس من يجيرني من عنائي غير مولى غدا بعليائه فردا
ملجأ القاصدين من بثراه كحّلت أعين النَّوائب رمدا
هو عبدٌ لقادرٍ من تسامى رتباً أوجبت لعليائه حمدا
بهجة الكون مستقرّ المزايا مظهر اللُّطف عزّ شأناً ومجداً
يلتقي الضِّدَّ في الوغى بصفاحٍ ويلاقي المجد بوجهٍ تندّى
فرع فضلٍ من خير أصل كريمٍ قد تسانى أباً كريماً وجداً
كيف لا وهو من سلالة طه دُرَّةٌ زيِّنت من المجد عقدا
بعُلىً باذخٍ وفخرٍ صميمٍ وخلال حكت عبيراً ونداً
وأحاديث في المعالي حسانٍ تمنح السمع نشأةً حين تبدا
للندى للجدى يروح ويغدو يا بروحي له رواحاً ومغدى
عاقداً صفقة العلى كلّ حين فائزاً ناجحاً مراماً وقصدا
مكيّ السمات برٌّ وفيٌّ لم يشم ناظرٌ لعليائه نِداً
أحرز العزَّ في الملمَّات سيفاً وحوى الحزم في المهمّات غمدا
أنقذ الدين في الجزائر دهراً بعد أن كاد فيه أن يتردّى
وغدا الحقّ ساطعاً بذاره ثابتاً بالرفاءِ رسماً وحدّاً
يا همامٌ إن جاد اخجل غيثاً وهزبرٌ إن جال أرهب أُسدا
إن حسن الآراء منك أعادت نارَ شرِّ الطغام في الشّام بردا

وسمـا قـدرك الرفيـع بـصنعٍ قد حبا في الأنـام ذكـرك خلـدا
دمـت للـدين ملجـأ وعمـاداً مبهجـاً ذكـركم عراقـاً ونجـدا
ما بمدح الجنـاب قـال محبٌ يا رعـى الله للأحبّـة عهـدا

ومن رسائل صاحب الفضيلة، السيد أبي الهدى الصيَّادي، نقيب أشراف حلب، رسالة بعثها إلى الأمير في صفر سنة ست وتسعين 1296 وهي قوله:

"الحمد لله، رافع منار أهل البيت المحمَّدي على دعائم التقوى، وأشرف الأخلاق، ومطلع كواكب سعودهم في سموات المعالي بأسنى المواقع وأجمل الإشراق والصلاة والسلام على جدِّهم، باب الله الأعظم، وسيلة الخلق على الإطلاق. ورضي الله تعالى عن أصاحبه، نجوم الاقتداء الداخلين بقيود شريعته إلى حضرة الإطلاق، ورحمة الله وبركاته على ساداتنا، أهل بيته، وذرِّيته المفتخرين باتِّباعه، والمبشّرين بسرّ الإلحاق.

أماّ بعد؛ فهذا رقيمٌ من خويدم الفقراء، محمد أبي الهدى، إلى السيِّد الجليل، ذي الشرف النبيل، والمجد الأثيل، والحسب الأصيل، عنقاء مغرب الغرب، وصبح مشرق الشرق، صاحب الفتوحات الباطنة، وربَّ المنن المحمَّدية المتواضع لله، والمتمسِّك بسنة جدِّه، سيّد أنبياء الله، مولاي وسيدي، السيد عبد القادر الحسني، متّعني الله والمسلمين بدوام بقائه، وأعزّنا الله بتأييده الحفيّ، وحسن ارتقائه، آمين مولاي، حيّاكم الله وأحياكم، ولا أعدمنا مجد علياكم، ولا حضرنا -قط- في مجلس مستحسنٍ إلاّ ذكرناكم دائماً ،نستأنس بسماع

مناقبكم الجليلة وبذكر مناهج سيادتكم الجميلة، ولا برحنا نترقّب جعل الوسيلة والذريعة لاكتساب توُّجّهاتكم الشريفة الرفيعة. وإذا بالنّعمة المأمولة وردت بلا وسائل، وقال لسان الحال هكذا عطفُ الأماجد على المساكين، بغتةً، والرقيب غافلٌ. وقد خفق جناحُ النجاح، ولمع -بإذن الله- بارق الفلاح، ولاح وظهر من مطويّ الوائع الغيبية منشور عنايتكم الباطنة الحسنيّة:

وقد قيل إن حياة الفؤا د وصال المحبّ على الغفلة

وتلوته إذ أخذته متعجّباً من حسن توجّهاتكم عليّ بلا استحقاق منّي، معتقداً" أن مثلكم لا يرعى مثلي، وزللي يلويكم عنِّي.

أخلصت فيكَ سرائري والمخلصون على خطر
وصبرت لكن صحّ أن الصبر عقباه الظفر

فنظركم في الداعي المسكين منعكسٌ من مرآة قلبكم الطاهر، وكذا شأن العارفين. فأرجوكم أن تلاحظوني برقائق رابطتكم في خلواتكم السعيدة، وأن تمدّوني بمددكم العالي حالة جلوتكم في شطحات مواقفكم الحميدة. جعلكم الله سلّما للوصال، ومحجّة إلى بلوغ الآمال، ولا ريب أنتم معادن الكمال، وإلى الشرف جرثومة وآل.

رجالٌ إذا الدنيا دجتْ أشرقت بهم وإن أملحت يوماً بهم ينزل القطر
وإن وطئوا قفرا زهت بربيعها وأخضر واديها كما اعشوشب القفر

أيّد الله بثبات أقدامكم شوكة الشريعة الطاهرة، وجعلكم المولى منهجاً للوصلة الخالصة في المسالك الباطنة والظاهرة. والصلاة والسلام على ملجأ الأنام، وباب السلام. والحمد لله مسك ختام المبدأ والختام."

وله إليه في عناية بأحد أقاربه:

"بسم الله. والحمد لله. والصلاة والسلام على العلّة الغائية، ضئضيء الفروع الكونيّة، حبيب الله ورسوله، وعلى آله أتقياء أولياء الله وأصحابه نجوم الإرشاد لخلق الله.

أمّا بعد؛ فالدعاءُ الوافر، والغرام والشوق المتكاثر، والهديّة القلبيّة الناشطة من الحيطة السرية تعرض وتهدى إلى المولى، السيد الشريف والحسيب النسيب، المبارك المنيف، عمدة أعيان السادة، وقدوة أماجد أرباب الشرف والفضل والسيادة، الأمير الحسني، الأصيل الطاهر، مولانا السيد الجليل عبد القادر، أعزّ الله جحفل الحقيقة بإرشاده، وأيّد عنصر الطريقة بقوّة استعداده. آمين

أعرض أنّ مرسومكم الأوّل الجوابيّ، ومرسومكم الثّاني الخطابيّ وصلا لهذا العويجز، المشوق إليكم، المعوّل، في صدق الأخلاص، وحسن الرابطة المعروفة؛ عليكم وإنّي والله لمكتفٍ بقولٍ من قال، فأجاد رابطة الفائدة، رابطة الفوائد:

تطير بنا القلوب إلى بلادٍ فتشهد ما تقّع في البلادِ
وأفئدة الرجال لها عيونٌ وريشٌ والعجائبُ في الفوائد

وإن قلبكم الكريم يشهد بما أنا عليه لسيادتكم من الشوق العظيم والدعاء الخالص إن شاء الله، النقيّ السليم. فأرجو أن تمنّوا عليّ ، وإن قصّرت، بدوام المراسلات، إكراماً لقارئ المرسلات، وأن تتفضلوا عليّ بالدعوات الخيرية، والنفحات الهاشمّية، وأن تشملوا ابن العمّ حاملها، السيد محمد أفندي الكيالي، بنظركم الإكسيري العالي. فهو من مشاهير السادة، ولمثله على مثلكم من موائد العطف والحنان عادة. أسبغ الله نعمه عليكم، وواصل بفضل رسول الله (ﷺ) كلّ مددٍ محمّدي إليكم. آمين والحمد لله ربّ العالمين".

ومن رسائل الشيخ الدرابزلي، المعروف بالشيخ المنتظر، قوله:

"الحمد لمن أخرج أحرف الكلم من نور الجمع الذاتي الأقدم بالفيض الأقدس الأقوم، وفتق من الرتق الأحديّ، والجمع العمائي الأبهم؛ صور الأعيان المعدومة في العلم بنفسه الرحماني المقدّس، الأحكم، فظهر انتظارُ صور كلمات الحقائق العلميّة، وصور تعيّنات الأسماء الإلهية بحروف الأعيان الثابتة في العدم، أحمده حمدا يكشف لي به، عن حقيقة ذاتي، وعن استعدادي، وعن أيِّ اسم كنت مجلى له؛ فأتحقّق بحقيقة حقّي، وأعرف نفسي؛ فأعرف ربّي. وصلى الله على النور الأعظم، المسمى بالنون والقلم سيّدنا محمد، من أوتي جوامع الكلم، ومن هو نقطة حروف الوجود، وإحدى كلمات الرسل، هداة الأمم (ﷺ).

أماّ بعد؛ فإني أهدي سلاماً أبهى من التسنيم، وأرقّ من النسيم وأضوع من عرف المسك الشميم، صدر من صميم الفؤاد ممتزجاً بأكيد المحبّة والوداد، معطّراً من عطر شذا البيت المعظّم الحرام، والحجر والملتزم، إلى حضرة مولانا الكامل، منبع المجد والفضائل، الحبر الذي سما فخره، وأشرق في سماء المعالي الغنيّ بشرف ذاته، بالتصريح لما حازه من بدائع الثناء، وكمال المديح. أدام الله تعالى إجلاله، ويسّر بفضله وكرمه مقاصده وآماله. آمين.

أماّ بعد؛ فالباعث لتحريره، والداعي إلى تسطيره، أوّلاً كثرة الأشواق إلى مشاهدة الذات العليّة، والطلعة السنيّة. وثانياً إن حامل هذه الأسطر الأخ في الله، الشيخ (فلان)، من أعظم مشايخ الطريقة العليّة الرفاعيّة ومن أكبر الهائمين في حبّ تاج العارفين، الشيخ الأكبر، سيدي محي الدين. توجّه من هنا قاصداً إلى الشام ليتشرّف بزيارة من هناك من الأنبياء العظام، والأولياء الكرام. وقصده أيضاً أن يتشرّف بتقبيل العتاب، وينيخ نجائب آماله بفسيح الترحاب. فالمأمول من هممكم العليّة، ملاحظته بالأنظار الإكسيرية، وشموله بالنفحات العرفانيّة، والفيوضات العدنانيّة".

ومن أجوبة ابن عمّنا، السيد الطيّب بن المختار، جوابٌ أشار فيه إلى ما آل إليه أمر الجزائر من الجهل بفنون العلم والسياسة وإسناد الأحكام إلى غير أهل الرياسة. وهو قوله:

"سيدي الذي استند، في جميع أموري ،بعد الله، تعالى، إليه. ومولاي الذي أعتمد ،بعد الاعتماد على الله، عليه، ربّ المحاسن التي صورها على منصّة التنويه تجلى، والأحاديث التي لا تملّ على كثرة ما تملى.

لسنا نسمّيك إجلالاً وتكرمةً وقدرك المعتلي عن ذاك يغنينا
إذا انفردت وما شوركت في صفةٍ فحسبنا الوصف إيضاحاً وتبيينا

عبدكم الداعي إلى الله سبحانه أن يذلل لخدمتكم وطاعتكم أنف الأسد الهصور، ويبقى العزّ في عقبكم، وعقب عقبكم إلى يوم ينفخُ في الصور.

يسلّم مشتاقاً إلى ذلك الحمى سلاماً مسير السائرات يسيرُ
سلاماً على قدر الجلالة والعلى وإنّه في جنب العلى ليسيرُ
سلاماً يفي بالمكرمات وفي النهى وكيف يفي والمكرمات كثير
سلام امرئٍ يشكو الصبابة والنوى ويهوى المزار والمزار عسيرُ
يكاد يطيرُ عند نشر كتابكم وأنّى يطيرُ والجناح كسيرُ
فيثني عنان العزم نحو جوابكم وماذا عسى والباع منهُ قصيرُ
لذا صدرت من طيّبٍ يندى طيبها مدادها مسك والقضايا عبيرُ
ومَوردها المختار من آل هاشم كما القدر سام والمقام كبيرُ
وإن تكُ من وصفِ الفصاحة قد خلت فبالعذر حال الارتجال يشيرُ
على أن بسط القول بالصدق مقصدي لأهل البيان والأمير خبيرُ

أماّ بعد حمد الله الذي بحمده تتمّ الصالحات، والصلاة والسلام على سيِّدنا محمد المؤيّد بالآيات البيِّنات والمعجزات الباهرات؛ فإنا

كتبنا هذا عن ودٍّ صادق، وقلب خافق، جواباً عمّاً صدر من حضرتكم العليَّة، وسمحت به نفسكمً الشريفة الطاهرة الزكية، مفيداً، ما مولاي عليه، من الصحة والعافية، والنعم المتوالية الضافية. وذلك أسنى مقاصدنا، ومبلغ آمالنا، ومعدودٌ لدينا من مصالح أعمالنا. شهد الله، علم الله، إذ بصلاح حالك يصلح الله أحوالنا. ونحن بخير ما بقيت لنا، وإن سأل المولى عن حال عبده، فأكثر عباد الله وزراً، وأثقلهم ظهراً، وأخسرهم تجراً وخصوصاً لمجالسة الجهال فجراً.

والحال أنّه ذهب من العمر أكثره، ولم يبق من الجدّ إلاّ أيسره. أشكو بثّي وحزني إلى الله. وردْنا فتعذّر الصدر، وأخطأنا وما أخطأ القدر. ولله فينا علمُ غيب؛ نحن صائرون إليه. فمن استعاذ من شيء؛ فليستعذ مماّ نحن فيه. كيفً وقد أسند الشيء لغير أصله. ووسّد الأمر لغير أهله. وجرت الصفة على غير الموصوف، مع فقدان الشرط. فجاء الأمر على غير المعروف. وقد تصدّى من هذا الجنس أقوامٌ لإلحاق الفرع وهيهات، بأصله. ووضع الشيء، ليت شعري، في محلّه.

فعدموا التوفيق، وحادوا عن سواء الطريق... لتعاطيهم الرواية وما رَوَوْا، ودعواهم الدراية وما دَرَوْا؛ فرأوا إقامة الجمعة في غير الجامع، وراموا القياس بقطع النظر عن المر الجامع. فكان الأخذ عنهم ضلالاً، والاقتداء بهم وبالاً، ومعالجة الداء بهم نفخاً في غير ضرم، والعدول عمَّن سواهم إليهم غسل دم بدم، والتعزّز بهم ذلة على ذلة، والاستكثار بهم قلّة على قلّة، والجناب الكريم بصير بأنّ كلّ عزّ لم يوطّن بعلم، فإلى ذلّ يصير. وهكذا...

فلا زال ينسج على هذا المنوال، ويقرِّر الأحوال، بلسان المقال، إلى أن قال:

ولربّما ساق المحدِّث بعض ما   ليس النداء إليه بالمحتاج

وإلاّ فإنني أعلم أنَّ هذا النحو، ممّا يشقّ على سيدي سماعه، وتمجّه أسماعه. لكن الأنين طبع المتألِّم، والكلام صفة المتكلِّم. وما في الإنسان يظهر على فيه. والإناء يرشح بما فيه. ولا بدّ من النّفث للمصدور. والله عليم بذات الصدور."

وجمع بعض الأدباءِ ديواناً، ممّا نظمه في مدح الأمير ثم أرسله إليه وأصحبه بقوله:

"أحمدك يا من منحت عبادك إراضة البيان، وذلّلت لهم ما تصعَّب من الفصاحة والبلاغة، حتى أقبلتا وهما منقادتان بأمتن عنان. والصلاة والسلام على البدر التمام، النبيّ العربيّ المكيّ المدنيّ، شفيع الأمة ومنير الظلمة، سيِّد المرسلين، والمبلِّغ ما أنزل إليه من ربٍّ العالمين بلسانٍ فصيح، ودين صحيح، محمّد المصطفى، صاحب الصدق والوفا، صاحب الدين الأشهر، والفضل الأظهر، والوجه الأقمر، والحرم الأنور، وعلى آله الغرِّ الميامين، وصحبه الذين شادوا دعائم الدين، السالكين مناهج الحقّ، الصاعدين معارج الصدق. الراضين لما يرضى به، والمستمسكين بحبل جنابه، ومن كانت هذه الصفات صفاتهم فهم المؤمنون، أولئك على هدىً من ربِّهم، وألئك هم المفلحون. أسأل الله العظيم، بحرمة نبيِّه الكريم، والصحابة النجباء

أهل الفضل والوفا أن يمدّنا برقائق أسرارهم، ويجعلنا من الفائزين بجوارهم، والمغترفين من بحارهم، والمقتبسين من أنوارهم.

أمّا بعد؛ فإن أكرم الأخلاق، وأكمل أوصاف أهل المذاق هو التوسّم بسيماء الفصحاء، والدخول في سلك البلغاء. وقد أجمع أهل الرتب أن ذلك هو علم الأدب. فكثيراً ما يتّضح به منهج السالكين إلى معرفة ربّ العالمين. ولهذا المنهج القويم، والصراط المستقيم بابان جليلان، يظهر منهما لمن سلك نجمان جميلان، فلكهما القلوب والضمائر، ومسلكهما العقول والخواطر. وهما النثر الباهر، والنظم الزاهر. ومن المعلوم لدى أهل الحجى والإتقان أنّ ذلك داثر الأثر في هذا الزمان. ولما أشرقت بوارق أسرار الحضرة القدسيّة وبزغت سواطع أنوار الشموس الإلهيّة المتجلّية على هذا العالم الضعيف من الآلاء، غرّة الملك الشريف، المغترف من بحار أسرار قطب الملكوت الأعظم، الأصل الظاهر بأكرم مظهر، والفرع الباذج من أطيب عنصر، أظهر العرف بالله، المتمسّك منه بأوثق عراه، ذي الأصل الباهر، والبرهان الظاهر، المعروف من أطيب العناصر، والمستبعد بجميل آلائه الأصاغر والأكابر، الشهم الفاخر، والنجم الزاهر، السيد عبد القادر، لازالت سحائب برّه مواطر، وبوارق أخلاقه زواهر، ملكٌ قمع العدا، وجمع البأس والندا، فاستنار الظلام بنيِّر بهاه، واستضاء الكون بلوامع ضياه، وقد رأيت النفس تائقةً إلى إنشاء مدحه، راغبةً في الاقتباس من أنوار صحبه. أردت أن أخدم مجلسه السامي بزفِّ قلائد شعري، وأتبعها بجواهر نثري، مرتجيا من مكارم ذاته العفو عن

تقصيري في حصر غرر لآلئ صفاته، وأن يمدّني بيد اليسر، وينقذني من ربقة العسر، إذ لا فخر ينتمي إلاّ إليه، ولا اعتماد في هذا العصر إلاّ عليه. فهو الخلاصة المصفّاة من سلالة الأنبياء، والحضرة المعلاّة فوق معارج الأصفياء، أدام الله أيامه، ونكّس لشانئه أعلامه. فأقول وأرجو القبول."

ثم ذكر ما نظمه في حضرته.

ولنختم هذا الفصل بمكتوب العلاّمة، الحجّة الفهاّمة، الإمام محمد القصبي المصري، ونصّه:

"حفظ الله وأبقى وأعان بمنّه وأرقى مقام السعادة، ومعدن الجود والسيادة، سلالة الأشراف، ونخبة آل عبد مناف، حامي حمى المسلمين، حجّة العلماء العاملين.

سيّدي الأمير، عبد القادر بن محي الدين، رعى الله بمنّه سيادتكم، ومتّعنا والمسلمين بوجودكم. آمين وسلام عليكم تتوالى نفحاته، ورضوان الله الأعمّ، وتحيّاته.

وبعد؛ فإننا بخير. ونسأل الله أن تكونوا كذلك. ولما أراد ولدنا (فلان) زيارة بيت المقدس، وأنبياء الله الكرام، والتّشرف بالمثول بذلك المقام؛ أرفقه هذا الخطاب، رجاء أن أظفر بدعوة شريفة من ذلك الجناب لعلّي أبلغ بها المرام، وتحفّني بها السعادة في المبدأ والختام."

ولــيعلم النــاظر فيمــا نقلنــاه مــن الرســائل
والأجــوبة أنــنــا قـــد أبقينــاهــا بحروفـــها
بحيــث لم نتصـرف فيـــها بتبـديـــل ولا تحويـــل

ذكر الإرجاف بموت الأمير

وفي سنة ستٍّ وتسعين؛ أشاع المرجفون وفاة الأمير. وانتشر هذا الخبر في سائر الممالك. وابتدر أهل الجرائد، والمعتنون بأخبار العالم إلى نقل ذلك. ووردت علينا رسائل الرثاء، ورقاع العزاء، تترى من جميع الجهات. وفي الوقت نفسه؛ طارت رسائل التلغراف، بتكذيب هذه الإشاعة، إلى سائر الآفاق. ولمّا اتّصل هذا الخبر بالأمير، واطّلع على ما ذكره أهل الجرائد وغيرهم، من بهيّ كماله، وسنيّ خصاله؛ سُرّ بذلك، وقال: إن الموت لا بدّ منه، عند نهاية الأجل. والحمد لله الذي أراني وأسمعني ما يقال في جانبي من الخير بعدي. وهذا نادر الوقوع، وغريب الاتّفاق. وأوّل ما وصلنا من المراثي مرثيّة الأديب، محمّد إسحاق أفندي الأدهمي الطرابلسي ونصّها:

هذا المصاب الذي قد كنت أخشاه ... وافى فما حيلتي فيما قضى الله
في ذمّة الله أحبابٌ فجعت بهم ... يا طيب عيشٍ بهم ما كان أهناه
أبلى النّوى بعدهم جسمي فقلت له ... يا بينُ حسبكَ ما قد رحت ألقاه
أحبابنا ضاق رحب للفضاء على ... خطبٍ ألمّ بكم جُرّعتُ بلواه
يا عين جودي بسحب الدّمع وابكي على ... من كان نور سنا عينيك مرآه
روحي فدا قمرٍ رهن التّراب غدا ... من بعد ما حلّ من قلبي سويداه
أضنى بعادك يا سمعي ويا بصري ... عبد لقادر بالإحسان ترعاه
قد كان للعبد بالصّبر الجميل وبالرضاء ... معتمدٌ واليوم خاناه
ما حيلتي في قضاء الله ما عملي ... ما ثمّ لي حيلة ما ثمّ إلاّ هو
فمن يؤمّل للمعروف بعدك يا ... نعم المجير لمن خانته دنياه

قد كنت للدين والدنيا وكنت لنا حصناً حصيناً إذا خطباً خشيناه
فليرثك اليوم من قد كنت حيلته بكلِّ مدحٍ بديعٍ راق معناه
ولتبك الشام إذ قد كنت شامتها وليبك الغرب إذ قد كنت مولاه
ولتبك العاديات الموريات بمي دان الحروب الذي قد كنت تغشاه
تنعى النّعاة ابن محي الدين من حزن يا خير من شكر الرحمن مسعاه
يا خير من قام في محراب طاعته مناجياً في دجى الأسحار مولاه
من للرّياضيات أو من للعفاة ومن لابن السبيل إذا ما أمّ معناه
إنّي لأبكي على تلك المآثر وال خلق الحميد وما أولته كفّاه
يا صاح دعني من دنيا تنغّصها لم يبق لي أملاً إلاّ وأقصاه
فيما التّمسّك بالدنيا وسيّدها قد بان عناً وما بانت سجاياه
جرى القضا بان محي الدين تلج بني الزهوا فدمعي باسم الله مجراه
أفنيت من بعد عبد القادر الحسنيّ كنز اصطباري فيا قلبي لك الله
العالم العامل الحبر الأصيل. ومن مديحُ أوصافه قد طاب مجناه
بدرٌ بأفق سما العرفان بحر ندا أهل الحقيقة ما للترب واراه
له لواءٌ من الذكر الجميل له الوصف الذي عطّر الأكوان ريّاه
فرعٌ لأشرف خلق الله منتسبٌ أصلٌ تسامى على النّسرين أعلاه
ليث العريكة في يوم الطّراد ومن يقصر اللّيث عنه حين يلقاه
إن غاب عناً فما غابت مآثره عناً ولا قد نسينا طيب ذكراه
وفي بنيه الكرام الصّيد سادتنا سارت سريرته العظمى وتقواه
هم الأئمّة أبناء الكريم على الله المجاهد في مرضاة مولاه
قطب الحقيقة غوث الواصلين أبو تلك المواقف حيث الله أعطاه
ظنونه نجحت والعفو أرّخها لحسنها أكرم الرّحمن مثواه
يا ربّ برّد بعطر العفو تربته يا ربّ أوليه فضلاً ما تمنّاه

وغبّ وصولها؛ كتبت إلى الأديب المذكور، وأخبرته بصحّة الأمير، وأنّه على أحسن الأحوال، وشكرته على ما أبداه، من دلائل المحبّة الصّادقة والمودّة الثّابتة. فأجابني بما نصّه:

"سيّدي ومولاي ومالك رقّ ولاي، أدامه الله وأبقاه، المعروض لناديكم من بعد لثم أيديكم، هو أنّه وصل كتابكم الكريم، وتلقّيته بالتّكريم والتّعظيم، وسرّني به سلامة سيّدي الأمير، وحمدت الله على ذلك، ومن خصوص ما تفضّلتم به وصل. شكر الله فضلكم، وأيّد عزّكم، ومن خصوص القصيدة التي كنّا أدرجناها بالسلام؛ نحن صنّفنا ضدّها قصيدة ثانية، وأردنا نشرها كذلك، ولكن حيث الأولى أُنشدت بحضرة مولانا الشوكتلي، وقيل له رجلٌ من أهالي طرابلس صنّفها، وهو متخجّل بسبب ذلك. فقال لا ينبغي له أن يتخجل، وإنما أتى بما يدلّ على وفائه، ومطلع القصيدة:

وافى البشير فحياً الله مسراه — فقم على قدم الإجلال تلقاه
اليوم روض التهاني فاح مجمره — والكون قد عطّر الأكوان ريّاه
الحمد والشكر لله العليّ على — هذا السرور الذي قد طاب مجناه
بالله يا راحلاً يبغي دمشق ولي — بها وليٌّ له من ربّه جاه
عرّج على حرمٍ حلّ الأمير به — فدتَه أنفسنا من قول أعداه
واهد السلام من الله السلام إلى المولى — الأمير عيون الله ترعاه

ومنها:

المنجد المنعم المعطي المنيل حمى — من أمّ ساحته العليا ودناه
سلالة الطيبين الطاهرين بني الزهراء — حياهم المولى وحياه

وهي طويلة جدا. ولولا الشيخ ظافر، والشيخ أبو الهدى أفندي، أشارا علينا بعدم إدراجها، لمضي الوقت لكنّا أدرجناها.

وهذا تعريب، ما أدرجته الجريدة الفرنسوية، المسماة "لاليبرتا" في عددها تاريخ 12 نوفمبر (تشرين الثاني) سنة 1879.

توفيّ الأمير عبد القادر في الشام وهو ذاك الأمير، ذو البطش والعظمة والاقتدار، الذي حارب الدولة الفرنساوية، مدافعاً عن بلاده الجزائر، مدّةً تنوف عن الخمس عشرة سنة. وهو فارس الأمّة العربية، وإمامها التقيّ العالم المهيّج ضدنا أفكار قبائل إفريقية، وغيرهم الوطنية، الذي صادم جيوشنا وثبت أمامها وحده. وجعلنا بوجوده لا نقتطف ثمرة افتتاحنا وغزواتنا.

فكان تملّكنا في تلك البلاد كأنه لم يكن. ولم نحصل على السلم، ولم تتوطّد الراحة، ولم نتملّك حقيقةً تلك الأراضي المخصبة، ولا تمكّنا من تنظيم إدارة بلادٍ افتتحتها أسلحتنا، غلاّ بعد تسليمه لنا.

والأمّة العربيّة التي كانت تحت سلطنته، ما خضعت لنا خضوعاً تاماً إلاّ بعد أن نظرت تسليم قائدها وسلطانها. ولو قيل إنه بعد تسليم الأمير، لم يخلُ الأمر من حدوث بعض ثورات طفيفة، لقلنا نعم، كان كذلك. لكنّها لم تعكّر كأس الراحة العمومية لأن أهم الثورات، وأعظم الوقائع قد رافقت الأمير إلى حيث توجّه. والآن، لا بدّ أن نبيّن ما لذلك الشريف المخيف الذي كاد أن يقهر الدولة

الفرنساوية في بلاد الجزائر من الأعمال الغريبة والأفعال الحميدة التي افتخر بها تاريخ عصره وزمانه. وهو أنه:

1. عندما توطّدت منا الأفكار، وتعلّقت بنا الآمال، بافتتاح مدينة الجزائر والاستيلاء عليها، صادمنا ذلك البطل المهيب. ولم يكن له وقتئذ من العمر أكثر من خمسٍ وعشرين سنة، وذلك سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة وألف (1833). وإنما قوّة عقله الغريبة، وتقواه الشهيرة، وبغضه الشديد لتملّك الأجانب على بلاده، أكسبته بين عموم الأمة العربية صيتاً حسناً، وذكراً مخلّدا، وسطوةً فائقة. ولذك، عندما نادى بالجهاد، بعزمٍ ثابت، وتقوى تخالها عرب إفريقية أنها إلهامٌ من الله، لا يوحى به إلاّ للمرابطين، أجابته كافّة عربان وقبائل ولاية وهران، ونهضوا مجيبين، ولم يتلفّظ بكلمةٍ واحدة تشير إلى نكث عهوده، نظراً لمعاملتنا له. ولو شاء ذلك فماً من مانعٍ يمنعه لأن كافّة قبائل العرب في بلاد الجزائر كانت مستعدّة للدعوة باسمه.

2. بعزمٍ وثبات، قد ألجأ الفرنساويّة لعقد معاهدة أقرّوا فيها بسلطنة عربيّة، ممتدّة فيما بين سلطنة مراكش، ومدينة الجزائر، وشطوط الشلف. وجعل عاصمتها مدينة "معسكر" وذلك في سنة أربع وثلاثين وثمانمائة وألف (1834). لكنه لم يكتف بمملكته هذه، ولم يقنع بها لأنّه لم يحرّكها لمحاربة الفرنساوية إلاّ همّته الدينية والعربية، وغيرته الوطنية، لإنقاذ كامل بلاد الجزائر من المحاولين افتتاحها، وتحرير أهاليها من رقِّ العبودية، وإرجاع رونق وافتخار سلاطين العرب.

وجعلها سلطنةً؛ تتداول أجناد عزّها وفخرها إلى آخر الزمان. ولذلك لم يمض على تلك المعاهدة عامٌ واحدٌ حتى افتتح الحرب ثانياً بشدّة ونشاط، أكثر من المرّة الأولى. وهاجم الجنرال "دي ميشيل" وبعدَ موقعة دموية جرت بينهما، على شطوط نهر المقطع، انكسرت جيوش الجنرال وتشتّت شمل من بقيَ منهم. ودامت الحرب لحدّ سنة سبع وثلاثين وثمانمائة وألف (1887)، حتى أيقنت الفرنساوية أن لا سبيل لها على مقاومة الأمير، والتخلّص من أيدي عدوٌ نظيره. لذلك عقدوا معه معاهدةً أخرى، تسمى بمعاهدة "تافنا" أقرّوا بها ثانياً بسلطنته، وضمٍّ مقاطعات أخرى لملكه. فكانت هذه المعاهدة أيضاً كالأولى، لم يمضِ عليها إلاّ أيام قليلة حتى دارت رحى الحرب بشدّة تفوق المرّتين الأولَيين. ودامت تسع سنوات متوالية حيث الدوك دورليان" و"المارشال فاله" و"المارشال بيجو" و"الدوك دومال" حاربوا في كلّ تلك المدّة، ذاك العدوّ المهول. ومع كونهم فازوا بانتصارات قويّة؛ لم يتمكّنوا من هدم قوّته العسكرية. وأخذت جيوشهم تغزوا القبائل، وتضرّ بمواشيهم وحاصلاتهم وتضايق عليهم أمر تعيّشهم.. فأثّر ذلك جداً في العرب، وأضنك التعب ومشقات الحرب رجال الأمير وجيوشه، وهو لا يكلّ ولا يتعب. فتركوه جميعاً. ولما بقي وحده، ألجأه الحال إلى التسليم، فسلم للجنرال "لامورسيير" بشرط إرساله، مع عائلته؛ إلى الإسكندرية أو إلى عكا. فلم توفِ الدولة الفرنساوية بعهودها لأنها ،عوضاً أن ترسله إلى إحدى المدينتين المذكورتين، وضعته مع عائلته في قلعة "لاماك" ثم "پو" ثم "أمبواز" فبقي مقيماً فيها

إلى أن استقرّ نابليون الثالث على كرسي الإمبراطورية. ففكّر حالاً في أمر ذاك الأسير العظيم الشأن، وحضر -بذاته- لمحلّ إقامته، وأطلق حرّيته، مكتفياً بوعد منه، أنه طالما وجد متمكّنا ممّا يريده حراً. ومع ذلك فإنه لم يشهر سلاحاً على الدولة الفرنساوية. وقد صيّرنا عبرةً لمن اعتبر؛ وعلمنا كيف الوفاء بالعهود[1]. وأما نحن، فقد نكثنا عهودنا معه، وهو لم يحنث بقسمه وعهوده معنا. ولقد أتى بدليل يؤكّد ذلك وهو أنه من حين ما أطلقت له الحرّية لآخر نسمةٍ من حياته لم يبدِ أدنى عملٍ سيء.

(نداءه كرجل واحد)[2] وانتظم تحت قيادته جيوش كثيرة قد سنّت لهم حكمته الشهيرة: نظامات يسلكونها، ومحاربات يقتحمونها، وأكاليل انتصارات يتتوّجونها.. وهكذا بعد محاربة سنتين لسلطانها ومنقذها والآخذ بثأرها، وعلى قبوله تلك المناداة، وندائه بالجهاد، يعود الحال إلى ما كناّ عليه. لا بل أكثر شدّةً وصعوبةً. فكان منتصراً عظيماً في ساحة القتال، وموقّراً محترماً، بعد ذلك، في مدينة باريس. لقد نظرته برهةً بعد إطلاق سبيله، ووجدته، فريد عصره، وأسد

1. يبدو في هذه الجملة، بعض الغموض، الناشئ عن تعاظلها، وهو يريد بها: أن الأمير وعد: بأنه لا يشهر سلاحاً ضد فرنسا، حتى ولو أمكنته الأيام والقوة من ذلك. ولقد ساعدته الظروف، في وقت ما، بعد تحرره، لكنه -وفاءً بعهده- لم يشهر بوجه فرنسا السلاح. بل -على الضد من ذلك- وقف منها موقف الصديق المخلص.

2. تبدو هذه الجملة نافرة في موضعها وأظن أنه يريد بها: إذا نادى فإن نداءه يجعل الأمة متماسكة على قلب واحد كأنها رجل واحد.

زمانه، وكلٌّ من اقترب إليه، كان يعجب ويندهش، من منظر ذاك الرأس العربي، الجميل، المملوء من تلك الحكم العربية، المبنية على علوّ أفكار أدبيّة، تشير إليها بألفاظ مبهجة وحديثٍ ممتلئٍ، من روح الديانة، جامع بين الفطنة والسياسة...الخ."

ولتقارب ما ذكرته الجرائد الإفرنجية، مع كون المؤدّى واحداً، اقتصرنا، واكتفينا بما ذكرته هذه الجريدة. ولما انتشر في العالم كذب تلك الإشاعة، جاءت رسائل التهاني إلى حضرة الأمير، من كلّ جهة. وممّن بادر بذلك من الأفاضل، الشيخ إبراهيم الأحدب. ونصُّ ما بعث به:

زال ما كان على المجد عرضْ وعدا جوهره ذاك العرض
واشتفى جسم الندى مماً به وتعدّاه إلى العادي المرض
وازدهت روح العلى وانتعشت فشفت أرواحنا مماً اعترض
ومريد الفضل والجود غدا ذا انتعاش بعد ما كان دحض
وانبرت سورية تشكر من بعد شكوى ما عناها أو ومض
ونسيم البشر بالبشرى لنا من مغاني شامها للمسك فض
وجنى وجنتها أبدى لنا زهر الأفراح والإقبال غض
حيث قد نال الشفا سامي الوفا سيِّد المجد وللعليا نهض
الإمام المرتضى المولى الذي في حماه أسد العزِّ ربض
والأمير الشامخ القدر بما سنّ من مشروع فضل وفرض
حسنيٌّ شرع الإحسان في مذهب الجود بما لا يعترض
وهو للقادر عبدٌ طالما أقدر العبد على المجد وحض
سيِّدٌ لا سعدَ إلاّ من سنا وجهه رغماً لمن كان امتعض
لاح في الشرق من الغرب بما أشرق الثاني الذي أمسى حرض

وعلـــيٌّ شـــيعة الفـــضل لـــهُ	لا تـرى سـنّة عـادٍ قـد رفـض
يرتجي القاضـي عياض أن يـرى	عنه في نعت القضا خـير عـوض
موجـب الـشكر لـه سـلباً لمـن	جـاء بـالعكس بـلا علـمٍ نقـض
وقـــضايا مدحـــه تركيبهـــا	منـتج للمجتـدي أسمـى غـرض
راج ســعر الــشعر فيــه للــذي	كفُّــه بالبــسط للجــدوى قــبض
ونـــــداه طالمـــــا طـــــوّقني	بعقــود مــا لهــا يومــاً فــضض
فلـــساني مبـــضعٌ في مدحـــه	قــاطعٌ عــرق عــدوٍ قــد نــبض
وقريـــضي بمعانيـــه ســـرى	مــثلاً يــضربه مــن قــد قــرض
ويراعـــي قـــد جـــرى في حمـــده	وعلـــى خيـــل معانيـــه ركـــض
حبـــذا طلعتـــه الغـــراء في	وجـه راجيـه بتعـريض عـرض
وأيـــادٍ برُّهـــا في البَـــرِّ قـــد	مـدَّ بحـراً رغـم مـن كـان بـرض
ولهـى غـصّت بهـا الـدنيا كمـا	في اللـهى سـاغ بمعناهـا الجـرض
لا يـرى الوعـد لهـذا نفحـة	مـع طيـب الـنفح للسائل نـض
حجّـــة الـــشكر لـــه بالغـــة	ببلاغـــاتٍ مباديهـــا دحـــض
قد شـكا؛ فاشـتكت الـدنيا أسـىً	وعناهـــا بعنـــا الوجـــد مـــضض
وشـــفاها الله والبـــشرى ســـرت	بتغـاض نظـم شـكر مفـترض
ومـــلا كـــلّ المـــلا نـــشر الـــصفا	ووفـــى الأُنـــس بمـــا لا ينـــتقض
فتقـــدّمت لـــه أهـــدي الهنـــا	رافعـاً صـوتاً لـشانيه خفـض
واجتليـت الـدرّ مـن شكري بمـا	لمعـــاني زبـــدة المـــدح مخـــض
وهـــو يـــدري أنّ إبـــراهيم في	حمـــده المقبـــول للـــودّ محـــض
رقّ شـــعري فهـــو فيـــه درةٌ	وهـــو صـــخرٌ هامـــةَ الأعـــداء رض
طالمـــا صـــوّبت منـــه حجـــراً	نحـــو هـــام كـــان بـــالكبر نقـــض
أيُّهـــا المـــولى الـــذي لان بـــه	مـضجع الفضل وقـد كـان أمـض

لا شكوت الدهر سقماً وعدا   للعدا كلُّ عناءٍ ومرض
فاقتبل بزّ الثنا من عرض من   لك مع طول بتقصير عرض
وبلا منٍ فحذ من مدحي ما   هو يوفي حقّ ما كان افترض
واغفرن ما قد جناهُ غزلي   بغزال ناعم الملمس بض
من بني الترك بوصلٍ عينه   ضيقها مع سعةٍ للقلب مض
ثغرهُ فيه رحيق برده   دونه في مهجتي أشكو رمض
لا يرى للصبِّ فرضاً حسنا   حسنه عندي جزاء إن افترض
شمت ضوء المشتري من وجهه   لو رأى ريحي له طرف غمض
بسهام الجفن قد حاسبني   فغدا قلبي لمرماها غرض
وبمسنونٍ له أوجب ما   ندب العاني إلى ما قد فرض
عشت أنسى بنسيي فيه ما   ألتجي عند عناءٍ لي جهض
عالم الكون الذي في عصره   فضله للعار عنّا قد رحض
مدن العلم له قد فتحت   والسوى لم يدن من ملك الربض
غضّ طرفاً عند مرآه إذا   ما تجاىّ وأطرح من فيه غض
دام من آلائه قطر الندى   للصدى ينفع ما برق ومض

ثم أتبع هذه القصيدة بقوله:

عريضة هذا الداعي، لدى حضرة السيِّد السند، والمولى الذي أروى أمل راجيه بالعزِّ لما أعلمه الثمد، تقوم بمشروع التهاني على نيل الشفاء والصحة وزوال تلك المحنة بما عاد علينا بأعظم منحة، حيث شفي جسم المجد بذهاب ما كان عرض وسلم جوهره مماً ألمّ به من ذلك العرض، وانتعشت روح الفضل بما كان انتعاشاً لأرواح المعالي، وابتهاجاً لوجوه الأيام؛ إذا نفحت بفض الطيب، من شامات الليالي،

حتى سرى ذلك إلى النسيم؛ فصحّ وهو مريض. واعتدل مزاجه؛ فقوي لتعليل من أوقعه الحبّ في الطويل العريض. فسرى في رياض الشام، يفض لطائم البشرى، وينفح من رسائل التّهاني بما ملأ وجوده الكائنات بشراً. فعرف بذلك خليل العرف إبراهيم، وأفاض عليه ما لا ينكره من طيب ذاك الشميم. فأخذ يرتّل سور الشكر بالتجويد، وانطلق يعيد ما بيديه، وهو سار على تقدّم التجريد. ولم يقتصر على المدِّ المتّصل من ثنائه باللسان، بل جعل لذلك بإظهاره أعظم ديوان، وأهمل الإخفاء والإدغام، من تلاوة تلك الآيات، وترك القلقة لمن لا يميّز بالقلب بين الحسنات والسيئات؛ ولم يسكن إلى المدّ العارض، وللسكون بعد اللازم، المثقل بوفاء أجرٍ غير ممنون. وإن لم يستعمل المدّ المخفّف الذي زلّت به النعل، فتطرب بغنّة المنع لسائله بفضول القول بلا فضل. ورغب عن الاحتجاج في كلامه بالإمالة، واتبع النقل في حديثه بالمدِّ الطبيعيّ لرجائه بلا ملاله. فهو ،أيها الأمير الجليل، من القراء العظام لآيات شكرك البيّنات، بما يوجب على السامع عند تلاوتها، وإن لم يتكرّر المجلس، سجدات: فلا يفوق عليه، في ذلك، أبو عمرو، ولا ابن عامر،كما لا يشعر بعصمته في الشرك، بإخلاص حمدك عاصم وهو شاعر. فأحمد الله تعالى على ما أنعم علينا من عود السّراء، بعد ما ألّم بنا، من معاناة الضراء. والشكر له على عافية غير عافية، وصحّة كافية لنحو آمالنا، ولأمراض الفضائل شافية، حيث عوفي بذلك، المجد والكرم، وعَداك إلى أعدائك السقم. فلا انحرف لك ، أيها السيد الكريم ، مزاج. ولا نجح في مرض شانيك

الأبتر علاج، ولا اشتكيت ،جميع دهرك، من مسّ عرضٍ، ولا كان لسهم النوائب إلى جهتك أقلّ غرض. فقد رغب الأسدُ أن تدوم حماه، ولا يكون لها إليك سبيل، وألِفَ النسيم علّته حتى لا يكون لك في الكون وصفٌ عليل، كما أصبح المرض طبعاً لجفون الحسان، كيلا يعتلّ بما يمسّك، لا مَسَكَ الفضلُ والإحسان. ولعمري إنك في سورية إنسان عين حدقتها، وطيب نفح صباها؛ إذا نفحت وجنة شامتها بمسك شامتها. فكيف لا تغلّ بما يمسّك من العلل وتنتعش بما يكون لعطف الصحة من البدل؟ وإني، بصفة كوني شاعر أياديك الجليلة، لا أنفكّ انتجع حمدك، والدعاء لك، من وجوه جميلة، وأهنِّئ الشرف العريق بشفائك، وأنشئ ما يخلق الأيام بما أناً خليق به من جديد ثنائك. فلذلك نسجتُ حلّة هذه الأبيات، بعزِّي بك، على أبدع طرز بززتُ به كلّ شاعرٍ يذهب ما يحمله سدى. ومن عزّ بزَّ. وشفعتها من رياض المعاني بهذا المنثور الرائق، وإن شققت به على ما في الوجنات من الشقائق. فاقبل ذلك ،أيّها المولى، بالإقبال، حسب عوائدك التي لا تخلف. ودام قيدُ إبراهيم في سجلّ معروفك، الذي لا يقبل التنكير. من بطيبة تعرف والله تعالى يطيل لك العمر بنعيم عيش دائم، ويديم حياتك بأطيب صحّة حتى تدوم صحّة الندا والمكارم، ويبقى كعبك سامياً على كلّ هام، ويؤيّد حمدك منتجعاً لحاجات الأنام، ويخلد عزّك ملجأً عند كلّ حادث، فيسمو بحمايته أبناءُ سام وحام ويافث اللهم آمين."

وقال الفاضل، الشيخ عبد الرزاق أفندي البيطار:

"نحمدك، يا منعم على إحسانك، ونشكرك على جزيل امتنانك، حمداً وافياً بوافر آلائك، وشكراً مكافياً لمتكاثر نعمائك. يا راحم المتضرّعين ما أرأفك، ويا منّان على المنقطعين ما أعطفك، ويا ذا الرحمة والجود ما أحلمك، ويا دافع النقمة بلطفك ما أحكمك وأعظمك. قد غمرتنا بجميل المعروف، وأغرقتنا في بحر لطفك الموصوف، وأسبلت علينا سترك الجميل، وأدمت لنا حصنك الجليل، من أنقذتنا به من أودية الغواية إلى فسيح الرشاد والهداية، وعرّفتنا به المطلوب، وهديتنا بهدايته إلى الصراط المرغوب، وكشف به لنا عيوباً كنا نعتقدها طاعة، ودللتنا به على نهج السنّة والجماعة.

الأمجد الأوحد، والعلم المفرد، بحر الأكارم، وحبر العوالم خطيب، منبر المعارف، وإمام محراب العوارف، المرتضع درّ ثدى المعالي في حجر الفضائل،والمرتفع في ذرى العوالي إلى عرش الفواضل، العاكف في حرم الشهود، والواقف على أعلى نقطة كرة السعود، من عُجنت شريف طينته بماء الوحي والنبّوة، وغرست بنعت ذاته المنيفة في ساحة المجد والفتوة.

مـن جـوهرٍ منـه الـنبيّ محمّـد زيـن العلـى فخـرت بـه الآبـاء
ورثَ المكارمَ والشمائل والنـدى فعليه من نـور الآله بـهـــاء

يد السماحة لكل طالب، وباب الدخول لكلّ راغب، الرافع بفضائله أعلام الرايات الدينية، والقامع بدلائله معاندي الشريعة

الأحمدية، أمير الأمراء، وقطب مدار الفضلاء، الحسيب النسيب، والشريف الماجد الأريب، حضرة سيدي الملاذ الأعظم، والأستاذ الأسنى الأفخم، السيِّد عبد القادر الحسني، أدام الله بقاء وجوده الهني، وخلّد طلوع شموسه في سماء الإقبال، وألبس جسم الدنيا به خلعة الجمال، وجمَّل الوجود بوجوده، وأنار ظلمة الكون بطلعة سعوده، وأعلى لواء جوده المنشور، وحفظه إلى يوم البعث والنشور. ولا زالت مخدِّرات النعيم بخيامه مقصورة، وبأنبائه سائرة، وسادات الأمم بإنعامه مشمولة وبأعدائه ساخرة. ولا برحت الأكابر تخضع لعظمة شأنه، وتنقاد تحت سلطان واضح برهانه، ما طلع النيّران، وتعاقب الملوان. فالمنّة لك يا مولانا حيث عافيته من المرض، وأزلت عن جنابه بعنايتك العرض، وأنلتنا به المنى، وألبستنا بصحّته حلل الهنا، وأعدت لنا أيّام السرور، وجدّدت ليالي الفرح والحبور. فوجب على العموم تقديم التهاني لكي يحظوا ببلوغ الأماني. فأقول متطفّلاً وللقبول متأمّلاً، يهنيك سيّدي بعافية؛ شرحت الخواطر، وسكبت على الأنام هامل غيث فضلها الغامر، وألبستك جلباب العافية والفرح، وأماطت عنك لباس البأس والترح، ونقلت لشانيك العلل، وألقتهم في مخاوف الكمد والوجل. ولقد صحّ لك قول من قال وأجاد:

المجد عوفي مذ عوفيت والكرم وزال عنك إلى أعدائك الألم
صحّت بصحتك الآمال وابتهجت بها المكارم وانهلّت بها الديم
وما أخصك من برءٍ تهنّئه إذا سلمت فكلّ الناس قد سلموا

فلقد أمرضت بمرضك الوجود، وشغلت بعرضك الآمال عن نيل المقصود. فوحقٍّ من رفع مقامك، ونشر في الخافقين ذكرك واحترامك، وطوى القلوب على صادق حبِّك، وأنار بك منار خدمك وحزبك، إنه لمن انحراف مزاجك واحتجاجك لعارض علاجك قد توهّجت قلوبنا في محاريب الطب للابتهال، وأجسامنا رفعت أكف الضراعة والسؤال، وعيوننا صرفت دنانيرها ودراهمها، رجاء القبول. ومن لاذ بنا، وأطفالنا يؤمنون بقلبٍ كسيرٍ ودمع مهمول. فنحمد الله الذي قد تفضّل وتمنّن وتكرّم على هؤلاء العبيد، وتحنّن وبارك عليهم الردَّ الجميل، وردَّهم بك إلى الاحترام والتبجيل. فحيث ختم الله بالخير، فلا ضررَ ولا ضيْر. وعند الله مقامات فوق الأمل، لا تنال بفعل ولا عمل. ولا عتبَ على العبيد بتقديم عريضة التهاني، وإن كان معدوداً من الأداني لأن البحر يقبل كلّ وارد وهو للجميع مراع ومساعد، على أن المضاف يشرِّف المضاف إليه، والخادم يعظم بمن يعوِّل في خدمته عليه، ولذلك قلت متشكِّراً الله ومهنِّئاً لسيِّدي، أدام الله علاه:

بشرى لنا حيث ردَّ الله سيِّدنا ... منّاً علينا وبالألطاف أتحفنا
شكراً جميلاً على إحسانه وثنا ... وافٍ بنعمائه اللائي حففْن بنا
عافيت يا ربٌ قطب الكون من عرض ... فالحمد لله حمداً يقتضي المِننا
إنَّ الوجود به قد صحَّ من عللٍ ... والناس قد أصبحت تبدي الهنا علنا
أبقى الإله دواماً شمس طلعته ... ولا أرانا بفضل المصطفى المحنا
هذا الذي نوَّر الدنيا ببهجته ... هذا ابن نور الهدى المختار أحمدنا

فخـراً دمـشق لـك العليـا بـه أبـداً هـذا الـذي فـضله أُفـق العـلا سـكنا
إن رميت تدري صفات المصطفى العربـي بــادر إلى ذاتــه إنَّ الــصفات هنــا
والله لـو أنـصفَ الـساداتُ أنفـسَهم للازمــوه وفــانوا الأهــل والوطنــا
ذا سـيِّدٌ ماجـدٌ حـبرٌ وبحـر نـدا مَـن أَمَّـهُ نـال مـا يرجـو وكـلّ مُنـى
فـداه روحــي وأولادي وملـك يـدي وكيــف لا ومــن الإشــراك أنقــذنا
لازال محفوف لطفٍ دائماً أبداً ما لاح بدر على أم القرى ومنى

وقال الأديب الشيخ عبد المجيد الخاني مضمِّناً ثلاثة أبيات من نظم الأمير:

عطفَ الحبيبُ عليَّ بعد اليـاس والعطـف شـأنُ قوامـه الميـاس
فعرفت من ألم النوى قدر اللقا خير اللقا ما كـان بعـدَ اليـاس
وسُحرتُ من ألحاظه وسكرتُ مـن ألفاظــه وصــحوتُ بالإينــاس
والوصل يجمـلُ موقعـاً كـالورد؛ إن كــان المتــيّم صــبره كــالآس
وأشدُّ ما يجد المحـبُّ مـن الأسـى سهلٌ إذا كان الحبيب الآسـي
والقلـبُ أحـسن مـا يكـونُ إذا جثـا لغـرام ريـمٍ لم يكُـنْ بالناسـي
والناس إماً ذائـق طعـم الهـوى أو عــالمٌ أو عــادمُ الإحــساس
فــالأول الأولى بكــلِّ ســعادةٍ مثل الأمـير الفرد بَـينَ النـاس
الـروح في أحيائـه والـصدر في إحيائـه والقلـبُ يـوم البـاس
ربّ السِّمات الباسمـات وحـسبه شـرف النّبـوة طيِّـب الأغـراس
علـمٌ وسـلطانٌ وحِلـمٌ في تقـىً وولايــةٌ وإقامــةُ القــسطاس
ومواقف شـهدت بفـضل معـارفٍ ضاءَت على الأكوان كـالنبراس
نعم الأمـير لقـد تمنطـق بالهـدى وغـدا لـهُ العرفـان خـيرَ لبـاس
غـوثٌ لـدى محرابـه غيـثٌ علـى أحبابـه ليـثٌ علـى الأفـراس
مَلَــكٌ إذا أوليتــه مَلِــكٌ إذا عاليتـه طـود الوقـار الراسـي

يقظ اللحاظ إذا تكون فضيلة فكأنها خُلقت بغير نعاس
ولعٌ بأخلاق النبوة كلّها لا حلم أحنف أو ذكاءُ إياس
بحر المكارم لا يقول لماله "ما في وقوفك ساعةً مِن باس"[1]
خاض المنايا غير هيّاب لها وبنى رفيع المجد فوق أساس
يحنو على بيض الظبا فكأنها آرام رامة أو ظباءُ كناس
ذو صارم ماءُ الحياءِ فرنده وذبابة قبس من الأقباس
حذر الملوكُ الصيدُ سطوةَ بأسه وأتى الزمانُ لهُ ذليلَ الراس
كم غادر البطلَ القطوبَ لدى الخطو ب بجدِّه حلساً من الأحلاس
ولكم محا جيش الفرنج به كما تمحو المياه كتابة القرطاس
واسأل فرنسا في الجزائر عندما ألقى كتائبها إلى الأرماس
والدار للأقفار والأنقال للأنفال والأطفال للنخّاس
جمعت سجايا الناس فيه فقال من باب التحدُّث عادةَ الأكياس
(الحمد لله الذي قد خصَّني بصفات كلِّ الناس لا النسناس
الجود والعلم النفيس وإنني لأنا الصبور لدى اشتداد الباس
وتحدُّثي شكراً لنعمة خالقي فهو الذي بي جامعٌ للناس)[2]
خطب المعارف وهو كفء جمالها واستخدم الأيام للأعراس
ومقامه كم عفَّرت فيه الملوك جباهها ذلاً بغير شماس
في حسن سيرته التي بنيت على تقوى سريرته أتمُّ جناس

---

1. العجز صدر لبيت مشهور لأبي تمام:

ما في وقوفك ساعة من بأس تقضي حقوق الأربع الأدواس

2. الأبيات الثلاثة المحصورة بين قوسين من قصيدة معروفة للأمير نفسه (الديوان. ص 180 ، ط.3)

سارت مسيرَ الشمس في الدنيا سيادته — على رغم الحسود القاسي
كم ألجأ العقلاءَ حصرُ صفاته — أن يضربوا الأخماس في الأسداس
ولكم تمنَّوْا أن يفوا بمديحه — إنَّ التمني صنعة الإفلاس
حتى رأوا عددَ النجوم صفاته — وهل النجوم تعدُّ في القرطاس
أفدي شريف وجوده فلقد شكا — من سقمه بالنفس والأنفاس
عمَّ البريَّة من بشائر برئه — فرحٌ، زيادته بغير قياس
وإلى الرحاب عقيلةٌ في جيدها — عقدٌ تنظّم من كبار الماس
تهدي التهاني للسيادة بالشفا — والمدح بالأنواع والأجناس
شفعت ثلاث وسائط من نظمه — لقبولها بزيادة استئناس
وتقول يوم البشر في تاريخه — ملك شفاه رحمةٌ للناس

وفي آخر جمادى الثانية، سنة تسع وتسعين ومائتين وألف 1299 هـ، خرج الأمير من دمشق إلى طبريا ونواحيها للتنزُّه، وتبديل الهواءِ لأمراضٍ لازمته.

وكان في معيَّته بعض أولاده، وجماعة الأقارب، والعلماءِ. ومرَّ في طريقه بعين الجابية، الشهيرة في كتب الأقدمين، قرب قرية "نوى" في أرض حوران. فاغتسل فيها على قصد التبرُّك والتداوي، ومنها توجَّه إلى طبريا. وبعد أن أقام فيها ثلاثاً، دعاه المهاجرون الجزائريون إلى قراهم، في أرض الشفا. فأجابهم إلى ذلك. ومِن هناك، توجَّه إلى الناصرة وأقام فيها يوماً عند مفتيها، الشيخ الفهومي. ثم انقلب راجعاً على طريق صفد، ثم ديشوم، ثم القنيطرة، ثم دمشق. وحصل له في هذه الحركة ارتياح وانشراح. وبعد أن أخذ الراحة في داره، خرج

إلى قصره بدمَّر، على نهر يزيد، وانفرد فيه للعبادة ومطالعة كتب الحقائق الإلهية وتعليق مسائلها وحلّ مشاكلها. وكان الناس يزورونه ويتردّدون إليه في حوائجهم على عادتهم. فيبشُّ بهم ويهشُّ لهم كما هو دأبه وعادته مع عباد الله تعالى منذ النشأة.

ذكر ما أجاب عليه من أسئلة العلماء الأعلام

فمن ذلك:

سؤال العلاّمة الشيخ سليم العطار ونصه :

"الحمد لوليّه، والصلاة والسلام على نبيّه، وعلى آله وصحبه.

أمّا بعد؛ فإني، لمّا قرأت كتاب "الإبريز، في مناقب السيد عبد العزيز" قُدِّس سرّه، جمع الفاضل، الشيخ أحمد المبارك، رحمه الله تعالى، بعد العشاءِ بحضور جماعة من الأفاضل. ووصلنا إلى ما وقع في أواخره، من سؤال الشيخ عن قول الإمام الغزالي قدَّس الله روحه: "ليس في الإمكان أبدع ممّا كان" وجدت ابن المبارك انتقد هذه العبارة، وخدش الأجوبة التي أجاب بها العلماء عمّا رُدَّ على ظاهر العبارة. فخطر لي أن أسأل عنها حضرة الأمير الجليل المعظّم، سيِّدي السيد، عبد القادر الحسني، متَّعني الله والمسلمين بحياته، حيث أنه، في هذا العصر، الإمام المقدَّم في العلوم، لا سيَّما ما أفاض الله عليه من علوم القوم وما ذاقه من مشربهم. فأرسلت وسألته، وهو في محله، بقرية دمّر. فكتب هذا الجواب الحريّ أن يكتب بالذهب حيث أنه

رفع الإشكال وأوضح المقام؛ فجزاه الله خير الجزاء وحفظه من كلّ سوءٍ وحماه. آمين".

قال حفظه الله :

"الحمد لله، والجواب والله ملهم الصواب. قال تعالى حاكياً قول موسى (عليه السلام) ومصدقا له: "ربنا الذي أعطى كلّ شيءٍ خلقه ثمّ هدى"[1]. فقول حجّة الإسلام رضي الله عنه: "ليس في الإمكان" إلى آخر مقالته إشارةً إلى معنى المشير إلى سرّ القدر، المتحكّم في المخلوقات الذي هو العلّة التي لا يقال فيها لِمَ؟ في الاختلاف العام في الذوات والصفات والنعوت والاستعدادات. أخبر الله تعالى أنه أعطى كلّ شيءٍ، من العالم المخلوق، في مرتبة وجوده الخارجي خلقه أي استعداده الكلّي الذاتي الغير مجعول، ولا مخلوق، الذي هو عليه في مرتبة ثبوته وعدمه. فإن كلّ ممكن لهُ استعدادٌ خاصٌ، لا يشبهه استعداد ممكن استعدادَ غيره.

وبالاستعدادات كانت الحجّة البالغة لله تعالى على من أشقاه وابتلاه أو أفقره، ونحو هذا. فإن استعداده طالبٌ لذلك. ولو أعطاه غيره على سبيل الفرض، لردّه وما قبله، لاستعداده لضدّه. فإن الاستعدادات طالبة لإيجاد ما هي مستعدّةٌ لهُ، سواء كان ملائماً في الخارج أو غير ملائم. ولا يطلب استعدادٌ، أيّ استعداد كان، إلاّ ما هو كمالٌ في حقّه، وبالنسبة إليه فإنه ترتيب حكيمٍ عليم. والحكيم

1- سورة طه ، الآية 50.

هو الذي يضع كلَّ شيءٍ موضعه اللائق به بحيث لا يكون أحكمَ، ولا أصلحَ، ولا أبدعَ، ولا أكمل منه.

ولو فرضنا أنّ عيناً من أعيان العالم طلب استعدادُه من الحقّ تعالى شيئا أعلى مما هو عليه وأحكم وأصلح ، ولم يعطه ذلك وادخره عنه وهو ممكن .فلا يخلو إما أن يكون الحق تعالى منعه ذلك بخلاً، تعالى الحقُّ عن البخل. فإنّ البخل يناقض الجود الثابت له تعالى عقلاً وشرعاً. وإماّ أن يكون منعه ذلك عجزاً، وقد فرضناه ممكناً، وهو يناقض الاقتدار الثابت له تعالى عقلاً وشرعا، على كلّ ممكّن، فثبت أن الحقَّ تعالى جوادٌ قادر، أعطى كلَّ شيءٍ من العالم: خلقه واستعداده. وما نقصه شيئاً مما طلبه استعداده. وما بقي في الإمكان شيءٌ يكون ممكناً في حقِّ عينٍ من أعيان العالم أعلى وأحكم وأبدع مما هو عليه، وادَّخره عنه. وحينئذٍ، صحَّ قولُ حجّة الإسلام: "ليس في الإمكان..الخ" فحجّة الإسلام بصدد الكلام على العالم الموجود، وأن الذي رتّبه هذا الترتيب الذي هو عليه، حكيمٌ. فلا يمكن أن يكون في الإمكان أحكمَ وأصلحَ وأبدعَ من هذا الترتيب الذي هو عليه. فإنّه ترتيب الحكيم.

فلا يمكن أن يكون في الإمكان أحكمَ وأبدعَ من هذا الترتيب المشاهد في أوضاع العالم، وصفاته، وأحواله. وادّخره الحقُّ تعالى مع طلب الاستعدادات أن يخلق لها ما هي مستعدّة له، ومنعها إياه. والمنعُ في حقِّ الحقِّ محالٌ. فإنَّ منع المستعدّ شرٌّ، والشرّ ليس إليه تعالى وإنَّما يكون المنع من جهة القابل، حيث إنه عدم الاستعداد للقبول. فالإمكان المنفي إنّما هو كون العالم وأشخاصه قابلة أن

تكون على ترتيبٍ وصفات، أعلى وأبدع مما هي عليه. وهذا محالٌ. فإن الاستعدادات حاكمةٌ. فلا يقبل مستعدٌّ غير ما هو مستعدٌّ له. يدل على ذلك قوله: لو أن الله عزّ وجلّ خلق الخلائق كلّهم، على عقل أعقلهم، وعلم أعلمهم، وخلق لهم من العلم ما تحتمله نفوسهم، وأفاض عليهم من الحكمة ما لا منتهى لوصفه ثم زاد مثل جميعهم علماً وحكمةً وعقلاً، ثم كشف لهم عن عواقب الأمور، وأطلعهم على أسرار الملكوت، وعرّفهم دقائق اللطف وخفايا العقوبات حتى اطّلعوا على الخير والشر والنفع والضرّ، ثم أمرهم أن يدّبروا الملك والملكوت بما أعطوا من العلوم والحكم لما اقتضى تدبيرهم جميعاً مع التعاون والتظاهر أن يزاد فيما دبّر الله الخلق به في الدنيا والآخرة جناح بعوضة، ولا أن ينقص منه جناح بعوضة...إلخ، فلا إيجاب ولا غيره، مما توهّم في كلام حجّة الإسلام من انتقادات الفلاسفة والمعتزلة ولكنه رضي الله عنه مزج كلام أهل الحقائق بكلام أهل النظر.

وجهٌ آخر: اعلم أنّ الآثار الكونيّة دلّت على المعاني الإلهية والحقائق الرّبانية، والمعاني الإلهية دلّت على وجود ذات الإله المعبود. فما في العالم، حقيقة كونية، كليّة أو جزئية، إلاّ ولها حقيقة إلهية، كلية أو جزئية تقابلها. وهي مستندها ومحتدها. والحقيقة الكونية هي تعيّنها ومظهرها. فالنسخة الكونية مقابلة للنسخة الإلهية. ولا يلزم من تقابل النسختين واستناد إحداهما إلى الأخرى المساواة في الحقيقة والنسبة.

ومن علم هذا، علم صحّة قول حجّة الإسلام، الغزالي رضي الله عنه: "ليس في الإمكان أبدع ولا أكمل من هذا العالم"، إذ لو كان وادّخر لكان بخلاً يناقض الجود، وعجزاً يناقض القدرة مع ما تقدم وتأخر من كلامه في باب التوكل من كتابه "إحياء العلوم". يريد رضي الله عنه أنه لما كان العالم مظاهر أسمائه تعالى الكلّية والجزئية، لأنها الطالبة لإيجاد العالم، وإظهاره من العدم الإمكاني، مع طلب الحقائق الإمكانية للإيجاد والظهور، من التعيّن الخارجي من عوارض التعيين الخارجي ولوازمه، من الأحوال والنعوت التي لا تنحصر ولا تدخل تحت ضابط ولا قياس.

وقد أجاب الحقُّ تعالى طلب الجميع. فلم تبق حقيقةٌ كليّة إلهية، تطلب العلم إلاّ وقد ظهرت بحقيقة كلية كونية. وجزئيّاتها وأشخاصها لا تتناهى. فلم يبق شيءٌ في الإمكان من الأجناس والأنواع إلاّ وقد كان؛ فإنه لو بقي في الإمكان شيءٌ، بعد هذا العالم، جنساً أو نوعاً، وادّخره تعالى لكان هذا الادّخار بخلاً عن الممكنات الطالبة باستعدادها للإيجاد؛ وعن الأسماء الإلهية الطالبة لظهورها بظهور الممكنات التي هي آثارها. وإن لم يكن بخلاً، تعيّن أن يكون عجزاً.فإن عدم إسعاف الطالب بمطلوبه لا يكون إلاّ بخلاً أو عجزاً وكلاهما محالٌ على الجواد المطلق القادر على كلّ شيءٍ ،فهو الذي أعطى كلّ شيءٍ خلقه واستعداده كما ينبغي، وعلى الوجه الذي ينبغي، وبالقدر الذي ينبغي... فعطاء الحقّ تعالى تابعٌ للطلب الاستعدادي الكلّي من الأسماء ومن الأعيان الثابتة التي هي صور الأسماء، وللطلب

الحالي الاضطراري لا القولي إلاّ إن وافق الاستعدادي، أو الحالي؛ فلا يجب شيءٌ على الحقّ تعالى ولا يُتصوّر في حقّه تعالى منع مستعدّ لشيء، ممّا هو طالبه، باستعداده الكلي.

فإن من أسمائه تعالى "المعطي" ولا يكون مسمىّ بهذا الاسم، في حال دون حال، ولا في وقت دون وقت، وما سميّ "بالمانع"إلاّ من حيثُ عدم قبول الطالب بلسانه ما هو غير مستعدّ لقبوله. فما أنكر قول حجّة الإسلام، واستعظمها، واستغربها منه إلاّ من كان متكلّماً قحاًّ، محجوباً عن الرقائق والدقائق ما شمَّ رائحةً من علم القضاء والقدر، ولا عرف كيفية نشأة العالم، ولا أسباب صدوره، فتوهّم هذه المقالة تعجيزاً للقدرة، وتناهياً للمقدورات، وإيجاباً على الحقِّ تعالى.

هذا جواب من حمل كلام حجّة الإسلام على نفي الإمكان عن إيجاد عالم آخر، أو عوالم، ونفى فعل الإبداع ومشياً على القواعد المعتزلة، وهيهات هيهات. وإنما مُراد حجّة الإسلام التنبيه على أن سبب هذا الاختلاف الواقع في العالم، بين أجناسه وأنواعه، وبين أشخاص أنواع الواحد، هو القضاء الأزليّ. وسبب القضاء الأزليّ هو الحكمة من أسمائه تعالى "الحكيم". فهي المخصّصة للاستعدادات. والحكمة متقدّمة بالمرتبة على العلم الأزليّ. فما ظهر في هذه النسخة الشهادية إلاّ ما طلبته الاستعدادات الأزلية غير المجهولة. فكل ما ظهر في العالم فهو العدل الحقّ، ولا يظلم ربّك أحداً.

جواب آخر:

قال تعالى: ﴿**ربّنا، الذي أعطى كلّ شيءٍ خلقه. ثمّ هدى**﴾[1]. المطلوب من الواقف على هذا الموقف أن يعطيه ما يستحقّه من التأمل والإنصاف، فإنها مسألة تكسّرت في البحث عنها أظافر كثيرين ليعلم أنّ الأشياء الممكنة معلومة للحقّ تعالى حالة عدمها، بعلمٍ محيطٍ إجمالي في تفصيل لا يتناهى. والشيئية المذكورة في هذه الآية هي الشيئية الوجوديّة. أعطى كلّ شيءٍ أي موجود خلقه طبيعته واستعداده، كما هي في قوله: ﴿**وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ. وَلَمْ تَكُ شَيْئاً**﴾[2] أي موجوداً، لا الشيئية الثبوتية كما هي في قوله: ﴿**إنما قولنا لشيء...** ﴾[3]. الآية. وهي الشيئية المعلومة، المجرّدة من الوجود العيني. ولحقائقِ الممكنات استعدادات كذلك معلومةٌ له تعالى، ثابتة ،معدومة. وكما أن عدم الممكنات، السابق على وجودها، غير مراد ولا مجعول، فكذلك استعداداتها وطبائعها الكلّية غير داخلة تحت الإرادة والجعل لأنها اقتضاءات أسمائية إلهية، التي هي حقائق أولى. وهذه حقائق ثوان. والممكن من حيث هو ممكن، بالنظر إلى حقيقة الإمكان، لا يقتضي شيئاً لذاته. فلا بدّ من مرجّح إذ وقوع أحد المتساويين، بلا مرجّح، محال لما يلزم من التساوي وعدم التساوي. والمرجّح لا يرجّح إلاّ بالعلم والإرادة المتقدّمتين على الترجيح، بالنظر

---

1. سورة طه، الآية 50

2. سورة مريم ،الآية 9

3. سورة النحل، الآية 40

إلى كون علمه تعالى قديماً محيطاً، لا يقبل التغيُّر لاستحالته. فالممكن، المعلومة حالة عدمه، لا يقبل التغيير، لما يلزم من انقلاب العلم جهلاً، إذ المحَالُّ كانت معنوية أو عينية، تعطي الحالّ بها أحكاماً ليست له بمجرّد النظر إلى ذاته. فلزم من هذا أنَّه تعالى لا يعطي حقيقةً وذاتاً، من ذوات الممكنات، حالةَ إيجاده من الأحوال والصفات إلاّ ما علمهُ منهُ حالةَ عدمه لطلبه لذلك باستعداده وطبعه الذي هو مقتضى حقيقته، إذ انقلاب الحقائق محالٌ. وصحّ قول حجّة الإسلام، الغزالي رضي الله عنه: "ليس في الإمكان أصلاً أحسنُ ولا أتمُّ ولا أكملُ مماً كان" أي مماً هو عليه كلُّ ممكنٍ في الحال. ويكون عليه في الاستقبال، من الأحوال والصفات، دنيا وأخرى، يعني أنه ليس في الممكن الجائز أن يكون في حقّ أفراد كلِّ حقيقة وذات، نسبت إلى الوجود في العالم، أعلاه وأسفله، أحسنُ وأتمّ وأكملُ مماً كان، أي مماً أُعطيت أشخاص كلّ حقيقة من الأحوال والصفات والأوضاع، لأنه تعالى فعل بها، وأعطاها ما تطلبه باستعدادها، وتستحقّه بطبعها الذي علمه منها، حالة عدمها. فكما أنه تعالى أخبر أنه لا يعطيها في النهاية إلاّ وصفها، لقوله: ﴿سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم﴾[1]. ولا يظلم ربّك أحدا لأنه علمهم على تلك الصفات، والأحوال، في الدنيا. فكذلك في البداية، لم يعطهم من الأحوال والصفات إلاّ ما عَلمَهم عليه، قبل وجودهم وهي استعداداتهم لأنّه علمهم متى وجدوا ، يكونوا على تلك الأحوال والصفات والهيئات والأوضاع لأنّها مقتضى استعداداتهم

1. سورة الأنعام ، الآية 139.

التي هي حقائقهم أو لوازم حقائقهم. ومن البيّن أن العلم ظلٌّ المعلوم، وحكايةٌ له. فهو تابع له، ولا أحسن ولا أكمل ولا أتمّ ولا أحكم من إعطاء كلِّ مستعدّ ما هو مستعدٌّ له. فإنه لا يطلب غيره، بل لا يقبله. فإنه لا يصلحه ويمشي به على حقيقته إلاّ ذلك. ألا ترى مثلاً إلى استعداد الشّمعة للانطفاء بالنفخ واستعداد قبضة الحشيش اليابس للاتّقاد به. ولو أراد النافخ، إذا كان غير عالم بالاستعداد، ولا حكيم، فيعطي كلّ شيءٍ ما يستحقّه إيقاد الشمعة بالنفخ، ما قبلت ذلك لأنه خارج عن استعدادها كما أنه إذا أراد إيقاد قبضة الحشيش بالنفخ، قبلت ذلك. كذلك الفعل والفاعل واحد، ولكن الاستعدادات مختلفة، والطبائع متباينة. فالتجلي الإلهي واحد. وحقائق الممكنات تقبله بحسب استعداداتها وقوابلها..

فمن الاستعدادات ما يعمّ جميع أشخاص الحقيقة الواحدة كالتغذي مثلاً لحقيقة الحيوان والنبات. وقد ينفرد كلّ نوعٍ من أنواع الجنس الواحد باستعداده طبيعةً كاستعداد أنواع الحيوان المصوّت كلّ نوع إلى صوت يخالف الآخر. وما ذاك إلاّ لاختلاف الاستعدادات. وقد لا تنحصر الاستعدادات في أشخاص النوع الواحد، ولا في أنواع الحقيقة والجنس الواحد. والحقّ تعالى واسعٌ، عليمٌ بالاستعدادات على اختلافها، حكيمٌ يضع الأشياء مواضعها التي تستحقّها، جوادٌ يعطي كلّ مستعدّ ما يطلبه باستعداده وهو معنى: "أعطى كلّ شيءٍ خلقه" أي طبيعته واستعداده. ثم "هدى" أي بيّن، ويسّر، وساق كلّ شيءٍ بعد إيجاده إلى ما هو مستعدٌّ له، قبل إيجاده. فليس له تعالى

إلاّ إعطاء الوجود للأحوال والصفات لكلّ مستعدٍّ حسب استعداده وطلبه لذلك، بلسان حاله الذي هو الاضطرار. وهو تعالى يقول: ﴿أمَّنْ يُجيبُ المُضْطَرَّ إذا دَعَاه﴾[1] فكلام حجّة الإسلام رضي الله عنه إنّما هو في بيان أنّه تعالى ما ظلم أحداً من خلقه، ولا عدل به، عماّ علمه منه، حالة عدمه ولا نقصه خردلةً مماّ طلبه باستعداده، وخلقه، وطبيعته إن خيراً فخير، وإن شراً فشرٌ، وإن نقصاً فنقص، إن كمالاً فكمال. وبهذا كانت له الحجّة البالغة على مخلوقاته. وفي بيان أنّ الأحوال والصفات، والأوضاع المجعولة لا يمكن أن تكون أعلى مماّ هي عليه، ولا أدون لأنّها مقتضى استعدادات الحقائق والذوات من غير تعرّض لشيء آخر وراء ذلك أصلاً. ولو قيل لحجّة الإسلام هل في الإمكان العقلي أن يخلق الله تعالى حقائق أحسن وأتمّ وأكمل مماّ خلق؟ أعني قدّر لقال هو ممكن عقلاً إذا أراد. وأماّ كشفاً فهو محال لأن العالم مخلوق على الصورة الإلهية. وحجّة الإسلام إنما يتكلم مع الجمهور أصحاب العقول. فهو يقرِّب الأمر إلى قولهم. ولو قيل له وهل في الإمكان أن يعطي تعالى تلك الحقائق، صفاتٍ وأحوالاً، أعلى وأدون، مماّ تقتضيه استعداداتها التي علمها عليه قبل نسبة الوجود إليها، لقال لا يمكن لأنّ القدرة إنما تتعلّق بالممكن؛ ووقوع خلاف العلم الإلهي مستحيلٌ يؤيّد حمل كلامه رضي الله عنه على ما ذكرناه، لا غير قوله الذي بنى عليه المقالة، عندما تكلّم فيما يثمر التوكّل ما نصّه، باختصار بعض الكلمات: هو أن تصدّق يقيناً أنّ الله، لو خلق الخلائق كلّهم، على عقل أعقلهم

---

1. سورة النمل، الآية 62.

وعلم أعلمهم، وأفاض عليهم من الحكمة ما لا منتهى لوصفه، ثم كشف لهم عن عواقب الأمور، وأطلعهم على أسرار الملكوت، وأمرهم أن يدّبروا الملك والملكوت، بما أُعطوا من العلم والحكمة، لما اقتضى تدبير جميعهم أن يزاد، فيما دبّر الله به الخلق، في الدنيا والآخرة، جناح بعوضة، ولا أن ينقص منه جناح بعوضة، ولا أن يُرفع عيبٌ، أو نقصٌ، أو مرضٌ أو ضرٌّ عمَّن بلى به، ولا أن يُزال غنىً أو صحّةٌ، أو كمالٌ أو نفعٌ.. عماّ أنعم به عليه. بل كلّ ما خلق الله من السموات والأرض. وكلٌّ ما قسم الله بين عباده، من رزقٍ، وأجلٍ، وسرورٍ، وحزنٍ، وعجزٍ وقدرةٍ، وإيمانٍ، وكفرٍ، وطاعةٍ ومعصيةٍ، عدلٌ لا جور فيه، وحقٌّ لا ظلمَ فيه، بل هو على الترتيبِ الواجبِ الحقّ على ما ينبغي. وليس في الإمكان أصلاً أحسن منه، ولا أتمّ ولا أكمل ولو كان، وادّخره مع القدرة لكان بخلاً يناقض الجود، وظلماً يناقض العدل. ولو لم يكن قادراً لكان عاجزاً. والعجز يناقض الألوهية، يعني رضي الله عنه أنه تعالى لو أعطاهم ما أعطاهم وكشف لهم عن علمه بالأشياء في العدم، فعرفوا استعداداتها، وطبائعها التي تقتضيها، لرأوا حقائق الأشياء طالبةً لصفاتها، وأحوالها، وأوضاعها، التي تعرض لها بعد الإيجاد العيني، طلباً طبيعياً لزومياً. ورأوا تلك الصفات والأحوال على اختلاف أزمنتها وأمكنتها مترتِّبة ترتيباً اقتضائياً، بحيث تكون الحالة الأولى جاذبةً للتي بعدها، مستلزمةً لها كحلق السلسلة، يجذب بعضها بعضاً، جذباً طبيعياً. فلو عكس هؤلاء الذين أمرهم الله

تعالى أن يدبروا الخلق، بما أفاض عليهم، وأعطاهم من العلم والحكمة، خردلةً ما انتظم العالم، بل لا يمكنهم زيادة خردلة، ولا نقصانها. لأنّه قلبٌ للحقائق وهو محالٌ. وتغييرٌ لمعلومِ العلم أزلاً؛ وهو محالٌ أيضاً، إذ العلم لا بدَّ له من معلوم. ومتى ما ظهر، ظهر طبق ما تعلّق به العلم القديم، لا أزيد ولا أنقص، بزمانه ومكانه، لا يتقدّم ولا يتأخَّر. فهو تعالى يخلق ما يشاء ويختار، ولا يشاء ويختار إلاّ ما علم من كلّ معلوم حال عدمه. وهو ما عليه كلُّ ممكنٍ، حالةَ وجوده من جميع أحواله وصفاته التي لا نهاية لها في الدار الدائمة. فلا يصحُّ أن الحقَّ تعالى يعجز عن شيءٍ، بل هو القادر المطلق. ولكن يقال الحقّ تعالى لا يفعل إلاّ ما أراد واختار، ولا يريد ويختار إلاّ ما علم. والمعلوم لا يتغيّر. فلو كان في الإمكان خلاف الواقع، بحسب ما عليه كلّ ممكن من الأحوال والصفات مع طلبِ الممكن، أيّ ممكن كان من الممكنات باستعداده ولسان حاله، الأحسن والأكمل، بالنسبة إلى ما أعطى من الصفات والأحوال على سبيل فرض المحال، إذ لا يطلب شيء غير ما هو مستعدّ له البتَّة لكان بخلاً يناقض الجود وظلماً يناقض العدل، والبخل والظلم محالٌ. فاللازم وهو منع المستحقّ ما هو مستحقّ له، طالب له باستعداده محال. والظلم وضع الأشياء في غير مواضعها التي تستحقّها باستعداداتها. والعلم والحكمة، ولو لم يكن قادراً على ما يريد، لكان عاجزاً والعجز محال. فهو تعالى عالمٌ، قادرٌ مريدٌ مختارٌ... لعلمه وإرادته واختياره؛ ولا يعطي شيئاً من الممكنات إلاّ استعداده لأنّه مقتضى

الإرادة المترتِّبة على العلم المترتِّب على المعلوم. فتبيّن من هذا أن لا اعتزال، ولا فلسفة، ولا جبر، ولا إيجاب، في قول حجّة الإسلام، في هذه، بل هو كلام صفوة الصفوة من أهل السّنة والجماعة. والحاصل أنّ حجّة الإسلام رضي الله عنه رمز بهذه المقالة إلى سرِّ القدر المتحكّم في الخلائق. وهو الذي تنتهي إليه الأسباب والعلل. وهو لا سببَ له ولا علّة. فلا يقال فيه: "لِمَ؟" ولا "كيف؟" قال رضي الله عنه بعدما قدمناه من كلامه: وهذا ،الآن، بحرٌ زاخرٌ، عظيمٌ، عميقٌ، واسعُ الأطراف، مضطربُ الأمواج... غرق فيه طوائف من القاصرين، ولم يعلموا أنّ ذلك غامضٌ، ولا يعقله إلاّ العالمون. ووراء هذا البحر، سرّ القدر الذي تحيَّر فيه الأكثرون، ومُنِعَ من إفشاء سرِّه المكاشفون...إلى آخر المقالة. فاعتاض هذا الرّمز على الإفهام من الخاصِّ والعامِّ، وتباينت فيه الآراء من لدن عصر حجّة الإسلام...إلى هلم جراً...حيث كان هذا الرمز موزّعاً بين معتقد مجيب ومنتقد غير مصيب. أما العارفون بالله، فقد عرفوا صحّة معناها، وأصل مبناها غير أنه ما استقام لهم تطبيق اللفظ، على المعنى المراد، الاستقامة الخالية عن التكلُّف، السالمة من الاعتراض. وأمّا غير العارفين، من مجيبٍ ومعترضٍ، فهم يتخبّطون بين كلام السنة والاعتزال، والكلّ في ناحيةٍ عن مرمى حجّة الإسلام. وأكثر من بسط الكلام في هذه المقالة من الذين وقفنا على كلامهم: الشيخ أحمد بن المبارك، في "الإبريز" وقال: إنّه فعل ذلك نصيحةً للمسلمين. والله ينفعه بقصده. وهو من القادحين في هذه المقالة. والحقُّ ضالة المؤمن، يأخذها عند من وجدها عنده. ومن عرف الحقّ بالرجال، تاه في مهامه الضلال.

سؤال آخر منه لحضرته

سيِّدنا الهمام أدام الله به النفع، على الدوام.

ذكرت لحضرتكم مسألة الرؤيا. وأنها أشكلت على هذا الحقير، من جهة التفرقة، بين الرؤيا الصالحة، والحلم لأن الوارد أنّ الصالحة؛ من الله، وأن الحلم من الشيطان. ولم يظهر للداعي هذه النسبة لأنّ العالم في النوم لا تفاوت بينهم. فإن كان بالنسبة إلى صلاح الرأي وعدمه، فكثيرٌ من أهل الصلاح يرون في منامهم أشياء ظاهرها الحلم. وإن كان لغير ذلك، أرجو من السيادة بيان الأمر. كذلك ذكرت لسيادتكم أن إنكار الرؤيا الذي حكاه في الموقف عن جمهور المتكلّمين بقولها: "إنها خيالات". هل يكفرون بذلك أم لا؟ فأرجو كشف القناع عن هذه المسألة بما يظهر به للداعي حلُّ مشكل هذا الأمر، من كلام أهل الباطن والظاهر، ومماّ تفضّل الله به عليكم من الواردات الإلهيّة، وأجراه على لسانكم من ينابيع الحكمة الصمدانيّة. وربّنا يجعلكم منهلاً لكلّ وارد. والسلام عليكم. ورحمة الله.

الجواب:

الحمد لله وحده، والعلم عنده. سامحوني في التأخير؛ فإنني ما وجدت وقتاً إلاّ هذا ليعلم: أن إدراك أمر الرؤيا صعُب على العقل، من حيث ذاته وآلاته التي يقتنص بها العلوم، لا من حيث استعداده وقبوله. فهو يدرك ما هو أعظم من أمر الرؤيا، كالتّجليات الإلهيّة، مع غموضها ولطفها ولا يدرك أمر الرؤيا إلاّ من علم الخيال المطلق، والخيال المقيّد.

وعلم ذلك ركنٌ من أركان العلم بالله تعالى فنقول على جهة الإيماء والاختصار: إن الخيال المقيّد مرتبةٌ من مراتب الشعور، تلطف الكثيف المقيّد وتكثّف اللطيف المقيّد؛ والرؤيا المنامية شعبةٌ منه. والحقّ تعالى جعل في عين الإنسان، وفي سائر قواه، نورين، نور يدرك به المحسوسات، وقد يدرك بعض المتخيّلات يقظةً كما الأنبياء وبعض الأولياء. وهو من المسائل الثلاث التي يجتمع فيها: النبيّ والوليّ، مناماً وغيبةً وفناءً، لغيرهم...ونورٍ يدرك به المتخيّلات، إماّ في النوم، أو في حالة غيبةٍ عن المحسوسات أو في حالة الفناء، أو في اليقظة...كما للأنبياء، والأولياء... وكلا الإدراكين في العين. ولا يقدر الإنسان أن يفرّق بينهما إلاّ إذا كان من الكمَّل.

وقد جعل الحقُّ تعالى برزخاً بين عالم المعاني المجرّدة عن الموادّ، وبين الأجسام المادّية، وهو المسمىّ بالخيال المطلق وبالبرزخ. وهو الحضرة الخالية لكلّ شيءٍ من الأجسام، والمعاني المادّية صورة روحانيّة خيالية لا تقبل التجزيء ولا الخرق ولا الالتئام... مثل الصور التي في أذهاننا. فإذا نام الإنسان أو غاب عن المحسوسات، بسبب شيءٍ مماّ قدّمناه. وأراد الحقُّ أن يريه شيئاً، من أمر الملك الموكل بالمرأى، بإفاضة ذلك، وكشفه للروح الإنساني في حضرة الخيال المقيّد، إماّ بواسطة الشيطان، وهو إلقاء ما فيه تحزين، وإماّ بواسطة النفس، وهي الرؤيا التي فيها حديث النفس، وإماّ بواسطة الملك، وهي البشرى المنسوبة إلى الله تعالى. وقد وردت التفرقة بين هذه الثلاث فيما رواه الترمذي، قال رسول الله (ﷺ) :

"إذا تقارب الزمان، لم تكد رؤيا المؤمن تكذب. وأصدقهم رؤيا أصدقهم حديثاً. ورؤيا المسلم جزءٌ من ستّةٍ وأربعين جزءاً من النبوّة".

والرؤيا ثلاث: فالرؤيا الصالحة بشرى من الله، ورؤيا من تحزين الشيطان، ورؤيا مما يحدّث المرءُ به نفسه. فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقم وليتفل عن يساره ثلاثاً ولا يحدِّث به الناس!"..(الحديث) فبيّن (ﷺ) : أنّ التي من الله هي الرؤيا التي فيها بشرى، كأن يعمل الرائي عمل برٍّ فيه، إمّا بحثّه على الزيادة منه، وملازمته، أو يكون عمل سوء فيرى ما يحذّره منه ويخوّفه سوء عاقبة ذلك الفعل. وبالجملة أن يرى كلّ ما ينتفع به، في معاده ومعاشه. والتي هي من الشيطان هي أن يرى ما يورثه همّاً وحزناً وقد يكون ذلك أو لا يكون. ولهذا لا تضرّه، إذا لم يحدّث بها أحداً وهنا سترٌ تركناه. وبيّن صلى الله عليه وسلم دواء هذا التحزين والتمريض الشيطاني وهو أن يقوم ويتفل عن يساره ثلاثا، ويستعيذ بالله من شرِّها: فإنها لا تضرّه كما ورد في عدّة أحاديث. وهذا كما يوسوس الشيطان للإنسان في يقظته. ويلقي الله أشياء توجب له غماً وحزناً. وقد لا تكون أبداً لأنّ الشيطان عدوٌّ للإنسان، يريد إدخال الضرر عليه، يقظةً ونوماً. ونسبة هذا القسم إلى الشيطان لكونه بواسطته، وإلاّ فالكلّ من الله تعالى كما انقسمت الخواطر إلى: ربّاني، وملكي، وشيطاني، ونفساني. والكلّ من الله كما قال: ﴿**فألهمها فجورها وتقواها**﴾[1] لأجل الواسطة، والأدب مع الحقّ تعالى في نسبة

---

1 ـ سورة الشمس، الآية 8.

الخيرات إليه، ونسبة الشرور إلى الوسائط من المخلوقات. وقولكم: "العالم لا تفاوت في النوم بينهم"... بل بينهم تفاوت عظيم. كما هو في اليقظة. فإنّ النوم أخو الموت. قال تعالى: **﴿الله يتوفّى الأنفس، حين موتها. والتي لم تمت في منامها﴾**[1] وورد في الحديث: "يموت المرء على ما عاش عليه". فليس نومُ من غالبُ أوقات يقظته حضوره مع الله، ومراقبته للشارع في حركاته وسكناته وكلامه وصمته كنوم من غالبُ أوقات يقظته غفلةٌ عن الله تعالى ولهوٌ وهذيان واشتغال بالخلق عن الخالق. فإنّ الأول إذا نام، نام على ما كان عليه في غالب يقظته. فلا تكون رؤياه غالبا إلاّ من الله تعالى لأنّه إمّا معصومٌ كالنبيّ أو محفوظٌ كالوليّ، أو معتنى به كخواصّ صلحاء المؤمنين، إذ ليس للشيطان سلطان على عباد الله المخلصين في يقظتهم؛ فكذلك في نومهم. وإن كانت رؤياه حديث نفسٍ مماّ كان عليه في يقظته؛ فهي ملحقة بما هي من الله. فإن كان في يقظته مع الله أو مع أحكامه، فإن حصل لهذا تخزين من الشيطان في رؤياه، فهو نادرٌ. والنادر لا اعتداد به ولا اعتبار له. ويكون ذلك ابتلاءً يعود عليه بالخير كما إذا وسوس له في يقظته، فإنه من الذين إذا مسّهم طائف من الشيطان، تذكّروا الخطأ في التعبير.

والثاني: إذا نام، نام على ما كان عليه في يقظته. ولا تكون رؤياه غالباً إلاّ من تلاعب الشيطان، أو من حديث النفس، مماّ كان عليه في يقظته. فإذا حصلت له رؤيا من الله تعالى نادراً، فإماّ أن يكون ممّن سبقت له

1. سورة الزمر، الآية 42.

العناية الإلهية، وقد انتهت مدّة قطيعته، وتلاعب الشيطان به. وإماّ أن يكون لتلك الرؤيا تعلّق بعبدٍ من عباد الله الصالحين. قال البخاري رضي الله عنه في صحيحه، باب رؤيا أهل الشرك والسجون.. وساق ما ورد في قصّة يوسف عليه السلام مع العزيز؛ يشير إلى أنّ أهل الشرك والفسق قد تصدق رؤياهم نادراً. قال بعض سادات القوم رضوان الله عليهم: لا تصدق رؤيا المشرك، وما في معناه، من أهل الفسق إلاّ إذا تعلّق بها حقٌّ لمؤمن.. فليست رؤيا مطلق المسلم كرؤيا المسلم الصالح. وقد ورد في روايات الرؤيا الصالحة من الرجل الصالح. فالمسلم المطلق محمولٌ على المسلم المقيّد. ولا بدّ وقد تقدّم في الحديث: "أصدقهم رؤيا أصدقهم حديثاً". وأماّ ما حُكي عن جمهور المتكلّمين من أنّ النوم يضادّ الإدراك، وأن الرؤيا خيالات باطلة... فهذا القول مستبعدٌ جداً صدوره من مؤمن بكتاب الله، وسنّة رسوله. كيف؟ مع شهادة الكتاب والسنّة، بصحّة الرؤيا؟ ولو كشف الله تعالى لهذا القائل عن الخيال المطلق والخيال المقيد، لعلم أن إدراك الخيال أصحّ من إدراك الحسّ، لأن الحسَّ له غلطات ،كما قيل، والخيال لا غلط في إدراكه، وإنما الغلط في التعبير. وإن صحّ هذا القول عن أحد من العقلاء، فمراده أن ما يتخيّله النائم، إدراكاً بالبصر، رؤية. وكون ما يتخيّله، إدراكاً بالسمع، سمعاً، باطلٌ، فلا ينافي هذا حقيقته، بمعنى كونه أمارة لبعض الأشياء لذلك الشيء نفسه، أو ما يضاهيه ويحاكيه. وإلاّ فإنكار الرؤيا إنكارٌ للضروريات الطبيعية. فإنّ كلّ إنسان، من مؤمن وكافر ومطيع وعاص يجدها من نفسه. وتصلكم كلمات مختصرة، في الخيال، فطالعوها –إن شئتم– ثم ردّوها عليّ.

وهذا جواب لسؤال، وارد منه، أيضاً

الحمد لله الذي أطلعت عليه من كلام الأئمة، منه ما يفيد أنّ كون أول السنة القمرية المحرّم وآخرها ذو الحجة. إنما كان باتفاق الصحابة في خلافة عمر. ومنه ما يفيد أنّ ذلك كان قديماً سابقاً. أماً ما يفيد بظاهره أنّ ذلك قديم، فقوله تعالى: ﴿**إنَّ عدّة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض**﴾[1] الآية... قال الشيخ إسماعيل في تفسيره: إن الله تعالى أجرى الشمس والقمر في السموات يوم خلق السموات والأرض. فمبلغ عدد الشهور اثنا عشر شهراً، أولها المحرّم، وآخرها ذو الحجة.. فهذا الكلام صريحٌ في أنّ كون أول الشهور المحرم، عند الله، في كتابه، أي اللوح المحفوظ، كما في آية ﴿**إن عدة الشهور**﴾[2]. وروى سعيد بن منصور، في "سننه" بسنده إلى ابن عباس أنه قال، في قوله تعالى: "والفجر" الفجر شهر المحرم، وهو فجر السنة. أخرجه البيهقي في الشعب. وإسناده صحيح. ومثل هذا لا يقوله ابن عباس، بالرأي. قال بن حجر في أماليه: بهذا يحصل الجواب عن الحكمة في تأخير التاريخ من الهجرة. وإنّما كانت في ربيع الأول 10 هـ. وقال شارح اللمع : بين العام والسنة فرقٌ في الوضع العربي. فالعام من أول المحرم، إلى آخر ذي الحجّة. والسنة من كل يوم إلى مثله، من القابل 1000 هـ وقال أبو البقاء: السنة، في عرف الشرع،

---

1. سورة التوبة ، الآية 36.

2. سورة التوبة، الآية 9.

من كلّ يوم إلى مثله من القابل بالشهور الإلهية. والعام، من أوّل المحرّم إلى ذي الحجّة 1000 هـ. وقال ابن أبي خثيمة: لما اختلف الصحابةُ في الشهر الذي يجعلونه أوّل السنة، قام عثمان، فقال: المحرّم هو أوّل السنة، وهو شهر حرام، وهو أوّل الشهور في العدة 1000 هـ. فهذا صريحٌ في أنّ كون أوَّل الشهور، في العدة، المحرّم من قديم الزمان، قبل الإسلام. وإنّما الصحابة أرادوا أن يجعلوا أوّل السنة شهراً غير الذي جعله من كان قبلهم. وفي الصحيح السّنة اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم؛ ثلاث متواليات: ذو القعدة وذو الحجّة والمحرّم، ورجب.

فقد اختلف السلف، كما في القسطلاني، في عدِّه (ﷺ) هذه الأشهر الحرم. هل هو من سنةٍ واحدة أو من سنتين؟ فعن أهل المدينة أنها من سنتين: ذو القعدة وذو الحجّة من سنة، والمحرّم ورجب من سنة؛ وعن أهل الكوفة أنها من سنةٍ واحدة، أوّلها المحرّم ثم رجب ثم ذو القعدةَ ثم ذو الحجّة. فلو لم يكن للسنة أوّل عنده عليه السلام ما ظهرت ثمرة اختلافهم لأنه إذا لم يكن للشهور ترتيب، تكون الشهور كدائرةٍ، لا يعرف طرفها. فليس لها أوّل ولا آخر. وهذا من أبعد ما يكون. وقال القسطلاني، في قوله عليه السلام: "إنّ الزمان قد استدار كهيأته يوم خلق الله السموات والأرض"، أي: عاد الزمان إلى أصل الحساب والوضع الذي اختاره الله ووضعه يوم خلق السموات والأرض 1000 هـ. فاستدار الزمان، ورجوعه إلى أصله لا يكون إلاّ بترتيب أجزائه، ورجوع الأوّل أوّلاً، والآخر آخراً. فيكون للشهور أوّل وآخر. وأما ما يفيد أنّ الصحابة اختلفوا بأيٍّ شهرٍ يبتدئون التاريخ، فقال بعضهم:

برمضان. وقال آخرون بالمحرّم 1000 هـ ويبعد كل البعد عقلاً أن يكون الرسول عليه السلام ومن أُرسل قبله إلى العرب، ومن مضى من ملوك العرب الذين ملكوا المغرب إلى منتهى المعمورة، والمشرق إلى الصين، لم يجعلوا لشهورهم أوّلاً ولا آخراً، ولا عرفوا ابتداء عامهم ولا نهايته، مع أنّهم سمّوا العام عاماً لعوم الشمس فيه جميع الفلك، وقطعها للأبراج. فيعلمون هذه المناسبة، ويجهلون أوّل العام.

والجمع بين القولين ،والله أعلم، أنّ كون أوّل الشهور في العدّة، المحرّم، معروف من قديم الزمان. ولكن الصحابة أرادوا أن يجعلوا مبتدأ للسنة، باختيارهم، ويخالفوا من قبلهم كما خالفوهم في التاريخ. فإن العرب كانت تؤرّخ بعام الفيل، وبحرب الفجار، وببناء الكعبة.. ونحو ذلك. والله أعلم.

وسأله حضرة العلامة السيد محمود أفندي حمزة، مفتي دمشق الشام

ونصُّ سؤاله:

الحمد لله وحده. قد ورد في أيام الدّجال: يومٌ كسنةٍ ويومٌ كشهرٍ. ويومٌ كجمعة. وكذلك اليوم الذي مقداره.. خمسون ألفَ سنة. هل المراد في كلّ منها طول المدد حقيقةً أم لشدّة الهول في كلّ منها؟ عبّر عنه كذلك المعقول، والمنقول في ذلك.

وما هو حيّ عن ميّتٍ، أو ميّت عن ميّت، معلوم. فلنضرب عنه صفحاً.

فأجابه بقوله:

الحمد لله. أماّ أيام الدّجال، فطولها لشدّتها وكثرة الغيوم حتى يلتبس الليل بالنهار. لأنّه عليه السلام سُئل عن الصلاة؟ فقال: أقدروا لها. وأوقات الصلاة أسبابٌ بوجوبها. ولا تجب صلاة إلاّ بوقتها. فاليوم الذي كسنةٍ تجب فيه خمس صلوات فقط. وأماّ اليوم الذي مقداره خمسون ألفَ سنة، فاعلم أن أمور الآخرة مبنيّة على إظهار القدرة، عكس الدنيا، فإنها مبنيّة على الحكمة. فطوله لشدّته. ويكون هذا الطول، في حقّ بعض الناس، كقدر صلاة ركعتي الفجر. والقدرة تظهر الطويل قصيراً، والقصير طويلاً. وتظهر ما لا يتناهى متناهيا. فإنها تجمع الأقدار. وكلّ من قال: إنّ قدرة الله لا تتعلّق بالمستحيل عقلاً، فهو جاهل بالله تعالى.

جواب لسؤالٍ واردٍ منه أيضاً

الحمد لله وحده.روى البخاري أنه (ﷺ) ما خُيّر بين أمرين إلاّ اختار أيسرهما، ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً؛ كان أبعد الناس منه. ورواه الترمذي: "مأثماً" بدون زيادة: "فإن كان إثماً"... الخ واعلم أن التخيير له (ﷺ) أعمّ من أن يكون من الله تعالى ومن الكفار والمنافقين، وأنّ الله تعالى قد يخيّر بين حكمين في حقّه (ﷺ) فيكون الكلام قد تمّ عند قوله: "أيسرهما". فإنه تعالى لا يخيّر رسوله بين ما يكون إثماً، وبين غيره. فإنه تعالى لا يأمر بالفحشاء. وللعصمة الثابتة له (ﷺ). ويكون قوله: "ما لم يكن إثماً" بمثابة الاستثناء المنقطع. وإن كان التخيير من غيره تعالى،

فيحتاج إلى زيادة "ما لم يكن إثماً"..الخ. أي إن كان التخيير من غيره تعالى فهو مقيّد "ما لم يكن إثماً". وإن كان التخيير: بين ما يكون إثماً، حقيقةً. يؤول إلى الإثم؛ كان أبعد الناس منه (ﷺ).

وأجاب عن سؤال ورد إليه. بقوله:

أماّ قولك: أرجو أن تتكرّموا عليّ بكلّ ما تعلمونه بخصوص الصابئة فما أصلهم وما شريعتهم وما داعيهم لهذا المعتقد؟ وهل هم أهل كتاب؟ وما كتابهم؟. الخ فاعلم.

أولاً أنّ التقسيم، الضابط للملل والنحل، هو أن نقول: من الناس من لا يقول بمعقول، ولا محسوس. وهم السوفسطائية، القائلون: العالم كلّه خيالٌ باطل، لاً حقيقةَ له، لاً ظاهراً، ولا باطناً. ومنهم من يقول بالمحسوس، ولا يقول بالمعقول، وهم الطبيعيون. وعلى هذا المذهب أكثر أهل أوروبا اليوم. ومنهم من يقول بالمحسوس والمعقول، ولا يقول بحدودٍ وأحكام، وهم الفلاسفة الدّهرية القائلون: لا إله للعالم. إنما هي أرحامٌ تدفع، وأرضٌ تبلع، وما يهلكنا إلاّ الدهر. ومنهم من يقول بالمحسوس والمعقول والحدود والأحكام، ولا يقول بشرائع الأنبياء، ولا بالنبوّة. وهم الصابئة، المسؤول عنهم. وسنُبيِّنُ مذاهبهم. ومنهم من يقول بهذه كلّها وبشريعةٍ وإسلامٍ، ولا يقول بشريعة محمد عليه السلام وهم اليهود والنصارى والمجوس. ومنهم من يقول بهذه كلّها، وهم المسلمون. وهؤلاء الفرق انقسموا إلى من له كتابٌ محقّق، كالتوراة والإنجيل والقرآن، وإلى من له شبهةُ كتاب، مثل المجوس والمانويّة. فإنّ

الصحف التي نزلت على إبراهيم الخليل عليه السلام قد رفعت لأحداث أحدثها المجوس. ولهذا يجوز عقد العهد والزمام معهم، ولا تجوز مناكحتهم ولا أكل ذبائحهم. ومنهم من ليس له كتاب، ولا شبيهة كتاب، وهم ما عدا من ذكر، من أهل الملل والنحل. فأمّا الصابئة، المذكورون في القرآن الكريم، فهم طائفة كانوا في زمن الخليل عليه السلام فكانت الفرق؛ راجعة إلى أصلين: أحدهما الصابئة، والثانية الحنفاء، أتباع ملّة الخليل عليه السلام. فالصابئة كانت تقول: إنّا نحتاج في معرفة الله تعالى ومعرفة طاعته وأوامره وأحكامه إلى متوسط. والمتوسّط يجب أن يكون روحانياً، لا جسمانياً، وذلك لطهارة الأرواح ونزاهتها، وقربها من ربّ الأرباب. والجسماني بشرٌ مثلنا، يأكل كما نأكل ويشرب كما نشرب، يماثلنا في الصورة والحقيقة. والحنفاء وهم أصحاب ملّة إبراهيم عليه السلام يقولون: نحتاج في معرفة الله وطاعته إلى متوسّط من جنس البشر، تكون درجته في الطهارة والعصمة والتأييد والحكمة فوق البشر في الروحانيّات. يماثلنا من حيث البشريّة، ويباينا من حيث العصمة الروحانيّة. يتلقّى الوحي بطرف الروحانيّة ويلقى إلى نوع الإنسان بطرف البشرية.

فمدار مذهب الصابئة على تعصُّب للروحانيّين، كما أنّ مدار مذهب الحنفاء هو التعصب للبشر الجسمانيّين. والصابئة تدّعي أن مذهبها هو الاكتساب، والحنفاء تدعي أن مذهبها هو الفطرة. فدعوة الصابئة إلى الاكتساب... ودعوة الحنفاء إلى الفطرة.

والصابئة فرقتان: أصحاب الروحانيّات وأصحاب الهياكل، وهي السيارات السبع.

أمّا أصحاب الروحانيّات، فمذهبهم أنّ للعالم صانعاً، فاضلاً، حكيماً مقدّساً عن سمات الحدوث. والواجب علينا معرفة العجز عن الوصول إلى جلاله. وإنما يُتَقرّب بالمتوسّطات المقرّبين إليه، وهم الروحانيّون المطهّرون المقدّسون جوهراً وفعلاً وحالاً. فهم المقدّسون عن المواد الجسمانيّة، المتزّهون عن الحركات المكانيّة، والتغييرات الزمانية؛ وإنما أرشدنا إلى هذا معلمنا الأول "عاديمون" وهو "شيث" عليه السلام "وهرمس" وهو "إدريس" عليه السلام فنحن نتقرب إليهم ونتوكّل عليهم وهم أربابنا وآلهتنا، ووسائلنا، وشفعاؤنا عند ربّ الأرباب، وإله الآلهة. فالواجب علينا أن نطهّر نفوسنا عن دنس الشهوات الطبيعية، ونهذّب أخلاقنا عن علائق القوى الشهوانية والغضبية، حتى تحصل مناسبةٌ ما بيننا وبين الروحانيات فنسأل حوائجنا منهم، ونعرض أحوالنا عليهم؛ فيشفعون لنا إلى خالقنا وخالقهم. وهذا التهذيب لا يحصل إلاّ باكتسابنا ورياضتنا، وفطام أنفسنا عن دنيّات الشهوات، باستمدادٍ من جهة الروحانيّات. والاستمدادُ هو التّضرع بالدعوات وإقامة الصلوات، وبذل الزكوات، والصيام عن المطعومات والمشروبات وتقريب القرابين والذبائح، وتبخير البخورات، وتعزيم العزائم.... فيحصل لنفوسنا استعدادٌ واستمداد، من غير واسطة، بل يكون حكمنا وحكم من يدّعي الوحي على وتيرةٍ واحدة. قالوا: والأنبياء أمثالنا في النوع وأشكالنا في الصورة، بشرٌ مثلنا. فمن أين لنا طاعتهم؟ وبأيّ مزيّة لهم نتابعهم؟

وأمّا الطائفة الأخرى من الصابئة، فهم أصحاب الهياكل والأشخاص. قالوا: لا بدَّ للإنسان من متوسّط. ولا بدَّ للمتوسّط من أن يُرى، فيُتوجّه إليه ويتقرّب، ويستفاد منه. ففزعوا إلى الهياكل التي هي السيّارات السبع فتعرّفوا:

أولاً- بيوتها ومنازلها.

ثانياً- مطالعها ومغاربها.

وثالثاً- اتصالاتها على أشكال الموافقة والمخالفة، مرتّبةً على طبائعها.

ورابعاً- تقسيم الأيام والليالي والساعات عليها.

وخامساً- تقدير الصور والأشخاص والأقاليم والأمصار عليها.

فعلموا الخواتم والعزائم والدعوات، وعيّنوا يوم السبت لزحل مثلاً، وراعوا فيه ساعته الأولى، وتختّموا بخاتمة المعمول على صورته، ولبسوا اللباس الخاصّ به. وكان يقضي حوائجهم، ويحصل ،في الأكثر، مرامهم. وكذلك الحاجة التي تختصّ بالمشتري، في يومه وساعته. وكذلك سائر الحاجات إلى الكواكب. وكانوا يسمّونها أرباباً آلهة، والله تعالى هو ربُّ الأرباب. وإله الآلهة. ومنهم من جعل الشمس إله الآلهة، وربّ الأرباب. وكانوا يتقرّبون إلى الهياكل وهي السيّارات السبع، تقرّباً إلى الروحانيّات ويتقرّبون إلى الروحانيّات؛ تقرّباً إلى الله تعالى لاعتقادهم أنّ الهياكل وهي السّيارات أبدال الروحانيات، نسبتها إلى الروحانيات نسبة أجسادنا إلى أرواحنا. فهم الأحياء الناطقون بحياة الروحانيات وهي تتصرّف في أبداننا... ولا شكَّ أنّ من تقرّب إلى شخصٍ،

فقد تقرّب إلى روحه. ثم استخرجوا من عجائب الحيل المترتّبة على عمل الكواكب العجائب والغرائب. وهذه الطّلمسات والسحر والتنجيم والتعزيم ونحوها... كلّها من علومهم.

وأمّا الطائفة الثالثة من الصابئة؛ فقالوا: إذا كان لا بدّ للإنسان من متوسّط يتوسّل به، وشفيعٍ يتشفّع إليه... والروحانيّات وإن كانت هي الوسائل والوسائط، لكناّ إذا لم نرها بالأبصار، ولم نخاطبها بالألسن، لم يتحقّق التقرب إليها إلاّ بهياكلها. والهياكل قد تُرى في وقت، ولا ترى في وقت لأن لها طلوعاً، وأفولاً، وظهوراً بالليل، وخفاءً بالنهار...فلم يصف لنا التقرب بها، والتّوجه إليها. فلا بدّ لنا من صورٍ وأشخاص موجودةٍ قائمة منصوبة نصب أعيننا، نعتكف عليها ونتوسّل بها إلى الهياكل. فنتقربّ بها إلى الروحانيّات ونتقرب بالروحانيات إلى الباري تعالى فنعبدهم وهم يقرّبونا إلى الله زلفى. فاتخذوا أصناماً أشخاصاً على مثال الهياكل السبعة، كلّ شخصٍ في مقابلة هيكل. وراعوا في ذلك جوهر الهيكل، أعني جوهره الخاصّ به من الحديد وغيره... وصوّروه بصورته على الهيئة التي تصدر أفعاله عنه، وراعوا في ذلك الوقت والساعة والدرجة والدقيقة؛ فتقربوا إليه في يومه وساعته، وتبخّروا بالبخور الخاص به، وتختّموا بخاتمه، ولبسوا لباسه، وتضرّعوا بدعائه، وعزموا بعزائمه، وسألوه حاجتهم. وأولئك هم الذين أخبر القرآن عنهم بأنّهم عبدةُ الكواكب والأوثان. فأصحاب الهياكل، وهي السيارات السبع، هم عبدة الكواكب لأنهم قالوا بأنها آلهة، وأصحاب الأشخاص وهم عبدة الأوثان لأنهم سمّوها آلهةً في مقابلة الآلهة السماوية. والطائفة

الأولى هم عبدة الأرواح والملائكة. وقد ناظر الخليل عليه السلام هاتين الفرقتين كما أخبر القرآن بذلك. فابتدأ بمحاجّة أصحاب الأشخاص. فقال **﴿أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون﴾**[1] وقال لأبيه آزر: **﴿أتتخذ أصناماً آلهةً إني أراك وقومك في ضلال مبين﴾**[2] وقال: **﴿ياأبتِ لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا﴾**[3] وهذه الحجّة هي التي قال الله تعالى فيها: **﴿وتلك حجّتنا آتيناها إبراهيم على قومه﴾**[4] ثم عمد إلى أصحاب الهياكل السبعة بعد أن أطلعه الله تعالى على ملكوت السموات والأرض، كما أخبر تعالى بقوله: **﴿وكذلك نري إبراهيم: ملكوت السموات والأرض. وليكون من الموقنين﴾**[5]. فأطلعه الله تعالى على ملكوت الكونين والعالم، تشريفاً له على الرّهبانيّة وهياكلها، وترجيحاً لمذهب الحنفاء على مذهب الصابئة. وتقريراً أنّ الكمال في الرجال. فأقبل على إبطال مذهب أصحاب الهياكل السيّارة السماويّة. فلماّ جنَّ عليه الليل، رأى كوكباً. فقال: هذا ربّي. على وجه الإلزام. وإلاّ فما كان الخليل عليه السلام مشركاً. ثم استدلّ بالأفول والزوال والتغيُّر والانتقال بأنه لا يصلح أن يكون رباًّ إلهاً. فإنّ الإله لا يتغيّر.

---

1 . سورة الصافات، الآية 95 – 96.

2 . سورة الأنعام، الآية 74.

3 . سورة مريم ، الآية 42.

4 . سورة الأنعام ، الآية 83.

5 . سورة الأنعام ، الآية 75.

فلو اعتقدتموه واسطةً ووسيلةً، فالأفول والزوال غير عزّ الكمال... إلى آخر القصّة، وهي مذكورة في القرآن.

ومِن الصابئة جماعة يقال لهم الحرنانية. قالوا: الصانع المعبود واحدٌ كثيرٌ. فأمّا وحدته ففي الذات، والأصل، والأزل. وأمّا كثرته فلأنه يتكثر بالأشخاص في رأي العين، وهي الدراري السبعة. والأشخاص الأرضية الخيّرة العالمة الفاضلة، فإنه يظهر بها، ويتشخّص بأشخاصها، ولا تبطل وحدته في ذاته، وهو أبع الفلك وجميع ما فيه من الأجرام والكواكب؛ وجعلها مدبّرات هذا العالم، وهم الآباء والعناصر أمّهات، فتحصل الموالد بينهما، ثمّ من المواليد قد يتّفق شخصٌ مركّب من صفوها، دون كدرها. ويحصل مزاجٌ كامل الاستعداد. فيتشخّص الإله به في العالم ثمّ إن الطبيعة الكلّ.

يحدث على رأس كلّ ستة وثلاثين ألف سنة وأربعمائة وخمس وعشرين 36425 زوجان من كلّ نوع، من أجناس الحيوانات، ذكراً وأنثى، من الإنسان وغيره. فيبقى ذلك النوع تلك المدّة. ثمّ إذا انقضى الدور، انقطعت الأدوار ونسلها. فيبتدئ دورٌ آخر، ويحدث قرنٌ آخر، من الإنسان والحيوان وهكذا أبد الآبدين، ودهر الداهرين. وهم الذين أخبر القرآن الكريم عنهم أنهم قالوا: ﴿**ما يهلكنا إلاّ الدهر**﴾[1]. ومن هذه المقالة، نشأ التناسخ والحلول. فإنّ التناسخ هو أن تتكرّر الأكوان، والأدوار، إلى ما لا نهاية له. ويحدث في كلّ دور مثلَ ما حدث في الأوّل.

1. سورة الجاثية ، الآية 24.

والثواب والعقاب، عند هذه الطائفة، في هذه الدار، لا في الدار الأخرى. ومن هذا المذهب أخذ الدروز بعض مذهبهم. وأمّا ذكر الصابئة في القرآن الشريف، فإنه تعالى أراد بذلك أنّ الصابئة، ومن ذكر معهم من الطوائف، أنهم من جهلهم السابق، وعقائدهم الفاسدة، وأقاويلهم الكاسدة... إذا آمنوا بالله صدَّقوا بوجود الله تعالى ووحدانيته، ونزاهته عن الشريك، والمعين... وصدَّقوا باليوم الآخر، وهو يوم القيامة، وصدَّقوا محمّداً عليه السلام فيما جاء به من الوحي والشرائع وتركوا ما كانوا عليه من الاعتقادات في الله تعالى وعملوا صالحا، فلهم أجرهم عند ربّهم، ولا خوفٌ عليهم، ولا هم يحزنون يوم القيامة، ولا يؤاخذهم بما سلف منهم من الجهالة في الاعتقادات، وفي الأقوال والأفعال.

وأمّا قولك: "ثمّ من منهم الذين هادوا؟" فاعلم أنّ اليهود هم أمَّة موسى عليه السلام وإنَّما اليهود سُمّوا يهوداً لقول موسى عليه السلام: إنّا هدنا إليك أي رجعنا إليك. وكتاب هذه الأمّة اليهوديّة هو التوراة. ومعنى التوراة الشَّريعة، وأوّل كتاب نزل من السماء لأنّ ما نزل على إبراهيم وغيره من الأنبياء عليهم السلاَم ما كان يسمى كتاباً، بل صحفاً. وأنزل على موسى عليه السلام أيضاً الألواح، كأنّها مختصر ما في التّوراة، منقسمٌ على الأقسام العلميّة والعمليّة. قال تعالى، في القرآن الكريم: **﴿وكتبنا له (أي لموسى) في الألواح من كلّ شيءٍ: موعضةً وتفصيلا﴾**[1].

1 . سورة الأعراف، الآية 145.

واليهود تدَّعي أنّ الشّريعة لا تكون إلاّ واحدة. وهي ابتدأت بموسى عليه السلام وتّمت به. فلم تكن قبله شريعةٌ إلاّ حدوداً عقلية، وأحكاماً سطحيّة. ولم يجيزوا النّسخ في الشرائع. فلم تكن شريعةٌ بعد موسى عليه السلام... ومسائلهم تدور على جواز النّسخ ومنعه، وعلى التّشبيه ونفيه، والقول بالقدر والجبر، وتجويز الرَّجعة وإحالتها... ولمنع اليهود النّسخ في الشّريعة، لم يناقدوا لعيسى عليه السلام وادَّعوا عليه أنّه كان مأموراً بمتابعة موسى عليه السلام وموافقته التوراة؛ فغيّر وبدّل. وعدّوا عليه تلك التغييرات، منها تغيير السبت إلى الأحد، ومنها تغيير أكل لحم الخنزير، وكان حراماً في التوراة، ومنها ترك الختان والغسل من الجنابة... وغير ذلك. واختلفت اليهود على نيفٍ وسبعين فرقة، أشهرها:

"العنانية": نسبوا إلى عنان بن داوود، رئيس الجالوت. يخالفون سائر اليهود في السبت والأعياد ويقتصرون على الطّير والظّبي والسّمك. ويصدّقون عيسى عليه السلام في مواعظه وإرشاداته. ويقولون إنّه لم يخلف التّوراة بل قرَّرها ودعا النَّاس إليها وهو من أنبياء بني إسرائيل، المقيَّدين بالتوراة ومن المستجيبين لموسى عليه السلام إلاّ أنّهم لا يقولون بنبوّته ورسالته. ومن هؤلاء من يقول: إنّ عيسى عليه السلام لم يدّع أنّه نبيّ مرسل، وأنّه صاحب شريعةٍ ناسخةٍ لشريعة موسى عليه السلام بل هو من أولياء الله تعالى، المخلصين العارفين بأحكام التوراة. والإنجيل ليس كتاباً منزّلاً عليه، وحياً من الله تعالى، بل هو جمعُ أحواله، من مبتدئه إلى كماله؛ وإنّما جمعه أربعةٌ من أصحابه الحواريّين. فكيف يكون منزّلاً؟ واليهود ظلموه حيث كذّبوه أوّلاً ولم يعرفوا دعواه، وقتلوه ولم يعرفوا

مترلته. وقد ورد في التوراة ذكر المسيح في مواضع كثيرة، وذلك هو المسيح عيسى، ولكن لم ترد له النبوّة ولا الشريعة النّاسخة.

الفرقة الثانية من الفرق المشهورة: العيسوية. نسبوا إلى أبي عيسى، إسحاق بن يعقوب الأصفهاني. وقيل: اسمه "عويذ الوهيم" أي عائذٌ بالله. زعم أنّ الله تعالى كلّمه وكلّفه أن يخلّص بني إسرائيل من أيدي الأمم العاصين والملوك الظالمين، وحرّم الذبائح كلّها، ونهى عن أكل كلّ ذي روحٍ، على الإطلاق، طيراً كان أو بهيمة، وأوجب عشر صلواتٍ كلّ يومٍ، وخالف اليهود في كثير من أحكام الشّريعة المذكورة في التوراة. وكان يوجب تصديق المسيح عليه السلام.

الفرقة الثّالثة من الفرق المشهورة: "البوزعانيّة". نسبوا إلى"بوزعان". كان يحثّ على الزّهد وتكثير الصلوات، وينهى عن اللّحوم والأنبذة. وكان يزعم أنّ للتوراة ظاهراً وباطناً، وتتريلاً وتأويلاً؛ خالف عامّة اليهود، وخالفهم في التّشبيه، ومال إلى القدر، وأثبت الفعل للعبد حقيقةً، ورتّب الثّواب والعقاب عليه.

الفرقة الرابعة من الفرق المشهورة:"الموشكانيّة". نسبوا إلى"مشكا". كان يوجب الخروج على مخالفيه. وأثبت نبوّة محمد عليه السلام إلى العرب وسائر النّاس، غير اليهود لأنّهم أهل ملّة وكتاب. زعم أنّ الله خاطب الأنبياء بواسطة مَلَك اختاره وقدّمه على جميع الخلائق. وكلّ ما في التّوراة من وصف الله تعالى فهو وصف ذلك الملك وخبرٌ عنه. ولا يجوز أن يوصف الله بوصف. وما ورد في التّوراة أنّ الله كلّم موسى، إنّما هو ذلك

المَلَك. فلا يكلّم الله بشراً. والشجرة المذكورة في التّوراة هو ذلك المَلَك. وحَمَل جميع ما ورد في التوراة ممّا نسب إلى الله، على ذلك الملك. وقيل: صاحب هذه المقالة هو "بنيامين" اليهودي. هو قرّر هذا المذهب وقال: الآيات المتشابهات في التوراة كلّها متزلة، وأنّ الله لايوصف بأوصاف المخلوقات.

الفرقة الخامسة من الفرق المشهورة: "السَّامرة" وهم قومٌ يسكنون بيت المقدس، ونابلس، وقرىً من أعمال مصر. يتنظّفون في الطّهارة أكثر من سائر اليهود. وأثبتوا نبوّة موسى وهارون ويوشع، وأنكروا نبوّة من بعدهم من الأنبياء إلاّ نبياًّ واحداً. وقالوا: التوراة ما بشّرت إلاّ بنبيٍّ واحد، يأتي من بعد موسى عليه السلام، يصدِّق التوراة ويحكم بحكمها.. وافترقت السامرة إلى "دوستانيّة" ومعناها الفرقة الكاذبة، وإلى "كوستانيد" ومعناها الجماعة الصّادقة. وهم يقرّون بالآخرة. وأثبتوا الثّواب والعقاب في الدنيا، وقبلتهم جبلٌ يقال له "جريزيم" بين بيت المقدس ونابلس، وهو الطّور الذي كلّم الله تعالى عليه موسى عليه السلام، فحوّله داوود إلى إيليا، وبنى البيت ثمّت، وخالف الأمر...

والسامرة تتوجّه إلى تلك القبلة دون سائر اليهود.وزعموا أن التوراة كانت بلسانهم، فنقلت إلى السريانية والعبرانية.

وأمّا قولك: "من هم الذين أشركوا؟" فاعلم أنّ الشِّرك هو إثبات شريك لله تعالى في أُلوهيته وفي خلقه لمخلوقاته، وفي أفعاله. يقال أشرك بالله، كفر به، فهو مشرك. والشّرك أنواع:

شرك استقلال: وهو إثبات إلهين مستقلين، كشرك المجوس.

وشرك التبعيض: وهو تركيب الإله من آلهة، كشرك من يدَّعي أنه نصراني، وليس بنصرانيّ حقيقة. فإن النّصارى الحقيقيين موحِّدون.

وشرك التقريب: وهو عبادة غير الله ليقرّب إلى الله، كشرك متقدِّمي الجاهلية من العرب.

وشرك التقليد: وهو عبادة غير الله تعالى تبعاً للغير، كشرك متأخري الجاهليّة من العرب. قالوا: **﴿إنّا وجدنا آبائنا على أمّةٍ. وإنّا على آثارهم مقتدون﴾**[1].

وشرك الأسباب: وهو إسناد التأثير إلى الأسباب العاديّة، كشرك الفلاسفة، والطبيعيين، ومن تبعهم على ذلك.

وشرك الأغراض: وهو العمل لغير وجه الله تعالى بل لنيل غرض من الأغراض...

ونتكلم على شرك "الاستقلال" دون غيره. فإننا لو تكلّمنا عليه تفصيلا وعلى غيره من أنواع الشرك ما وسعتنا مجلّدات.فاعلم أن شرك الاستقلال هو إثبات إلهين مستقلّين، كشرك المجوس، والمانويّة، وسائر الفرق المجوسية. واختصّت الإثنينيّة بالمجوس لكونهم أثبتوا إلهين اثنين قديمين يقتسمان الخير والشرّ، والنّفع والضرّ، والصلاح والفساد. ويسمّون أحدهم النور، والثاني الظلمة، وبالفارسية: "يزدان" و"إهرمن". ومسائل المجوس كلّها تدور على قاعدتين: إحداهما بيان سبب امتزاج النور بالظلمة، والثانية بيان سبب خلاص النور من الظلمة. وجعلوا الامتزاج مبدأً، والخلاص معاداً. وهم فِرقٌ أشهرها:

---

1 . سورة الزخرف، الآية 23.

"الكيومرتيه": أصحاب "كيومرت". أثبتوا أصلين يزدان وإهرمن. وقالوا يزدان قديم، وإهرمن محدث مخلوق. قالوا إن يزدان فكر في نفسه أنّه لو كان له منازع، كيف يكون؟ وهذه الفكرة رديّة غير مناسبة لطبيعة النور. فبحدَّة الظلام من هذه الفكرة. وكان إهرمن مطبوعاً على: الشرّ والفساد، والفتنة والضرّ. فخرج على النور وخالفه طبيعةً وقولاً.وجرت محاربةٌ بين عسكر النور، وعسكر الظلمة. ثم إنّ الملائكة توسّطوا في الصلح على أن يكون العالم السفلي خالصاً لإهرمن، سبعة آلاف سنة، ثم يخلّي العالم، ويسلّمه إلى النور. والذين كانوا في الدنيا قبل الصلح، أهلكهم وأبادهم وزعموا أنّ النور خيّر الناس ،وهم أرواح بلا أجساد، بين أن يرفعهم عن مواضع إهرمن، وبين أن يلبسهم أجساداً؛ فيحاربون إهرمن. فاختاروا لبس الأجساد، ومحاربة إهرمن على أن تكون النصرة لهم من عند النور. وعند الظفر بإهرمن وإهلاك جنوده، تكون القيامة.. فذلك سبب الامتزاج، وهذا سبب الخلاص.

ومنفرق المجوس؛"الذروانيه" قالوا: إنّ النور؛ أبدع أشخاصاً، من نورٍ نورانيّة ربّانيّة. والعظيم منها؛ اسمه "ذروان" شكَّ في شيءٍ؛ فحدث إهرمن الشيطان، من ذلك الشّك، ولهم أقوال وخرافات؛ تمجّها العقول السليمة، أضربنا عن ذكرها.

ومن فرق المجوس "الزرادشتية"، أصحاب زرادشت. قالوا: النور والظلمة أصلان متضادان. وكذلك يزدان وإهرمن. وهما مبدأ وجود العالم. وحصلت التراكيب من امتزاجها. وحدثت الصور من التراكيب

المختلفة. والباري تعالى خالق النور والظلمة. وهو أحدٌ لا شريك له. ولا يجوز أن ننسب إليه وجود الظلمة، لكن الخير والشر والصلاح والفساد.. إنّما حصلت من امتزاج النور والظلمة. ولو لم يمتزجا لما كان وجود العالم. وهما يتقاومان ويتغالبان إلى أن يغلب النور الظلمة، والخير الضرَّ، ثم يتخلّص الخير إلى عالمه، والشر ينحطّ إلى عالمه. وذلك هو سبب الخلاص.

ومنهم صنف يقال له "السيسانيّة": رئيسهم رجل كان زمزمياً في الأصل، يعبد النيران، ثمّ ترك ذلك، ورفض عبادة النيران، ووضع كتاباً. وأمرهم بإرسال الشعور. وحرّم الأمّهات والبنات والأخوات. وحرّم الخمر. وأمر باستقبال الشمس عند السجود على ركبةٍ واحدةٍ. وحرَّم الميتة وذبح الحيوان حتى يهرم. وهم أعداءٌ للمجوس الزمازمة.

ومن فرق المجوس المشهورة "الثنويَّة" : وهم أصحاب الاثنين الأزليين. يزعمون أنّ النور والظلمة أزليًّا قديمان. بخلاف المجوس، فإنهم قالوا بحدوث الظلام، وذكروا سبب حدوثه. وهؤلاء قالوا بتساويهما في القدم واختلافهما في الجوهر، والطبع، والفعل، والخير، والأجناس، والأبدان، والمكان، والأرواح.

ومن فرق المجوس المشهورة "المانويّة" : أصحاب مائن. اتخذ ديناً بين المجوسية والنصرانية. كان يزعم أنّ العالم مصنوعٌ، مركّب من أصلين قديمين: أحدهما نور، والآخر ظلمة. وأنّهما أزليّان. لم يزالا، ولن يزالا. وأنكر وجود شيءٍ؛ لا من أصل قديم. وزعم أنّ النور والظلمة لم يزالا

قوّتين حسّاستين سميعتين بصيرتين. وهما مع ذلك متضادّان في النفس والجوهر والعقل، متحاذيان تحاذيَ الظلّ والشخص. فجوهر النور حسنٌ، فاضلٌ، كريمٌ، صافٍ، نقيٌّ، طيِّبُ الريح، حسنُ المنظر؛ ونفسهُ خيِّرة، كريمة، حكيمة، نافعة، سالمة. وفعله الخير، والصلاح، والنفع والسرور، والترتيب، والنظام... وجوهر الظلمة قبيحٌ، ناقصٌ، لئيمٌ، كدرٌ، خبيثٌ، منتنُ الريح، قبيحُ المنظر؛ ونفسها شرِّيرة، سفيهة، جاهلة، ضارّة. وفعلها الشرُّ، والفساد، والضرّ، والاختلاف. وإلى هذه الطائفة، أشار المتنبِّي بقوله:

وكم لظلام الليل عندي من يدٍ تخبِّر أنّ المانوية تكذب

لأنّ الظلام كان سبباً في وصاله بمن يهوى، واحتجابه عن الرقباء. وأيُّ نفعٍ وخيرٍ أعظم من هذا؟

ومن فرق المجوس "المزدكية": أصحاب مزدك. قولهم كقول أكثر المانوية إلاّ أن مزدك كان يقول إن النور يفعل بالقصد والاختيار، والظلمة تفعل على الخبط، والاتفاق. والنور عالم حساس، والظلام جاهل أعمى. وإن المزاج كان على الاتفاق والخبط، لا من القصد والاختيار. وكان مزدك ينهى عن المخالفة، والمباغضة، والقتال. ولما كان أكثر ذلك إنّما يقع بسبب النساء والأموال، أحلّ النساء، وأباح الأموال، وجعل الناس كلّهم شركةً في النساء والأموال، كاشتراكهم في الماء، والنار، والهواء، والكلأ.. إلى غير هذا من الهذيان. فلا نطيل به.

ومن فرق المجوس "الديصانية": أصحاب ديصان. كان يقول: النور عالِمٌ، قادرٌ، حساسٌ، درّاكٌ، منه تكون الحركة ومنه تكون الحياة. والظلام ميِّتٌ، جاهل، عاجز، موات، لا فعل له، ولا تمييز. والشرّ يقع منه طبعاً وخرقاً. وإنّ النور جنسٌ واحد. وكذلك الظلام جنسٌ واحد.وإن سمعه وبصره، وسائر حواسّه وإدراكاته شيءٌ واحد. فسمعه هو بصره وجميع حواسّه. وإنّما قيل سميعٌ، بصيرٌ، لاختلاف التراكيب، لا لأنها في أنفسها شيئان مختلفان. وزعموا أن اللون هو الطعم، وهو الرائحة... إلى غير هذا من أباطيلهم، فلا نطيل بها.

ومن فرق المجوس "المرقونيّة": أثبتوا أصلين متضادّين: النور والظلمة. وأثبتوا أصلاً ثالثاً هو المعدّل الجامع. وهو سبب المزاج بين النور والظلمة. وقالوا: الجامع دون النور في المرتبة، وفوق الظلمة. وحصل من الامتزاج هذا العالم. ومنهم من يقول إن الامتزاج، إنما حصل بين الظلمة والمعدّل، إذ هو قريبٌ منها. فبعث النور إلى العالم الممتزج روحاً مسيحيّة وهو روح الله وابنه. يحثّنا على العدل السليم الواقع في شبكة الظلام الرجيم حتى يخلّصه من حبائل الشياطين. فمن اتّبعه، ولم يلامس النساء، ولم يقرب الزهومات أفلت ونجا. ومن خالفه خسر وهلك. قالوا: وإنّما أثبتنا المعدّل لأنّ النور الذي هو الله تعالى لا تجوز عليه مخالطة الشيطان. وأيضاً فإن الضدّين متنافران طبعاً، ويتمانعان ذاتاً ونفساً. فكيف يجوز امتزاجهما؟ فلا بدّ من معدّل تكون منزلته دون النور وفوق الظلمة، فيقع المزاج معه. وكانوا يقولون: المعدّل هو الإنسان الحسّاس الدّراك، إذ هو ليس بنورٍ محض، ولا ظلامٍ محض. وكانوا

يرون المناكحة، وكلّ ما فيه منفعة بدنيّة وروحيّة، ويحترزون عن ذبح الحيوان لما فيه من الإيلام.

ومن فرق المجوس "الكينونيّة" "والصيّاميّة": وهم أصحاب التناسخ. زعموا أنّ الأصول ثلاثة: النار، والأرض، والماء. وإنما حدثت الموجودات من هذه الأصول دون الأصلين اللذين أثبتتهما الثنوية. قالوا: النار بطبعها خيّرة نورانية. والماء ضدّها في الطبع. فما كان من خيرٍ في هذا العالم، فمن النار. وما كان من شرٍّ، فمن الماء. والأرض متوسّطة. وهم يتعصّبون للنار، من حيث أنها علويّة، نورانية، لطيفة، لا وجود إلاّ بها، ولا بقاءَ إلاّ بإمدادها. والماء يخالفها في الفعل.. والأرض متوسّطة بينهما. فتركّب العالم من هذه الأصول...والصيّاميّة من هذه الفرقة؛ أمسكوا عن طيّبات الرزق، وتجرّدوا لعبادة الله تعالى وتوجّهوا في عبادتهم إلى النيران، تعظيماً لها، وأمسكوا عن الذبائح والنكاح أيضاً. وقالوا بتناسخ الأرواح في الأجساد، والانتقال من شخص إلى شخص. وما يلقى من الراحة والتعب فمرتّبٌ على ما أسلفه قبلُ، وهو في بدن آخر، جزاءً على ذلك. والإنسان أبداً في أحد أمرين: إماّ في فعلٍ وإماًّ في جزاء. وما هو فيه فإماّ مكافأة على عمل قدّمه، وإماّ على أن ينتظر المكافأة عليه. والجنّة والنار في هذه الأبدان... والمجوس، إنما يعظّمون النار؛ لمعان، منها: أنها جوهرٌ شريفٌ علويٌّ. ومنها: أنّها ما أحرقت الخليل عليه السلام. ومنها ظنّهم أن التعظيم لها ينجيهم في المعاد من العذاب. وبالجملة هي قبلة لهم ووسيلة.

وأماّ قولك:"إن منطوق الآية الشريفة، في سورة الحجّ: أن المشركين ليسوا هم النصارى..الخ" فاعلم أن النصارى هم أتباع المسيح عليه السلام وأمّته، ممّن كان تابعاً للمسيح قبل ظهور محمد عليه السلام فهو من أفضل الخلق، وأعلاهم درجة. وبعد ظهور محمد عليه السلام من آمن به، فله أجران ويحشر مع التاجين الآمنين، ومن كفر بما جاء به محمد، من النصارى وغيرهم فيسمّى كافراً، لا مشركاً، إلاّ من قال من النصارى في المسيح عليه السلام: أنه ابن الله. ومن اليهود في عزير، أنه ابن الله، فهو مشرك. والنصارى الحقيقيون هم الذين يعتقدون أن المسيح عليه السلام روح الله، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول عليها السلام وأنه رسول الله إلى بني إسرائيل بشرعٍ ناسخٍ لبعض شرع موسى عليه السلام والإنجيل المنزّل عليه كلام الله تعالى حقيقةً لا مجازاً.

وفرق النصارى واعتقاداتهم المختلفة، أنت أعلم بها فلا نطيل الكلام بذكر مذاهبهم وفرقهم.

وبالجملة فالنصارى أجهل الناس بالمعقول والإلهيات.

والكفر...إماّ كفر إنكار وهو أنه يكفر بقلبه ولسانه، وإماّ كفر جحود وهو أن يعرف الحقّ بقلبه ولا يقرّ بلسانه، وإماّ كفر عناد وهو أن يعرف بقلبه ويقرّ بلسانه ولا يدين به، وكفر نفاق وهو أن يقرّ بلسانه ولا يعتقد بقلبه. والجميع سواء في أنه من لقي الله تعالى بواحدٍ منها، لا يغفر له. فقد بان لك أنّ أهل الكتاب لا يقال فيهم مشركون، وإنّما يقال لهم كفاّر. فإنّ الكافر اسم لمن لا إيمان له

بمحمد، وبما جاء به من الشرائع والأحكام. ومن أخفى الكفر وأظهر الإيمان فهو المنافق. وإن طرأ عليه الكفر بعد الإيمان فهو المرتدّ. وإن كان متديّناً ببعض الأديان والكتب المنسوخة فهو الكتابيّ. وإن قال بقدم الزمان والدهر ونسب الحوادث له فهو الدهريّ. وإن كان لا يثبتُ الباري تعالى فهو المعطّل. وإن كان يجعل مع الله إلهاً آخر فهو المشرك.

وشريعة محمد عليه السلام نسخت الشرائع كلّها. فلا يقبل الله تعالى ديناً اليوم، من أحدٍ ولو عبد الله تعالى بعبادة الثقلين، الإنس والجنّ، إلاّ من عبد اتّباعاً بمحمد عليه السلام.

ذكر مرضه ووفاته وما يتعلّق بهما

نشأ الأمير في صحّةٍ كاملة وعافيةٍ شاملةٍ.. لم يتغيّر عليه في أيام شبوبيّته وكهولته شيء من قوّته ولا من أحواله. ثم عرضت له أمراض حال شيخوخته؛ فتلقّاها بقوّة القلب، وحسن الصبر. ولكثرة الأدوية وتعاقبها مع اختلاف موادّها، حدثت له أمراض أخرى، من أشدّها ما أخبرني به، أثناء إقامته الأخيرة، في قصر دمّر أنّ من جملة أمراضه ورمٌ خصيتيه، يمنعه من الإسراع في المشي، وأنّه عازم على عرض ذلك على طبيبٍ خبيرٍ بفنّ الجراحة. فأحضرت له جماعة من الأطباء؛ فأخرجوا ما فيهما من الماء. ثم عرض لي سفر مع والدي إلى بيروت لقضاء فصل الشتاء فيها. وفي آخر المدّة، بعث يأمرني بالرجوع؛ فوجدته متغيّر الأحوال، متلاشي القوى. وأشدّ ما كان عليه ،وقتئذٍ، حصر البول.

فأحضرت له طبيباً من بيروت، عالماً بفنّ الجراحة، مشهوراً؛ فعالجه وحصلت له بعض الراحة. ثم رجع الأمر إلى ما كان عليه. ولما اشتدّ الألم، أحضرت جماعةً من أطباء دمشق، يتناوبون معالجته، صباحاً ومساءً. ومن تعطّفه عليّ، وتوجّهه بالرأفة والحنان إليّ أنه كان في هذه الأحوال الشديدة لا يتناول دواءً إلاّ من يدي، ولا يقبل علاجاً إلاّ بحضوري. وإن قيل له، في استعمال شيء أو تركه، يستشيرني فيه. وإذا كنت غائباً، يؤخِّر الجواب عنه إلى أن أحضر. وهكذا في شأنه كلّه حتى إنّه، إذا عرض عليه تغيير قميصه، لا يجيب إلى ذلك إلاّ باطّلاعي وهذا من فضل الله عليّ ومنّته. ومع ما كان يقاسيه من شدّة الألم، وما يعانيه في معالجته، لم يظهر ضجراً ولا رأيته تأوّه قطّ، ولا ترك الصلاة، في وقتٍ من الأوقات. وفي آخر مرضه كنت أيمّمه.

وكان قليل الكلام إلاّ فيما يخصّ مرضه. واستمرّ الأطباءُ يتردّدون عليه ويعالجونه خمسةً وعشرين يوماً إلى أن دعاه مولاه إلى سعةِ رحمته، ونقله إلى فسيح جنّته، في الساعة السابعة، من ليلة يوم السبت، التاسع من رجب، سنة ثلاثمائة وألف (1300) والرابع والعشرين من أيار، سنة ثلاث وثمانين وثمانمائة وألف (1883). فلم يشعر الناس إلاّ والصياح قد قام، والعويل عمَّ الخاصّ والعامّ. فيا لها من ليلةٍ سوداء شُقّت فيها الجيوب، وكادت تنفطر من شدّة هولها الأكباد والقلوب. ويا له من مصاب، اصطكّت له الأسماع، وارتجّت به الأضلاع. وفي الحال شاع خبره، ونقلته الأسلاك التلغرافيّة إلى سائر الأقطار. ولمّا تعالى النهار، حملناه إلى دارنا في البلد. فاهتزّت دمشق بعموم أهلها كدراً، وتقاطر الناس إلينا زمراً

زمرا. وبعد تجهيزه، والصلاة عليه في جامع بني أميّة، حُملت جنازته إلى الصالحيّة، يحفّها سائر علماء البلد، وأشرافها، وحكّامها. وخرج أهلها على اختلاف مللهم ونحلهم. فلم يتخلّف كبيرٌ ولا صغير عن تشييعها وصفوف العساكر السلطانية من حولها ودفن عند الشيخ الأكبر، سيدي مُحيي الدين بن العربي، داخل القبة.

دفن...ودمشق تبدي شجوها لفقده، والمحاسن تعثر في أسحال حدادها من بعده، وفنون العلم تلطم خدودها. وأفانين المعارف تشقّ برودها.

والسالكون سطت عليهم حيرةٌ   وغوى لهم نهجٌ وضلّ سبيلُ
والعارفون تنكّرت أحـوالهم   فحجاب عينِ قلوبهم مسدول

فما أعظمه مفقوداً وما أكرمه موجوداً. أتعبَ في حياته المادحين، وأطال بموته بكاء الباكين، وبكاه الفضلُ والكرم، وندبه السيفُ والقلم، وركب على الأعناق بعد العتاق وعلى الأجياد بعد الجياد، وعُدَّ مصابه في الإسلام ملمّة، وفقد منه، في العالم، من كان يدعى لكلِّ ملمّة. فإنّا لله وإنّا إليه راجعون، تسليماً لقضاء الله. وإذعاناً به وأمضاه.

وقد كتب على شاهدة الضريح تاريخ وفاته الأديب الشيخ عبد المجيد الخاني وهو:

لله أفقٌ صار مشرق دارتي   قمرين هلاّ من ديار المغرب
الشيخ مُحيي الدين ختم الأوليا   قمر الفتوحات الفريد المشرب
والفرد عبد القادر الحسني الأمير   قمر المواقف ذا الوليّ ابن النبيّ
من نال مع أعلى رفيقٍ أرّخوا   أذكى مقاماتِ الشهود الأقرب

وفي ثاني يوم الوفاة اجتمع الأخوة والقرابة للمذاكرة فيمن يجمع أمرهم ويلمّ شعثهم. ولأوّل وهلة، اتّفقت كلمتهم عليّ ووجّهوا الرئاسة إليّ وأعطوني صفقتهم وأظهروا لي طاعتهم؛ ثم اجتمعوا مرّة أخرى ووضعوا أيديهم على المصحف الكريم وحلفوا به، رافعين أصواتهم أنهم لا يخالفون كلمتي ولا يتجاوزون حوزتي، وكتبوا في ذلك صكاً شرعياً أمضاه كلٌّ واحدٍ منهم بخطّه ثمّ ختمه بختمه. ونصّ الصكّ المذكور:

الحمد لله الذي بيده التوفيق إلى أقوم طريق، والصلاة والسلام على من اختاره الله تعالى من خير فريق، وآله وأصحابه أولي الصدق والتصديق.

أمّا بعد؛ فالذي وقع عليه اتفاقنا، واجتمعت عليه كلمتنا بطواعية واختيارٍ منّا، ونحن بالأحوال المعتبرة شرعاً: أنّنا عموم العائلة نقول بل قلنا، ونطقنا بقولٍ واحدٍ ونطقٍ متّحدٍ حسب إرادة مولانا المرحوم سيِّدنا الأمير عبد القادر (قدّس الله سرّه) المتكرِّرة شفاهاً والمدوّنة بخطّه الشريف: أنّ سيِّدنا، وأخانا الكبير، سعادة الأمير، محمد باشا هو حاكمنا والمتصرِّف فينا، ولنا بما يراه صالحاً لنا، ولأولادنا، وجميع من يتعلّق بنا، وسائر لوازمنا يتوصّل به إلى قضاء حوائجنا. هو منوط به وراجع إليه بحيث لا نظر لنا في ذلك ولا مداخلة، بنوعٍ ما. والذي يراه حسناً لنا فهو الحسن. والذي يراه قبيحاً لنا فهو القبيح لدينا. وأقمنا في ذلك كلّه مقام سيِّدنا ومولانا (قدّس الله روحه العزيز) وكلٌّ من شذّ منّا وسوّلت له نفسه الخروج عمّا وقع عليه الاتفاق، واجتمعت عليه الكلمة، فنحن برآء منه ظاهراً وباطنا وقولاً وفعلا. وبالجملة فنحن، جميعا،

يكون حالنا مع سعادة سيِّدنا المذكور كحالنا مع سيدنا ومولانا المرحوم رضي الله عنه ومَن بدّل أو غيّر، أو سعى في التبديل والتغيير؛ فنحن ملزومون بردّه إلى السواد الأعظم، وإلى ما اجتمعت عليه كلمتنا وسطّرناه في هذه الورقة وأشهدنا به على أنفسنا. وعلاوة على ذلك، إننا نسأله تعالى أن ينتقم منه، لمخالفته لنا، في نفسه وأولاده وماله وعياله. وعلى هذا وقع الاتفاق، وحصل الإشهاد. وبالله تعالى التوفيق، وهو حسبنا ونعم الوكيل. لا ربّ غيره ولا خير إلاّ خيره.

جرّر في يوم الأحد، الواحد والعشرين من شهر رجب، سنة ثلاثمائة وألف (1300).

إبراهيم بن عبد القادر الحسني الهاشمي، مُحيي الدين بن عبد القادر الحسني، محيي الدين بن مصطفى الحسني، أحمد بن محيي الدين الحسني، محمد مرتضى الحسني، محمد بن الحسن أبو طالب الحسني، عبد العزيز الحسن أبو طالب الحسني، عبد القادر بن ناصر، عبد الباقي بن محمد سعيد الحسني، علي بن الأمير عبد القادر الحسني، أحمد بن الأمير عبد القادر الحسني، عبد الله بن عبد القادر، عمر بن عبد القادر، عبد الرزاق بن عبد القادر، عبد المالك بن عبد القادر، علي بن فريحة، أحمد بن فريحة.

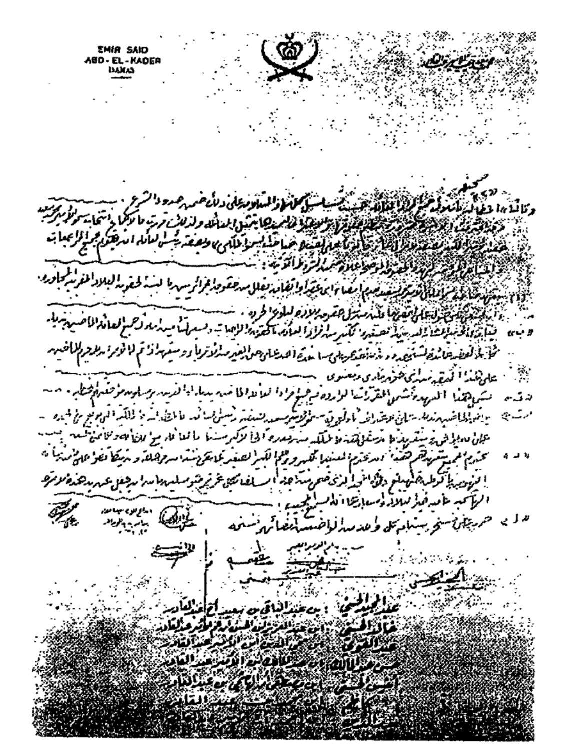


EMIR SAID
ABD-EL-KADER
DAMAS

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

مما يدل على تماسك أسرة الأمير عبد القادر، وعطف بعضها على بعض، ونبل تربية أولاده وأحفاده، واحترام صغيرهم كبيرهم وتوقيره وتقديره، وحنان الكبير على الصغير أنهم حين يفقدون زعيماً للأسرة، ينتخبون سواه حالاً، ويبايعونه على الاحترام والطاعة، ويستمعون لإرشاده، ويؤازرونه في جهاده.


EMIR SAID
ABD-EL-KADER
DAMAS

فمبايعة الأسرة للأمير محمد بعد وفاة الأمير عبد القادر؛ أولاها. وثانيتها مبايعة الأسرة للأمير محمد سعيد، بعد وفاة عمه الأمير محمد، مد الله في عمره... وصورتها؛ هي التي ننشرها فوق هذا الكلام للذكرى والعبرة.

وهذا التعاطف والتحاب في الأسر الكبيرة المحترمة؛ من الأخلاق الإسلامية التي قال فيها الرسول (صلى الله عليه وسلم): "بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق". ولذلك وصفه الله تعالى بقوله: "وإنك لعلى خلق عظيم".

فقبلت منهم ما اتفقوا عليه وجعلت أنظر فيما يصلح بهم في مستقبلهم.

ورفعت أمرنا إلى الوالي، أحمد حمدي باشا؛ فأظهر من لطفه وأنسه ما ملأ القلوب مسرّة، والصدور حبوراً. وأنهى، في أمرنا، إلى الأعتاب السلطانيّة. وبينما أنا أنتظر الفرج، والخروج ممَّا وقعنا فيه من الحرج، إذ انقضَّ بعض أولئك الإخوة عليّ وفوَّقوا سهام العداوة إليّ وأظهروا الخروج عن تبعيّتهم للدّولة العليّة وعدلوا عنها إلى الدَّولة الفخيمة الفرنساوية وأصبحنا، على غير ما أمسينا عليه، اعتباطاً لا لعلّة؛ بل خالف تُعرف.

ولّما تعين لنا، من إحسان الدّولة العليّة، ما تعيّن، وجاءت البشرى به، بعث الوالي إلينا، وبشّرنا بذلك، وأمرنا باجتماع الكلمة، والرّجوع إلى ما وقع عليه الاتّفاق أوّلاً، وبصحّة التّمسّك بأذيال الخلافة الإسلاميّة العظمى، نظراً لوجوب طاعتها، والإذعان لها شرعاً ولتعطّفها علينا، وإحسانها بما أحسنت إلينا. فما التفتوا إلى ذلك بل أصرّوا على ما هم عليه من الخلوص لتلك الدّولة. ولّما علمت صدقهم في التّمسك بها، والانتساب إليها، عيّنت لهم مرتّباً كافياً. وتميّز الفريقان. وعلم كلُّ أناس مشربهم. وبلغوا ممّا قصدوه مأربهم. وكان الوالي أخّر قسمة ما رتّبته الدولة العلية للعائلة، منتظراً بذلك، فيئة الجماعة،

والعدول عمّا هم عليه. ولّما يئس منهم، عيّن لي ولمن تبعني من الإخوة والقرابة وأعيان المهاجرين ذلك المرتّب.

وبالجملة، فقد أوردتنا الدولة العلية موارد من كرمها وأفاضت علينا سجال أنعامها. ولّما انتشر خبر البشرى بإنعام الدولة العلية علينا، انتدب أعيان ملل دمشق، لكتابة عرض محضر يشتمل على أداء الشكر، وصالح الدعاء لحضرة سيِّدنا ومولانا، أمير المؤمنين، وقدّموه لدولة الوالي، وهو رفعه للمقام العالي، فحاز القبول؛ ثم ابتدر المهاجرون الجزائريون إلى المثول بين يدي الوالي، وقدّموا له شعائر العبوديّة مع عرض محضر التّشكّر والدّعاء على نحو ما كتب أهل دمشق. فأكرم وفادهم، وأحسن مواجهتهم. ولّما استكشف أمرنا. ووقف على حقيقة صدقنا، شملنا بأنظاره، وأغنانا، في نجاح مقاصدنا، عن غيره. فتغمّده الله برحمته، وألحقه بأهل جنّته، وأدام أيام مولانا، السلطان الأعظم، والخاقان الأفخم، أمير المؤمنين، السلطان الغازي عبد الحميد خان، إلى آخر الدّوران. آمين.

ذكر رسائل التعازي والمراثي

لّما وقع الأمير في قبضة المرض، وعرض له من شدائده ما عرض، شاع أمره، وبلغ الملوك وأعيان العالم خبره. فلمّا انتقل إلى سعة عفو الله، نعيته بالأسلاك التلغرافية للذين كانوا يترقبون ما يبلغهم عنه. فوردت عليّ منهم أجوبة التأسف والتعزية بالتلغراف.. وهي، وإن كانت متقاربة اللفظ والمعنى، اقتضى المقام إثباتها بحروفها:

فنصّ جواب الصدر الأعظم سعيد باشا

أخذت تلغرافكم بخصوص وفاة والدكم؛ فأوجب لدى الحكومة السنّية غاية الأسف. فتعزِّيكم وتبلّغكم أنّ تعطّفات الحكومة السنّية الجليلة ستدوم في حقّ عائلتكم كما كانت.

ونصّ جواب وكيل فراشة أمير المؤمنين في الحجرة النبوية السيد أحمد أسعد أفندي

خبر وفاة السيد والدكم موجب للأسف العظيم. أعزي العائلة. وأتوسل إلى الله تعالى أن يلهمكم الصّبر.

ونصّ جواب الأستاذ الشيخ محمد ظافر المدني

المصاب جليل، والصبر أحمد. نعزِّي كافة العائلة، ونرجو لكم بلوغ المأمول.

ونص جواب الأستاذ شيخ السجادة القادرية، ونقيب الأشراف ببغداد السيد سلمان أفندي

صبرٌ جميلٌ. والله المستعان على ما جرى به القضاء بوفاة السيد الوالد الأمجد المبرور. فإنها مصيبة أربت جميع المصائب، وحلّت منازل الأشراف بجموع النوائب. فجرت الدموع من العيون كالعيون. إنا لله وإنا إليه راجعون. أحسن الله عزاكم، ورحم والدكم، ورزقكم الصبر، وعظّم لكم الأجر، وأقرّ بكم عيون المجد، وجعلكم كما نؤمّل فيكم: خير خلف لخير سلف.

ونصّ جواب الأستاذ شيخ السجادة الرفاعية ونقيب الأشراف بحلب السيد أبي الهدى أفندي الصيادي

أخذت تلغرافكم المعلن بارتحال والدكم الأكرم إلى دار النعيم. فطالعته بغاية الحزن. وإني أبتهل إلى الله تعالى أن يحسن لذاتكم الهاشميّة ولجميع العائلة الصبر والثبات على هذا المصاب.

ونصّ جواب رئيس الجمهورية الفرنساوية

إن الأخبار الأخيرة التي بلغتنا عن صحّة الأمير والدكم، جعلتنا ننتظر النهاية المكدّرة التي آلت إليها، وأخبرتمونا أنتم بها الآن، بتلغرافكم. فنحن مشتركون معكم في الكدر الملمّ بكم وفي حزن سائر العائلة. فينبغي أن تصدِّقوا بما نحن عليه من الميل إليكم، والإهتمام بكم. كما أننا نعتمد على إخلاصكم.

ونصّ جواب وزير خارجية فرنسا

علمت مع الأسف الكثير وفاة والدكم الشهير. وفرنسا تشترك معكم في إظهار الحزن العمومي الذي أحاط بالمسلمين والمسيحيين معاً. أشكركم على التعريف بالواقع. وأعتبر علامات التعلّق التي أظهرتموها كدينٍ باسم فرنسا.

ونصّ جواب سفير فرنسا في الأستانة العليّة

إنني أشترك معكم كلَّ الاشتراك بالكدر الذي ألمّ بكم، وبالأحزان التي حاقت بعائلة الأمير عبد القادر الذي طالما سلك مع فرنسا بطريق الشرف. وأعدُّ نفسي سعيداً بكوني أهديكم السلام كوارثٍ. وأقدّم

لكم الشكر على ما أظهرتموه من علامات المودّة لحكومة الجمهوريّة التي سأعرب لها عن ذلك. وأمّا صداقتي الشخصية فمحفوظة لكم.

ونصّ جواب وزير خارجية إنكلترا

وصلني تحريركم المخبر بوفاة الأمير والدكم. فأؤكد لحضرتكم أنّ هذا الخبر قد كدّرني جداً، وجعلني أشترك معكم ومع عائلتكم في هذه الخسارة، ولي الشرف في هذا الاشتراك.

ونصّ جواب وزير خارجية هولندة

ورد عليّ تحريركم الذي تفضّلتم فيه بالإفادة عن وفاة والدكم، الأمير الشهير. فلذلك بادرت باشتراكي معكم في الحزن على مصاب والدكم العزيز وأطلب لكم طول العمر والنجاح. وأرجو قبول احترامي لكم.

فمنها مكتوب الوزير الشهير، خير الدين باشا، الصدر الأسبق.

ونصّه:

المقام العليّ النسب،المرجو من هلاله أن يكون بدراً كاملاً في سماء المجد والحسب، السيد محمد باشا، أكبر أنجال الأمير، سيِّدي عبد القادر الشهير، أفاض الله تعالى عليه الصبر الجميل.

أما بعد السلام؛ فقد أحزننا النبأ العظيم الذي لا محيص عن تلقّيه بالقبول والتسليم من ارتحال المرحوم السيد والدكم. فيا له من خطب كدّر النفوس والله تعالى المسؤول أن يجزل ثواب آله ومحبيه على فقده، ويجعل عقد بنيه على أحسن انتظام من بعده. ودمتم كما رمتم. والسلام.

ومنها مكتوب المشير، جميل باشا، ابن نامق باشا.

ونصّه:

حقاً أقول إنه قد دهمني تأثيرٌ عظيم، لّما طرق سمعي خبر وقوع الأمر السماويّ الذي أجرى حكمه المحتوم في بيتكم العالي. وقد حلّ في قلبي فملكه، وربط لساني فمنعه. وتأكّدوا سعادتكم أنني لست بمبالغ بهذا القول. ومن ثمّ كان سكوتي حتى الآن عن إيفاء سنّة التعزية، خلافاً للروابط القلبية، هو أمر غير اختياري. وهو، من جهة، مطابقٌ لقولٍ ورد في الحكم: "لا وسيلة لزوال الغمّ عن القلوب غير التزام الصمت عند شدّة الكروب" وحيث كانت درجة اشتياق عاجزكم القلبي إلى سراج مجلس الوحدة ،كما هو معلوم، لدى سعادتكم، فأتمنى أن تتفضّلوا، وتحكموا بأنني صادق الجنان. وبذلك أكون أوّل قائمٍ بالتعزية التي أقصى آمالي بها الحصول على تسليةٍ من قِبَلكم، بسنّتها؛ وأن تتيقّنوا أنّ هذه الآمال هي التي كانت شاغلةً، من جهةٍ أخرى أيضاً، للبال. فهذه ،لعمرك، هي بواعث السكوت. فانظروا سعادتكم، كيف حكم الله تعالى هذا، بالقبول والرضاء. فانتبهت وتيقّظت من غفلة تلك الدهشة المظلمة. وقمت متفقّداً مهامّ مأموريّتي، مبادراً لإجراء مقتضيات الإخلاص، غير ناظرٍ إلى كون الإتيان بذلك البحث يزيد في غمي وكدري. وإني أختم قولي بالدعاء بوقاية آل بيتكم الكريم من كافة الأكدار، وهم محفوفون بالعافية والسرور، ما دامت تلك الروح المقدّسة الراجعة إلى ربّها آمنةً مطمئنّة، راضية مرضية، متلذّذة

بالنعيم المقيم، متنعِّمة بتجلِّي الجمال من المولى العظيم. والإرادة لحضرتكم. أفندم.

ومنها مكتوب السيد أسعد أفندي، وكيل فراشة أمير المؤمنين.

ونصّه:

"بعد أزكى التسليم، وأسنى التكريم؛ قد ورد لمحبِّكم ما كدَّر خاطره من وفاة علاّمة الأقران، ونادرة الأوان، من كان كالبحر لا تكدِّره المسائل، ولا يزحزحه عن مرتبة الفضل قولُ قائل. والله يعلم ما عندي من الأسف، ولا ينفع إلاّ التّسليم لقضائه، والرضا ببلائه، والصبر على هذا المصاب الذي ملأ الفؤاد ارتياعاً، وتطير له القلوب انصداعاً. وهذه سبيل درج عليها الأوّل والآخر، وقضيّة استوى فيها الضعيف والقادر. وغير خاف جناب سيادتكم أنّ جوار الله خيرٌ من جواره، وأنّ الدار الآخرة خيرٌ من داره.

ثم بعد ثاني يوم وفاة المرحوم، وصل تلغراف لوليّ النعم[1] بوفاته. وعند العرض عليه، كنت حاضراً. وقرأ وليّ النعم الخبر بانتقاله، فحصل له غاية الأسف، وبدأ بالدعاء له، وقرأ الفاتحة، وأهداها إلى روحه الشريفة. وبدأت أصف مناقبه الشريفة، وهو يتحسّر فقده. وكذلك وصفتُ له سيادتكم، والأنجال الكرام. فربّنا يجعلكم خلفاً باقياً، فاتحين موضعه. ولا يغلق لكم باباً.

---

1 يقصد بولي النعم: الخليفة في استانبول.

هذا ما لزم، مع تبليغ سلامنا على إخوانكم الكرام، فرداً فردا. وبلّغوهم منّي العزاء. ولازالت أياديكم الكرام مبذولةً على الدوام. ودمتم في عزٍّ وسرور، وأنعم حبور"

ومنها مكتوب ابن عمّنا، العلاّمة السيد الطّيب بن المختار، بعثه من محلّ إقامته، في القطر الجزائري. ونصّه

هذا هو الرزءُ لا الرزءُ الذي غبرا ... فليتني كنت قبل اليوم تحت ثرى
هذا يعمّ جميع الخلق قاطبةً ... سيان من غاب منهم عنه أو حضرا
أنساني فقد أمير المجد فقد أخي ... محمدٍ ومصابي جلّ بل كبُرا
لم تبق لي رغبةٌ في العيش بعدك يا ... فخر الملوك وختم السادة الكبرا
يا عينُ ابكي دماً يا قلب مت كمداً ... يا لهف نفسي عليه سيِّد الأمرا
فلو رأيت بنات العمّ سافحةً ... دمع العويل على صفح الخدود جرى
أمّا أنا فعدوّ الدين يرحمني ... فسل خليّ الحجى عن حالي كيف جرى
يحقّ لي قتل نفسي لو وجدت له ... وجهاً ويرحم ربِّي مسلماً عذرا
فلا كمثلي في الأيّام من أحد ... من أجل ذاك فقدت السمعَ والبصرا

جلّ الخطبُ، وعظم المصاب، واستحكم الأمر، وتعدّدت الأسباب فخرس اللسان، وفارق مقرّه الجنان، وشلّ الذراع، وتبدّلت الطباع. فالحال غير الحال، وأنا غير أنا. أشكو بثّي وحزني إلى الله.

وحقيق على العبد أن يفزع إلى مولاه؛ ربّنا أفرغ علينا صبراً ولا تحرمنا مثوبةً وأجراً.

أمّا بعد؛ فيا سيِّدي ومولاي، المقصور عليه بعد والده، رجائي ومناي الأمير الأسعد، والإمام الأمجد، سيِّدي محمد ويا ثاني الأميرين.

وأصغر الشقيقين، وأقرب المحبّين، وأحبّ الأقربين سيِّدي ومولاي، محيي الدين، ويا بنت عمِّي وعمّتي ومحلّ شقيقتي، المشهورة بالحنانة، والمعروفة بالديانة والصيانة، التي ما قصّرت عن بلوغ درجة الرجال الكاملين، ولا وقفت دون غاية أمّهات المؤمنين في معرفة الصواب وحسن السمت، سيِّدتنا ومولاتنا السِّت، ويا بقيّة الأولاد عموماً من غير استثناء، موالينا ذوي الألقاب الرفيعة، والكنى، إني والله لا أجد وجهاً لتعزيتكم، ولا مساغاً لتسليتكم، إذ لم يُصب أحدٌ بمصابنا؛ فنكون به نتعزّى، مع اشتراك المعزّى ،إذ ذاك، في المصيبة والمعزَّى. فلا أدري أأعزّي نفسي أم أعزّيكم؟ أسلّيها أم أسلّيكم؟ وإن كان؛ ففي من وبمن؟ فإنّا لله وإنّا إليه راجعون، كلمة يعتمد عليها أهل المصيبة العارفون. نعم بكلّ اعتبارٍ، وعلى كلّ حال. وإن تعذّر سبيل التعزية، وضاق المجال، نعزِّي خلافة مولانا، الأمير الكبير، ونائبه في مراعاة الحقوق وحسن التدبير، الأمير الأوحد، سيِّدي ومولاي، محمد.. أسعد الله أيامه وأعلى مقامه ونشر في سماء السيادة الأميرية بنوده وأعلامه. فليتعزّ سيِّدي بسيِّد الوجود في إيجاد كلّ موجود، النبيّ العربيّ القائل: "من عظُمت عليه مصيبته فليتذكّر مصيبته بي". فحبّذا من تلقىّ قوله بالقبول، وأطاعه، وقال لأمره: سمعاً وطاعة. أعزّيه وأنا هنا أعزّى. وإن كنت لا أرى بمن يُتعزّى ولا بمن أتعزّى، لعدم المثل، واستحالة وجود الشكل. ثم أرجع وأقول:

إنـاّ معـزوك لا أنـاّ علـى ثقـةٍ من الحياة ولكـن سـنّة الـدين
فلا المعــزّى بباـق بعد ميّته ولا المعزّي وإن عاشا إلى حين

وينبغي أن يختم الكلام بما يناسب أن ينتظم في هذا النظام لنسبة المقام بالمقام، بيتين توأمين عزّى بهما بعض العرب المتقدّمين، والحكماء الأوّلين، سيِّدنا عبد الله بن عباس، وقد جلس للناس برسم التعزية، وانفرد لهم بعليّة، وهما:

اصبر نكن بك صابرين فإنما صبر الرعية بعد صبر الراس
خيرٌ من العبَّاس صبرك بعده والله خيرٌ منك للعبّاس

وكان هذا العربيّ هو آخر الناس في تعزية بن عبّاس. فرجع إليه همما فكره، وقال: والله ما عزّاني أحدٌ غيره... فعذراً سيِّدي فالحال لا يخفى عليك. وما أنا فيه غنيّ أنت فيه عن شرحه. وكان اعتقادي أنه ليس في الإمكان، وجود مصيبة تنسيني مصيبة أخي وشقيقي وأنيسي ورفيقي حتى فاجئني خبر سيِّدي ومولاي شهد الله، علم الله، لو وجدت أن أفديه بنفسي لفعلت، وإلى الآن. فنرجو من الله أن يرزقك عنايته، وأن يورثك مقامه، وأن تكون لنا كما كان لنا، ويديم عزَّك وعلاك، ويحرس سناءك وسناك. والسلام.

ومنها مكتوب الفاضل الشيخ مصطفى الإمام

ونصّه:

إلى حضور سيِّدي وفخري، وابن سيِّدي وسندي ومولاي وذخري صاحب الشأن السامي الشامخ، والشرف الرفيع الباذخ، الذي ذلّت له الراسيات الشوامخ، ونزلت بمدائحهم الآيات البيِّنات الرواسخ، التي لا يَرد على بتيانها ناسخ، مشيد مباني أركان المكارم والمعالي، المقدّم

في نتائج الفضائل وغيره التالي، الإمام الذي اقتدى به علماء الأمصار، واهتدى بعلومه الحيران من الأولياء والأنصار؛ واقتبس من مشكاة نوره خواصّ أولي الألباب والأبصار؛ أحيا الله به معالم العلوم الدارسات، فملكها والملك لمحيي الأموات. كان رضي الله عنه بعيد مسافة العزم، رابط الجأش، شديد الحزم، كما قيل لو شاهدته عيون النجوم، جرت في التربيع سعداً، أو صافحته راحة الغمام، أمطرت كرماً ومجداً. أحاديث المكارم عنه تروى، فتشفى بها المروءة على شدّة ظمأها وتروى.

والناس كلُّهم لسانٌ واحد   يتلو الثناء عليه والدنيا فمُ

له ،قدّس سرّه، في كلّ شرف فخرٌ مليّ، وفي كلّ فضل ومجد قدمٌ عليٌّ. عَرْف عبير عطر عرفانه عطّر المعمور، وشرف شذا مسك نشر شمائله في الآفاق مشهور، بصوت صيت صداه طار بأجنحة المدح والحمد في سائر الأقطار. فكم سعى حاج لكعبة عرفانه من أولي البصائر، وكم سعد في حرم حمايته من ألقى السمع وهو شهيد، حاضر الضمائر. حيثما أضاء بطلوع طلعته نور الصباح وانفجر؛ فتفجّرت عيون الحقائق، وفتح الفتّاح، فنادى معلّم علوم عرفانه: حيّ على الفلاح. فقامت أكابر العرفاء خلفه صفوفاً، صنوفاً صنوفاً. وظلّت أعاظم العلماء والفضلاء بسدّته عكوفاً. وبينما هم في أطيب وقت وأكمل حالة، يتمتّعون حسنه وإحسانه وجماله؛ نادى منادي العظمة والجلالة: السلام عليكم يا أهل بيت النّبوة، ومعدن الرّسالة. هذا هازم اللّذات الفانيات، ومفرّق الجماعات، والباقيات الصالحات. فلقد فرّق جمعنا،

وأفزعنا فراقه، مع أنه آمنٌ من الفزعات. ولقد تكدّر ذلك الصفا، وعظم به ،والله، المصاب، وقلنا على الدنيا العفا:

عظــيم مــصابٍ مقعــدٌ ومقــيم ... لــه كــدرٌ بــين الــضلوع مقــيمُ
ونازح خطبٍ حارب الصبر والكرى ... فأصــبح كــلّ وهــو عنــه هــزيم
وحكمٌ أذلّ الفضل عند اعتـزازه ... وأوهى لركن الـدين فهـو سـقيم
ألا إنّمـا عـين المعـالي غضيـضةٌ ... وإن فــؤاد المكرمــات كلــيم
أقامت على قبر الرضا عـاطر الثرى ... سـحابٌ ورضـوان فلـيس تـريم
إلى أن يعود القبرُ أنضر روضةٍ ... بها النبت شتّى يانع وحميــم

وحينما فاقت من سكرها، بعدما خنقت بعبرها، تذكّرت بعد ما تفكّرت، ووجدت فشهدت وأنشدت:

ما بـال أيـدي النائبـات تخـون ... وتديم رصـف المجـد وهـو رصـينُ
يـا دهـر لا عتبـى عليـك ولا رضـى ... كـل المـصائب بعـد ذاك تهـون
تعد الورى البؤسى فتسرع صـدقها ... وإذا وعــدت بمــا يــسرّه تمــين
لو كان يجدي النوح ميتـاً قبلـه ... نفعــاً لناحــت أعــصرٌ وقــرون
يــا واعظــاً بــسكونه حركاتنــا ... ولأنــت بــالوعظ المفيــد قمــين
أمسى ضـجيع الـرمس إلاّ أنّـه ... في قلــب كــلّ موحّــدٍ مــدفون
حفّتك رحمة ذي الجـلال وعفوه ... وسقى ثرى جـدثٍ حـواك هَتـون
وسرت محاسن ما مضت حوامــلاً ... حسـن الثنــاءِ يحثّها التأميــن

ولّما أحسّ قلب المشتاق بعظيم ألم المصاب، وحرقة الفراق، بعد ما صحا موجداً، فصاح مفصحاً ومنشداً:

لم أقض مـن يـوم الفـراق شـؤوني ... فقـضيت إن لم أجـر مـاء شـؤوني
أأجــود بــالنفس النفيــسة فــيهم ... وأشحّ في شـجني بـدمع عيـوني

ما للفؤاد يطيعني شغفا بهم وعن التصبّر عنهم يعصيني
وأدرت طرف العين نحو ديارهم فقضت عليّ بأنّةٍ وحنين
وتنكّرت بعد التّعرّف واغتدت كمثال شكٍّ لاح بعد يقين
فالعين تنكرها لفرط عفائها والقلب يعرفها محلّ العين
وسألتها عن جيرةٍ كانوا بها زمناً ثووا في ربعها المسكون
فاستعجمت وأجاب عنها حالها ولربّ حال للجواب مبين
غربت بدور منازلي من أفقها وغدت وراء التّرب ذات كمون
وتقوّضت منّي قباب فضائلي لمّا انتهى للحيّ محيي الدين
مولاي عبد القادر الحبر الذي أحيا العلوم وفات فخر الدين
نسل التهامي المصطفى ماحي الردى مردي العداة بسيفه المسنون
ربّ المعارف والعوارف تلك لل باغي العلوم وتلك للمسكين
بحرٌ تدفّق بالعلوم إذا طمت أمواجه أغرقن كلّ سفين
أدبٌ كمثل الرّوض رفّ نباته غِبّ الحيا من وقع كلّ هتون
أسفي على من فضّ عقد نظامه فنثرت من عينيّ درّ جفوني
عبثت به أيدي المنون فقطّعت أسلاك ذاك اللؤلؤ المكنون
حتى ثوى في الترب تحت صفائحٍ فعلمت حقاً أنه من طين
بكرت على جدثٍ له وسميّةٌ ذات ارتجاس بالحيا ودجون
تزجي ركائبها حداة جنائبٍ بسياط برق مع رعود لحون
فسقى أصول مكارمٍ تحت الثرى بسقت لنا زمناً فروعَ غصون

قال تعالى، لنبيّه الصادق المأمون: ﴿إنّك ميّتٌ، وإنّهم ميّتون﴾[1] فإنّا لله وإنّا إليه راجعون، تسليماً لمن له الخلق والأمر. فقد ،والله، اشتدّ

1. سورة الزمر، الآية 30.

كربنا، حتى أطار قلبنا وضاعف ألمنا. وصبراً على هذا المصاب الذي أعقب القلب حزناً مدى الأحقاب. وأنتم أهل بيت يتلقّى أمر الله بالتسليم، ويلقى الخطوب الصارعة بقلبٍ سليم. ولولا أنّ التعزية سنّة مشروعةٌ وطريقةٌ متبوعةٌ، لما أوردنا هذه المقالة ولا ابتدأناكم بهذه الحالة. فلله الخلق والأمر، وليس علينا إلاّ الصبر والأجر. ونسأله تعالى أن يجعلكم خلفاء بعده في كلّ فضيلة ومقام، بجاه جدِّكم، أكرم الرسل العظام. ونسألكم أن لا تنسونا من مكاتبتكم. فإنّا نرجو منكم ما كنّا نرجوه من حضرة سيِّدنا وسيِّدكم. والسلام عليكم، ورحمة الله وبركاته، أهل البيت، إنّه حميدٌ مجيد.

هذا وأرجو من شيم المكارم أن يكون كتابي هذا ،بالخصوص، إليكم، وغبّ ما تتلونه يكون منكم كرماً وجوداً لجميع أبناء سيدنا وولي نعمتنا، تقرؤونه على كافّتهم، وتفوه عنِّي ببلوغ تعزيتي هذه إليهم بأجمعهم، وإن يكن من المعلوم أن اللائق تخصيص كلّ منكم بكتاب. ولكن ،قسماً بربّ الأرباب، إني كتبته، والقلب في غاية الحزن والاكتئاب، ودموع العيون تجري بانصباب، وقسماً به تعالى من حينما سمعت هذا الخبر، أصاب عيني شيء ما عهدته، وإلى حدِّ تاريخه أهو رمدٌ أو غيره ما عرفته. فأسأله تعالى أن يتمّم بالخير، ويصرف عن عيوني هذا الضير، إنه القدير. ودمتم.

ومنها مكتوب العالم الفاضل الشيخ إبراهيم الأحدب

ونصّه:

أحمد من لا يحمد على المكروه سواه، ولا يُلجأ عند المصيبة بغير حماه، وأصلي وأسلّم على من عظمت بمصابه الرزية، وعمّت بفقده الأرزاء عموم البرية، وعلى آله الذين اشتدّت بهم النوائب، وصحبه الألى أصابت بهم الإسلام سهام المصائب.

أمّا بعد؛ فقد راع الخطب فؤاد المعالي، وقرع الكرب هام الغوالي، وأطلق العبرات، وفجأ الأنفس بالحسرات بفقد الأمير الجليل والسيد الذي وجه عرفه جميل، حامي حمى الإسلام، وسيد من سما من أبناء سام، غوث الطريد، وخلف القصيد، ومنتجع الآمال، ومحطّ رحال الإقبال، ومفزع من راعه زمانه، وعدا عليه سلطانه، ونابه نوائب الدهر وانصرف عن حاجاته عمرو، المولى الذي اعتزّ جنابه، واطّردت كالرمح أنسابه، وطوّقت كلّ إنسان أياديه، وغدت نحو كلّ طالبٍ غواديه، وطافت صِلاته بعوائد لطائفه، وتنكّر من الفقر من تعرّفَ بطيب عوارفه، سيدي المعروف، وغوث كلّ ملهوف، وحصن الدين الحصين، ونقابة عصابة المسلمين، من فقد بفقده الصلاح والورع، وقرع كل هام مصابه وصدع. فلقد أجرى عبرات الشؤون، وأوجب نزع دماء القلوب من العيون، وزلزلت الأرض بما صدم، واسودّت الدنيا بما من الظلام هجم، وارتاعت الأمّة بما ناب من الأهوال، وألقى عليها من الهموم الثقال.

فشقّت القلوب، فضلاً عن شقّ الجيوب. فكم قلبٍ مملوكٍ للأسى، وعين جارية، ونفس تسيل بنارٍ، في الأحشا، وارية، ولسانٍ اعتقل

من فرط العويل، وسمعٍ أصمّ بوقع هذا الخطب الجليل، وهيهات أن تقوم جوارح إنسانٍ بواجب ندبه المشروع، ومحمول رزئه الذي هو على كاهل كلّ شريف موضوع. فإناّ لله وإنّا إليه راجعون هذا قضاء ما كان بعد النبيّ الأعظم مثله ولا يكون.. قد عظم به الأمر، ولا بقيَ من هوله حصن صبر. ولولا التأسي بما عليكم من بعده، لذاب كلّ فؤاد من الأسى على فقده. فإنّكم تحيون رسوم المكارم، وتنيرون من شهب أنواركم المعالم، وتعيدون ما اندرس بالمصائب وانطمس بصدقه النوائب.فيتروَّح الفقيد بأرواح إنسكم، ويستضيء بأنوار شمسكم. جادت أيادي الغوادي ذلك الترب الطيِّب، وانهلّ عليه من سحب الرحمة والرضوان كلّ صيّب. وحفظكم الله بألطافه الخفيّة، ولا غمزت قناتكم من عوادي الدهر رزيّة. وألقى عليكم الصبر، وضاعف لكم بهذا المصاب عظيم الأجر، وجعلكم في أمنٍ من الأسواء، وحصنٍ حصين من طوارق الأرزاءِ آمين.

ومنها؛ مكتوب الأديب السيد حسن أفندي بيهم

ونصّه:

بعد تقبيل أذيالكم، نعرض: إنه لقد دهمنا الخبر الذي لم يبق بنا أثراً بعد عين، ونعى لنا البين فَقْدَ رُكْنِ الملّة والدين، وعماد المسلمين، وحامي حماهم، ملجأ الفقراء، وكهف اللائذين، سيادة الوالد الذي سرى إلى رحمة ربّه ورضوانه. فكان يوم وفاته علينا يوم المحشر، ومصيبة الجميع، بسيادته الهول الأكبر. فقدت منّا الحواسّ، وهُدّ ركن

اصطبارنا وقوانا، وشقّت منّا القلوب، واسودّت الدنيا في وجوهنا، وهطلت الدماء من أعيننا فابيضّت من الأحزان. وكيف لا نبكي من كان للدين قواماً وللملّة حامياً ولأهل الفضل والصلاح إماماً. وكيف لا نحزن على غياب شمس الوجود والفضائل والكرم وحسن الشمائل، عين الكمال، وتاج الأيام، وسيد الخاص والعام، وركن المجد، وفخر الإسلام. أيُّ قلمٍ يستطيع على وصف ما نابنا من الأسف الشديد والكدر الذي ما عليه من مزيد. أيُّ لسان وبيان يقدر على استيفاء ما خصّه الله به من الكمالات، وأولاه من المكرمات. إنّا عنه لقاصرون. فوامصيبتاه وواأسفاه على هذا الخطب الجسيم، والمصاب العظيم. إنّا لله وإنّا إليه راجعون. هذا ما وعد الرّحمن وصدق المرسلون وهذا شأن هذه الدار الفانية. أفرغ الله عليكم وعلى المسلمين الصبر الجميل، وأولاكم به الأجر الجزيل. والله يجعله من المقرّبين، ويسكنه في غرف الصادقين، إنه من عباده الصالحين. وجزاؤهم عند ربّهم مغفرة وأجر عظيم. وحفظ وجود سعادتكم: خير خلف، لخير سلف. وأطال للمسلمين بقاكم، وبعين رعايته رعاكم. آمين.

ومنها؛ مكتوب الأديب الفاضل عباس أفندي الإيراني[1]

ونصّه:

أيها الأميران الجليلان، نيِّرا فلك النّسب الشامخ المنيع، وقمرا الحسب الباذخ الرفيع، أدام الله مجدكما وبارك جدّكما. لقد كلّ

1.عباس: هو زعيم البهائية في زمنه.

لساني، وعجزت قريحتي وجناني عن بيان ما أصاب سلالة العترة الطاهرة، خصوصاً، والمِلّة الباهرة، عموماً. لعمرك، إنها مصيبةٌ، تزعزعت منها أركان هذا الشعب المجيد، وارتعدت لها فرائض الذين شغف قلوبهم حبّ ذلك المولى الجليل الفريد، وتشتّت شمل أهل التوحيد، وتقطّعت أكباد أهل التغريد والتجريد عندما سمعت منعاه، ذلك الأمير الوحيد. فآه آه عمًّا جرى من مبرم القضاء؛ فضاق به الفضاء. ألا تلك مصيبة أضرمت نار الجوى في هذه الأفئدة والأحشاء. وقد اشتدّت عواصف البلا، وهاجت قواطف القضاء على شأن استأصلت الشجرة التي أصلها ثابت في الأرض وفرعها في السماء. فناحت لها ورقاء البقاء على أفنان سدرة المنتهى. ويندبها المخلصون بالأفق الأعلى. فآه، آه عمًّا حلّ وصبّ وهوى. ألا ألا تلك الرزية الكبرى، والمصيبة العظمى، قد ارتفع الضجيج، وعمّ الصريخ والعويل، واحترقت القلوب، وضجّت النفوس، واضطرم الفؤاد، وذابت الأكباد لمّا سمع صوت منادٍ، ينعي سيد السادات. فآه، آهٍ من هذه النازلة التي منها سالت السيول، وفاضت الدموع عن أعين أهل الوفاء. وقد تزلزلت أرض السكون، وانفطرت سماء الفنون، وانكسفت شمس العلوم، واكفهرّت غيوم الهموم، وانهمرت مياه الغموم وانطمست نجوم الشرق؛ فتزعزعت به الأركان، ووهن العظم من أهل العرفان، فآه، آهٍ من هذه البليّة التي انهدم منها أمتن بنيان من الإسلام. يا بني رسولِ الله وحياتكما، إن القلوب قد تأجّجت فيها الجمرات، وتدفّقت من الأجفان سيول العبرات والأفئدة من هذه النازلة العمياء؛ لفي حسرات، ليت

شعري أهذه رجفة الرجعى والواقعة العظمى والطّامة الكبرى أم مأتم سليل آل الرسول؟ ومعناه ذرية قرّة عين البتول؟ فآه، آه، قد أحاط ظلام الأحزان على شان ناحت القبائل، وحنّت وأنّت قلوبٌ الأفاضل بما انهدم من ركن الفضائل، وانطوى سجلّ المجد ومنشور الشرق الباهر الذي أتى بخصائل الأوائل. فوا أسفا وواحزنا على هذا الفقيد المجيد، والركن الشديد، والطود العظيم، والعلم المبين، وحياتكما يا بني رسول الله، لم تكن سلوةٌ لمحبّيكم في هذا الفزع الأكبر ألا إنكما، أيّها الفرعان الأعليان ترثان فضائل ذلك الأصل، الصادع البارع الفريد، وتثمران بما يفوح منه؛ روائح نوافح خصائل ذلك الشهيد السعيد. ونستعرض[1] ما اقتطفت بدروب المنون أيادينا[2]، في هذا الكرب الشديد ونسأل الله أن يؤيّدكم بتوفيقاته الصمدانية، على اقتفاء أثره وآثاره، لأنّكم ورثة مجده، وأفنان دوحة جدّه، وكواكب أفق سعده.

ومنها مكتوب الأديب الشيخ طاهر السمعوني الجزائري، وكان وقتئذ في بيروت

ونصّه:

السيد الذي هو لمجد الأسلاف وارث، والسند الذي يتعلّم منه الصبر عند أشدّ الحوادث، شريف الأمراء وأمير الأشراف، مولانا وسيدنا، محمد الشّيم والأوصاف.

---

1. الصواب: نستعيض

2. الصواب: أيدينا

غبّ الدعاء ببقاء ظلّك الوارف الذي يستظلّ به القاصي والداني، ودوام عزّك، وحصولك على أقصى الأماني، يعرض الداعي الذي لم يزل إليكم منسوباً، وفي عداد الصادقين في خدمتكم محسوباً، إنه بلغه النبأ العظيم الذي أصمّ الأسماع، وأصمى القلوب؛ وحكى حزن الناس وصبرهم فيه حزن يعقوب، وصبر أيوب. فضاقت عليه الأرض، وهو يسير في رحبها، وودّ أن لو كان في قلبها، وهذا أمرٌ يشركه فيه ألوف الألوف ممّن شملهم إحسان ذلك القطب الذي سار فضله وإحسانه مسير الشمس، وصار أحبّ من المال، والأهل، والنفس.

فلم يجد غير حزن القلب، ودمع العين، والتسليم لمن اختاره لينيله في جواره أعلى الحسنيين. وقد سلاّه أن ذاك القطب قد خلّف بك من يقوم مقامه، ويحيي مآثره، وينشر أعلامه.

تأسّى بخير الخلق يا مفرد العلا ... ومن فضله لا يستطاع له حدُّ
فإن يكُ مولانا وسيّدنا قضى ... فإنّك ماءُ الورد إن ذهب الورد

ومن مكاتب المسيحيّين ما كتبه حضرة البطرك الأنطاكي الإسكندري ونصّه:

لقد انسدل على آفاق هذه الأقطار المصريّة الواسعة وشاح الحداد الذي التحفت به دمشق؛ لا بل قد انبسط ذلك الثوب الأسود على جبال وبطاح الجزائر ومصر والشام وفرنسا أيضاً، لدى سماعهن ألسنة البرق، تنادي بحلول الخطب الجسيم، ونظرهن وجوه الجرائد ،على اختلاف أجناسها ولغاتها، موشّاةً بشارات الحداد... فُقد من كان للجزائر ابناً وأميراً خطيراً، ولمصر كعبةَ احترام ووقار، وللشام بركةً

ونعمة، ولفرنسا حليفاً أمينا، عاقدته منذ أعوام طوال. فأبدى الوقار والمسالمة. أماّ الإسلامية فقد خسرت به إماما فاضلا، طاهر الذيل، ومثالاً حبياً للبسيطة الدينية، والأمة العربية أستاذاً كبيرا، طالما تيمّنت ببركة أنفاسه. وأماّ الأمة المسيحية؛ فقد فقدت بشخصه الكريم ملاذاً قوياً، ودرعا منيعا، تكسّرت على شفاره ألوف من السيوف، كانت على حياهم قاضية. تذكر له سنة الستين وقلوها تفيض بالمنّة، والشكر الجميل، وألسنتها تتندّى بالثناء الرطب.

أما نحن، أيها الأمير الخطير، فندع تأبين الأمير الفقيد رهينة أقلام الجرائد، إذ لا طاقة لنا على استيفاء تعداد فضائله وكمالاته. ونقتصر على إبلاغ سعادتكم ما ألم بنا من الأسف العظيم على هذه الخسارة المرّة. وبواسطة سعادتكم ننقل إلى أعضاء العائلة الحسنيّة، الشريفة الحسب، والمجيدة النسب شعائر مشاركتنا لها في التّأثر الشديد من حلول هذا المصاب العظيم الذي أذوى أرومة مجدها الأثيل، ونقض رهص شرفها المجيد الحسيب. ولقد كانت الآمال قد خابت، لولم تتعلّق حبال الرجاء ببقاء من ورث عن الأمير الفقيد محبّة القوم، واعتبارهم، وثقة الأمّة، وإخلاصها.. أعني به شخص سعادتكم الكريم الذي جمع شتات الفضل، والكرم، والنباهة، والأنس فكان محطّ الآمال. وألقيت إليه مقاليد الزعامة، على العائلة الكريمة؛ فكان أبهى خلف، لأبهى سلف. نسأل الله، الذي كسر القلوب، بوفاة الأمير المأسوف عليه أن يجبرها بدوام بقاء وحفظ وسعادة وإقبال من شخصت

عيون الآمال إليه، ويصون لفيف العائلة الكريمة النبعتين، خلفاء العزاء وألفاء الهناء. وهو تعالى خير مسؤول.

ومنها مكتوب الوجيه خليل أفندي الخوري

"مدير البولتيك والمطبوعات في سوريا"[1]

ونصّه:

لقد شقّت المرائرُ لا الجيوب، وانكسرت الخواطر والقلوب للمصيبة العظمى والملمّة الكبرى التي جرحت أكباد العباد، ورفعت لواء الحداد في كل ناد لفقد الهمام الأشهر، والأمير الأبرّ، السيد السند، الذي ذاعت محامده بين الملل والأمم، وعزّت عن بيان أوصافه وألطافه ألسنة القلم، والدكم الجليل المرحوم الذي فجعنا به القدر المحتوم. إنها رزيئة يعظم فيها الأسف وتعمّ الأحزان، ومصيبة تضيق بها الصدور في كل مكان. فبماذا آتيكما من التعازي والخطب أعظم؟ وماذا أقول لكما واللسان أبكم؟ لكن ما اشتهر عنكما من الفضل والرشاد والحزم والسداد يسلّي البال ويعلّق الآمال بأنكما لا تلقيان بذاتكما الكريمتين إلى مهاوي الحزن والكدر. في فلا فائدة منها سوى فرط الحرقة والضرر. والتسليم لأحكام المولى هوكل حال بكما أولى. وأيّ سلوة لساعدتكما أعظم من اليقين بأن فقيدنا الخطير إنما انتقل إلى فسيحات الجنان. تغمّده الله بالرحمة والرضوان. وجعل عوضنا بطول عمركما

---

1 .البوليتيك: كلمة فرنسية، معناها اللفظي: السياسة. وهي تعني في الإصلاح "التوجيه السياسي للصحف والمطبوعات" وتعادل في زمننا هذا ما يسمونه: مديرية المطبوعات.

وحفظ وجودكما، فخرا وذخرا للجميع. إنه المجيب السميع. وألتمس عدم إخراجي من دائرة الخاطر الشريف مدى الزمن. وفي كلّ حال لكم الأمر والمنن.

ومنها؛ مكتوب الوجيه نقولا أفندي النقاش.

قال فيه:

أما المعروض فالمقام يقتضي أن تفاض فيه العبرات، وتصعّد الزفرات، وتفتّت الأكباد وتلبس السواد،ويندب الفضل، ويرثي الشرف، ويبكي الكرم ويغمد السيف، ويكدم القلم، ويعمّ الأسف، ويلمّ اللهف على مأمن النفوس ووافي الديار وغوث المستجير وغيث الفقير ومعدن المكارم والعوارف ومخزن الفوائد والمعارف، كلّ ذلك حزناً وأسى على ذلك السيد السند، الكبير الخطير، الهمام المقدام، الشهير، المرحوم، المبرور، والدكم سيدي الأمير عبد القادر. إذ توفاه الله والناس راجية طول بقاه. فكبر الخطب، وجلّ المصاب، وكان الخلق في الكآبة عليه سواء، لشمول الخسار في كل الديار وعموم البلاء في أي الأنحاء. وما أحد يجد من نفسه تجلّدا ولا صبرا، ولا يرى لعين لم يفض ماؤها عذرا. فكيف أتقدّم لسادتي الأمراء الفخام في هذا المقام؟ أبالتأبين والرثاء؟ فهو يزيد في لظى الحزن والأسى. أم بالتأسية والتعزية؟ فهو أجلّ من أن يؤديها مثلي لمثلكم. وعليه فلا يجدر بي إلاّ موالاة الدعاء إلى عزّة الرحمن أن يتغمّد هذا الفقيد المجيد بعزيز العفو والرضوان، ويقيكم كلّ مكروه وحدثان، ويلهمكم جميل الصبر وحسن العزاء، معوّضا للأمّة بطول بقائكم ودوام علاكم.

ومنها مكتوب الشاعر الأديب سلمان أفندي صولة

ونصّه:

دموعي لا يكفكفها العزاء   تفيض وكلّ ديمتها دماء
على ملكٍ عليه الأرض ناحت   وسُرّت حين حلّ بها السماء

سبحان من هذا المصاب على مراده، والصلاة والسلام على خير عباده الذين اعتصموا بسرّه المكنون. ﴿**إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنّا لله وإنّا إليه راجعون**﴾[1] اللهمَّ إنّا نسألك بقلبٍ منكسر وبدمع منحدر، ونتوسّل إليك بأنبيائك المرسلين وملائكتك المقرّبين أن تسكب سحائب الرحمة والغفران على حضرة ساكن الجنان، ولَيْك الشاكر الصابر، الأمير عبد القادر، وتروّح روحه كل حين بأرواح علّيين، وتلاحظ أشباله الأماجد وأمّهم السيدة الطاهرة بعين عنايتك القادرة، وتحفظهم من سائر الأسواء، وتفرغ عليهم أحسن العزاء، إنك أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين. اللهمّ بلوتنا ونحن غرباء، وامتحنتنا ونحن ضعفاء، فأسبغ علينا الصبر الجميل، وامدد علينا ظلّك الظليل ببركة ذلك الفيل وانصر أنصاره البهاليل الذين سلّوا الحسام على اللئام وأنقذوا عبادك في حادثة الشام. هب اللهمّ لهم أجراً غير ممنون، والطف بهم ﴿**يوم لا ينفع مال ولا بنون**﴾[2].

آمين، آمين لا أرضى بواحدة   حتى أضيف إليها ألف آمين

---

1 . سورة البقرة، الآية 156.

2. سورة الشعراء، الآية 88.

غبّ تقبيل أذيالكم الطاهرة والسؤال عن صحّتكم، أعرض بهذا اليوم العبوس، المعتم بالنحوس؛ بلغني الخبر المشؤوم المصحوب بالهموم والغموم. فآه ثم آه، أقبلت عليّ طائفة الشوام تعزيني بالملك الهمام، دموعها ذارفة وألوانها كاسفة. تقول انتقل لرحمة الواحد الأزل أميرنا الأمير الطاهر السيد الحسني عبد القادر. فيا لها من ساعة مريعة وإخبارية فظيعة، تخدّدت بها الخدود وتشقّقت القلوب قبل الجيوب وقامت بها مناحة مصر على ابن يعقوب.

سيدي، كيف أعزّيك؟ وعمّن أسليك؟ أفل القمر الباهر، وغاض البحر الزاخر، وماد طود الأطواد وغيظ الحساد، العالم العامل والمولى الكامل. فلا حول ولا قوّة إلا بالله العليّ العظيم.

يا بهجة العيش ما للعيش بعدك من   طعمٍ إليه لذيذ العيش ينتسبُ

بيدَ أنّ من التجأ إلى الله كفاه، وخفّف عناه. فقد أصيب الناس بخير المرسلين وخاتم النبيّين، والتجأت لربّ العالمين؛ فجبر الله تلك الصدعة، وسكّن تلك الدمعة، وكان الله الخلف عليهم من بعده.. ومعرفتي الأكيدة بألمعيّتك الفريدة تبشّرني بالتجائك إليه واتكالك عليه وبأنّه تبارك وتعالى سيكفيك ويغنيك ويجعلك خير خلف لخير سلف. فحقّق يا مولاي ظنّي بصبرك الجميل وفضلك الجزيل، واقبل تعزيتي المختصرة. فقد خنقتني والله العبرة. وأولادي ينوحون حولي، نواح المقلات، ويخمشون الجباه والوجنات، ويقولون من خلّف مثلك، ما مات.

فصرت أراه باقيا وهو ميّت   وكنت أراه حاضرا وهو غائب

ومثلك يا مولاي لا يحتاج إلى وصيّة.ولكن عملا بقوله تعالى ﴿**فذكّر إن نفعت الذكرى**﴾[1] واقبلني عبدا لك كما كنت عبدا أمينا لسيدي أبيك، المرحوم. والرجاء أن تنوب عنّي وعن عبيدكم، أولادي وابنتي وعائلتي بتقديم التعازي لحضرة السيدة الطاهرة والدتكم ذات العصمة، ولحضرة أسيادي إخوانكم المحترمين ومن يلوذ بالمقام الشريف. وتشرّفوني بخدمتكم الجليلة. عوّضنا الله سلامتكم الغالية، وجمّل عزائكم، وأهلك أعدائكم. آمين.

ورثاه ،قدّس الله سرّه، جماعة من أدباء العصر، وشعرائه

فمنهم؛ السيد محمد بن محمد المبارك الجزائري

فإنّه رثاه برسالة فائقة، سمّاها: "لوعة الضمائر، ودمعة النواظر، في رثاء الأمير عبد القادر"

ونصّها:

بسم الله الرحمن الرحيم

سبحان من تفرّد بالبقاء، وكتب على من سواه الفناء، وأنزل على إمام أهل العرفان (ﷺ)، قوله تعالى﴿**كلّ من عليها فان**﴾[2]، وعلى من فوّض أمره إليه. وسلّم.

وبعد؛ فلمّا قضى القادر وحكم بوفاة السيد العلم، مولانا الأمير والقطب الشهير، واسطة عقد السيادة، وعين ينبوع السعادة، سيدنا عبد القادر بن سيدنا محيي الدين؛ عزّيت بفقده شعائر الإسلام والدّين.

---

1 . سورة الأعلى، الآية 9.

2.سورة الرحمن، الآية 26.

ولبس المجد ثياب الحداد، وصالت الخطوب بأسنّة ألسنة حداد، وخلعت الأكوان ملابس الأنس حزنا على من بكته الجن والإنس، واكفهرّت وجوه الوجود لأفول بدر الكمال ونجم السعود والشمس يومئذ كليلة الطرف، كاسفة المحيّا، والعالم في ذهول كأنّما احتست صرف الحيّا. وكان يوما أطول من ظلّ القناة وأحرّ من دمع المقلات.

فلم أر يوماً كان أشبه ساعة بيومٍ من اليوم الذي فيه ودّعا
مصيف أفاض الحزن فيه جداولا من الدمع حتى خلته عاد مربعا
ووالله لا تقضي العيون الذي له عليها ولو صارت من الدمع أدمعا

وعندما قضى نحبه وفارق آله وصحبه، عزّ العزاء وضاق رحب الفضاء وأصمّ الصائح بنعيه الأسماع وزهّد في الحياة الآمال والأطماع.

ألا في سبيل الله مهجة ماجد يشاركنا في ندبه المجد والفخرُ
كريمٌ أفاد الدهر منه خلائقاً فأيامه منه محجّلة غرُّ
يروع جيوشَ الحادثات يراعه ويفني الأعادي قبل أسيافه الذعر

فآه ثم آهٍ لفقد الحليم الأوّاه. لقد انقضّ ركن الشرق والغرب فجلّ الخطبُ وعظُم الكرب. فيالها من مصيبة، بسهامها للقلوب مصيبة. قد أطارت النّفوس شعاعا وأرعدت الفرائض ارتياعا.

فيا وحشة الدّنيا وكانت أنيسةً ووحدة من فيها لفرقة واحد
لئن هي أهدت للأقارب لوعة لقد عفّرت ترباً خدود الأباعد
فما جانب الدنيا بسهلٍ ولا الضُّحى بطلقٍ ولا ماء الحياة ببارد

وليس أحدٌ إلاّ تفجّع لفقده، وتكدّر عليه صفو ورده إلاّ جاهلٌ بمقامه المحمود أو حاسدٌ، وكلّ ذي نعمةٍ محسود حيث كان رحمةً لكلّ أمّة. وهل يسمح الزمان بمثله بعد أمّة.

هيهات لا يأتي الزمان بمثله إنّ الزمـــان بمثله لبخيل

فوا أسفاه على بدرٍ هوى من رفيع الذرى، وقد كانت تهتدي بسناه كلُّ الورى. وواحسرتاه على فقد من هو بغيةُ الآمال، ثمال اليتامى، عصمة للأرامل.

لعمـرك مـا الرزيَّـة فقـدُ مـال ولا فـرسٌ تمـوت ولا بعيـر
ولكـن الرزيَّـة فـقـدُ حـرّ يمـوت لموته خـلـقٌ كثيـر

فأعظم به من مصاب به ترادفت الأحزان والأوصاب، جدير أن تسكب فيه العبرات وتذهب النفس عليه حسرات. وكيف لا يندب الندب على هذا الكريم الندب وهو بهجة العالم وبضعة سيد ولد آدم.

فتىً كان كالتوريد في وجنـة العلـى وكالعقد حسناً في نحور المراتب
فلا انطبقت عين العلى بعد فـقـده ولا ابتسم الهنديّ في كفّ ضارب

وقد شيّعه خلقٌ لا يحصى عديدهم ولا ينادى وليدهم. تشهدُ الكلَّ من فرط الدهشة حيارى. وترى الناس سكارى وما هم بسكارى. يموج بعضهم يومئذ في بعض كأنهم فوجئوا بهول يوم العرض. ولهم زجلٌ بذكر الله ترتجُّ منه الأرض. فمنهم من أوشك أن تخنقه العبرة تالياً آية: ﴿**إنّ في ذلك لعبرة**﴾[1]؛ ومنهم من توالت زفراته وتواصلت

---

1 . سورة النازعات، الآية 26.

تلهّفاته وحسراته؛ ومنهم من كاد يتميّز من الغيظ ويذوب من حرّ جوىً أشدّ من نار القيظ؛ ومنهم من تفطّر قلبه وغاب رشده وذُهل لبّه، ومنهم من تجرّع كأس الصبر فأحرز بذلك أعظم حسنة، متمثّلاً بآية "لقد كان لكم في رسول الله أسوةٌ حسنة" وهم يناجونه: يا أبا الأمراء، يا كافل الأيتام وكافي الفقراء، لقد فجعنا بك الدهر وسطا علينا بصوارم القهر، فصبرٌ جميل وحسبنا الله ونعم الوكيل. وهجيرهم في معاناة هاتيك الشجون: "إنّا لله. وإنّا إليه راجعون".وكلّهم يتمنّون فداءه بالنفوس والآباء لو كان القضاء، يقبل منهم الفداء.

يا بهجة العيش ما للعيش بعدك من طعمٍ إليه لذيذ العيش ينتسب
فاليوم أنفسنا للدهر آمنةٌ إذ ليس بعدك خطبٌ منه ترتقب
فاذهب عليك سلام الله من ملك ما بعد مفقده رعبٌ ولا رهبُ

وقد أحاطت بجنازته طوائف البشر إحاطة الهالة بالقمر والأكمام بالثمر، محفوفة بالملائكة الأخيار وأرواح المقرّبين الأبرار، وهي ترفرف على الرؤوس وتتبختر ولا تبخترَ عروسٌ وقد لاح عليها من أنوار الجلالة ما كشف عن عين المشاهد عينَ الأغيار. وجلالةٌ يكاد سناها يتخطّف الأبصار ويدهش ألباب أرباب الاستبصار تتبادر حملها الخلائق لتلتقي عن ظهرها أعباء الذنوب. وقد شقّت من شدّة الأسف عليه جيوب القلوب. ولا جرم، إنها لو وضعت على أعناق الأنام، لتولّت حملها الأرواح العلويّة والملائكة الكرام. فهي التابوت المشتمل على السكينة والسرّ الممجّد. وفيه بقيّة ممّا ترك آل محمد. وتلك آية

ملكه، في الدار الآخرة، دون مَيْن. فهنيئاً له بخاتمة الحسنى وسعادة الدارين.

يا دهر بعْ رُتَبَ المعالي من بعده بيع الكساد ربحت أم لم تربح
قدِّم وأخِّر من تشاء من الورى مات الذي قد كنت منه تستحي

ودفن مع أستاذه الشيخ الأكبر؛ ففاز برحمة ورضوانٍ من الله أكبر؛ في روضةٍ ذات روحٍ وريحان، يشهد الجنان أنّها من رياض الجنان. ولا غرو أن دعاه إلى حسن جواره رجب الأصبّ لإشارة الحديث الشريف: "المرء مع من أحبّ" وفيه تنبيه على أنّها من طينة واحدة. فلهذا يقتفي آثاره ويتعهّد معاهده. ومازال يغترف من بحر فتوحاته ويقتبس من مشكاة تجلّياته ويتحقّق بنصوص فصوص حكمه ويتخلّق بحسن أخلاقه وشيمه حتى حكاه في القول والفعل وسار على قدمه حذو النعل بالنعل. فشيّد أركان الشريعة والطريقة. فهو مُحيي الدين في الحقيقة. كان، قدّس الله سرّه العزيز، يعرب عن دقائق المعاني بلفظٍ وجيز، وله في فنّ التصوّف المقام الشامخ والباع الطويل والقدم الراسخ. ومواقفه[1] الكريمة أعدل شاهدٍ بكمال ذوقه في تلك المواقف والمشاهد على أنه أحرز قصب السبق في سائر الفنون. وجمع ما تفرّق في غيره من حسن الأوصاف وبديع الشؤون:

ليس على الله بمستنكرٍ أن يجمع العالم في واحد

1.إشارة إلى كتابه (المواقف) وهو كتاب في التصوف نسج فيه على منوال الشيخ الأكبر السيد محيي الدين.

زان العلم بصالح العمل، وجرى صيته في الورى جري المثل، وانفرد بحسن السيرة وصفاء الطوية والسريرة حتى اعترفت له أعداؤه بجميل الثناء. ولا ريب أنّ الفضل ما شهدت به الأعداء:

فتىً دهره شطران فيما ينوبه ففي بأسه شطر وفي جوده شطر
فلا من بغاة الخير في عينيه قذى ولا من زئير الحرب في أذنه وقر

دأبه قضاء حوائج الخلق وإصلاح ذات البين وجبر الخواطر بما تقرّ به العين وهمّه إقامة الصلاة وحضور الجماعة وذكر الله جلّ جلاله في كل ساعة. تكاد أحاديثه تندرج في حديث خير الأنام. وكيف لا، وكلام الأمير أمير الكلام. ولا بدع في ذلك عند كل نبيل نبيه. فإنّ الفرع يزكو بطيب الأصل، والولد سرّ أبيه. وكان في الندا والسماحة رحب الصدر والساحة، يرتاح إلى الوافد والوارد ارتياح الضمآن إلى عذب الموارد. ويسدّ جزيل الفضل وجميل القرى، فيقول لسان حاله: "كلّ الصيد في جوف الفرا". وكم استُوهب الذهبَ فلم يهبْ أن يهبَ. صلاته تعمّ القريب والغريب. ويصيب المرء منه أوفر نصيب، بيد أنها لوجه الله، وابتغاء رضوانه ودار علاه.

لقد علّمته غاية الزهد نفسه فأصبح حتى في الحياة له زهد
ولم أر بدراً قبله حازه الثرى ولم أر بحراً قبله ضمّه لحد

وكان في الحماسة أسد الله ورسوله. يجاهد في الله ويقاتل في سبيله. وله وقائع دونها شرط الحداد وخرط القتاد. قد سارت بأحاديثها

الركبان، وعثر عليها كلّ قاص ودان. وهل يُنْسى ما أسلفه في الجزائر، حفظاً للرعايا وصوناً للحرائر من فتاكته العديدة وسطواته الشديدة.

إذا شب ناراً أقعدت كلّ قائـم   وقام لها من خوفه كلّ قاعـــد

يقدم على الجيش العرمرم بنفسه؛ فيشتّت شمل أنسه، ويحلّه في رمسه ويدهش الألباب بوثابته عند النزال، وثباته في كلّ معركة ومجال. فهو الليث الغضنفر، وحسامه الموت الأحمر.

كـــان للأعـــداء ذلا وبوســـا   ولراجـــي الجـــود عـــزّا ومـــالا
كـــان وبـــلاً للعفـــاة هتونـــاً   ولأحـــزاب العـــداة وبـــالا
كـــان للنـــاس جميعـــا كفيـــلا   فكأن الخـــلـــق كـــانـــوا عيـــالا

وأنّ لذوي الأفهام دَرْكُ غاية هذا السيد الهمام؟ هو وحيد دهره وفريد عصره. قد منحه الله مكارم الأخلاق؛ فعزّ وجوده في الأمة على الإطلاق.

يكـاد يحكيـه صـوب الغيـث منسـكباً   لـو كـان طلـق المحيـاً يمطـر الـذهبا
والدهر لو لـم يخـن والشمس لو نطقت   والليث لو لم يجر والبحر لو عذبا

وهل تبلى مآثره أو تندرس مفاخره، وقد قلّد أجياد الزمان قلائد منَنٍ تفوق عقود الجمان.

ينبي المواقف عنه أنّه سندٌ   لو كان الرّوع عنه أنه بطل
يعطي فيجزل أو يدعى فينزل أو   يؤتى لمحمل أعباء فيحتمل
أضحى لنـا بدلاً منه بنـوه بـه   والشبل من ليثه إمّا مضـى بدل

على أنه ما مات من بقي ذكره، وظهر في أشباله كماله وسرّه. فهم سادةٌ كرام وقادة عظام، تخالهم لدى الوغى أسودا كاسرة، وتحسبهم عند الندى بحورا زاخرة.

إذا حلّ منهم واحد في قبيلةٍ يُشار إليه أنه العلم الفرد

ولا سيّما واسطة ذلك العقد، وصاحب الحلّ والعقد، سعادة الأمير الأعظم، السيد محمد باشا الأفخم، من آذنت أخلاقه الشريفة بأنه خير خليفة. وهل ينكر ذلك إلاّ ذو جهل أو حسد. أليس هذا الشبل من ذلك الأسد.

بلى وأبي إنّ الأمير محمداً لقطبُ الرحى مصباحُ تلك المشاهد
حمدت الليالي إذ حمت لي جنابَه ولست لهذا الفضل منها بجاحد

جعل الله الجميع خير خلف، ووفّقهم لاتّباع سنّة من سلف، وأقرّ بوجودهم عينَ الوجود، وأجرى بهم عينَ الكرم والجود، ما بزغت الشمس، ولاح القمر، وناح الحمام في السحر، على أفنان الشجر؛ فقال من أرّقه البين وآلم، مؤرّخاً وفاة فقيد العالم:

سار الأمير الفرد عبد القادر الـ حسني إثر محمد والآل
أضحى نزيل الحاتميّ أخي الندى محياها صوب الحيا المتوالى
فرثاه حسن ثنائه بين الورى وغدا يؤرخ غاب بدرُ كمال

نفثة الوجد والغرام في تعزية آله الكرام

الصبر أجدر في الخطوب وأليق والحزم أوفق بالنفوس وأرفق
والحرّ يأبى أن يميل مع الهوى وبغير تقوى الله لا يتعلّق
والعيش ظلٌّ زائل في صفوه كدرٌ. فلا يغررك منه ترقّق
ما المرء في الدنيا سوى هدف غدا بسهام انواع الرزايا يرشق
يلهو بآمال كبرق خلّب وسراب قاع ماؤه يترقرق
بينا يعلّل بالأماني نفسه إذا بات منه الشمل وهو مفرّق
ما فاز بالحسنى سوى عبدٍ له قلبٌ بمولاه الكريم تعلّق
ما زال مشتاقاً إلى راح اللقا حتى أدير عليه وهو معتّق
ذاك الأمير الفرد قطب زمانه من في العلى آثاره لا تلحق
لبّى نداء الحقّ مرتاحاً إلى روح وريحان شذاه يعبق
قد حلّ عند الحاتميّ إشارة لوارثةٍ أضحى بها يتحقق
فهو ابن محيي الدين طاب ثراهما وسقاه صيّب رحمةٍ يتدفق
جمعت شمائله من الأوصاف ما هو ما بين أرباب العلى متفرّق
وله "مواقف" كالمثاني ذكرها أبداً على طول المدى لا يخلق
ولحكمةِ العدل المبين سما به ال غرب المبارك واستضاء المشرق
ولطالما قد طاولت بكماله كلّ البلاد ومن عليها خلق
مذ غاب عن عيني تخلّل مهجتي فرط الأسى والروح كادت تزهق
يا ليتني كنت الفداء له وهل من بعده تحلو الحياة وتعشق
صبرٌ جميلٌ يا فؤاد فإنّه سهم على كلّ الأنام مفوّق
هو في سبيل الله أفنى نفسه لمشاهدٍ منها المشاهد يصعق
أو علمت على اليقين بأنه في الغيب عند الله حيّ يرزق
هذا وإنّ عدنا بوحشة فقده والقلب كاد من الجوى يتمزق
فالسرّ في أشباله ووجودهم حصنٌ لنا من كل خطب يطرق
ما مات من أبقى وخلّف سادةً بثنائهم جيد الزمان مطوّق

عقدوا على حسن الأخوّة جمعهم — فغدا الحسود بنارد يتحرّق
برعاية الشهم الهمام محمد — لهم بعين بالعناية يرمق
مولى؛ به ركن الإمارة راسخٌ — وعليه رايات المعالي تخفق
يا معشر الأمراء لا برحت بكم — سحب المكارم والمراحم تغدق
وبمجدكم وجلالكم لا زالت الـ — أحباب تفرح والأعادي تفرق

ومنهم الشيخ إبراهيم الأحدب الطرابلسي، ونصّ مرثيته:

أصمّ نداء الخطبِ للمجد مسمعاً — وراع المعالي والعوالي بما نعى
وهدّ منارَ العزّ نفحُ سمومه — وما صدّ عن هام العلى؛ حين صدّعا
تداعى له ركن الفخار وقد هوى — به كوكب العلياء هولاً بما دعا
فلا كان يوم السبت يوم مصائب — فقد جاء ظهراً فيه للنجم مطلعا
وقد راع أصحاب العبا وقعُ حادثٍ — بفقد إمامٍ جلّ في الكون موقعا
وألوى بعبد القادر الدهر عاديا — على قدْرِ ما ساء الكرام وروّعا
قضى نجل محيي الدين سيد من سما — فسال عليه القلب ممّا تفجّعا
قضى من أياديه قلائد أنعمٍ — فكم عقد إحسان بها قد ترصّعا
قضى من يرجّى للندى والعلى ومن — ترجّى الأماني والمعالي به معا
قضى من له الملهوف يفزع لائذا — إذا لم يجد من حادث الدهر مفزعا
قضى من يردّ الخطبَ صدمةُ بأسه — ويأمن في عليائه من تدرّعا
همام قضى نحبا وقد كان في الورى — من الغيث أروى أو من الليث أروعا
عليه ثناء القوم أضحى بندبه — من الصبح أضوى أو من الليث أضوعا
فكلّ فؤاد قد أصيب بخطبه — فراح عليه بالأسى متفجّعا
وصوّح روض الفضل بالحب ستّة — وقد كان من جدواه بالخطب أمرعا
لقد زلزلت أرض المكارم والندى — وبيت العلى ممّا ألمّ تزعزعا
ودوحة مجد راعها عاصف الردى — وهبت بها النكبا سموماً وزعزعا

وأخرس لسن القوم هولُ مصابه — وأنطق بالحزن الجماد وفجّعا
كما رجب الشهر الأصمّ بوقعه — له فتق الحزن المبرّح مسمعا
أهاج عويل القوم فيه بلابلاً — وطوّق بالنوح الحمام المرجّعا
على مثله شقّ القلوب من الأسى — يرى فرض عين إن همت فيه مدمعا
من الغرب وفي الشرق يحيي ربوعه — فأشرقه بالغرب ما فاض أدمعا
وفي الشام قد أضحى نزيلاً فزلحمت — به مطلع النيرين والقطب موضعا
مناقبه تعيا المناقب بعدها — وإن أظهرت ما كان منها مبرقعا
تأصّل نيل العزّ في باب جاهه — ومنه بأقطار البلاد تفرّعا
وقد كان للراجي به الأنس والهنا — إذا أوحش الدهر الأريب وضيّعا
فأغلق باب الشعر مصرع خطبه — بمدح فلم يفتح لراجيه مصرعا
وأسبابه قد قطّعتها يدُ النوى — وأعجب للأسباب أن تتقطّعا
وكان لشعري من صلاتٍ جميلة — عوائد فيها كان بالجود مبدعا
فأوجب فرض الندب نظم رثائه — لما كان بالإحسان فضلاً تطوّعا
فها أنا أرثيه وأندب عهده — وأرعى أياديه إذا قلّ من رعا
وكنت أهنّي النفس صوغ الهنا به — فأصبحت أبدي بالرثاء تفجّعا
فوا أسفي قد سار عنّا مخلقا — نوائب نابت كلّ قلب تمزّعا
سرى نعشه فوق الرقاب وطالما — عنت لمعاليه العريقة خضّعا
فيا ويحهم ساروا بطودِ فضائلٍ — به كلّ قلب من جواه تصدّعا
يشيّعه الفضل الذي شاع صيته — وعزّ علينا أن يكون مشيّعا
يشيّعه بالفقه مذهب مالك — فقد كان بالرضوان منه تمتّعا
يشيّعه سيف صقيل جلا الصدى — به إذ تروّى من دم النحر مكرعا
يشيّعه الرمح الأصم إذا غدا — بمطعنه من ضلّ للحقّ مسمعا
يشيّعه متن الجواد الذي سرى — به لم يدع في السبق للقوم مطمعا
يشيعه بيت من الشعر بعده — غدا بنواح في النواحي مخلعا

يشيّعه من حادث الدهر ضارع لفقد علاه كان بالخطب أضرعا
يشيّعه بالطبع أنّات والهٍ بآدابه الغُرِّ الحسان تطبّعا
عفاءٌ على الدنيا بفقد جنابه فقد كان فيها سيد الكون أجمعا
فقدنا إماماً كان من شهب رأيه ثواقب لاحت في سما الدين طلّعا
فيا راحلاً أبقى علينا مصابه رزايا لها رضوى وهي وتضعضعا
سريت إلى دار البقاء من الفنا فكنت بجنات النعيم ممتّعا
يناديك من قد ضاق ذرعاً وطالما مددت له كفًّا من اللوح أوسعا
تواضعت للراجي بنفسٍ هنيّةٍ وما كان صنع العرف منك تصنّعا
ودست على كعب بنعلك في الندى فأصبح معنى الجود لفظاً مصنّعا
فكيف يوفّي ندب فضلك شاعرٌ إليك، برفض المعتدين تشيّعا
وإني لأرجو الفوز بالخلد في غدٍ بحبّك إذ أدعو مجيبا مشفّعا
بني حسنٍ أنتم مصابيح دهرنا ومنكم جميع الخير فينا توزّعا
محبّتكم فرضٌ وعقد ولائكم يرى وصلةً عند الإله ومرجعا
لذاك نرى أن لا غلوّ بما به نصوغ لكم عقد الرثاء مرصّعا
فسرْ في جنان الخلد ريّان بالتقى لديك جنى الإحسان بالعفو أينعا
ويا كوكبي فضلٍ أنار سناهما لفقد سناء البدر بالبين أربعا
بكم قد تأسّينا وإن عظم الأسى وجرّع كلاً خطبكم ما تجرّعا
فنحمد في صنع الجميل محمّداً ونحيي بمحيي الدين قلباً مروّعا
هما قمرا مجدٍ وفضلٍ وسؤدد وعلمٍ وجودٍ نحو طالبه سعى
فلا غمزت أيدي الخطوب قناهما ولا مدّت النذباء للقصر أصبعا
ولا راعت الأرزاء أنجال سيدٍ يلبُّون داعي الخير من قبل ما دعا
ويحيون للعليا معالم بعده وكلّ إلى المعروف تلقاه مسرعا
وبيت قصيد المجد لا اختلّ وزنه ودام لأقمار الفضائل مطلعا
وحسبي أن أدعو بإخلاص نيّة لدى سيّد من عبده يقبل الدعا

ومنهم الشيخ طاهر السمعوني الجزائري، فإنه قال:

هذه مرثيّة فيمن شهد أهل الغرب والشرق بفضله، وعقم الزمان عن أن يأتي بمثله، الأمير الجليل، مولانا عبد القادر الجزائريّ، كان له من زلال رضوان مولاه الكريم، يوم الجزاء، ريّ.

خطبٌ جسيمٌ عمّ بالأكدار ... ما بعده لسواه من مقدار
لو يعتري صمّ الجبال لأصبحت ... دكّاً تناثر مثل نثر غبار
ولو اعترى نوع النبات لما نما ... ولصار مثل الترب والأحجار
ولو اعترى الشّمس المنيرة أظلمت ... وغدا الأنام بغير ضوء نهار
ولو اعترى زهر النجوم تقضقضت ... ونحا بديع نظامها لنثار
ولو اعترى البحر المحيط تطايرت ... أجزاؤه وتحولت لبحار
ولو اعترى الفلك المدار لعُطّلت ... حركاته ولصار غير مدار
خطبٌ تبدّلت الدّموع به دما ... تجري كغيثٍ هاطلٍ مدرار
وغدت به الأكباد وهي كليمةٌ ... حرّاء حامية كجذوة نار
صعقت جميع النّاس فيه كأنّهم ... في طور سينا إذ تجلّى الباري
ويحقّ ذاك وكيف لا والترب قد ... وارى إمام السّادة الخيار
مهديّ هذا العصر وسطى عقده ... بحر الحقائق كاشف الأسرار
الغوث عبد القادر السامي الذّرى ... شمس الهداية مظهر الأنوار
مولى مناقبه تجلّ وتعتلي ... عن عهدها كالقطر في الأمطار
واحسرتا للمعتفين فإنهم ... من بعده في خيبةٍ وخسار
ذهب الذي قد كان يجبر كسرهم ... ويثيب يمناهم أجلّ يسار
يعطيهم الآلاف معتذراً لهم ... طلق المحيّا بادي الإسفار
واحسرتا للاّئذين فإنّهم ... من بعده في ضيعةٍ وصغار
ذهب الذي يحميهم ويقيهم ... ويذود عنهم أعظم الأخطار

ويفلّ عنهم غضب كلّ ملمّةٍ — فتراهم كالطّير في الأوكار
واحسرتا للطّالبين فإنّهم — من بعده صاروا بغير منار
ذهب الذي يجلو الغوامض عنهم — من بعد ما أعيت على الأفكار
ويحلّ كلّ دقيقةٍ معتاصةٍ — بأدلّةٍ يُسْكتن كلّ مماري
واحسرتا لليلٍ من ذا بعده — يحييه بالطّاعات والأذكار
وينير طرّته بأبهى غرّةٍ — تربى محاسنها على الأقمار
ذهب الذي قد كان براً عابدا — مستغفراً الله في الأسحار
لهفي على الفقراء من ذا بعده — ينجيهم من مخلب الإعسار
ويردّ ناب البؤس عنهم نائباً — وينيل ما راموا من الأوطار
لهفي على الأيتام ماذا بعده — يلقون من ضنكٍ ومن إقتار
ذهب الذي قد كان خير أبٍ لهم — يوليهم فيض الندى المدرار
لهفي على الأدباء من ذا بعده — يلقونه ببدائع الأشعار
ذهب الذي قد كان يُغلي سعرها — ويجيز بيت الشعر بالدينار
صبراً على هذا المصاب وإن يكن — زند الأسى والحزن فيه واري
فالله قد وعد الصبور مثوبةً — وجزيل إنعامٍ بدار قرار
لو كان في الموتِ الفداء فداه كلّ — سميذعٍ ندبٍ من الأحرار
لكنّه أمرٌ على كلّ الورى — متحتّمٌ في سابق الأقدار
والموت عند ذوي البصائر نعمةٌ — عظمى لأرباب التقى الأبرار
أرواحهم ترقى إلى أعلى العلى — من بعده وتحلّ أكرم دار
حيّ الكريمُ البرّ روحك بالرضا — وأثابها منه بخير جوار
وأدام طيب ثراك فضلاً إنه — يسمو بنفحته على الأزهار
وأنار قبرك مثل قلبك إنه — يوفي على الأفلاك في الأنوار
وأقرّ أعيننا القريحة بالبكا — ببقا بنيك الكمّل الأخيار
لا سيّما المولى الهمام ومن غدا — في حلبة العليا بغير مبار
السيّد السّند الأمير محمدٌ — كنز الفضائل معدن الأسرار
وأنالهم خير الأماني إنهم — محيو مآثر ذلك المختار

بأيِّ جُناحٍ سامنا صرفه الدّهرُ أم الدهر خبٌّ من خلائقه الغدر
وعن حسدٍ ما نابنا من خطوبه وما نابنا إلاّ الخديعة والمكر
هو الدهر لم يحسن لمن كان قبلنا ولا يرتجى خير لمن طبعه الشرّ
يمدّ لنا بالنّائبات أكفّه أليس لهذا المدّ عن مسّنا جزرْ
ويبغي ولا يبغي البقاء لغيره ولا بدّ يوماً أن يذوق الرّدى الدّهر
ويحسدنا في كلّ شهمٍ سميذع ولا عجبٌ إذا كان في طبعه كبر
فليس من الحزم الوثوقُ بعهده فما عهده إلاّ الخلابة والخفر
لقد زادنا طعناً فأدمى قلوبنا وقابلنا بالكسر فامتنع الجبر
وأورثنا ريب المنون مصيبةً لها ارتجّت الأفلاك ولقضّت الزّهر
لها الأرض مادت والجبال تزلزلت لها صعق الأخيار قد قضي الأمر
بها جاء ناعي البرق يرعد قلبنا فأمطرت الآماق ما ضمّه الصدر
عشيّة عين الغرب حجّب نورها دجى الشرق حتى لا يخال له فجر
مصابٌ به العلياء تبكي أميرها وكلّ امرئ من ذا المصاب به شطر
أجل مات عبد القادر الحسنيّ من به سادت السادات وافتخر الفخر
هو الجوهر الفرد الذي فيه ضمّنت خلاصة روح الفخر والشيم الغرّ
إمامٌ؛ هدى الله الأنام بهديه وليّ ولكن ما لأسراره حصر
أفاض على الأرواح نوراً به سرت إلى العالم القدسيّ يحملها السرّ
قضى العمر شغلاً لو يذق طعم راحةٍ وما شغله إلاّ التفكّر والذكر
وقام بأمر الله حقّ قيامه فعزّ به عرفٌ وذلّ به نكر
يراقب وجه الله في كلّ حالةٍ غدا غدا "وما للهوى نهي عليه ولا أمر"[1]
في جوار الله أكرم نازل وبين ملوك الأرض كان لـــه

---

1. هذا العجز مقتبس من قصيدة مشهورة لأبي فراس الحمداني.

وكان إذا ما قال فالفضل قوله ومن شعره الشعرى ومن نثره الدرّ
به ملتقى البحرين للعلم والندى ففي صدره بحر وفي كفّه بحر
وكانت أياديه ولا منّ بعدها مناهلَ جودٍ ليس يسبقها نهر
فمن لضعاف الناس يحمي ذمارهم ومن لهم ذخرٌ إذا بعده اضطروا
فباليُمن يمناه تفيض كرامة ويسراه عن سحب اليسارة تفترّ
فغيثٌ إذا جدبٌ ألمّ وفيصل إذا اشتبكت حربٌ وحُمَّ لها جمر
فكم خاضها يروي الأوام بوردها يكرّ وللأعمار من كرّه فرّ
وإن أعمل الصمصام أنشد وقعه "لنا الصدر دون العالمين أو القبر"[1]
وإن شقّ قلب الحرب يوم كريهةٍ يرى الموت طوعاً أو يرافقه النصر
شديد مراسٍ زانه حلم قدرةٍ هو الحرّ لا يلوي وإن مسّه الضرّ
يلاقي عناد الدهر ثبتاً جنانه وإن ناب ضيمٌ لا يزاح له ستر
ويلثم ثغر العزّ من جمرة الوغى مرابط ثغرٍ كمْ له ابتسم الثغر
سل الغرب عمّن كان يحمي زمامه تنبّيك في صحرائه أنهر حمر
لقد كان فينا سيّدا وابن سيّدٍ عميم الأيادي لا يخصّصها قصر
بقيّة فخر العرب ما بعده لهم ملاذٌ ولا ركنٌ فأنّى لنا صبر
وعهدي يخشى الموت شدّة بأسه فيا موت ما هذا أما هالك الأمر
فقدانه والآمال ترجو بقائه "وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر"[2]
وساعة ساروا يحملون سريره لقد عرفوا من هولها ما هو الحشر
ترى الناس غرقى في بحار دموعهم على أنّه هولٌ به أقفر البرّ
سكارى وما دارت عليهم سلافةٌ نشاوى ولكنَّ الأسى لهم خمر

---

1 . وهذا العجز كذلك مقتبس منتفس القصيدة لأبي فراس الحمداني.

2 . وهذا العجز من نفس القصيدة لنفس الشاعر.

بكاه الندى والعلم والزهد والتقى   بكته العوالي الزرق والبيض والسمر
بكت قبله الخنساء صخراً وإنما   على فقده جفّ الحيا وبكى الصخر
فيا ليت ما عشنا إلى رجبٍ به   رأينا عجاباً ما أتى مثله شهرُ
قضاءٌ قضى فيه المصاب بحكمةٍ   وليس لمن لم يقض فيه أسىً عذر
وإن تمنع الأقدار موتي فإنني   سأبكيه حتى ينقضي بالبكا العمر
لعمري ما الدنيا بدار إقامةٍ   ولكنما الدنيا لدار البقا جسرُ
وتحسبها أوهامنا ذات قيمةٍ   وما هي إلاّ الصفر ليس له قدرُ
لجاهلها عذبٌ مذاق عذابها   ولكن لدى أهل النهى حلوها مُرُّ
فيا فوز من منها تزوّد بالتقى   وكان كمولانا صنائعه البرّ
به افتخر الأحياء لكن بموته   تفاخرها الموتى وحقّ لها الفخر
لئن متَّ يا مولاي والموت سنّةٌ   ففضلك يحيا في الأنام له ذكر
ولولا بنوه وُرِّثوا المجد بعده   طوى الموت مجداً لا يعود له نشْر
هم أمل الراجين والسادة الأولى   على أمراء الأرض يسمو لهم قدر
ولا سيّما الشهم الأمير محمدٌ   عليه لتخليد العلى أخذ الأصر
بساعد محيي الدين يقوى عمادها   هو العضد الأقوى يشدّ به الأزر
حباهم جميعاً طيِّبَ العمر ربُّهم   وألهمهم صبراً يلازمه الأجر
وأمطر مولانا الأمير مراحماً   وبلّت ثراه بالرضا ديمةٌ غزر
إلى دعوة الرحمن لبّى مهلّلاً   وآخر دعواه لك الحمد والشكر

ومنهم؛ محمود أفندي الشهال الطرابلسي، فقال:

ما للمحاجر دمعها مستغـرب لقـد استحال دما وذلك أغـرب
وشهاب أفق الفضل يسرع نحو أطـــــباق الثرى جـزلا وفيها يغرب
والشرق أظلم بعد واضح نوره ولفقده أمسـى ينـوح المغـرب
أو ما عجبتم يالقومي إذ غدت زهر الهدى عن أفقها تتغـرّب
ذهبت بأفئدة الكرام فأصبحت تبغي التصبّر وهو برق خـلّب
وموائر الأحرار بعد أفولها شقّت وضاق بها لعمري المذهب
والمجد قد تخذ الحدادَ مدارعا من حزنه وعليه شدّ المعصـب
وكذلك أبناء المعارف أصبحت تنعي العوارف في الأنام وتنـدب
وسحائب الرحمن تمطرنا أسًى أبدًا وأومضت برقها لا يكذب
أوّاه من غـدر الزمـان كـأنه بخـداعه بين البـرّيـة ثعلب
ما أضحك الإنسان قَطُّ بمنيـةٍ إلاّ وقد أبكـاه وهـو مجـرّب
ملذا جري يا مطلع الإحســان ما حتى انبرى في الترب ذاك الكوكب
يا بين حسبك لا حياة لنا وبالـــعلماء أظفار المنيّــة تنشـب
موت الأفاضل ثلمةٌ في الدين قد صحّ الحديث بذا وجاء المذهب

أفحان يوم الساعة الموعود فيـ ـــها من إلـه وعـدُه لا يكـذب
فكأنما يوم القيامة قد بدا في ساعة من هولها يتعجب
يا نفس خلي عنك ما تبدينه من ذي المسائل فالحقيقة أعجب
تالله ما يوم الحساب أشدّ من يوم به فقد الأمير الطيب
السيد المفضال عبد القادر الحسني ذاك اللوذعيّ الأنجب
هو كعبة العرفان في حرم التقى ومحط ترحال الأنام المخصب
علم الهدى بحر الندى مردي العدا بمهنّد بدم الوريد مخضّب
العارف الحبر الهمام المرتقي أعلى مقام في المحبة يرغب
صنو الشريعة والحقيقة أمه وأخو الولاية والكمال له أرب
لله ما أسناه فوق منابر الـ ـعرفان في علم الحقيقة يخطب
علم لدنيّ حباه الله فيه منّة من غيره لا تطلب
وبحانة القدس العليّ لقد صفا خمر الوصال له وطاب المشرب
أمسى التقى والحلم طي ردائه شهم لغير الحق لم يك يغضب
أسفا عليه من همام كان للـ إسلام ركنا بالسلامة يرغب
حزنت عليه المكرمات وأصبحت عين العلاء عليه دوما تسكب
قد كان كهفا للأنام، فكم فتى قد بات في نعمائه يتقلب
يا نفس فاصطبري لفرقته فذا حكم الإله وأين منه المهرب
بلقائه حور الجنان تباشرت وغدت ملائكة الرضا تترحب
حياه مولاه بخير تحية فيها يلذّ على الدوام ويطرب
وسقى ضريح علاه من سحب الرضا والعفو والغفران غيث صيّب
وأطال عمر بنيه أقمار العلى مَن في سنائهم يضيء الغيهب
فلنا التأسي بعده ببقائهم فهم ملاذ للفؤاد ومطلب
عربٌ بهم ربع الفضائل آهل أبدا وثغر المجد فيهم اشنب

مـــا فـــيهم إلا همـــام أروع سـامي المراتـب بـالعلوم مهـذّب
لا سـيما ربّ العـلاء محمـد مَـن شـكره بفـم العلـى مسـتعذب
وكذاك محـي الـدين من أوصـافه لحلـى الكمـال هـي الطـراز المهذب
هـذا؛ وإنـي بالقصـور لمـذعن وأخـو القصـور بعجـزه لا يعتـب
أنا لست من فرسان ذا الميدان. بل قصـدي بـذاك إلـى الحمـى أتقـرب
إذ أن مـدح عـلاه أعظـم قربـة فيهـا إلـى رب الـورى يُتقـرب
وثنـاه عـذب فـي فـد المـدّاح والأوصاف منه في المسامع أعذب
فرثيتـه بأقل مـا فيـه من الحسنى وعجـزي عـن قصـوري مُعـرب
هيهات يحصى المدح منه محامدا مهمـا أطـال المـادحون وأسـهبو
حاشـا وكـلا مـا لـذلك غايـة إذ أن فضـل عـلاه لا يسـتوعب
أو لـم يكـن مـن آل بيـت نبـوة يـزدان فـيهم فـي القيـام الموكـب
أو لـيس مـن نسـل النبـي محمـد مَـن فـي القيامـة يرتجيـه المـذنب
صـلى عليـه الله مـا ابتهجـت مُنًـى وزهـت بنـور سـنا النبـوة يثـرب
أو جـاء بـدءٌ طيـبا برثـائـه وختـامـه ومسـك شذاه أطيـب

ومنهم محمد إسحاق أفندي الأدهمي الطرابلسي، قال :

قامـت عليـك قيامـة العلمـاء يـا سـيد العلمـاء والأمـراء
وبكتك أجفـان المكـارم والعلـى يـوم النـوى ممزوجـةً بـدماء
هذا مصـاب مـا أصيب بمثلـه الـ إسـلام بعـد السـادة الخلفـاء
من لليتـامى والأرامل يـا تـرى بعـد الأميـر ومـن إلـى الفقـراء
ومـن الـذي يولـي الجميل تفضُّـلا ويجـود بالبيضـاء والصـفراء
ومـن الـذي يرجـى لهذا الـدين إن خفنـا عليـه سـطوة الأعـداء
مَن للمساجد والرياضـات التـي أرضـيت فيهـا عـالمَ السـرّاء

تالله من بعد الأمير المرتضى ما ثم إلا كاشف الضراء
مات الأمير السيد الحسني عبـ ـد القادر ابن السادة الكرماء
أسفا على قمر بأفق سما العلى قد كان يخلف غرّة الظلماء
القانت الأوّاب من أحيت "موا قفه" لنا العربي ذاك الطائي[1]
علامة الآفاق ذاك العارف الـ ـرباني غوثي بضعة الزهراء
أسفي على من كان يُستسقى به صوب الغمام وصيّب الأنواء
أسفي على تلك الشمائل طالما شملتني من معروفها بمنائي
قد روّعتنا النائبات بخير من يرجى ليوم كريهة ووفاء
أسد الكتيبة والذي أخباره في الخافقين سَرَتْ مسير ذكاء
كم مِنّة قد طوّقت أعناقنا لابن النبي وكم يد بيضاء
ملك مآثره الشريفة في الورى كالروض عطّر سائر الأرجاء
ملك لقد ملك القلوب برحمة وبرأفة وتواضع لعلاء
هو سدّة الشرف الذي يا طالما كنا لها نأوي لنيل مناء
حكم الإله على الخليقة بالفنا ما هذه الدنيا بدار بقاء
لله درٌّ فتًى توشّح للقا من أشرف التقوى أجلّ رداء
قد قام في محراب طاعة ربّه متبتلا في الليلة الليلاء
فكأنه داود في محرابه يثني على المولى بخير ثناء
قد أيقظ النوام صوت صلاته وصلاته فاضت على الفقراء
وعلى يديه مصالح الدنيا وما فيها لقد قضيت بفصل قضاء
كالسيد السند الذي في ذاته يسمو رثائي دائما وثنائي

---

1. يرمز بالمواقف إلى كتاب الأمير المشهور في التصرف... وبالطائي إلى الشيخ محمد الدين بن العربي.

لله عبـــدا لقـــادر أرجوهمـــا فـــي كـــل حادثـــة وكـــل بـــلاء
مـولاي عبـد القـادر الحسـني وعبد القـادر الجيلانـي بـالزوراء
ركن من الإسلام وما ركن النهى مـــن بعـــده يومـــا إلـــى الأمنـــاء
إنسان عين الدهر من قد كانت الـ دنيـــا بـــه فـــي غبطـــة وهنـــاء
ذاك الـذي قـد كنـت معتـزا بـه مـن سـائر الـدنيا وكـان رجـائي
أمّا حـديث الجـود منـه والنـدى عـن واصـل يـروي لنـا وعطـاء
لـم أنـس إذ قـال لـي متحـدّثا فـي أنعـم جلّـت عـن الإحصـاء
لمـا لقـد وافيـتُ أسـأله ولـي شـغف بمـا أبـدى لـدى الهيجـاء
وأنـا بـأرض الشـام منـه بـدمرّ فـي بيتـه السـامي علـى الجـوزاء
إنـي غـزوت ثلاثمائـة غـزوة فيهـا وطئـت سـنام كـل سـماء
ولطالما قد خضت بحر مواكبٍ مـن جيشـهم فرّجـت فيـه بلائـي
ولقد قتلت مـن الأعـادي مـأتي ألـف كمـا شـهدت بـذا أعـدائي
والله يعلـم مـا لقيـت مـن العـدا فـي كـل معتـرك ويـوم لقـاء
الله أكبـر كـم لنـا مـن وقفـة فزنـا بهـا بالرتبـة القعسـاء
ولقـد نصـرت الـدين لـولا أنهـا غـدرت بنـا فـاس بغيـر مـراء
قطعـوا يـد الإسـلام بنـوا حيلـةً بـاؤوا بـأقبح خزيـة شـنعاء
حسـدوا علـى النصـر المبـين إخـوانهم فغـدوا مـع الأعـداء
لـم يبلغـوا مـا أمّلـوه بظـنهم لمـا غـدوا لهـم مـن الحلفـاء
والله يجـزي كـلّ بـاغ فـي غـد عمّـا جنـى لا شـك شـرّ جـزاء
عشرا من الأعوام قد حاربتهم مـع سـتة والنصـر تحـت لـوائي
مـا غـزوة لـي فـيهم إلا وقـد رمتُ الشـهادة فيهـا مـن مـولائي
هـذي جرائـدهم وهـذي كتـبهم تنبيـك عـن قتلـي بهـم وبلائـي
ومن العجائب مـا بجسـمي منـهم جـرح ولا مـن طعنـة شـلاّء

ما للجبان وعيشةٍ قد عاشها خلٌ الجبان رهين ذاك الداء
خلع الرداء وقال هل من طعنة فوجدته كالفضة البيضاء
هذا هو الشرف الذي يتنافس المتنافسون به بيوم علاء
وله بأنواع العلوم مكانة قد صيرته أعلم العلماء
يا نكبة ما رحت أذكر وقعها إلا وبتُّ بحالة الخنساء
من لي لو أني للأمير فداؤه ولو أن أعداه تكون فدائي
هو ثالث القمرين بل هو ثالث الـ ـعمرين بل هو بهجة الغبراء
أيه بني الآداب مات عياذكم وغياثكم من هول كلِّ بلاء
هذا الأمير مضى لرحمة ربه سبحان ربي أرحم الرحماء
فابكوا وإلا إن قدرتم فاصبروا فالصبر خير ذخيرة ورجاء
والصبر أجدر بالحجا ولو أنه يجدي البكاء عليه طال بكائي
فتذكروا مَن قبله من بينكم خطب له قد هان كل بلاء
أما الأمير فقد غدا في الجنة الـ ـمأوى وجاور أكرم الكرماء
وغدا ينادي نلت ما أمّلته من خالقي وبلغت كل منائي
وسعادة الدارين حزت فأرّخوا طيبا بحسن الظن من مولائي
والله نسأل بالنبي محمد خير الأنام وسيد الشفعاء
يبقي لنا أنجاله ويقيهم من كل مايخشى من الأسواء
المعتلين من الفخار مراتبا ورثت عن الأجداد والآباء
بيض الوجوه بكل مكرمة لهم منن أرتنا ألف حاتم طائي
آل الشهامة والفتوة والتقى وأولى الحجا والفضل والآراء
أمحدّري بعد الأمير وفاءهم دعني من التحذير والإغراء
أبناء عبد القادر الحسني،ابن محي الدين ساداتي وأهل ولائي
وعلى محمد باشا وارث سرّه الـ ـسامي تلوح مخايل السعداء

كنــز الحقـائق مجتبـي بدرايـة يســمو علــى الأشــاه والنظــراء
وكذاك محي الدين باشا من زكا خلقا غنيت بـه عـن الصـهباء
أسـد بيـوم الــروع إلا أنــه شـمس لقـد لاحـت بغيـر خفـاء
قسـما بعـيش أبـيهم وبمـا لـه عنـدي مـن المعـروف والإسـداء
أنا لم أزل حسّان مدح علاهم وبــه فخــار مــدائحي وثنــائي
والله يسقي قبر والدهم من الـ ـغفران صـوب الديمـة الوطفـاء
ما نــاح مشتــاق لفـقـد أحبّــة بــاتــوا فبـات ينـوح كالورقاء

ومنهم الشاعر الأديب محمد أفندي العلالي الحمودي، قال :

ســهام قضــاء الله لـيس لهـا ردٌّ وكـأس الـرّدى مـا مـن إذاقتـه بـدٌّ
بلى كل شيء هالك غير وجه من لـه الحكم حتمـا لا شريك ولا ضدٌّ
محــال إذا جــاء المقــدّر حيلــة لمستعصــم مــن أن يلــمّ بــه كــدّ
عنــاء حيــاتي كلهــا بعــد سـيد بـه فجـع الإسـلام والعلـم والمجـد
وأظلمـت الأوطـان حين بجسـمه تنــورت الأكفــان وابـتهج اللحــد
سقى وابل الرضوان أعظم مرقد حـوى بحـر فضـل مـا لتيّـارة حـدّ
كأن لم يكن برّ كـأن لم يكن تقى كأن لم يكن صدق كأن لم يكن رشد
طوى الكلّ بعد النشر بعضٌ من الثرى فلم يبق إلا الذكر والشكر والحمد
مضى الجود والإحسان والعفة انقضت وصـاحبها العرفـان والعلـم والزهـد
مضى ابن بني الزهراء حقّا لجدّه فيــا حبــذا الأبنــاء والأب والجــدّ
معـزّ اليتـامى والأرامـل كنـزهم إذا الضبع الشهباء نلت بها الأسد
بروحـي بروحـي لـو يفتـدي بهـا أميــر بــأمر الله جــدّ بــه الجــدّ
هنيئـا لجنّـات النعـيم بقـرب مـن أرانـا جحيم الحزن من بعده البعد
هنيئـا لمحــي الـدين قـدّس سـره بجـار حمـاه اليمن للجـار والسـعد

مصاب أصاب الدين لو أن بعضه — على أُحُد لاندكّ من هوله أُحُد
قيامة رزء لو ترى الناس بالبكا — محاجرهم جرحى وأعينهم رمد
لهم زجل بالذكر لله والدعا — وأدمعهم سحب وإعوالهم رعد
سكارى وما هم بالسكارى وإنما — وفاة ابن محي الدين حقّ بها الوعد
سرى نعشه فوق الرقاب وحوله — ملائكة الرحمن أنوارهم تبدو
لقد جلّ عن أن يدفنوه بروضة — هي الزوح والريحان والمسك والندّ
تقيّ نقيّ جاور الله في البقا — وأقبل بالبشرى على القادر العبد
وقور غيور ناسك متواضع — على أنه المقدام والأسد الورد
على أنه البسّام يوم كريهة — إذا عبست من تحت فرسانها الجرْد
فتى من رجال الله كان على العدا — حساما صقيلا لا يفلّ له حدّ
فتى كان لا يخشى من الخصم سطوة — وليث الشرى حاشا يروّعه القرد
فتى في سبيل الله كان مجاهدا — وليس له إلا رضا ربه جهد
همام كميٌّ كم أزاح ملمّة — بسيف رقاب المعتدين له غمد
هزبر هصور في الجزائر كم له — وقائع لا يقوى على حصرها عدُّ
سراج على سرج الجواد كأنما — من الرعب والإرهاب يقدمه جند
نعيناه للمحراب والحرب والندى — فكلٌّ علاه الحزن والسهد والوجد
عطاء ولا منّ وعفو ولا حقد — وجبر ولا كسر وودّ ولا ضدّ
حسان مزايا بانتقال حليفها — تعطّل جيد المجد وانفصم العقد
لحا الله دارًا للزوال نعيمها — وأولها مهد وآخرها لحد
غرور حياة وهي غرّاء حية — بأنيابها سمٌّ يمزجه الشهد
فتاة تراها وهي شر عجوزة — كما الدهر لم يصرم حبائلها الشدّ
تصيد البرايا واحدا بعد واحد — فلم ينجح منها لا كريم ولا وغد
مجربة تبا لها من خؤونة — فلا موثق منها يدوم ولا عهد

عـروس ولكـن المحـال حليّهـا   لها المين مرطٌ. والخداع لها برد
لعوب كما الصهباء بالباب أهلها   تروح بهم طوراً وطورا بهم تغدو
فما نصحت إلا وغشّت وهكذا   قياس قضاياها لنا العكس والطرد
شكونا ونرد الدهر ليس بسامع   وهل تنفع الشكوى إذا حكم النرد
فليس لنا إلا التوكل والرضا   بما قد قضاه الواحد الأحد الفردُ
فصبرا جميلا إنها لمصيبة   يذوب أسى من حرِّها الحجر الصلد
ولكن إذا في نار حزن ثوى الحجا   خبت ومع التسليم أخمدها البرد
وآل رسول الله أولى من الورى   بأن يتحلوا بالوقار ويعتدّوا
هم الحسنيُّون الأولى صوب صيتهم   به ألسن الإحسان ما برحت تشدو
هم الكاظمون الغيظ والصابرون هم   رياحين زهراء النبي إذا عدّوا
وهم عهدتي في شدّتي وذخيرتي   بدنياي والأخرى هم القَبْلُ والبَعْدُ
ولا سيما أجال من قد مضى ومن   رحيق شراب الأنس طاب له الورد
مصابيح فضل عظّم الله أجرهم   ولا ساءهم من بعد من فقدوا فقد
وأبقاهم الرحمن للناس رحمة   سحائبها يُروى بها الغور والنجد
نعم كلّهم نجب كرام ثوابت   لدى الروع حتى إن أصغرهم طود
وأكبرهم من دونه الدهر همّة   بغيره ندب أوحد ما له ندّ
محمد السامي سماء مقامه   على الشمس لا نكر هناك ولا جحد
أمير وجيه الوجه والجاه كوكب   منير به العلياء تمّ لها السعد
لإحسانه تصبو العفاة وحسنه   تحنُّ له ليلى وتشتاقه هند
بديع معان عن أداء بيانها   لقد كلّت الأقلام والألسن اللدُّ
كفى بشذاه سيرة وسريرة   فما الشيخ والقيصوم والبان والرند
وما غايتي بالمدح إلا تشرّقي   بأروع من بيت القصيد هو القصد
إليه سرت أسرار والده الذي   بعدن مع الأبرار طاب به الخلد

وسار إلى المولى بتاريخه وقد دعاه بجنات البقا رجب الفرد
عليه من الرب الرحيم السلام ما بكت مقلة وابتل من دمعها خدُّ
وما ابن هلال راح ينشد قائلا سهام قضاء الله ليس له ردُّ

ومنهم عمر البربير البيروتي، فقال:

لم اسودّت الدنيا ولم يكُ غاسق وأظلمت الآفاق حتى المشارق
خليلي رعاك الله قل لي ما الذي لقد صار في الدنيا فإنّك صادق
فهل آن خلّي للقيامة وقتها ونفخ بصور ثم يصعق صاعق
وبعث الورى والحشر ثمَّ وإنه تقوم لربّ العالمين الخلائق
أرى الكون مسودا أرى الشمس لم تبن أرى البدر لم يسفر وما هو شارق
وإن نجوم الأفق غير طوالع فلم يبد مسبوق ولم يبد سابق
وأين السما غير الظلام فلا يرى ولو حدّ بالتحديق والوثق وامق
أزالت وإلا بالظلام تحجّبت فما شأنها قل لي فصدري ضائق
ومالي أرى الأطواد ليس بحالها فكم قد هوى طودٌ وكم دكّ شاهق
ومالي أرى الأطيار خرسا ولم يكن عن الصدح والتغريد يسكت ناطق
ومالي أراها لا تطير وإنها وإن هي قد قصّت جناحا خوافق
فما الخبر الشافي خليلي به أشفني فإني بالتحديث منك لواثق
فأنت أبو الأخبار يروي صحيحها أخو الثقة الثبت الصدوق المصادق
وها لم أزل فيه إلى أن أجابني وأدمعه من مقلتيه دوافق
بصوت خفي قد يدق سماعه إجابة باكٍ وهو بالدمع شارق
وقال نعم أودى خليفة مالك ومالكُ هذا العصر من لا يسابق
إمام ذوي التحقيق قدّم فيهم وتقديمه فيهم عليهم توافقوا
وجيه أولي التدقيق وهو أميرهم له نشرت فيه عليه البيارق

هو الشمس عبد القادر السيد الذي   على فضله أهل العلوم تصادقوا
فكم قد محا جنحا من الجهل داجيا   فزال ولم يظهر من الجهل غاسق
هو البحر علما عنه حدّث مبالغا   فأنت على التحديث عنه موافق
هو البحر ينبوع الولاية رائقا   على سطحه ماء الصلاحة دافق
هو العَلَم المشهور في كل جانب   فليثٌ تفوق الغرب فيه المشارق
وخير شهود المرء بالفضل في الورى   وعندهم فيه اشتهار يطابق
على فضله كل الأفاضل أجمعوا   ومنهم بدون الخلف تم التوافق
وقد أجمعوا أن لا يجارى مسابقا   كذا ويجور السبق حين يسابق
وقد رضيت منه سجاياه كلها   وقلّ الذي ترضيك منه السلائق
وطاب بحسن الخَلق والخُلق سيرة   وصيتا كما قد طاب منه الخلائق
بجود وحلم ثم حسن تواضع   وفي حسن خلق للأنام يخالق
ودفع الأذى والضرّ والنفع شأنه   وقد أمنت في الدهر منه البوائق
دعاه إلى الجنّات داعي الهنا ضحى   فلبى مجيبا لم تعقه العوائق
وسار يجدّ السير وهو مشوقها   ويا قرب مقصود له سار تائق
وقد ساقه رضوان مولاه نحوها   ويا فوز من رضوان مولاه سائق
وسار إلى الفردوس بالعفو والرضا   ونال خلودا والنبي يرافق
فبشراه بالفوز العظيم وإنه   يجاور مولاه وليس يفارق
ولكننا فيه أصبنا مصيبة   تجلّ كما قد عظّمتها الخلائق
بها قُصمت منا الظهور وقد وهت   كواهلنا عن حملها وعواتق
فقا نبكه حتى القيامة أدمعا   تسيل بها الأحداق وهي زواهق
وتبدو بها الأرواح صاعدة لها   وتنزل مثل الودق والودق دافق
وحقّ علينا أن نشق قلوبنا   وأكبادنا لا أن تُشقّ البنادق
فيا ليته يفدى وكنا فداءه   وإن لم يكن ممن له الموت لاحق

ولكنما بالموت ربي قد قضى ومن كان ذا نفس فللموت ذائق
وإن كان ذاق الموت والقبر حازه فما زال حيّ الدهر ما بان شارق
فقد خلّف الصيت الحميد وإنه لأنفر مسك مالئ الكون عابق
ومن عاش ذكرا فهو حي حقيقة ومن لم يعش ذكرا فذلك وابق
وخلّف فينا كل نجل مكرّم ولاسيما مَن بالمعارف غارق
سميٌّ أجلِّ المرسلين محمد عليه صلاة الله ما لاح بارق
أبو العلم ربّ الفهم نجلٌ مكرّم أخو الحذق يبدو لا يدانيه حاذق
تصدّر للتأليف والنفع بعده تصدّر كفء وهو أهل ولائق
وإن حاز فضلا من أبيه فإنه وبشراكم سام عليه وفائق
ولا غرو فابن الليث ليث غضنفر ولا عجب فابن البواشق باشق
فيا أيها المولى الذي قلّ مثله فكالشمس لا مثل ولا فرق فارق
لئن كنت مولانا أُصبت مصيبة على هولها منّا تشيب المفارق
تذكر بخير الرسل أعلى مصيبة يقلّ لديك الخطب إذ أنت ضايق
وصبرا فإن الصبر أليق بالفتى وعن أجره مولاي يقصر ناطق
وفيك لنا عمّن أصبت أخا الحجا به خلف منه استطيب الخلائق
وأسأل ربي الله حسن عزائكم وإعظامه أجرا به الفضل حائق
ويسكنه الفردوس قرب جواره وفيه له بالدّر تبنى الجواسق
ويسقي قبرا ضمّه غيث رحمة يقلّب فيه وهو في ذاك غادق
مدى الدهر ما هبّت رياح لوافح وما أمطرت غبّ البروق البوارق
وما عمر البربير يسأل قائلا لم اسودّت الدنيا ولم يك غاسق

ومنهم خليل أفندي البربير البيروتي، قال :

خطب ألمّ بنا أجرى العيون دما لقد شكا الخلق من أهواله ألما
فليندب المجد في لأكون مظهره إذ راع ركنَ العلى والعزّ فانهدما
يا للمصيبة من خطب سطا وغدا فلم نجد أحدا من حزنه سلما
يا للنوائب من هول به كُسفت شمس الهدى فكسا آفاقنا ظلما
رزء تداعت به شمّ الجبال وقد ألوى به زعزع أضحت به عدما
يا للرزية من رزء بوقعته أثار في كل قلب بالأسى ضرما
كادت به الأرض من حزن تميد كما غدت هشيما به من هول ما صدما
هل بعد ذا الخطب ما بين الأنام يرى خطب به كل جفن يرسل الديما
أو هل ترى بعده في الكون مزعجة تخفي السرور وتبدي الحزن والسقما
كل لعمري فهذا الخطب صدمته قد زعزعت كلَّ رأس قد غدا علما
أضحى به رجب ما بين الأنام، يرى عشنا به فرأينا رزءه دهما
شهر أصم به في الكون قد ظهرت نوائب أوقرت أسماعنا صمما
يد المنون به اغتالت أميرَ عُلىً فاغتالت المجد والمعروف والكرما
نتيجة الدهر عبد القادر العلم الـ ـمول الذي في البرايا قدر عظما
السيد السند الشهم الذي عظمت أخلاقه فاغتدى بين الملا علما
روح السيادة تاج المجد بهجة ثغر المعالي به قد كان مبتسما
إنسان عين أولى العلياء سيد من سَيْب المكارم منهم سحّ وانسجما
أمير مجد سما هام السهى شرفا وكان للعزّ والعلياء خير حمى
أمير حزم حكت آراؤه شهبا لكلّ مارد خطب رائع رجما
غوث الطريد وغيث اللائذين إلى حماه يمطرهم من جوده نعما
ناديه مصدر أنواع الندى أبدا ما منّ يوما بما يعطي ولا سئما
أربى على كل ذي فخر بنسبته لبسط خير رسول بالفخار سما
بمجده سادت السادات وافتخرت وعقدهم بعلاه كان منتظما

أقوالــــه دُرر أفعالــــه غُــــرر وجه المعالي بها قد كان مبتسما
مسدّد الرأي ماضي العزم همّته قد أدهشت بعلاه العرب والعجما
مولى يقصّر عن إدراك غايته نجم السماء إذا ما حادث هجما
بكت عليه عيون المجد شاكية غبشا ألمّ بها من فقده وعمى
بكت عليه عيون الفخر نادبة نبراسها من سناه قد جلا الظلما
بكت عليه عيون الصحف من أسف كما بكته عيون العلم والعلما
وكل طالب علم قد بكاه أسًى إذ كان يكسبه من علمه حِكَما
بكت عليه سماء الفضل إذ فقدت بدرا سناه لجيش الجهل قد هزما
بكت عليه العوالي السمر حين والبيض ريعت وأمسى اسمها عدما
سرى مولًى مآثره تسمو مفاخرها والدهر عن مثله في المجد قد عقما
مولًى لقد كان للأيتام خير أب يذود عنهم صروف الدهر والنقما
مولًى به خاننا الدهر الخؤون بما أتاه عمدا ولم يحفظ لنا نِعما
بفقده قد فقدنا كل منقبة كنا نفاخر في إحرازها الأمما
لكن بأشباله الغرّ الكرام لنا حسن العزاء وإن كان الأسى عظما
أكرم بهم خلفا دلّوا على سلف بالخَلق والخُلق والعرف الذي انتظما
وأنهم خير أبناء لخير أب تمثال أفضاله في الكون قد رسما
لاسيما دُرّة العقد الفريد بهم أميرَ من ساد في العليا وكان حمى
محمد الذات ممدوحُ الصفات ومم- دوح الخلال الذي فاق الورى شِيَما
وصنوه الشهم محي الدين سيد من أضحى بكل كمال راسخا قدما
داموا مَوَالِي هذا العصر يخدمهم سعد العلى ولحُجّاج المنى حرما
وجاد ترب ضريح ضم والدهم من المراحم غيث دام منسجما
ولا يزال من الرحمن يؤنسه فيه رضاه ببدء كلما ختما

ومنهم الأديب شبيب بك الأسعد، قال :

أتدري بهذا العصر من غاله الردى ... ومن مدّ صرف الحادثات له يدا
ومن كان في عبء الرياسة قائما ... فغادره ريب المنون موسّدا
وأيُّ إمام في الأنام غدا له ... بأفق سما العليا مقاما ومقعدا
وأيّ همام في البرية ذكره ... يضيء إذا الحادي به في الدجى حدا
وأيّ مقام في الحياة وبعدها ... غدا في السمان فوق السماك ممجدّا
وأي محيط قد أحاط بفضله ... جميع البرايا ضمن قبر توسدا
فذلك عبد القادر الشامخ الذرى ... أمير الورى من كان بالدهر مفردا
ثبير إذ يمّمت تلقاه دونه ... وهيهات تلقى فيه مرقى إلى العدا
فـا قبله فوق البسيطة شاهق ... بأرض دمشق الشام قد صار ملحدا
هوى فهوى الدين العليّ مكانه ... وقد ثلّ عرش العلم والحلم والندى
مضى فمضى من بعده الزهد والتقى ... بثوب خليق طالما منه جدّدا
قضى فقضى حفظ العهود فمن بها ... معاهده في الناس لم تلف معهدا
نأى فنأى طيب الكرى ولقد جرى ... من الجفن هتّان دعاه مسّهدا
وراح فراح الخير من بعد ما غدا ... فواها لدهر خان فيما به اعتدى
وولّى فولّى الفخر والفضل والحجى ... وقد ترك العافين من بعده سُدى
وقد عميت عين المعالي من البكا ... وناظر أم المجد أصبح أرمدا
ودُكّ ثبير في عظيم مصيبة ... لقد هدّ ركن الرشد فيها مع الهُدى
ونادى منادي العز من لي كافل ... فإني قد أصبحت بعدك مُقعدا
وربّ الولا أمسى يقول ودمعه ... حكى هيجان البحر مذ صار مزبدا
فيا كبدي الحرّا عليه تقطّعي ... فإن فؤادي ذاب ممّا تكبّدا
لقد كان في الدهر ذا عزّة به ... ومذ بان أضحى شاحب الوجه أسودا
وحلّ الندى وابن الندى وأبو الندى ... برمس ثوى فيه الندى أبَدَ المدى

وقد غاض بحر الجود والناس أصبحت حيارى فلا يلقون بعدك موردا
فمن ذا الذي لم يدر أنّ بني العلى أصيبوا بخير الخلق فخرا وسؤددا
وأن علوم المصطفى ربعها عفا وبعدك شمل المجد أمسى مبددا
لقد كان يا ويح الحمام بجلّق مليكا به نهج النجاح ممهدا
وكان بها دفاع كل ملمّة ومنجى لمَن يبغي النجاة من الردى
وكان لأهل الفضل كهفا وملجأ وكان بهم عينا وكان لهم يدا
فبات وخلّي طيّب الذكر والثنا وأبقى أيادي فضلها لن يُعددا
فحزني له لا ينقضي أبدا وما تقادم فيه العهد إلا تجددّا
ولو كنت أدري أن موت عميدنا وسيد هذا الكون في الناس يُقتدى
لكنت بطيب العيش أسمح دونه وكانت لعمر المجد نفسي له الفدا
ومن عجب يا للأنام لحادث رأيناه عن إدراك ذا الخلق مُبعدا
لقد غربت في المشرق شمس سنيَّة ومشرقها؛ من جانب الغرب قد بدا
فيا لمصابٍ فادحٍ جمع الأسى وشمل الأسى في الناس لجمع بُدّدًا
إذا رمت صبرا عنه فرّ وأين لي على مثل هذا الرزء أن أتجلّدا
ولما رآه الله في عالم الفنا حباه بقاء في النعيم مخلّدا
ورضوان لاقاه برضوان ربّه وأكرم مثواه وبالبشر قد غدا
ونظّمه الرحمن في سلك جدّه فطوبى لمن في الخلد جاور أحمدا
وأنزله سبحانه منزلا به ترى الملأ الأعلى ركوعا وسجّدا
رقى فوق كرسي الجلالة في الدنا وفي جنة الفردوس صرحا ممدّدا
فيا علما في المشرقين هو الذي غدا بين أعلام البسيطة مفردا
لك النسب الوضّاح من خير والد وأشرف جدّ في العوالم أوحدا
تعالى الذي ألقى سميَّ أبيك في مكان له جاورت فيه ليسعدا
هو الأكبر الشيخ الأجلّ من به نور علم العالمين توقّدا

هو العربي العارف العالم الذي بمكنون أسرار الإله تفرّدا
فطبت وطاب الجار منك بطيب من بطيبة فخر الخلق جدّا له غدا
فأكرم به من مفخر لك ينتمي على العالم العلوي قد بلغ المدى
فيا أيها السيف الذي فلّل الردى سناه وقد كان المفلّل للردى
أتغمد في غمد الصعيد وإننا عهدناك قبل الآن سيفا مجرّدا
وهل عهدت منك الشهامة أن يرى مناديك لا يلقى مجيبا سوى الصدى
لعمري ما نوديت في معضل عَرَى ونـاب ولم تسرع لتلبية الندّا
فأقسم لولا أن تغادر في الورى بُعيدك يا شمس الورى قمري هدى
محمد خير الناس بعدك والرجا كذلك محي الدين من فيه يُقتدى
لكنا جعلنا ندب فقدك سنّة وكنّا اتخذنا القرح فرضا مؤبدا
فأنعم بمن خلفت فينا هم الأولى غدا موضع الآمال فيهم مشيّدا
وما قيل من كهف المعالي وكفؤها ومرجعها إلا رأيت محمدا
أميرا له في الجدّ أسمى مكانة وشهما جليلا في البرية أوحدا
عظيم أياديه جسام عظيمة وغير السجايا الغرّ لن يتعودا
وليس له من شبه غير صنوه عميد بني العليا الكريم المسوّدا
هما القمران النيران فلم تجد بغيرهما في الشرق والغرب مهتدى
فيا سادة ما مرّ في سائر الملا وليدا لهم إلا وعدّوه سيدا
بمدحكم جادت بدائع فكرتي ونظمي حكى درّا ثمينا منضّدا
إليكم بني خير الأنام قصيدة إذا أنشدت تلقى لبيدا ملبدا
بكم حسنت منكم زكت فيكم ازدهت بذكركم طالت فخارا ومحتدا
لكم وجميع الناس أضحت عليمة به وغدا للعالمين مؤكّدا
ولاء وليّ وابليّ لقد أتى سواء شبيب بن العلى بن اسعدا
فيا راحلا لولا الذين تركتهم بكيتك من دمعي دماء مدى المدى

عليك من الله المهيمن رحمة يلازمها الغفران والعفو سرمدا
ولا زال من أبقيت في أفق العلى لهم منزل ما غاب نجم وما بدا
وهنّئت في قصر لشأنك أرّخوا باسمي مقام في النعيم تشيّدا

ومنهم الأديب أحمد أفندي وهبي الحلبي، قال :

قلب تغطّى في أليم سقامه وتضرّمت أحشاؤه بضرامه
ومحاجر جادت بفيض دموعها ونَعَت رفيع القدر يوم حمامه
وجوارح فتك النوى بفؤادها وأراشه ظلما بحدّ سهامه
وجوانح ذابت أسى وتلوّعا وشكت مصاب الحتف وقت خصامه
ومصائب ونوائب قد حكمت ريب المنون فجار في أحكامه
يا بين ويحك قد غدرت بفاضل فاق البرية حكمه بكلامه
الشهم عبد القادر المولى الذي عمّ العوالم في جدا إنعامه
هو صاحب الفخر المؤثل والحجا بين الخليقة والوفا بذِمَامِه
قضت المواهب والمكارم مذ قضى هذا المكرّم نحبه في عامه
من للحماسة بعده من صاحب يحمي الدمار برمحه وحسامه
وغدا المطّهم يسرع الجريان في ميدان حزن خانه بهمامه
نعت المعارف فقده وغدا التقى متفاخرا بصلاته وصيامه
رفعت أيادي المجد فوق رؤوسنا نعشا يسير النور من قدامه
أبت المعالي غيره لمّا رأت رايات عدل في عُلى أعلامه
يا عصبة الفضلاء فابكوا فاضلا خلقت مزايا الفضل من إكرامه
يا معشر العلماء فانعوا عالما رشد الهداية كان من إفهامه
يا زمرة الشعراء فارثوا من غدت أمواله تعتدّ من أخصامه
فرض على الأدباء نظم رثائه والشهم من يرثيه في أقلامه

أسفا على النائي مدى الأعوام ما ... يــوم تبــدّل صـــبحه بظلامـــه
حيــث الجنـــان تفتحــت أبوابهـــا ... واستبشــرت فرحـــا علـــى أقدامــه
والحـــور والولـــدان كـــلّ مـــنهم ... فـــي زينـــة ليكـــون مـــن خدّامــه
والله قــد أعطـــاه مـــا يرضـــى بـــه ... كرما من الخيرات طبق مرامه
صبرا بني الحسنين لم يقض الذي ... أنجالـــه ورثـــوا عظـــيم مقامـــه
هـم خيـرة الأقـوام مـابين المـلا ... فـي عنصـر يزكـو بطيـب سنامه
نسل النبي المصطفى من خصّهم ... ربّ البريـــــة بعـــــده بســـــلامه
لاسـيما المـولى الأميـر محمـد ... شــهم جليــل القــدر فــي أقوامـه
السيد المفضـــال مَنْ بَـذَلَ النـدى ... هـــو حـــاتم الطـــائي فـــي أيامـــه
علم المعارف من زها في عصره ... بعلومـــه كالبـــدر عنـــد تمامـــه
ورع بـــذكر الله أصـــبح مغرمـــا ... بمســـــيره وقعـــــوده وقيامـــــه
إنـــي علـــى علـــم بـــه ناديتـــه ... يـــا مـــن مـديحُك فخرنـــا بنظامـه
يا هاشمي الأصل يا من مجده ... يهديك نفحَ الطيب نشر خزامه
فانظر لمحسوب بساحة فضلكم ... عهــد القــديم مخيمـــا بخيامـــه
أفضـــال والـــدكم عليـــه تقـدّمت ... فكأنـــه قــد عُــدّ مــن أرحامــه
ختم القريض بمدحكم وبقوله ... أرّخ لـه أوفى بمسـك خاتمــه

ومنهم الأديب سليم أفندي قصاب حسن الدمشقي، قال :

رزءٌ علـــى آفـــاق جِلّـــق خيمـــا ... فامتـــد حتـــى الكـــون منـــه أظلمـــا
عظم المصاب فقلّ صبري عنده ... الله أكبـــر مـــا أقـــل وأعظمـــا
شمس الحقيقة قد توارى نورها ... في الترب والخطب العميم مخيما
شعل الأسى قلب الفخار فأصبحت ... عين العلى تجري المدامع عَنْدَما
فقـد الأميـر أمـرٌ صـابٍ كأسـه ... وأحــرّ أحشــاء بـــه تقضـــي ظمـــا

أصلى القلوب بنار وجد وهو في غرفات جنّات النعيم تنعّما
مولاي عبد القادر الحسني الذي فاق الملا علما وحلما وانتمى
شهم أقام الدين طول حياته هديا وما ضلّ الطريق الأقوما
يمسي بمحراب التواضع عاكفا يخشى ويرجو ربه مستعصما
متحقّقٌ متيقنٌ متجرّدٌ لله ما عبد الإله توهّما
علمٌ على ورع على زهدٍ على تقوى على وجود على فضل نما
أفنى بقهر النفس جسما ناحلا في طاعة الله البقاء الأدوما
من بالمواقف بعده يحيي الدجى مستمنحا ذاك التجلي الأعظما
ما زال يقفو إثر محي الدين حتى حاز حسن جوار ذيّاك الحما
بشرى له من مؤمن هجر الدنا حتى إذا ناداه لبّى محرما
قولوا لمن بالماء يبغي غسله يكفيه من دمع المعالي ما هما
حنّطه في حسن الثناء فإنه من أكرم الأطياب كان الأكرما
يا أيها الموئى دفنه دعه ووكل فيه أملاك السما
ما كان إلا بحر فضل ذاخر متدفقا من كلّ علم قد طما
ما كان إلا كعبة في شامنا تسعى له الآمال نيلا واحتما
تبكي على هذا الفقيد وإنه لاقى مشاهد ربه متبسما
وإذا اطلعت على القلوب فلا ترى قلب امرئ إلا وذاب تألما
بالروح كنّا نفتديه من الردى لكنّ أمر الله كان محتّما
كل يراقب يومه فإذا انقضت أوقاته كان المقدّر مبرما
ما الناس إلا نائمون بأسرهم والموت يوقظ هؤلاء النوّما
نفد لقضاء فليس يجمل عنده إلا الرضا والصبر أحلى مغنما
ما مات من أبقى جميل الذكر في لوح الوجود على الدوام مترجما
من كل ندب للمعارج سابق بالمجد والإجلال ضاهى الأنجما

لاسيما الشهم الأمير محمد باهي الصفات الغرّ أسمى من سما
داموا بإقبـــال ونرجو الله في حسن الخواتم للورى أن يختـما

وقال بعضهم :

نبـأ أتـى بتضعضـع الإسـلام لبست له الأيام ثوب ظلام
وعرا جميع الأرض منه رجفة وقواصف قد هدّ ركن الشام
وأرى البلاد تمورُ مورَ سفينة من فوق أمواج ببحر طام
فكـأن يـوم الـنفخ فاجـأ معلنـا يدعو الأنام ألا ائذنوا لقيام
فغدوا سكارى حائزين كـأنهم مرضى بهم عبثت يد الأيام
فقدوا غياثَ العالمين وغوثهم كهف الأرامل كافل الأيتام
رفعوه يحثون التراب فغبّرت غبراء جللت الورى بقتام
فتـراهم والـنعش فـوق رقـابهم حملوا ثبيرا طائشي الأقدام
حملوه والملكوت يرفدهم إلـى أسنى مقام في البسيطة سام
في جنب محي الدين منبع فيضـه سرّ الوجود ومعدن الإلهام
دفنـوا عميـد الطـالبين الأولـى في وصفهم تاهت أولو الأفهام
كـان السـنان لهاشـم ولسـانها في يوم معترك ويوم خصام
كيف انتحى صرف الزمان لمانع منه ومن كل الحوادث حامي
هو فرع أصل في السماء غدت لـه أم الثوابت موطئ الأقدام
علم به ارتفعت يد المقدور مذ أبقى لنا علما من الأعلام عليه
ذاك الأمير محمد من حاز فـي علياه أسمى مرتقى ومقام
ولــه أيــاد كــالنجوم لوامــع لم تحص بالأعداد والأرقام
وإذا ترنّمـت الحـداة بهـا جـلا ومحا سناها آية الإظلام
وكذاك محي الدين بدر لم تزل بسناه تشرق أوجه الأيام

أبني النبي بكل ذي رزء أسى بمصيبة عظمت على الإسلام
بكيت لها عين النبي محمد وبنيه مَن شادوا بنا الأحكام
دمتم ملاذ العالمين ويستقي غيث الرضى جدثُ الأمير الشامي

ومنهم الأديب نعمان أفندي أبو شعر، قال :

هذا تأبين ورثاء لصاحب الشرف والمجد الرفيع، إنسان عين الدهر ونتيجة تاج الفخر، مولاي الأمير عبد القادر الحسني الجزائري، تغمّده الله برضوانه، وأسكنه فسيح جنانه.

أجل وا أسفاه قضى الله أن قضى من كان للناس نورا، وتولّى من بفقده أولى الكلّ ويلا وثبورا.

نعم، وا حسرتاه. مات الحسنّي المحسن اللوذعيّ اللسن، الأمير عبد القادر فريسة الدهر الغادر.

نعم. وا ويلاه، صدع من كان جابر صدوع الرئاسة، القابض على أزمة النفاسة والفراسة، فها هو قد حجب عنّا بسدال الممات بعد أن كان وجهه جلاء للملمّات.

نعم. قد غال أسد المنية أسد البرية، واقتنص غراب البين بازيَ الدارين فيا ويلنا. لقد هُدّ ركن الوطن الأعظم، وتضعضعت أسس الأمة، فكادت أن تتهدم وتداعت حصون المعالم والشرف المؤثل المنيع، وانتثرت عقود الفضل والكرم الرفيع. وحيث أن قد يتّمنا ،يا ويحه، الزمان، أفلا نقول له تشفّيا كما تدين تدان. فإن كنت يتّمتنا، فقد صرت بأعزّ أبنائك ثكلان، على أن هذا التشفّي لا يشفي لنا علة، ولا يروي لنا غلّة؛ فلأي آياته

نندب نائحين؟ أم أي حسناته نبكي آسفين؟ أغوثه الأيتام والأرامل؟ أم جوده المغدق الوابل؟ أم تمسكه بعروة الله الوثقى؟ أم التزامه في كل أين وآن البر والتقوى؟ نعم، إن حاولنا مآثره التعداد، ينفد العدد، وليس لها من نفاد. فلنستعن إذن برثاه، بالسيف الذي طالما دميت في يده مقلتاه إلا أننا لا نشقّ ولو شقّت عليه جيوبها الدفاتر ... بل نشقّ القلوب، ونفجّر المحاجر. فلا غرو إذن إن لبست عليه الحداد المنابر كما لا عجب إن تصدّعت عليه أفئدة الصعاد والبواتر. كيف لا وقد انفطرت عليه مرارة العلم والكرم، وتشطّرت لفقده مهجة المروءة والشيم، وصغرت ،مذ هوى، وهو بدر كمال، أفلاك المنابر كما تنوّرت بسناء ضريحه ظلمات الأجداث والمقابر. فليست هذه التي ترى دموع من العين تنهمر، بل هي النفوس تذوب أسى؛ فتسيل، فتمطر. فالعيون تعارض القلوب بعارض دمعها الهتّان، والقلوب تباري رماحه بصيّب دمعها القان، والجرد تتجرد للحزن الطويل، كما عوّلت العيال على البكاء والعويل. وإني لأعجب كيف طلع بعده النيّران ونورهما من ضياء وجهه مكتسب، وكيف لم يمت لموته الثقلان وهو قطب رحي حياتهما؟ إن شرّق وإن غرّب، فسيبقى ذكره فخرا لنا، منقوشا على صفحات الدهر، لا الذهب؛ وإن ذهب، لأنه رفع له ذكرا، وشرح لنا صدرا إذ جمع، فأظهر مناقب العرب، فعلمٌ كاليمّ الزاخر وكرم كالغيث الهامر، بحلم دونه كلّ حليم، وجلال يجلّ عن كل عظيم، وشجاعة تفلق صمّ الصفاة بتصميمها، ومهابة تقعد الأعداء وتقيمها. عقدت له لواء العزّ والنصر أيادي المكارم والفخر، كما عقدت عليه الخناصر، في هذا العصر. معدن جمع كلّ جواهر الأدب، فكان فردها

المختار. فانسلّت إليه من كلّ حدب ،في جدّها، الأفكار. ترفّع عن كلّ مترلة يشاركه فيها أحد، وتفرّد بكل منقبة؛ فكان جوهرها الفرد. فلا سكن الله زرع الشامتين الذين لم يعرفوا له قدرا والذين يودّون أن يطفئوا نور ذكره والله ليس بطافئ له ذكرا. فإن جهل أحدٌ قيمته فما هو إلا الجماد والجهالة بعينها. وإن جحدت فئة قدره، فما هذا إلا من عِماء بصريتها، لا عينها. فلا يغرنّ قوما مصرعه. فإن الحرب سجال. وما تدري نفسٌ بأيِّ أرض تموت وتغتال. وإذا كان هذا لسان حال أبناء الوطن، في هذا الزمن، نظمتها عقود حسن من منثور حبّات القلوب بأسلاك الأسف العميق، وعلّقتها على كعبة الأفكار في بيت المهج العتيق لأستمطر له بها مدرار رحمات الغفّار، وهوامي دموع كبارنا والصغار، ولطيوف كلٍّ مسلم ركنها، حول بيت مجد بناه وشاده، فيسمع تلبية منادي المكارم من آله وأحفاده، فيعرف أنّه بهم حيّ، لا تموت مناقبه. ولذلك صحّ القول بأنّه غالبَ الدهرَ فغالبه :

ثم أتبعها بقوله:

هل ملت الأرض لم سارت رواسيها أم قام ينعي ابن محي الدين ناعيها
فخر الإمامة طود المجد سيّد من فوق الثرى قد سرى أو حلّ عاليها
فمثلما عمّت الدنيا فضائله أقواله تملأ الدنيا معانيها
ومثلما كانت القصّاد تغنى به كذا القصائد ترثيه فيثريها
ربّ المعالي فبكر الدهر ما حملت بمثله. أو دنت -من ذا- أمانيها
أحسابه مثل ماء المزن طاهرة إحسانه مثل ماء الغيث هاميها
إن أمطرت في سماء الحرب راحته نارا ففي السلم أبحار الندى فيها

يا بن الذين جلوا وجه المعالي لنا | كسوتنا حلّه الأحزان ضافيها
فإن تكن بزغت شمس المحامد من | سناء وجهك وابيضت لياليها
فطالما اتّشحت ثوب الحداد عدا | لمّا بديت وأطراف القنا تيها
كانت تطيعك رسل الموت ترسلها | في لجّة الجيش ما فُلّت مواضيها
حتى غدوت لـه طوعا يعالجنا | بفقدك أنفسا قد كنت تحييها
قد كنت لله سهما أين سدّده | يجلو الخطوب بعزم كان يفريها
حتى استخارك إخفاء لجنته | قلنا لقد أعطيت قرسٌ لباريها
يا ناعيا عدد الأوصاف في ملك | له المكارم شعبٌ وهو راعيها
هي الدراريّ عدّا والسماك سما | والبحر نخرا فكيف الآن تحصيها
قل للعدا وقد التقت كتائبها | كالنمل في قرية إذ شاء يبنيها
إن الحسام الذي كنا نصول به | قد أغمدته المنايا في ذرى فيها
يا ناقل الروح هل أمطلت في بطل | قد طالما أنجز العليا أمانيها
تبكي العساكر تنعيه المحاير تر | ثيه المنابر تأبينا وراقيها
تبكي الذي كان في أفق العلى قمرا | وفي دجى المعضلات الدهم يجليها
ملأ الإهاب مهابا والسروج دجا | والحرب ضربا إذا ما قام يوريها
من يقرئ الضيف كوماءً ويركبه | أخرى فأنداؤه غيثا يواليها
مَن بعده يؤمن اللاجي وينزله | حصنا ويلبسه حصنا ويلقيها
مَن للخيول إذا سار العجاج بها | وارتجّت الأرض من ضرب لطبافيها
أم للفوارس إن ضاق المجال بها | ولم تر ملجأ في الروح يحميها
أم للعواليّ أو بيض الصفاح إذا | رأت ورودا فأين الورد يرويها
أم للمكارم في العليا ينظمها | عقدا تزيّنه حمدا لآليها
أم لليتامى إذا أخنى الزمان بهم | وردّدوا من أليم الضر تأيويها
يكسى الحداد عليه العلم والشرف الـ | ـعالي وتندبه التقوى وأوليها

يا هول يوم رأينا المعضلات قضت — في صحبه إذ طواه اليوم طاويها
يا خير من أبقت الدنيا لنا سندا — وسيدا لنفوس النـاس تحييهـا
يا عامرا لبيوت العلم إذ درست — يا ناشر الحاتميّات ومحييهـــا
ما كنّا نحسب أن الناس تحمل بحـ — ـرا على طود فضل من رواسيها
حتـى رأينـاك تعلوهـا محدّبـة — يحقّها الروح والرضوان يحويها
بعض الأناس التي تترى رسائلها — تنعيـك يـا ليتنـا شـماك تنعيهـا
قرّوا فضـائلك الغرّاء واعترفوا — يا حسن ما اعترفت ما كان ينكبها
لو كان يُفدى الأمير بالنفيس وبالـ — ـنفس العزيزة كان الكلّ يمضيها
لو يقبل الموت عن هذا الجليل فدا — لكـان فديتــه الـدنيا بمـا فيهـا
مضيت والحزن مثل الذكر متصل — باق إلى النشر يا ذا النشر عاليها
لولا الذين لنـا أبقيت من خلف — يا خير من ظلّلت الرايات يوقيها
أعني بهم سادة السادات من مضر — منهم ذرى مجدها منهم دراريها
ما كنّا نرتاب أن الساعة اقتربـــت — أو شقّ بدر السماء واغتمّ باهيها
لولا محمد مـا باتت علـى ثقة — عرب المدائن واطمأنت بواديها
كذاك لولا محي الدين ما حييت — منها الآمال ولا عاشت أمانيها
لولاكم يا بنى الزهراء ما نضحت — منّـا العيـون ولا جفّـت مآقيهـا
ولا استقرّت لنا كبدٌ على مضض — منكم لها عندنا آس يداويهـــا

وفي ذكر هذا القدر من المراثي والمراسلات كفاية. ولو أردنا استقصاء كافّة ما ورد علينا منها، لاتسعت الدائرة لإدراك الغاية. ونسأل الله أن يفرغ علينا الصبر الجميل ويولينا ،بكرمه، الأجر الجزيل. آمين.

خاتمة في ذكر نسبه الشريف

لّما أن ذكرتُ من أخباره ،قدّس سرّه، ما طاب نشره، وفاح في الخافقين عطره؛ عنّ لي أن ألحق ذلك بذكر عمود نسبه الشريف، وحسبه العالي المنيف، ما تلقّاه الخلف عن السلف، ودوّنه الحفّاظ في كتب النسب والشرف كالحافظ الحجّة سيدي عبد الرحمن بن محمد الفاسي، في "جوهرة العقول في ذكر آل الرسول" والشيخ أحمد بن محمد بن أبي القاسم العشماوي، ثم المكي في كتاب : "التحقيق في النسب الوثيق"، وخاتمة المحققين الشيخ محمد بن محمد بن أحمد بن ابي القاسم الجوزي الراشدي المزيلي في : "فتح الرحمن، شرح عقود الجمان"، والعلاّمة الفقيه الشيخ عبد الوانشريسي صاحب "المعيار" في فقه الإمام مالك رضي الله عنه في كتاب "البستان في ذكر العلماء الأعيان" والفهّامة المقري التلمساني في "رياض الأزهار في عدد آل النبي المختار" وغيرهم ممن ثبت عندهم وزينوا به صحائف كتبهم. وها أنا أرويه كما تلقيته من فيه رضي الله عنه فهو : عبد القادر بن محي الدين بن مصطفى بن محمد بن المختار بن عبد القادر بن أحمد المختار بن عبد القادر بن أحمد المشهور "بابن خدّة" وهي مرضعته بن محمد بن عبد القوي بن علي بن أحمد بن عبد القوي بن خالد بن يوسف بن أحمد بن بشار بن محمد بن مسعود بن طاووس بن يعقوب بن عبد القوي بن أحمد بن محمد بن إدريس الأصغر بن إدريس الأكبر بن عبد الله المحض بن الحسن المثنّى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب، وأمّه فاطمة الزهراء بنت سيد الوجود محمد رسول الله (ﷺ). وشرّف وكرّم وعظّم.

أعظم بها من نسبة نبوية علويّة تنمي لأصل أطهر
قد شرفت بدأ بأشرف مرسل ونهاية بالسيد الحسن السري

وقد نظم هذا النسب الشريف الحسيب النسيب، المتحلي من الفضائل بأوفر نصيب، العلاّمة السيد محمود أفندي الحمزاوي، مفتي دمشق الشام، بقوله :

يا حبذا الوعد والإنجاز يصاحبه حاشا علاكم بأن الخلف يعقبه
حيّا فأحيا ظنونا غير نائية لولاه كانت قضت مما تراقبه
وافي البشير به والفكر في قلق والقلب في حرق همّ يقلّبه
والجفن في أرق والعين في غرق والصبر في فرق كرب يداعبه
ومذ تفوّه قام الحزن مرتحلا عنّا بعسكر لؤم لست أنحبه
وباشر البشر في ضرب الخيام على قاع السرور فكم ذا كنت أرقبه
فالحمد لله حيث الفضل من ملك مسلسل الأصل يعلو حين تنسبه
العالم العامل الغازي أخو ورع الزاهد المتقي للخير ينتبه
السيد الفرد عبد القادر الحسني من سيفه ملك الإفرنج يرهبه
نجل المحقق محي الدين سيدنا من ضاء من علمه شرق ومغربه
ابن الإمام الهمام المصطفى كرما من كل محمدة في الكون تطربه
ابن الممجّد ركن العزّ أوحدهم محمد من غدا في الحمد مذهبه
ابن الهمام هو المختار قدوتنا عند الثريا مقاما كنت تحسبه
ابن السميذع عبد القادر الورع مزدان بالقدر رفعا لست تنصبه
ابن الشريف هو المختار أحمد من فعل المحامد والإحسان متربه
ابن الممجّد عبد القادر الحسن الـ ـأخلاق فوق الدراري كان مطلبه
ابن النقي الذي سمّوه أحمد من وسائطُ الحمد للتوفيق تجذبه
ابن الذي مرّ في عزّ وفي شرف محمد من لذيل الفخر يسحبه
ابن المسمى بعبد للقوي لما أبداه في دين مولاه تصلبه

ابن الكريم علي من سما عظما حتى غدا في علاه البدر يرقبه
ابن الجواد العفيف السمح أحمد من أعيا اليراع لفضل في حاسبه
وهو ابن عبد القوي الله سدّده قواه في ضمن تقواه تقرّبه
ابن الذي خلّد الفردوس خالدهم فالحور في روضة الرضوان تخطبه
ابن السمّي إلى الصديق يوسف مَن قميصه من عفاف قد جاذبه
ابن الهمام جليل القدر أحمد من ساد المعالي بطرق المجد يركبه
ابن المبجّل بشّار الكرام ومن سمت لدى الخلق بالبشرى مراتبه
ابن المكرّم فرع المجد أوحده محمد من صفات الحمد يصحبه
ابن المهذّب مسعود الطوالع مَن في الشرق والغرب لا تخشى تحجبه
ابن المفاخر طاووس بنسبته إلى المعالي ولا عجب يصاحبه
ابن المسمى إلى يعقوب سيدنا من صبره لم تضق فيه مذاهبه
ابن الشديد لأمر الله قدوتنا عبد القويّ فذا يحلو تعصبه
ابن الكريم المغذي ذاك أحمد مَن ركن المعالي به تسمو جوانبه
ابن المعظم نسل الملك قسوره محمد سمت فينا ر غائبه
ابن المتوّج تاج الملك في رحم إدريس أصغرهم تزهر كتائبه
ابن المسمى بإدريس المليك فكم خاض المفاخر فيه الدهر أشهبه
ابن المكمّل عبد الله كاملهم من حصر أوصافه يعيا تطلبه
ابن الإمام المثنى فضل حسنٌ من جمع إحسانه ما لست أكتبه
وهو ابن سبط الرسول المنتقى حسن من كان سيده المختار ناسبه
وهو ابن فاطمة الزهراء سيدة نساء طرّا كما الأخبار تعربه
وهي ابنة الخاتم الهادي محمدنا من شرّف السلك في الأسلاب موكبه
صلي عليه مع التسليم خالقنا ما ضاء في العالم العلويّ كوكبه
والآل والصحب ما أرّخت لي وطرٌ يا حبذا الوعد والإنجاز يصحبه

ولقد بلغ أسلافنا الأدارسة في المغرب الأقصى من الشهرة مبلغا لا يكاد أن يلحقه لاحق ولا يطمع في إدراكه سابق.

كانوا شموسا تضيء الدهر طلعتهم وفي طريق المعالي يُقتدى بهم
غابت فلولا ثمناهم كالبدور أضا من بعدهم تاه أهل الفضل في الظلم

فهم أقطاب أسرار وفخر وسؤدد، وأرباب أنوار ومجد رفيع مخلّد :

كواكب مجد بل بدور فضائل فوارس بيد بل أسود عرين
أجلاء قوم بل صدور مجالس ملاذ عفاة بل عياذ حزين

وأوّل من انتقل من أسلافنا إلى أفريقية الشمالية السيد عبد القوي الأول، صاحب "تفرسيت". انتقل منها ونزل بقلعة بني حمّاد، قرب "سطيف" من أعمال قسنطينة؛ عند اشتداد الفتن في المغرب الأقصى، وتفاقم الأمر بين : ملوك "الموحدين" وبني "مرّين"، ومن شاركهم في الأندلس وعدوة المغرب. ولما استقلت الفتنة بين "بني زيان" ملوك تلمسان وبني "توجين"، أمراء "تاهرت" و"مغوارة" أمراء "مليانة" وكثرت الحروب بينهم، انتقل منها إلى "تاهرت"؛ فقابله أمراؤها بالإكرام والاحترام، وأشركوه في النقض والإبرام.

قال الشيخ أحمد العشماوي في كتاب "التحقيق": وأما عبد القوي صاحب "تفرسيت" مدينة مشهورة من أعمال الريف، فإنه خلّف أربعة أولاد : محمد وأحمد وعبد السلام وعبد القوي ومنهم أهل الريف. فجدّهم السيد عبد القوي بن علي بن أحمد بن عبد القوي بن خالد... واستقصى نسبه إلى الحسن رضي الله عنه.

وقال العارف بالله، سيدي عبد الرحمن الفاسي، في "جوهرة العقول" : ومن أخيار الأشراف القطب لسني السيد عبد القوي، صاحب "تفرسيت" وهو جد الأشراف. ثم انتقل إلى "تاكدمت" وتوفي بها. وخلفه ولده محمد، وكان على علم وصلاح. ولما توفي، انتقل ولده أحمد، المعروف بابن خدّة، فسكن بوادي العبد قرب "غريس" وهو أول من اشتهر من أسلافنا، في ذلك النادي. وأضاءت بأنوار عوارفه ومعارفه تلك النواحي والبلاد. ذكره الجزولي في "توسلّه"، ونص عل أن من توسل به إلى الله تعالى، وضمّ إليه سيدي عليا بن عومر، وسيدي أحمد بن محي الدين؛ قضيت حاجته.

وتعرّض لذكره الإمام الصباغ المستغانمي في مناقب سيدي محمد بن يوسف، صاحب "مليانة" والعلاّمة الفاسي، في "إثمد الأبصار في آل النبي المختار"، والعارف بالله سيدي عبد الرحمن الفاسي في "جوهرة العقول" توفي في وادي العبد، ودفن في تربة السيد عبد الله بن عبد الرزاق، وقبره هناك مشهور يزار. وبعد وفاته، انتقل ولده السيد عبد القادر إلى "نسمط" وقطن "بكاشرو" الفوقاني الكبير. وقصده الخلق لأخذ العلم والطريق من كل بلد سحيق وفجّ عميق.

قال خاتمة المحققين، محمد بن محمد الجوزي، في "فتح الرحمن" : ومنهم الرئيس الجليل، النحوي اللغوي الحيسوبيّ الفرضيّ المحدث، الإمام أبو محمد السيد عبد القادر بن أحمد، المعروف بابن خدّة، هي مرضعته؛ إمام جليل القدر، واسع الصدر، مهاب عند الخاص والعام، له تبحّرٌ في العلوم كالنحو والتوحيد والحساب والفرائض والفقه، فتح الله عليه فيها حفظا

واطلاعا ونقلا وتوجيها، مما لا مطمع فيه لسواه في زمانه. حاز رئاسة عامة في "غريس" بعد موت أصحابه، وشُدّت له الرحال من المشرق والمغرب. ما سمعه أحد حالة درسه إلا ظنّ أنه أفنى عمره في ذلك الفن الذي يدرّس فيه لشدّة إتقانه له. وما تكلّم معه شخص في مناظرة إلا أفحمه، ونفع الله به في وقته عالما كثيرا. وله عدّة تآليف مفيدة في جملة فنون. أخذ العلم من أشياخ أجلاء، منهم سيدي محمد السنوسي المشهور، صاحب الصغرى والكبرى في التوحيد، المدفون في تلمسان. وفيها أخذ عنه. وكان رضي الله عنه أقام في قسنطينة، وصار شيخ العلماء فيها. وعنه أخذ علماؤها. وتآليفه متداولة في تلك الجهات، لاسيما حاشيته في التوحيد.

وذكر العلاّمة الشيخ سعيد قدورة الجزائري في شرحه على "الصغرى" عند كلامه على الفرق بين العلم والمعرفة، منها كلاما شافيا. قال في آخره : "قال شيخ شيوخنا، أبو محمد عبد القادر بن أحمد بن خدّه، في تعليقه على الصغرى ..." وترجمه العلامة المقري التلمساني في "رياض الأزهار" والتجاني في "الجمان النفيس في أشراف غريس".

ولد في القرن العاشر، وتوفي فيه. وقد أجمع أهل الفضل في عصره على توحّده في دهره كما اتفق علماء تلك الأقطار على تفرّد ولده السيد أحمد المختار. فقد ظهرت أنوار معاليه ظهور الشمس في الإشراق، وعمّت لآثار أياديه على عموم أهل تلك الآفاق وشدّت الرحال إليه من سائر الأقطار لأخذ العلم، وتلقين الأذكار عنه؛ أخذ الفقيه اللغوي المؤرخ المحدث أبو العباس أحمد بن شعرون السلوكستي. وذكره في سنده

وقال الجوزي "في فتح الرحمن" : السيد أحمد المختار سكن محلّة باب علي، من مدينة معسكر، واتخذ فيها خلوة لعبادة الله تعالى، فكلّفه رئيس المدينة بما كلّف به أهلها؛ فدعا عليه. فلم يلبث إلا قليلا أن أخذه الله أخذ عزيز مقتدر ... وله منظومة مشهورة، سمّاها "عقد جواهر المعاني، في مناقب الغوث، عبد القادر الجيلاني" ذكر فيها مناقبه وكراماته، وأحوال المشايخ الذين اعترفوا بفضله، وتقدّمه على أولياء زمانه وجميع ما بلغه من أحواله ... ومطلعها :

أقول لمن أعيا الطبيب علاجه وقد ملّ من شرب الدواء لعلة
ألا لذ بمحي الدين يا طالب المنى وعوّل عليه في الأمور المهمّة

يقرأها أهل القطر في الشدائد والنوائب، ويستجلبون بها الرغائب والمطالب، وشرحها الإمام اليوسي في مجلّد ضخم.

وخلّفه ولده السيد عبد القادر، فكان أعصف أهل عصره ريحا، وأكثرهم في علم الحقيقة تلويحا وتصريحا؛ ثم خلفه ولده السيد المختار، وكان من العلماء العاملين، والعباد الزاهدين، يُحسن لمن اساء إليه، ويقابل من ظلمه بالحنان عليه. ولد بـ "نسمط" في النصف الثاني من القرن الحادي عشر، وتوفي في أوائل القرن الثاني عشر، وهو مسافر في بلاد بني عامر، ودفن بها؛ فأراد أهله نقله إلى تربة أسلافه بغريس؛ فمنعوهم من ذلك، رجاء حصول بركاته في أرضهم. فلما تحقق أهله الجدّ منهم، أخرجوه من قبره الشريف ليلا وذهبوا به. ولّما بلغ الخبر بني عامر، فتحوا قبره؛ فوجدوه فيه، واشتهر عند العامة؛ بأبي قبرين.

ثم خلفه ولده السيد محمد، المعروف بالمجاهد. فكان أكمل أهل زمانه من غير مدافع، وأشهرهم بالفضل من غير منازع. قد نال من السعادة الغاية وأدرك من السيادة النهاية. ولد في "كاشرو" سنة خمس وتسعين وألف واستشهد سنة ثلاث وستين ومائتين، في حرب إسبانيا مع المسلمين. وحمل من ساحة وهران إلى تربة أسلافه في غريس، مع بعد المسافة. وترك ولده السيد مصطفى صغيرا؛ فتولى أعمامه تربيته. وقرأ على علماء غريس وغيرهم من حين ترعرع إلى أن برع واشتغل بالطريقة إلى أن صار كعبة الأولياء، ومقتدى العلماء. وسافر إلى الحج مرتين. وحجّ في كل واحدة حجّتين. وزار قبر المظلّل بالغمام عليه أفضل الصلاة وأكمل السلام، والمسجد الأقصى وارتحل إلى دمشق ومنها إلى بغداد [والتقى بالكثير من]الأولياء والعلماء. وأخذ عن كل فريق منهم فنّه. ولبس الخرقة القادرية من نقيب الأشراف ببغداد، سيد عبد الرحمن بن علي، سليل الشيخ الرباني سيدي عبد القادر الجيلاني، وأجازه بالواسطة إمام اللغة والحديث، نزيل مصر، السيد مرتضى الحسيني الزبيدي، شارح القاموس. ولما رجع إلى الوطن في الرحلة الأولى، اختطّ قريته المعروفة "بالقيطنة" بوادي الحمام وذلك سنة ست ومائتين ونشر الطريقة القادرية بعد أن طوي بساط ذكرها. وأحياها بعد أن درست آثار فخرها، وتلمذ له الأمراء، فمن دونهم. ومن تلامذته محمد باي، حاكم معسكر، فاتح وهران، من يد إسبانيا. ولما وصل في الرحلة الثانية، إلى برقات، وهو راجع إلى وطنه؛ أصابه مرض الموت، وتوفي سنة اثني عشرة ومائتين، عند ماء يعرف "بعين غزالة" وقبره شهير يتبرّك بزيارته الكبير والصغير.

وخلفه سيدي الجد، السيد محي الدين. فبلغ من المعارف أقصاها ومن العوارف منتهاها. وشُدّت إليه الرحال، من الضواحي والأمصار لتلقي العلوم، وتلقين الأذكار. وقد جبل الله النفوس على محبّته، والقلوب على مودته فما رمقه طرف إلاّ واجب أن يفديه بسواده، ولا نال أحدٌ دعوته إلا وظهرت بركتها في نفسه، وماله، وأولاده. وقد حسده بعض معاصريه، .فوشى به إلى حسن باي الذي انتهت به أحكام الدولة العلية، وقال له : إني أرى هذا الرجل قد علت رتبته، وبعد صيته، وإنّه ،كما تراه، مسموع الكلمة عند جميع الناس، خصوصا أهل هذه الولاية. وأخشى أن يكون على يده فساد أمرك، وخراب حكومتك. فأثّر فيه ذلك، وبعث إلى الجدّ يأمره بالسكنى في وهران، بأهله وخاصته؛ فامتثل وارتحل عملا بقوله (ﷺ) "اسمع وأطع" ولما انتقل، عظم على الناس ذلك وأحزنهم واشتدّ له كربهم. وتواردت على الجدّ رسائل التسلي نظما ونثرا. فمن ذلك قول العلاّمة، السيد السنوسي بن عبد القادر الحسني الراشدي :

عول على الصبر لا تفزعك أشجان ... ولا ترعك بما فاجتك وهران
اما هي الدار لا تؤمن غوائلها ... بل هي الدار أغيار وأحزان
شبّت على الغدر لم تعطف على أحد ... إلا ومن غدرها صدّ وهجران
ما أنت أول من أدهت وآخرهم ... ولا بأوسط من خانته أزمان
انظر إلى يوسف الصديق كم لبثت ... في السجن ذاته ما وافته خلاّن
وانظر إلى ابن رسول الله ثم إلى ... هلم جرّا وما لاقاه عثمان
تلك العوائد أجرها على قدر ... مدبّر الأمر مهما شاء ديّان

لم يثقفوك أمحي الدين عن زلل رأوا ولكن أغوى القوم شيطان
فعن قريب أكيد صبر يخذل من من أجله قد عدا عليك سلطان
ويكظم الغيظ من خصم ومن حكم ويكشف الغيب عن أفعال من خانوا
بل لا عليك وإن ساءت ظنونهم سيهزم الجمع أو ينفضُّ ديوان
إن العواقب في القرآن ثابتة للمتقين وصدق القول؛ قرآن
وأنت ما زلت تهدينا إلى سنن تهدي إلى الحق لا يثنيك طغيان
تقري الضيوف وتسعى في حوائجهم وتحمل الكل لا غش ولا ران
من يستجرْ بك يا من إن عداه عدت تحمي الذمار ويرجى منك إحسان
جفيت. إليك لم تألف مضاجعه ويومك الدهر جوعان وعطشان
تبيت جنح الدجى تتلو المفصّل عن قلب وتصبح مثل البدر تزدان
تدرّس العلم أحيانا وآونة تلقن الذكر فالظمآن ريّان
والله أسأل أن أراك مكرّما تسعى ومالك حرّاس وأعوان
ومنه أرغب أن ألقاك معتدلا كالحال قبلُ وقد أمتك ركبان
ثم الصلاة على النبي وآله والصحب طرأ ما نما إيمان

ثم إن أهل الديوان من دائرة الباي وخاصته؛ قد تحققوا فضل سيدي الجد، وولايته، وما انطوى عليه ضميره. وثبت لديهم أن ما رمي به مجرّد إفك وبهتان وحسد وعدوان. فعرّفوا ،بذلك، سيدهم. ولما تحقّق صفاء طويته، أطلق سراحه. وكان ،قبل هذه الواقعة، عازما على الحجّ، فمنع منه ثم جدّد النية وأخذ الأهبة للسفر. واختار لرفقته سيدي الوالد. وخلّف على أمور دائرته ولده الأكبر، السيد محمد سعيد. ثم سار برا إلى تونس، وبحرا إلى مصر. وسافر من السويس إلى جدّة، ثم إلى مكة المكرّمة؛ فحجّ، واعتمر، ويمّم إلى المدينة المنورة؛ فزار قبر

النبي المختار، ثم توجّه إلى الشام، وأقام بدمشق شهورا، وسمع فيها، هو وسيدي الوالد، على الإمام المحدّث، الشيخ عبد الرحمن الكزبري بعضا من صحيح البخاري، بمسجد بني أمية. ثم توجّه إلى بغداد، وزار ضريح القطب الرباني سيدي عبد القادر الجيلاني، قدّس سره، واجتمع في هذه الرحلة بكثير من العلماء والأولياء؛ وأخذ عنهم واستمدّ منهم كما استمدوا منه. ولبس الخرقة القادرية من يد الأستاذ، نقيب الأشراف، وخليفة سيدنا الشيخ ،قدِّس سرّه، سليله السيد محمود، وأجازه مشافهة وكتابة. ثم رجع على طريقه إلى المدينة المنوّرة، ومنها إلى مكة المكرّمة؛ فحجّ وزار، وتمّ له بذلك ثلاث حجات. ثم رجع إلى الوطن وجعل طريقه على برقات لزيارة والده، السيد مصطفى. واستمرّ سائرا برّا إلى تونس، ومنها إلى الجزائر. فتلقاه حاكمها الأكبر بالتوقير والاحترام. ثم توجّه إلى وهران. فكان خبر قدومهم عيدا، ويوم وصولهم يوما مشهودا؛ ثم أقام في مترله معتزلا عن جميع الأعمال، مشتغلا بعبادة ذي الجلال، عاكفا على بثّ علوم الشريعة والحقيقة، وإشهار الأذكار والطريقة. وألّف في التصوف كتابا جليلا سمّاه "إرشاد المريدين" ولعمري قد طابق اسمه مسمّاه.

ولد ،رضي الله عنه، سنة تسعين ومائتين وألف 1190، وتوفي يوم الأحد سنة تسع وأربعين ومائتين 1246. وخلّف من الأولاد الذكور الستة، أكبرهم عمي السيد محمد السعيد، ويليه في السن سيدي الوالد، وهو اشهرهم ذكرا وأبعدهم صيتا وأجلهم قدرا. وُلد ،طاب ثراه، في قرية القيطنة، من أعمال وهران، يوم الجمعة الثالث والعشرين من رجب،

سنة اثنين وعشرين ومائتين وألف 1222 هجرية، وسبعة وثمانمائة وألف مسيحية 1807. ونشأ على عفّة وصيانة، مرضيَّ الحال، محمود الأقوال والأفعال. أخذ الفقه عن والده وغيره من العلماء. ورحل إلى وهران وأخذ عن علمائها. وكان حافظا لكثير من اللغة العربية والقدر الوافر من صحيح البخاري، عن ظهر قلب، مجازا فيه عن والده. وسمعه من الشيخ الإمام المحدّث أبي أحمد عبد الرحمن الكزبري، بدمشق الشام، أيام إقامته فيها، صحبة والده. وأخذ أيضا عن الإمام، ضياء الدين مولانا الشيخ خالد النقشبندي السهروردي. وكان يكثر التردّد إليه، وانتفع منه. وبرع في فنون علوم الشريعة والحقيقة. وله تآليف عديدة، وحسبك منها كتاب "المواقف" في علم الحقيقة. وهو ،لعقد تآليفه، واسطة النظام، ولمطلع مجده بيت القصيد وحسن الختام. ومن أمعن النظر في خطبته، أدرك منها فضله وأقرّ بعلو مرتبته. ونصّها :

"بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله حمدا يوافي نعمه، ويكافئ مزيده. اللهم صل وسلم على رحمة العالمين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه.

هذه نفثات روحية وإلقاءات سبوحيّة بعلوم وهبيّة وأسرار غيبية من وراء طور العقول وظواهر النقول، خارجة عن أنواع الاكتساب والنظر في كتاب، قيدها لإخواننا الذين يؤمنون بآياتنا. إذا لم يصلوا إلى اقتطاف أثمارها، تركوها في زوايا إمكانها، إلى أن يبلغوا أشدّهم ويستخرجوا كنزهم. وما قيدها لمن يقول هذا إفك قديم، وأساطير الأولين، ويحجر على الله تعالى ويقول : أهؤلاء منَّ الله عليهم بيننا، من علماء الرسم، القانعين من العلم بالاسم؟ فإننا نتركهم وما قسم الله تعالى لهم. فإذا أظهروا لنا

ملاما وخصاما، تلونا : ﴿وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما﴾[1] ونعيرهم أذنا صمّاء، وعينا عمياء. ونقول لهم : آمنا بالذي أنزل إلينا، وأنزل إليكم، وإلهانا وإلهاكم واحد، ونحن له مسلمون. ولا نجادلهم بل نرحمهم ونستغفر لهم ونقيم لهم العذر من أنفسنا في إنكارهم علينا، إذ جئناهم بأمر مخالف لما تلقوه من مشايخهم المتقدمين، وما سمعوه من آبائهم الأوّلين. فالأمر عظيم، والخطب جسيم، والعقل عقال، والتقليد وبال. فلا عاصم إلا من رحم ربي.

وطريقة توحيدنا، ما هي طريقة المتكلّم ولا الحكيم المعلّم، ولكن طريق توحيد الكتب المنزّلة، وسنة الرسل المرسلة. وهي التي كانت عليها بواطن الخلفاء الراشدين، والصحابة، والتابعين، والسادات العارفين. وإن لم يصدّق الجمهور والعموم، فعند الله تجتمع الخصوم. وقد أشرت إلى بعض ما ذكرت، في شبه مقامة لي وهي قولي : حضرت محاضرة من محاضرات الشرفاء، ومسامرة من مسامرات الظرفاء، في ناد من أندية العرفاء، فجاءوا في سمرهم بكل طرفة غريبة، ومستظرفة عجيبة. وكان الحديث شجونا وألوانا وفنونا إلى أن تكلّم عريف الجماعة، ومقدّم أهل البراعة، فقال : أحدثكم بحديث هو أغرب من حديث عنقاء مغرب. فاشرأبّوا لسماعه، ومدّوا أعناقهم، وفرّغوا قلوبهم، وحدّقوا أحداقهم ... فقال :

1 ـ سورة الفرقان، الآية 63.

إن في الوجود معشوقة غير مرموقة. الأهوية إليها جانحة، والقلوب بحبها طافحة، والأبصار إلى رؤيتها طامحة. يطير الناس إليها كل مطار. ويرتكبون الأخطار، يستعذبون دونها الموت الأحمر. ويركبون لطلبها المكعّب الأسمر. ولا يصل إليها إلا الواحد بعد الواحد في الزمان المتباعد. فإذا قدّر لأحد مشارفة حماها، ومقاربة مرماها، ألقت عليه إكسيرا، لا له مادّة ولامدّة، ولا هو عين معتدّة. فيحصل انقلاب عينه، وجميع الأعيان في عينه إلى عين هذه المعشوقة التي هي غير مرموقة، المعلومة المجهولة، المغمودة المسلولة، الباطنة الظاهرة، المستورة الساترة، الجامعة للتضاد، بل ولجميع أنواع المنافاة والعناد. ولا يقدر يعبّر عنها بعبارة. ولا يشير إليها بإشارة أكثر من قوله : إني وصلتها وحصّلتها. وبعد التعب والعنا، ومعاناة العنا وجدت هذه المعشوقة، أنا وتبين لي أنني الطالب والمطلوب، والعاشق والمعشوق. فما كان هجري للذّاتي إلا في طلب ذاتي، ولا كانت رحلتي إلا لنحلتي، ولا وصولي إلا إليّ، ولا تفتيشي إلا عليّ، ولا كان سفري إلا فيّ إليّ. فيقال له : هل رأيت محيّاها، وشممت ريّاها، حتى قلت : أنا إياها.

فيقول : رأيت وما رأيت، وما رميت إذ رميت. ويأتي في أوصافها بما تنبو عنه العقول، ولا تتحمله ظواهر النقول. ما طرق الأسماع. ولا طمعت في فهمه الأطماع. يرفع الضدّين تارة، وتارة يجمعهما، ويجمع النقيضين ويضعهما.

فيقال له : هذا الذي تقوله، ثبت عندك بدليل أو برهان؟

فيقول : لا دليل بعد عيان.

وكيف يصح في الأذهان شـــيء إذا احتاج النهار إلى دليـــل

فيراجَع فلا يرجع؛ ويغاط له فلا يسمع. وحينئذ يحكم الناس عليه بالجنون والعته والسفه والبله، ويجهّلونه ولو كان أعلمهم، ويسفّهونه ولو كان أحلمهم، ويستبيحون منه العرض في الطول والعرض، ويجعلونه مرمى غمزهم ولمزهم ووكزهم، يهجره الحميم العاطف، ويقليه الصديق الملاطف، وهو مع هذا ناعم البال بما لديه، قرير العين بما حصل بين يديه. ولا يلتفت إلى قطعهم وهجرهم، ولا يبالي بلغوهم وهجرهم ...

فلمّا تمت القصة، واجتليت عروسها على المنصة، وما كاد أن ينقضي إعجابنا منها واستغرابنا لها حتى قلت لهم :

يا قوم ألستم تعلمون أني طلاّع الثنايا، وسبّاق الكتيبة إلى معترك الحياة فأنا آتيكم بحقيقتها ومجازها...فأعذر. وما عليّ إن لم اقبر. - فقال لي بعض المتبصرين من الحاضرين وكان ممن جرّب هذا الأمر، وفرّ عن تجربته الدهر : إن صدقت لهجتك، وهانت عليك مهجتك،وأردت الوصول إلى ذلك الجناب، وقطع تلك الجبال والبحار والهضاب؛ فاركب نسرا وغراب[2] وإنه لاينال ما قصدت إلا من كان عليّ الهمّة، قوي العزمة.

إذا همّ ألقى بين عينيه عزمه ونكّب عن طرق العواقب جانبا
ولم يستشر في رأيه غير رمحـــه ولم يرض إلا قائم السيف صاحبـا

2. أي يجب أن تقضي النهار والليل في اجتهاد.

لا يصرفه صارف، ولا تحرّكه العواطف. حلس من أحلاس الخيل، ملّه النهار والليل، أسدٌ في شجاعته، ختزير في حملته، كلبٌ في وقاحته. أذنه صمّاء عن العادل، وعينه عمياء عن الهاجر والواصل. وطريق مطلوبك طامسة، وأعلامها دراسة. بحرها تيار، وهواؤها نار، وأرضها مفاوز وقفار. أسدها كواسر، وأغوالها عن أنيابها حواسر. مهامه فيح مجاهل، العارف فيها جاهل، والدليل الخرّيت بها حائر، والتيه فيها هلاك حاضر.

فقلت له : جهتها؛ أي الجهات؟

فقال لي : هيهات هيهات لا يستفهم عنها بمتى ولا أين. ولا يرشد إليها؛ أثر ولا عين ... فاعتمدت على الواحد الأحد، وسرت لا ألوي على أحد. فمررت في طريقي على فرق من فريقي؛ فرأيتهم بين سادم باهت لا هو بالحاصل ولا الفائت ... وبين حائر واقف التبست عليه المواقف ... وبين غريق في لجج تلك البحار وتائه في المفاوز والقفار، وبين من تعبت راحلته وآخر دبرت زمالته، وبين من يدبّ دبيب النمل، حافيا بلا نعل ... مررت على جماعة منهم في بعض المشاهد؛ فأنشدوني قصيدة، فيها نحو العشرين بيتا. رجعت إلى الحسّ ببيت واحد منها وهو :

أيا من ... نحن في تعب الجبال وذاك يسير فيها لا يبالي

وما زلت ممتطيا صهوتي النسر والغراب[1]، محمّلا لنفسي كل مكروه، مستعذبا لأنواع العذاب، لا تطمئن بي دار ولا يستقر لي قرار إلى أن ظهرت لي الأعلام التي ظهرت لمن قبلي من الوافدين الأعلام، ونادى المنادي وحدا الحادي :

أبشر بوصل فهذه العلامات   كم طالبين ودون الوصل قد ماتوا

وألقي عليّ ما ألقي عليم، وثبت لدي ما ثبت لديهم. ولما وصلت حيث وصلوا وحصلت على ما عليه حصلوا، طلبت الإباحة والجواز إلى التقدّم والجواز. وقد عرفت الحقيقة والمجاز. فقيل لي :

لا تتخطّ رقاب الصديقين ارجع فما وراء موقفك إلا العدم المحض، لا إثبات ولا دحض. وحين رجعت إلى الأصحاب قالوا :

ما وراءك يا عاصم؟

فقلت : القول ما قالت حذام. ولكن يا قوم، لا تعجلوا بالعتب واللوم. أرأيتم لو جاءكم عنّين، عديم الذوق، وقال عرّفوني لذة الجماع، بما كنتم تفهمونه، علم ذلك وتعلّمونه؟

فقالوا : لا سبيل إلا الذوق لما هنالك.

فقلت لهم : وهذا من ذلك. فمنهم من سلّم وأنصف. ومنهم من لجّ وتعسّف. وربّك أعلم بمن هو أهدى سبيلا وأقوم قيلا. وعندما ينجلي الغبار، يتبين راكب الفرس من الحمار. ولما انفتح الباب، وارتفع الحجاب، واجتمعت الأحباب على الشراب اللذيذ المستطاب، دبّت

---

1 .النسر : النهار. الغراب : الليل.

الأفراح حيث ما دبّت الراح وبعد أن طار السكر والمحو ونزل الحضور والصحو، رأيت شمسنا طالعة مشرقة ساطعة، والناس في ظلمة وليل ومرج وبل. فقلت :

– ما بال الناس؟

– فقيل إنهم في عمى وإفلاس. ومالكم ولهم؟ إنهم عالم، وأنتم عالم والله غالب على أمره، الحاكم العزيز العالم".

وله رضي الله عنه نظم إذ سمعته وعيته، ونثر إذا لحظته حفظته. وبشر يترقرق ماؤه في غرته ويتفتق نور الشرف بين أسرّته. وشجاعة هي مظهر الجلالة، والقهر، ومصدر الحماسة في أبناء الدهر.

وإني ،والحمد لله، من صلبه خرجت، وعلى يده تخرجت. ولا أعدّ لنا من الفضل، كثر لدينا أم قلّ، إلا منه ابتداؤه وإليه انتهاؤه. وكنت له ،والمنة لله، أطوع من قلمه لكلمه. ما ملت عن نهجه ولا تنحيت من حين عقلت إلى يوم التحيت. وكان حريصا على فائدة يلقنها عليّ، وعائدة يجر نفعها إليّ. قرأت عليه التوحيد والنحو والحديث، واستفدت منه ما يُفتخر بمثله في القديم والحديث.

وكان رضي الله عنه معتدل القامة، عظيم الهامة، ممتلئ الجسم، حنطّي اللون، أسود الشعر، كثّ اللحية، أقنى الأنف، أشهل العينين. يخضب بالسواد، متقنا للخياطة، لاسيما الشبكة، واللعب بالشطرنج.

توفي في الساعة السابعة من ليلة السبت، التاسع عشر من رجب، سنة ثلاثمائة وألف 1300 ومن غريب الاتفاق أنه ولد في رجب وبويع في رجب، وتوفي فيه.

وها هنا جواد المقال بنا قد وقف، وأقرّ لسان اليراع بالعجز عن استقصاء مناقبه، وأعترف وقصر الباع مع قلّة المتاع يوجبان لهذا الفقير العذر. وألم الفراق الذي لا يطاق، برهان التبلّد والحصر. وغاية ما أقول العذر عند خيار الناس مقبول.

والحمد لله في البدء والختام، وعلى حبيبه الأعظم وآله وأصحابه أفضل الصلاة والسلام.

فهرس

الجزء الأول

الجــزء الثــاني

"...تكتسي تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر مكانة خاصة ضمن السير الخاصة بالأمير، لأنها من تأليف أقرب الناس إليه، وأعزّهم عليه، نجله الأمير محمد الذي لازمه في البأساء والضراء، وكان يتمتع بثقافة تؤهله لفهم الأحداث وتدوينها في نسق يربط بينها وبين مسبباتها وعواقبها، يراجع في تدوينها الأمير عبد القادر نفسه، ويدعمها بتصريحات مناسبة لضباط جيش العدو وبشهادات ملاحظين وذوي الاطلاع والخبرة من جنسيات مختلفة.

ويجد فيها القارئ ملخصا مفيدا لجغرافية الجزائر وذكرا لسكانها وتذكيرا بأهم مراحل تاريخها، مع تلخيص لمختلف الدول التي تعاقبت عليها من بني الوطن وغزاة وفاتحين. وفيها إشادة بكل عمل صالح وجهاد مخلص، ولو كان صادرا عن ألد الخصوم والأعداء".





ر.د.م.ك : 978-9947-834-08-4